

رواية حطام

تأليف
محمد عبد الجيد



للنشر والتوزيع

اسم الكتاب/ حطام - رواية

الكاتب / محمد عبد الجيد

الطبعة الأولى 2019

المراجعة اللغوية : ميلود غربية

تصميم الغلاف : محمد محسن

رقم الإيداع : 2019/16482

الترقيم الدولي: 978-977-6727-42-7

التصنيف : رواية

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير : لمياء السعيد

📍 برج الهادي - الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب - شبرا مصر

☎ 01550096215 - 0222017260

✉ elsaidpublisher@gmail.com



للتنشر والتوزيع



إهداء

إلى من قال لي يوماً: كن أنت

د/ يوسف زيدان

إلى أديب بورسعيد الرائع:

المبدع/ عمرو بركات

إلى أستاذي وإمامي الأكبر الذي لا يقرأ الروايات:

د/ محمد حسين

إلى الصديق الأقرب، أول من آمن من الرجال:

د/ خالد حسن

إلى زهرات حياتي الأربعة:

تبارك الرائعة وحياة المبهجة ومراد المتمرد ورواء المتفردة،
أهديكم أول أعمالتي لتقرؤوها، عساها تنير دربكم إن أظلم عليكم
الليل أو ضعفت لديكم الرؤية.



(ليت الشباب يدري
وليت الشيخوخة تقدر)



حكمة فرنسية



بناء

عاد لمدينته بعد انتهاء خدمته العسكرية في القوات المسلحة والتي امتدت لست سنوات، بدأت من نكسة يونيو 1967 وانتهت في نهاية 1973 بعد نصر أكتوبر، عاد فرحاً بنصر بلاده واسترداد سيناء، لكنه كان حزيناً لفقده شيئاً آخر غالباً على قلبه، فقد تُوفي والده أثناء خدمته العسكرية، مات دون أن يودعه أو يستقبل عزاءه من المعزّين، أصابه حزن كبير، فقد كان قريباً من والده، تلميذاً تعلّم في مدرسته، رآته والدته ساكناً صامتاً غير آبه بالحياة، فقررت أن تبعث فيه الحياة من جديد، فكّرت في زواجه فعرضت عليه الأمر فلم يعط قبولاً أو رفضاً بل بدا متبلداً بعض الشيء، أشارت على إخوته فوافقوها الرأي في تزويجه حتى لا ينطوي على أحزانه، وحتى يستقبل قادم الأيام بروح حية، وقع اختيارهم على إحدى قريباتها ليتزوجها، فقد طال انتظار هذا اليوم وزاد الشوق لرؤية أبناء منير يلعبون في البيت الكبير مع أبناء عمومتهم، وكانت هذه أمنية والده سليم قبل أن يتوفاه الله لكن أجله لم يطل حتى يرى ذلك اليوم.

بطريقة تقليدية تم التقدم لأهل العروس (أميمة) لطلب يدها، وتمت الموافقة فتم العرس واجتمع شمل منير بأميمة دون إدراك لمدى جاذبية المشاعر بينهما.

فقد كفاه منها أن وجدها بيضاء البشرة ملونة العينين جميلة الملامح مبتسمة حين تراه، وكانت قصيرة نسبياً، وقد كفاهها منه أن رآته متوسط الطول ومتناسق القوام دقيق الملامح قمحي البشرة، أسود العينين يسحر من يراه، فكانت البداية.

سكن منير وزوجته في شقة في بيت والده المكوّن من ثلاثة طوابق، وسط إخوته الكبار وزوجاتهم، وكانت المحبة والحفاوة ظاهرة في البداية، كعادة البدايات التي تكون جميلة ومغرية دائماً، لكن مع مرور الوقت تتكشف الطباع الأصيلة والصفات الجميلة وغير الجميلة، فيظهر المحب الصفي والصديق الوفي، وتسقط الأقنعة فيظهر الحاقد المحترق، والحاسد المخترق، وتظهر الغيرة والتنافس بين الجيران وبين الأقارب. وقد عانت أسرة منير من هذه الغيرة أشد العناء. فقد كان منير أوسط إخوته، له أخوان يكبرانه سنا وبعده أخوان أيضاً، لكنه كان أرجحهم عقلاً وكانوا يعرفون هذا ويعترفون به لكنهم إلى حد ما يتجاهلون رأيه غيرة منهم.

وأيضاً أميمة عانت من سلائفها كثيراً، فكانت غيرة ظاهرة غير خفية، يذكيها أنها كانت أعلاهنّ تعليماً وعلى حظ وافر من الجمال، فكُنّ ينتقصن كل ذلك غيرة منها، فإذا دخلن شقتها جالت أعينهنّ في كل ركن من أركانها ليتقصدن النظافة والترتيب، مما جعلها مهووسة بنظافة شقتها أفضل منهن حتى لا ترى

امتعضهن وتمتمات شفاهن إذا زرنها بحجة الاستئناس والمحبة؛ ليخفين السبب الحقيقي للزيارة وهو التفتيش والاطلاع على ما تملكه وما تحويه شقتها. كان نهم الفضول يأكلهن، وتراه أميمة جلياً واضحاً في حدقات عيونهن المتسعة، وفي الصدمة التي تظهر على ملامحهن إذا صادفن شيئاً جديداً ليس لهن مثله، فيُنهين الزيارة سريعاً كأنما يهربن من ثعبان، بحجة الذهاب لإعداد الطعام أو ترتيب شيء كان واجباً ونسيته.

وقد حاولت سلائفها كثيراً تحطيم روحها حتى لا تُكمل تعليمها فقد تزوجت وهي في السنة الأخيرة من تعليمها، وذاقت منهن تعباً كثيراً في هذه السنة فكان عليها الذهاب لجامعتها والرجوع لتبلي طلبات بيتها من نظافة وترتيب وتجهيز طعام لزوجها، وبالطبع لم تجد منهن مساعدة، بل ينصحنها بترك دراستها والتفرغ لزوجها وبيتها، وكان مبررهن أن التعليم نهايته منزل الزوج، فهناك صعوبة في أن تعمل بشهادتها ولذا فهي مثل من لم يكمل تعليمه، وغايتهن أن تتساوى الرؤوس فكلهن ربات بيوت ولا فضل لواحدة على أخرى.

لم تُلقِ لهن بالاً، واستكملت دراستها وحصلت على شهادة بتقدير متميز ساعدها في الحصول على وظيفة معلمة بإحدى المدارس بعد تخرجها بفترة وجيزة، وبعدما استقرت في عملها وزاد دخلها الشهري هي ومنير قرراً أن يستقلاً بعيداً عن هؤلاء

الذين يرصدون حركاتهما وسكناتهما وكأنهم وصاة عليهما ولهم الحق في معرفة أدق تفاصيل حياتهما.

اتفقت أميمة ومنير وبالفعل وجدا تلك الشقة الحالية بمقدم مناسب لهما، وأقساط شهرية أرهقتهما حتى أتما سداد ثمنها وأصبحت ملكا لهما وبيتا يأويهما بصالته الفسيحة وغرفته الثلاث التي رغم صغر مساحاتها إلا أنها كانت تسعهما بهدوئها وسكيتها بعيداً عن صخب الأقارب.

كان منير وأميمة على اتفاق في تنشئة أبنائهما بطريقة مختلفة تضمن لهما جودة تعليم متميز ومستوى تفكير راق، يمكنهما من خوض معارك الحياة بقوة الشخصية ورجاحة التفكير، وقد مرت السنوات الأولى تباعاً بما فيها من تعب وكد لتأسيس مستوى معيشة يناسب طموحهما، فبعد تأسيس البيت الجديد فكر منير جدياً في مشروع يزيد به دخله الشهري، وشاركته أميمة التفكير ورشحت له بعض الأفكار لكن منها ما لا يروق لشخصيته أو لا يتناسب مع وقت عمله أو عملها، ومنها ما لا يملك خبرة فيه فخشي من المغامرة والفشل، ثم لاحظ في الأفق فكرة لمشروع هو بالفعل صاحب خبرة فيه بل هو محترف فيه، فلمعت عيناه وابتسم ثغره عن رضى وقال لها:

وجدتها! وجدت فكرة المشروع.

نظرت له متلهفة فقالت:

خير يا منير، ما الفكرة؟

رد فقال:

مشغل حياكة للملابس النسائية.

ظهرت على أميمة دهشة واتسعت عيناها على اتساعهما
وأومأت برأسها وقالت:

صحيح، فكرة ممتازة، كيف نسيناها! كان لا بد أن تكون أول
الأفكار، فهي صنعة أبيك.

هز منير رأسه موافقا، وصمت لبرهة ثم قال في هدوء:

نعم كانت مهنة أبي وكنت مساعدا له وأعرف عنها الكثير.

والحق أن منيرا كان محقا فيما قاله، ولم يكن محقا في نسيانه
صنعة والده، المعلم سليم، فقد كان المعلم سليم والد منير
صاحب ورشة كبيرة لحياكة الملابس النسائية في مدينته الصغيرة،
وكانت ورشته كبيرة المساحة تطل على شارعين رئيسيين في
منطقة أسواق تتوسط المدينة تتقاطع عندها طرق السير ويزدحم
عندها الزبائن الذين يأتون لوسط المدينة للتبضع والتسوق،
فكانت تلفت الأنظار بفخامتها وديكورها الداخلي الذي كان يدل
على ذوق راق في اختيار الألوان والأثاث وخاماتها، فتغري المارة
فيسألون عن الأسعار والتصميمات وخامات الأقمشة الموجودة،
وعن مدة إنجاز الملابس وما إلى ذلك من أسئلة فضولية تحملها
المارة في أطراف ألسنتها، خاصة، إذا كان الزبائن من النساء فتزداد

الأسئلة الفضولية، ويزداد معها النقد والتفنيد، والدخول في تفاصيل التفاصيل للبحث عن الثغرات لتقليل قيمة العمل أو ربما للمساومة على أسعار الأقمشة وتكلفة الخياطة، لكن صاحب هذه الورشة لم يكن مثل أقرانه يتقرب أو يدلّل الزبائن بل كان صارماً جاداً محترفاً في عمله يهتم بدقائق التفاصيل ويراجعها مراراً بداية من الاتفاق مع الزبائن مروراً بالتفصيل والخياطة وانتهاءً بالتسليم، وقد وضع لكل مرحلة قواعد واشتراطات جادة وواضحة حتى يعمل براحة واطمئنان لينجز أعماله في المواعيد التي حددها بنفسه مع الزبائن، وقد كان متهماً نفسه دائماً فكان يراجع عمله ويراجع العاملين معه مراراً، قليل الثقة فيمن حوله ويحب أن يشرف على كل خطوة بنفسه، وبالطبع انعكس كل ذلك الحرص وهذه الدقة على المنتج النهائي الذي يشيد به كل المتعاملين معه، فيصعب عليك أن تجد ثغرة أو عيباً في ملابس صنعتها ورشة سليم.

لذلك كان لا يقبل من بعض النساء نقدهن قبل أن يتعاملن معه مثل أن تمسك إحداهن بطرف القماش وتقلل من خامته أو تهول من سعره، وهي في الحقيقة غير جادة في التعامل إنما تتبع هذا الأسلوب حتى لا تلتزم بتعامل مع الورشة وفي الوقت نفسه تكون قد أخذت وقتاً لمعرفة تفاصيل الورشة وجمع معلومات مجانية، لكن المعلم سليم كان صاحب نظرة قلما تخطئ في معرفة الناس، فإذا وجد مثل هذا النوع من النساء ينصحها بأن

تتعامل مع ورشة أخرى ولا يضيع وقته في الإقناع والتبرير لمن ليس له نية التعامل معه أصلاً.

وكان صاحب حرفة واحتراف وموهبة تسبق كل هذا وكان يحب عمله جداً ويعطيه كل مجهوده وإخلاصه.

وساعدته مساحه ورشته الكبيرة على تقسيمها وتنظيمها كما أراد، فقد قسمها أقساماً للتفصيل والخياطة واستقطع منها ركناً بعيداً لبروفة القياس، ووضع الاستنادات اللازمة لتعليق الملابس عليها بشكل مهندم، ووضع بعض الأرفف لوضع مستلزمات العمل من قماش وخيوط، وزود المكان بإضاءة بيضاء قوية تساعد من يجلس إلى ماكينة الخياطة على رؤية ما يصنع، بالإضافة لوضع طاولة كبيرة وكرسي خاص للشخص الذي يقوم بعملية التفصيل لفرد الأقمشة عليها وتحديد المقاسات اللازمة وقصها تجهيزاً لعملية الخياطة، وزود الجدران ببعض الكراسي لراحة الزبائن في الورشة.

كانت ورشة المعلم سليم تحتوي على ثلاثة ماكينات للخياطة تقوم ثلاث صبيات بالعمل عليها، وكان هو يقوم بعملية التفصيل وأخذ المقاسات اللازمة لما عنده من خبرة مشهودة من زبائنه وأمانة وخلق حافظت على صنعته طوال عمره.

كان عمله رائجاً رابحاً وضع فيه خبرته وإخلاصه وحدد له نظاماً ولوائح لضبطه، فكان عند اتفاه مع الزبائن على تفصيل

بعض الملابس يحدد ميعاداً للتسليم مشدداً على الالتزام بالموعد فإن تأخر الزبون عن مواعده تُحدد عليه غرامة مالية يدفعها، وإن تأخرت الورشة تُفرض عليها غرامة أيضاً بأن يُخصم من الأجر المتفق عليه نسبة مئوية تُخصم هذه النسبة بعد ذلك من أجر الشخص الذي تسبب في التأخير، سواء كان الشخص هو المنوط بتفصيل الملابس أو الشخص الذي يخططها بعد تحديد مقاساتها.

وضع المعلم سليم لوائحه ليلتزم الجميع بالعمل ممن يعملون في ورشته خصوصاً أنهم كانوا صغاراً في السن في مستقبل الشباب لم يتعلموا تحمل المسؤولية بعد، لذلك ألزمهم وألزم نفسه أولاً بقواعده ولوائحه الجادة وكان ذلك مما أجبر الناس على احترامه وتوقيره فيلتزمون بما اتفقوا عليه معه في الأسعار والمواعيد.

كانت شخصية المعلم سليم بجديتها قد ألفت بظلالها على أبنائه فقد كان يميل إلى أن يتعلم أبنائه هذه الصنعة الرابحة بعدما أصبح صاحب صيت واسم يتهافت عليه الزبائن من أماكن شتى لم تقتصر على مدينته فحسب، فكان ورشته في ذلك السوق جعل أخباره وصنعتة تذهب مع المترددين على المكان إلى بلدانهم البعيدة فيأتون بعدها ومعهم آخرون ليتعاملوا مع المعلم سليم.

لكن أبنائه صُعبَ عليهم التعامل معه، فنفروا منه سريعاً ولم يستطيعوا التكيف مع طريقته الصعبة في العمل فلم يصمد منهم

غير منير الابن الأوسط وقد يكون هذا لتشابه شخصيته إلى حد كبير مع شخصية والده، ففيه جدية وإصرار وتسلُّط أيضاً.

رحب المعلم سليم بالتلميذ منير متعلماً عنده في ورشته وكان في غاية السعادة أن وجد في أبنائه من يرث تراثه وفنه.

وقرر أن يعطيه كل خبرته وموهبته في التعامل مع الناس أولاً وفي التفصيل والتصميم والخياطة، ولم يخيب منير ظن والده فقد تعلم الصنعة وأحبها وأحبته وفي ظرف شهور قليلة أصبح منير ساعد سليم الأيمن.

كان منير مسترخياً على مقعده ناظراً أمامه غارقاً في تلك الذكريات التي مر عليها أكثر من عقدين من الزمان، ترتسم على شفتيه ابتسامة صامتة وأحياناً تخونه دمعة هاربة على خديه، وأميمة تلاحظ صمته واستغراقه في دهشة لكن لمّا طال صمته قطعته برفق فقالت بهدوء وهي تبسم:

أين وصلت يا منير؟

رمقها منير متكاسلاً وخرجت منه تنهيدة كبيرة وقال في تبسم:

كنت في ورشة المعلم سليم.

قالت أميمة في دعاية:

وما هي أخبار الورشة وأخبار المعلم سليم؟

رد منير في هدوء وأسى:

الشغل كان ممتازا، وليته استمر حتى الآن.

تساءلت أميمة:

وما الذي منع استمراره؟ ألم تكن الورشة رابحة؟

رد منير كشاهد طلبت منه شهادته أمام القاضي فقال وملامحه تصدق قوله:

كانت الزبائن كثيرة ومن كل مكان وكانت الورشة لا يوجد فيها موضع قدم من زحام المترددين عليها ومن كثرة الملابس المعلقة بجوار الجدران، فكانت الضجة سمة المكان وكانت مزيجاً من أصوات ماكينات الخياطة وأصوات الناس، ولو أغمضت عينيك لظننت أنك في محطة قطار بما فيها من أصوات قطارات وأصوات الزحام من الركاب والباعة.

كان العمل غزيراً والربح وفيراً، والكل راضٍ وسعيداً، فلم يكن المعلم سليم يخل بماله على العاملين معه، فقد زاد في أرزاقهم عندما ازدهرت الورشة.

زادت الدهشة وبدا التعجب على ملامح أميمة فتساءلت:

فأين الورشة إذن؟ أين ذهب؟

أدرك منير أن الفضول يأكل أميمة فقرّر أن يريحها فقال:

استمرت الورشة لسنوات عديدة تعمل بنفس الزخم والرواج واشتهر اسم المعلم سليم حتى أصبح ماركة في التصميم والتفصيل للملابس، وتردد عليه الزبائن من كل الطبقات الغنية والفقيرة وكان ذكيا بالقدر الذي يجعله يتكيف مع كل الطبقات ومختلف الأذواق، وكنت مساعده ونائبه أثناء غيابه، وقد شربت صنعته وأبهرتني شخصيته فتشبهت بها فمنحني ثقته، وذلك عزيز على المعلم سليم فلم يعط أحدا ثقته إلا أنا، وكنا بالبيت أنا وأمي وإخوتي نعيش في حالة من السر والسعادة، فكان المال موجودا والبيت فسيحاً يسع أسرتنا الكبيرة، وتوالى السنوات حتى أنهيت دراستي الجامعية وجاء دوري للالتحاق بالخدمة العسكرية وكان ذلك بعد نكسة يونيو 1967 وقد كان المعتاد أن تكون مدة خدمتي سنة واحدة حسب القانون لكن لظروف الحرب استمرت خدمتي 6 سنوات متصلة شاركت فيها بحرب الاستنزاف وحرب أكتوبر، ولم تكن هذه الفترة هينة على المعلم سليم فقد تركت فراغا كبيرا في الورشة بعد ما كان يعتمد عليّ أبى في كثير من أعمالها، فشعر بثقل العمل خاصة مع تقدمه في السن فقد تجاوز الستين من عمره وتداعت عليه بعض المشاكل الصحية فذهب للأطباء للعلاج ولكنه صُدم عندما علم بإصابته بمرض في الكبد ترتبت عليه حالة نفسية سيئة.

وكان أبى من أولئك الرجال الذين يعملون بكل جهدهم، عملهم هو حياتهم، متعتهم الحقيقية فيه، يشفون من متاعبهم

فور متابعتهم له، تتعبهم الراحة والكسل، لا يحب العطلات أو الإجازات، وهذا الصنف من الناس إذا أقعده مرض وألزمه بيته، تنداعى عليه أمراض أخرى وتجد جوارحه كلها فرصة لتستريح من جهد السنين المتتابة التي عملت فيها دون كلل أو ملل، فتزداد ثورات جسده ويقا تل المجاهد الكبير لكن قوته تخونه: فلست شابا كما كنتَ إنما أنت شيخ الآن (ألق سلاحك)، لكنه يأبى أن يلقى سلاحه أو يستسلم للأمراض، فتنهش فيه آلامها شهورا وسنوات يتجرع فيها أدوية ما عرف طعمها من قبل ولم يعرف لها اسما، فقاتل حتى استشهد في معركة الحياة، ومات سريعا بجسد لم تفت في الأمراض بعد، ولم تظهر عليه أعراض الهزال والانكسار، مات وهو في كامل قوته، مات وأنا ما زلت في جبهة المعركة قبل العبور بشهور.

وجاءني نبأ وفاته فانكسر ظهري فقد كان جبلاً أستند إليه، وكان عزائي فيه أنه مات مبطوناً والمبطون شهيد ونحن على هذه الجبهة ننتظر الشهادة أيضا وقد يجمع الله بيني وبينه قريبا.

بعد وفاة والدي انفرط عقد ورشتنا، فلم يكن إخوتي من أصحاب الصنعة فلم يولوها الاهتمام والنظام المعهود في السابق، استقالت بعض المهرة من الخياطات من الورشة وفضلن أن يعملن لحسابهن الخاص، وقد أثر ذلك على

الالتزامات في المواعيد تجاه الزبائن فضاعت مصداقية الورشة واختل النظام، وبحث الزبائن عن أماكن أخرى لتصميم الملابس، فقل الإيراد وأصبح المكان خاوياً بعد ما كان رائجاً، وقرر إخوتي هدم الورشة وضم مساحتها لمساحة بيتنا الملاصق لها وبناء بيت كبير يحوى شققاً واسعة يكون لكل واحد منا نصيب منه، وقد اتفق إخوتي مع أمي على هذا الأمر وأرسلوا لي لإبداء رأيي وما كان لي أن أرفض، فبعد موت أبي، هوت صنعتي، ورغم أنني كنت خليفته إلا أنني كنت في حرب ولا أعلم متى ستنتهي، ولا أدري هل أعود سالماً أم أموت شهيداً ككثير من زملائي، فهان على الأمر وأحببت ألا أكون عائقاً أمامهم في أحلامهم فوافقت على اقتراحهم وتم هدم الورشة بالفعل وبناء بيتنا الكبير الذي تزوجت فيه أنا وأنت في شقة من إحدى شققه.

ونظر إليها باسماء وقال:

هذه حكاية المعلم سليم وورشته العامرة، كان فكانت، ذهب فهانت.

اتسعت عينا أميمة مندهشة من هول المفاجأة، وقالت:

هل تعنى أن البيت الكبير هو مكان الورشة الآن؟

نعم يا سيدتي هو على أنقاض ورشتنا.

قالت في جد:

إذن لابد أن تعيد اسم أبيك وصنعتك، ترجع الورشة مثلما كانت وأحسن، والله إنها لخسارة كبيرة أن يذهب الاسم والتاريخ وتضيع الصنعة للأبد.

ركز معي يا منير، أليس لك نصيب في البيت الكبير، شقتنا القديمة؟

أجابها منير باستغراب:

طبعا شقتنا ملكنا، لكن ماذا تقصدين؟

قالت له بجدية تلمع في عينيها:

نأخذ شقة الدور الأرضي ونفتح الورشة مرة ثانية.

نظر لها وقد ازدادت حيرته فقال:

لكن هذه الشقة ملك جمال أخي!

تابعت أميمة فقالت:

جمال أخوك مسافر للعراق من سنين والشقة مغلقة، نستأذن منه نستأجرها أو نبادله بشقتنا في الدور الثاني.

صمت منير للحظات يفكر فيما قالت أميمة ثم قال:

لكن حتى لو جمال موافق، المشروع محتاج لتفكير وتخطيط.

شجعته أميمة في ثقة وأمل:

أنت تمتلك الخبرة الكافية وكل مفاتيح الصنعة، والباقي هو دراسة وضع السوق حالياً فقط.

أنت لن تبدأ مشروعاً جديداً لكنك ستستأنف مشروعاً كان قائماً ورابحاً، ما عليك إلا النية والبداية، وباقي الخطوات تأتي مع العمل.

تشجّع منير بعد كلمات أميمة التي بثّت في نفسه الثقة، وقرر أن يستعيد ذكريات والده، وبدأ ينفّض ركام السنين عن الذكريات، ويستعيد كيف كانت ورشة والده وكيف كان نظامها، وكيف تركها وهي في أوج رواجها تلبية لنداء الوطن وعاد بعد بضع سنوات ليجد الورشة أثراً بعد عين، فبعدما كانت مكاناً يحوي الفن والإبداع والرقي في التصميم للموديلات الجديدة وتفصيلها وخياطتها وإخراجها في مشهد بديع يراه المارة معلقاً على الجدران فلا يميزوا الفرق بينه وبين أفخر الماركات صُنْعاً، أصبحت بناءً جامداً مكوّناً من ثلاثة طوابق، لا يوحى بحياة ولا إبداع.

بدا منير متحمساً وقرر أن يتصل بأخيه جمال في العراق يحدثه في أمر شقيقته، فكلّمه بالفعل وما كان من جمال إلا أن وافق على المبادلة بشقة منير بالدور الثاني تكون له مقراً ومستراحاً لإقامته إذا نزل إجازاته السنوية التي قد لا تكون سنوية بعد الآن، فقد تزوج جمال من فتاة عراقية وهي بنت مدير مصنع النسيج

الذى يعمل به بعد قصة درامية، ففور انتهاء جمال من الحصول على شهادته من قسم النسيج، قرر السفر للخارج وكان ذلك أوائل السبعينات واختار العراق التي كانت آنذاك مقصداً للعمالة المصرية وكانت مصدر رزق لكثير من الأسر المصرية، فبعد وفاة الوالد المعلم سليم أشار عليه أحد زملائه بالسفر للعراق لتخصصه في صناعة النسيج الرائجة هذه الفترة في العراق، وقرر جمال السفر للعراق وذهب لبعض معارفه ممن يتواجدون في العراق من فترة ممن يعملون في مجال المقاولات، وعمل معهم ليكسب قوت يومه وإيجار مسكنه، ويتفرغ بعد ذلك للبحث عن مصانع النسيج في بغداد، وبالفعل وجد أحد المصانع وتقدم بأوراقه لمشرف العمال بالمصنع كي يعمل كأحد العمال على ماكينات النسيج، وقد عرض مشرف العمال الأوراق على مدير المصنع الذى وافق على تعيينه تحت الاختبار.

وبعد اجتياز جمال لفترة الاختبار ببراعة وتفوق تم تشييته في المصنع، وبعد فترات قليلة تمت ترقيته لمشرف عنبر ثم مشرف للعمال ثم تمت ترقيته لمنصب مدير الإنتاج بالمصنع، وكان شعلة من النشاط يحب عمله وقد أراد مدير المصنع أن يكون هذا الشاب زوجاً لابنته فعمله وطموحه يؤهلانه لمستقبل واعد، وقد تم له ما أراد وفاتح جمال في الأمر، وأبدى جمال امتناناً كبيراً لثقة مدير المصنع فيه وتزويجه لابنته التي يعرفها كل من في المصنع لتردها على أبيها في مكتبه بين الحين والآخر وكانت

جميلة وذكية وقد لاقى جمال إعجاباً لديها من كثرة ثناء والدها عليه، ولاقت هي إعجاباً وحبا وفرحة من جمال الذي لم يتردد في هذه الفرصة فتم الزواج واستقر في بغداد سنوات يتردد بينها في عطلات قصيرة إلى مصر ويرجع لعمله وموطن زوجته مرة أخرى.

استقر جمال تقريبا في بغداد فالعمل يكبر ومنصبه يكبر أيضا، وأصبح رب أسرة وأب أولاد وبنات فطاب المقام له وأصبحت صلته بمصر هي زيارات على فترات بعيدة، لذلك عندما طلب منه منير شقيقه في الدور الأرضي لم يمانع بل وافق وشجع منير لإحياء صنعة الوالد المعلم سليم مرة أخرى.



بَينَة

بدأ منير تجهيزات الورشة وبعثها من جديد، كما كانت منذ عشرين عاما، غيّر بعض الديكورات فأضاف بعض الدهانات المستوحاة من ألوان الأقمشة وبعض تصاميم الملابس لتجذب نظر الرائي، وتثير عنده الفضول فيقبل ويسأل وربما يصير عميلاً للورشة.

استغرقت التجهيزات شهرين تقريبا، كان يعمل بجِد ونشاط وحماس ملحوظ، وكانت أميمة سعيدة وفرحة بما يحدث، إلى أن تم افتتاح الورشة وقد بدا فيها ثلاث ماكينات للخياطة يجلس أمامها ثلاث فتيات، ومكتب في مواجهة الباب يجلس عليه منير يستقبل الزبائن ويتفق معهم ويدون اتفاقاته وكل التفاصيل الخاصة، من اختيار نوع القماش ولونه وحساب التكلفة وتحديد مواعيد التسليم، وقد قام منير بمهمة تصميم الملابس بنفسه لما كان يتمتع به من خبرة سابقة مع والده المعلم سليم التي أضاف عليها كثيرا مما تعلمه من اطلاعه على الجديد في عالم الأزياء سواء بالقراءة أو المشاهدة على التلفاز.

واهتم بالدعاية لورشته الجديدة، فلم يقتصر على صنع بعض اللافتات في الشوارع الرئيسية للمدينة أو بعض الملصقات الورقية

على جدران المدارس والأماكن المزدحمة بالنساء كالمستشفيات والجامعة والأسواق فحسب بل قرر استدعاء الماضي أيضا، فقد كان يحتفظ بدفاتر أبيه القديمة التي كانت تحتوي على أسماء الزبائن وعناوينهم، وأيضا تحتوي على موردي الأقمشة والخيوط للورشة. فقرر منير الاتصال بكل الأسماء الموجودة والتي ربما رحل الكثير منها أو تقدّم آخرون منهم في العمر، لكن لا بأس فهو لاء لهم ذرية وأقارب ومعارف ويكفي أن يتردد اسم الورشة ثانيةً، مشمولا بالثناء على جودة العمل وتميزه وأيضا حسن التعامل مع الناس.

انتظم العمل بالورشة وعمرت بزبائنهما وكان على منير أن ينظم وقته ليتناسب مع وقته في وظيفته كأخصائي نفسي في المستشفى وبين عمله في إدارة الورشة.

في البداية أخذ إجازة من عمله يثبت فيها قواعد العمل واستقبال الزبائن وتوفير المواد من أقمشة وخيوط وغيرها مما تستلزمه خياطة الملابس، لكن بعد ذلك وجد صعوبة وتعارض بين وظيفته وعمله الخاص، فكان يخرج من عمله الرسمي في الثانية بعد الظهر ويتناول غذاءه سريعا ليتواجد في الورشة في الثالثة عصرا ويواصل حتى العاشرة ليلا، فكان عليه أن يملأ الفراغ في الفترة الصباحية التي لا يستطيع أن يتواجد فيها في الورشة، ففكر أن يقوم أحد بإدارة الورشة في فترة غيابه، وقرر أن

يختار إحدى الفتيات لتشغل هذا الفراغ، ووجد أن الفتيات الثلاث اللاتي تعملن معه في الورشة منهن اثنتين متزوجات، وواحدة منهن مازالت صبية عزباء، فقرر أن يختار بثينة صاحبة العشرين عاما لأنها لا توجد لديها مسؤولية زوج أو أولاد ويمكن أن تتفرغ لإدارة الورشة مكانه في وقت غيابه مقابل أن يزيد لها أجرها الشهري نظير هذا الأمر.

عرض عليها الأمر فوافقت بثينة بفرحة كبيرة، وقد كانت لتوافق على أي شيء يبقئها بجواره، وبدأت بتسلم مهامها وجلس معها منير أكثر من مرة يعرفها على المعلومات الخاصة بالزبائن والعملاء والموردين لتحل محله في حال غيابه.

وفى هذه المرات والجلسات بدأت أشياء تنمو شيئاً فشيئاً، نمت عندها من العدم؛ فلم تكن موجودة من قبل، فكانت أرضها بكرأً، أما هو فكانت بذورها مدفونة لديه تحت ترابه، ويكفيها أن ترتوى لتنمو وتثمر، وقد سقاها قديماً بماء بُغية النماء، لكن الماء كان آسناً، فنمت قليلاً ثم ذبلت، وتلاشى عُودها فلم يثمر له خضاراً أو ثماراً، لكن البذرة ظلت حية في باطنه تقاوم وتقاوم تتطلع للحياة من جديد، تتطلع لماءٍ عذبٍ يسقيها فيرويها ويطمئن ظمأ السنين فيها، فما أن حضرت بثينة بنبعها الصافي العذب حتى تنبعت بذوره وتحركت، فحركت سواكنه الكامنة التي ظن أنها ماتت منذ سنين، فدبت فيها الحياة وبعثتها من

جديد، لكنها حياة المعذبين التي لا تصمد طويلاً أمام سطوة اليأس والموت فينهيها، ويبقيها كما كانت، ناراً تحرقه وتؤلمه من حين إلى حين.

منذ أن جاءت بثينة تطلب عملاً في ورشة منير، ورأته، لم يفارق خيالها قط، لكنها لم تستطع البوح بهذا، رغم ما ظهر عليها من اهتمام تجاهه ومحاصرته دائماً بنظرات عيونها الرمادية الساحرة التي لا تنحرف عنه طرفة عين، فتستغرق فيه بل تغرق أحياناً وتغيب، فينظر إليها ويجدها كذلك فيستغرب استغراقها، فتتوارى منه عيونها سريعاً تنفي ما قد يرد على خاطره من أفكار.

كان منير قد قارب الأربعين، وقد رزقه الله بابتين جميلتين داليا ورانيا وكانت في سن العاشرة والثامنة على التوالي، وكانت تبدو على منير ملامح الجدية والصلابة والنضوج، فقد غزت بعض شعرات المشيب مفارق رأسه، فاختلط شعره الأسود بالشعر الفضي الوافد من شيخوخة العمر، يجلس شعره الناعم المصفوف فوق جبينه العريض الواسع الذي رسم القدر عليه بعض خطوط تنبئ بعمره الحقيقي، وبدت ملامحه ناضجة أكثر فاستطال وجهه بخدوده المنحوتة، وبينهما أنف مرتفع كأنه جبل أشم بين واديين، ينحدر على شارب تم رسمه بفن ليتلاءم مع شفيتين مطبقتين على فم منمق وصغير، ثم يتراءى قوامه الشاب المصقول دون علامات أو آثار لسمنة في البطن أو ترهل في

جانيه، فكان مستوي البطن والصدر، أما من داخله ففيه آلامٌ وآمال لم تنتهِ بعد، يقاوم الآلام ويبدى شجاعته فيصرعها حيناً وتصصره أحياناً، ويتشبث بآماله طلباً للنجاة، ويتعبهما الصراع، فيتجنب كل منهما الآخر مدة من الوقت ليست طويلة، ثم يشتبكان بُغية الخلاص، ولا خلاص يرحمهما، فيستمر المشهد بدماءٍ وأشلاء، لكن لا يرى الناظرون ما تحت الغطاء، يعمل ويجد ويجتهد ويصول ويجول وكأنه جمل وسط هموم الحياة، لكنه يتوسل ويخضع ويطلب الرحمة والنهاية قبل أن يتلوث بما يورده الجحيم الأبدي فيكون الخسران العظيم.

كان منطلقاً مرحاً صاحب روح جميلة تزينها الدعابة، يكره التشاؤم والتعقيد، يأسر من حوله، ينطبع في القلوب والأرواح، فلا ينساه من رآه، ولا يملّه من جالسه وصافاه، مميزاً برأيه، محدداً بعباراته، واضح الرؤية والهدف.

وكان يطمح في شريكته أن تكون قريبة منه، تلتقي روحهما فينعمان بالأمن والطمأنينة والسكن، لكن أميمة كانت مختلفة ومستقلة عن كل الكائنات.

كانت أميمة جميلة الملامح، ملونة العينين فيهما اتساع يظلمها أحياناً، لكن ملامحها كانت جامدة لا روح فيها، قلما تبسم، نظراتها جادة تظنها حادة من اتساع حدقة عينها الطبيعي، الترقب والتوجس صفات لا تنفك عنها، مرحها وقعت عليه صخور جبال

راسيات فأصابته بالشلل الدائم، فنادرًا ما تستدعي المرح، لكنها طيبة وصافية ليست من الخبثاء، وكان هذا أيضا يظلمها.

كانت ترى نفسها جميلةً جداً ولا عيب في هذا، لكن أن تكتفى بجمال ملامحها فقط فذاك هو العيب، ترى ألا حاجة لما يظهر أنوثتها وجاذبيتها، ففي جمالها كفاية، وهى نفسها غاية، ومن أراد فعليه الوداد، ورَجُلُها لا بد أن يُدَلِّل ويتذلل لهذا الجمال الفريد، وقد غاب عنها ما يغيب عن كثير من النساء مثلها أن جمال الروح ودلالها أثبت في قلب الرجل من ملامح الجسد مهما زاد إغراؤها، فالجسد جماد إذا لم تحركه الروح، والروح الجميلة إذا سكنت أقل الأجساد جمالاً ألبسته ملاحه ووسامة خاصة تجذب الآخرين، فتزداد ابتسامتها نوراً ينثر سروراً لمن يراها، وتخرج الكلمات من بين شفثتها كأنها لحن موزون النغمات، فينشغل الرائي بجمال يحسه بوجدانه قبل أن تراه عيناه وينشغل بدفع الصوت وحنان المشاعر، فيغيب عن رغبات الجسد، ويصير في عالمه الخاص، يحلق في رومانسية لا يعرفها إلا المراهفون، وقليل ما هم.

كان يطلب مفقوداً، وكانت ترى الجمال موجوداً، اختلفت الأذواق فنشرت الطباع، وأصبح الخلاف رسول الاختلاف، وسار كلُّ منهما في طريقه عكس اتجاه الآخر، بينهما فجوة ومسافة تزيد وتوسع كلما أسرع في المسير وطوت أعمارهما السنوات.

دفن بذور رغباته في أرضه الصلدة وظن أنه نجا، إلى أن جاء
من حفر بئراً في أرضه فساح الماء وانساب بين ترابه، فنبتت
بذوره وتفتحت حياتها بعد موات، فسبحان من يخرج الحي من
الميت!

وهلّت كالبدر، واستقرت كالقمر بطلتها تضيء المكان وتغرى
من يراها، كانت نحيفة القوام، رشيقة، تماثله في الطول، خمريّة
البشرة، فانتة النظرة بعيونها الرمادية التي تخفي كنزا من البسمات
لا تخرج إلا لمن يبحث عن كنزها وجواهره، لكنها منحت كنزها
لمنير تخطب وده ووصاله، وتعلن ولهاً يليق بفتاة ما زالت في
طور تفتح الورود، وظنت أنه ساقها الذي سيسقيها ماء الحياة،
فهامت وغابت وطال السبات.

كانت بشينة معجبة به منذ أن تقدمت للعمل كخياطة في
الورشة، رأتها جاداً دقيقاً في عمله، لا يفوته التركيز في تفاصيل
الصناعة، خبيراً بكل خطوة من خطوات العمل بدءاً من تصميم
الملابس وقصها وانتهاء بخياطتها، له بصمة ولون خاص وذوق
رفيع في تناسق الألوان والتصميمات مع مختلف الزبائن، فكل
قوام له تصاميم تليق به وكل بيئة لها ما يناسبها، وكل سن له ما
يناسبه، وكان يشارك عملاءه الاختيار إن أرادوا رأيه ومشورته.

ومع كل همته في عمله لم يترك تبسمه أو دعابته ومرحه
بطريقته الخاصة مع العملاء والعاملين معه، رغم تسلطه وقسوته

أحياناً إن حدث خطأ ما، فكانت بثينة تلحظ كل تلك التفاصيل فكانت أشد تركيزاً منه، لكن تركيزها كان عليه هو، تتبعه في عمله ومعاملاته، تنظر إليه وإذا لمحها فجأة وجدها تبسم، فلا يدري هل تبسمها هذا طبيعة فيها؟ أم أنها قصدت الابتسام له هو؟

يرمقها بزجر فتتزجر، ويستغرب تصرفها، إنها لم تبلغ العشرين عاماً أما هو فقد قارب الأربعين من العمر ولا يليق هذا بذلك.

هي ماهرة في عملها وخفيفة الحركة سريعة البديهة تفهمه قبل أن يتكلم، دقيقة موهوبة، لكن نظراتها قاتلة لم تنتهها زواجه القوية وارتفاع حاجبه الأيسر فوق حدقته المتسعة ينهاها بالإشارة، فلا يجدر به أن يقع في هذا الأمر، يعذرها فهي صغيرة السن لديها مشاعر وعواطف مازالت في طور التفتح والتوهج، والفتيات في سنها قد تبدر منهن هذه النظرات وذلك التركيز، فالقلب يتحكم بهذه المرحلة فلم تنضج عقولهن بعد.

لم يجد أكفاً منها لتشغل مكانه وقت غيابه عن الورشة، عرض عليها الأمر فبادرت بالموافقة سعيدة على تلك المهمة التي ستجعلها قريبة منه بعض الشيء، أما هو فقد تملكه التخوف لما رأى السرور والامتنان في عينيها، فدعا الله في سره أن يلهمه الصبر عليها وينجيه مما قد يحدث يوماً ما.

استلمت مهمتها وبرعت في أدائها، تقابل الزبائن بتبسم وتحية، تعرض عليهم منتجات الورشة من تصاميم وملابس،

تعرض أجود أنواع خامات الأقمشة، تغريهم بخصومات أو تخفيضات في مواسم معينة أو لكميات محددة، أحبت أن تنال ثقة منير ولا تخذله والحق أنها أرادت أن تنال إعجابه بها فيشعر بما تشعر به نحوه.

كانا يجلسان سويا لمراجعة بعض أمور العمل بالورشة، وتكررت جلساتهما فأطلقت بثينة فيها سهامها تجاهه، ولم يكن متحصناً إلا بتفكيره، لكن باب قلعه لم يكن محكماً بل كانت به ثُلُمٌ اضعفت دفاعاته، حاول ويحاول دوماً سدها بكل قوته، لكن الرياح عاتية، والعاصفة قوية، والجو بارد قد خلا من دفء المشاعر، فأصاب جسد برودة ورعدة سرت في كل أعضائه.

استجمع قوته وهمَّ مُسرِعاً، قاطعاً حبال خواطره وأوهامه: قد بلغت الأربعين وما ينبغي العودة للوراء، طريق العمر اتجاه واحد وليس مزدوجاً، لو التفت وراءك داستك سنابك القدر فتصير حطاماً، ذاك منطق العقل، لك زوجة ولك منها ابتنان قاربنا سن الصبا، وسعادة القلب محاطة بأشواك اليأس، لو تقدمت لنيل الراحة أصابتك الأشواك، فتدمي أعضائك، وتصير ممزق الأشلاء، فلا نلت الراحة ولا نجوت بالرضى.

كانت أميمة تتردد على الورشة تتابع العمل فيها، ولاحظت تلك الفتاة الجميلة، سألت عنها، قالوا: بثينة، عمرها 20 عاماً، عزباء وماهرة في الصنعة، رأتها تتردد كثيراً على منير، تسأله في

التصاميم والألوان وتفاصيل العمل، لم تكن تلك الفتاة تشبهها فقد كانت بشينة في رأي أميمة مراهقة تهتم بزيبتها، جريئة بنظراتها وتبسمها، ينقصها بعض الأدب في التعامل مع الغرباء.

نبهت زوجها وحذرت من تلك الفتاة، ولم يكن منيرا غافلا لكنه لم يعط الأمر كبير اهتمام، وعدها بأن يلفت نظر بشينة لتلتزم بعملها فقط في حدود مهنتها.

أصبحت بشينة تسكن بيت منير، فلا يخلو حوار من اسمها، ولا تمر مشكلة إلا وتكون بطلتها، وكلما تذكرتها أميمة بمرحها وخفة ظلها وجمالها الفتان اشتعلت نيرانها واستعرت، وهاجت وماجت كأثنى الأسد في قفص السيرك، وسيطرت عليها الظنون، فعكّرت صفوها، وألهبت غيظها، وما أن ترى منيرا حتى تحرقه بنيران غيرتها وسخطها على تلك الفتاة التي أرقت نومها، فجعلتها تسهر الليالي لتفكر ولا تنام، تتمنى لها أن تذهب اليوم قبل غد.

كثيرا ما ذكرتها أميمة أمامه في منزلها بدون مناسبة، فإذا طلب منها أن تتزين أو ترتدي شيئا يحبه، فاجأته بكلمات يقطر منها اليأس والأسى فتقول له:

قد أصبحت تحب الزينة والألوان المبهجة كملا بس الست بشينة.

يتفاجأ بما قالت فتتسع عينه ويقول في تأكيد:

وما دخل بشينة الآن؟ لم تضعينها في رأسك؟ نحن في بيتنا الآن ولا دخل لها.

ترد أميمة بسخرية واستفزاز:

لكنها لا تفارق عقلك أبداً، فلا فرق بين البيت والورشة.

ينفخ منير ويستغفر ربه ويسأله الصبر والثبات، ويقول بهدوء:

أميمة، أنا لا أفكر بأحد، مهتم بعلمي، ولا أملك وقتاً للرفاهية،
فاطردى شياطينك حتى لا تخرب علاقتنا.

تنظر إليه باستهزاء واضح، يزيد من غيظه المكتوم، وتبتسم
ساخرة وتقول:

معك حق، العمل مهم فعلاً، والهانم موجودة معك طوال
اليوم، تنظر إليها وتنظر إليك، فتتكلمان وتضحكان، أهم حاجة
العمل ومَن في العمل.

وجد أن هدوءه المصطنع لم يحل الأزمة ويحتوي الموقف،
فزفر وصرخ:

سألتِ فأجبتك، وقلتها بلساني أنى لا أفكر بأحد، لا تصدقين،
فهذا شأنك، ماذا أفعل حتى تقتنعي؟

والحمد لله فأنت جعلتني أكره كل النساء، وأفكر ألف مرة
قبل أن أتهور وأنتحر مرة أخرى، لأنك -وبلا فخر- مثال للنكد
والهم.

حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

وتركها وانصرف، وهكذا كانت معظم حواراتهما، تبدأ بأزمة وتنتهي بأزمات، وكانت أميمة بطلّة كل مشكلة، وساوسها وهو جسها كانت تسيطر عليها، قد تكون قلة ثقة منها في نفسها، أو عدم ثقة في زوجها الذي لا يبدو عليه عمره الحقيقي ويمكن لأي امرأة أن تنجذب إليه.

مرت الشهور على تلك الحال، الورشة تعمل بانتظام ورواج، كثرت زبائنهما من المدينة ومن المدن المجاورة لها وأصبح منير له اسم وماركة وازدهرت الورشة ثانية كسابق عهدها أيام والده المعلم سليم.

فزبائن المعلم سليم من الفتيات والصبايا اللاتي تزوجن، أصبحن اليوم أمهات وجَدَّات وربات بيوت، وبمجرد سماعهن عن افتتاح ورشة المعلم سليم وولده منير، سارعن إليها مباركين، ومتذكرين كيف كانت صنعتهم وطريقتهم معهم في التعامل، وأصبحت كل واحدة منهن لها بنات وسلاّف، أوصتهن بالتعامل مع منير؛ لما يتميز به من جودة ودقة في العمل وأيضاً لما يتميز به من التزام مع عملائه في التسليم والتكلفة.

مرت الأيام ومنير منشغل بعمله في الورشة جنباً إلى جنب مع عمله في المستشفى كأخصائي نفسي، وقد نبّه بثينة أن تتبّه، فلا يجوز أن يكون بينهما علاقة غير علاقة العمل، فهو رب أسرة ولا يريد هدمها، وهي صغيرة وجميلة وفرصتها في الزواج جيدة جداً من شاب يناسبها.

أما أميمة فوساوسها كانت أكبر من عقلها فلم تصدق كلامه، فكثيراً ما جرّت إليه المشاكل والنكد بسبب بشينة وغيرها، تراها غيرّة، ويراهما هو حب تملك وليست غيرّة، تتشاكس معه كثيراً، وتنشغل عنه أحياناً بعملها وبيتها، تذهب للورشة بين الحين والآخر، تفتعل المشاكل لتحرج بشينة أمام زميلاتهما، فيردعها منير ويذهب بها للمنزل حتى لا تكبر المشكلة، وحتى لا يفقد صوابه فيتخذ قراراً غاضباً يندم عليه بعدما يفيق من غضبته.

يعيش حياته وسط هذا الوضع، تنسيه ضحكات بنتيه سخط زوجته ووساوسها التي لا تنتهي، يشفق كثيراً على زوجته ويرحم حالتها، فقد فقدت عزيزها يوماً ما، ولم تنساه، فزاد من حزنها وذهبت نضارتها وبهجتها منذ أن ذهب.



آسيا

استمرت الحياة في مسارها، ومرت أيامها تجر لياليها بتشابه في الأحداث والتفاصيل، إلى أن حضر من ألقى حجرا في مائها الراكد فحرّكها، وليتها ما تحرّكت.

رفعت أميمة سماعة الهاتف لتسمع من المتصل، وكانت مفاجأتها عظيمة لما علمت أنها آسيا، أختها الكبرى، تطمئن عليها وتعدّها بزيارة آخر الأسبوع لتمكث عندها عطلة الأسبوع يومين لترأها هي وبناتها.

فرحت أميمة، فقد كانت تُعدُّ آسيا أمها الثانية، فكانت محل ثقتها ومرجع مشورتها في كل شيء، لكن منيرا وآسيا كانا لا يروقان لبعضهما البعض، كانت آسيا متسلطة وشكاكة، ترى نفسها خير الناس وأنقاهم، بل أتقاهم، تحكم بالظن وبالشكل، هكذا كان يراها منير، وقد يكون محقا في بعض الجوانب، فقد كانت لها ظروف اجتماعية أدت لبروز تلك الصفات فيها، فهي الشقيقة الكبرى لأخواتها ويعقبها ولدان مصطفى وعمرو وبتتان آمال وأميمة الشقيقة الصغرى لها.

كانت آسيا تعمل طبيبة في المستشفى الذي يعمل به منير وكانت تكبره بخمس سنوات تقريبا، فبعد تخرجها عملت في

هذا المستشفى في قسم الأمراض الباطنة مع أستاذ لها في نفس القسم.

تقدم لخطبتها كثيرون أثناء دراستها الجامعية، لكنها رفضت كل المتقدمين فلم تقبل الارتباط بأحد وهي تدرس حتى لا تشغل عن أهدافها، حتى بعد التخرج وبعد تعيينها طبيبة في المستشفى تقدم لها زملاء كثر لكنها كانت ترفض دائماً، وانشغلت بتحضير الماجستير ثم الدكتوراه، ولم تدرك أن سنوات عمرها تمضي وفرصها في الارتباط تضعف، فقد بلغت الخامسة والثلاثين ولم ترتبط، تزوج إختها الأصغر منها ورضيت هي بأن تقيم مع والدتها فلم تتزوج.

كان أهلها يتعجبون منها لعدم موافقتها على أحد من المتقدمين، يسألونها: هل تنتظرين أحد زملائك؟ أو هناك من يشغلك وليس مستعداً الآن لذلك ترفضين كل من يتقدم للزواج منك؟ وكانت تجيب بلا، ولم تكن صادقة، لكنها لن تستطيع البوح بمكنون قلبها فتتهز صورتها التي رسمتها على مدار سنوات في أعين المحيطين بها، فكانت توحى لمن يراها بصرامة الملامح والالتزام المبالغ فيه، وادعاء العلم الديني الواسع الذي يخولها لإسداء نصائح للآخرين، كانت ترى نفسها في مكان أرقى، وأن هؤلاء أقل منها علماً وثقافة، لذا لا بد لهم أن يستمعوا ويطيعوا.

تعرفت على منير كزميل لها في المستشفى، وكان منير اجتماعياً، وله حضور مميز، وفور تعيينه في المستشفى كأخصائي نفسي تعرف على كل العاملين في أقسام المستشفى المختلفة، ومنهم بالطبع الدكتورة آسيا والدكتور سرحان الأستاذ في قسم الباطنة، وأعجبت بخفة ظله وشخصيته لكنه كان أصغر منها سناً، وأيضا لم يكن قلبها متفرغاً، فقد كانت تمنى قلبها بمن تهوى، لكن الجدران العازلة كانت سميكة ومتينة البنيان، فصدّتها وحطمت أمانيتها فعاتت يائسة تصب جام غضبها ويأس قلبها على من حولها ليصيبهم ما أصابها.

تعلقت آسيا بأستاذها الدكتور سرحان رغم فارق السن بينهما، الذي يصل إلى خمسة عشر عاماً تقريبا، أعجبتها شخصيته وما لها من وقار واحترام لدى كل العاملين والملاء، لم تُبد له إعجابها به فهذا لا يليق بشخصيتها، لكنها كانت تلاحظه دون أن يشعر، تلاحظ أسلوبه مع الناس وأسلوبه معها، مهارته في عمله، ومرحه، وطيبة قلبه في وقت راحته، كان بسيطاً حنوناً، أحبته كما أحبت أباه، لكن بمرور الوقت وتواجههما اليومي في العمل تحول الحب الأبوي لعاطفة جياشة، جعلتها تبحث عنه إن غاب ولو لدقائق.

كان متزوجاً ولديه أبناء، وكانت تعلم ولم ينهها هذا عن طريقها، توقن أن الأمر مستحيل الحدوث لكنها مؤمنة بأن كل شيء ممكن، فقد يحدث يوماً.

كانت آسيا جادة في تعاملاتها، عليها مظاهر التدين من ملابس وبعض ثقافة دينية، تؤثر بها على من حولها فينصاعوا لها، ليس لعلمها؛ بل لجهلهم هم ولمكانتها، فطالما هي متفوقة كطبيبة حاصلة على درجتي الماجستير والدكتوراه فحقيق أن يسمعوها وينصاعوا، فالناس تسمع وتطيع لأولى الأمر، ولو كان ولي الأمر هذا رئيس قسم أو مدير إدارة في مكان ما، تكون الطاعة والتسليم أحيانا تملقاً لمسدي النصائح ليظفروا منه بقرب أو برفعة.

حاولت ان تلفت نظره لكنه كان له نصيب من اسمه -سرحان- فهو غير عابئ بشيء، إن تكلمت أو مرحت بعض الشيء لا يزيد على التبسم والتلثم، لم يكن كثير كلام أو صاحب فكاهة، كان باهتاً بعض الشيء، ولولا مكانته ومهنته لما انتبه له الناس.

والعجيب أن صفاته هذه هي ما جذبتها إليه، كانت ترى صمته حكمة، وقلة دعابته وقارا وجلالا، يفتقد إليه الكثيرون من الرجال، خصوصا، من هم من أقرانها ويمائلونها سنا ومكانة، أو ربما لقوة شخصيتها هي وقسوتها فكانت تبحث عما ينقصها، عن الضعف والحنان والعطف، شُغفت بالرجل وظلت تدور في فلكه لعله يوما يراها تلمع أمام ناظريه، لكنه كان مخيبا للآمال، فلم تستسلم، وكانت عنيدة وصاحبة إصرار فوصل بها الأمر أن باحت بسرها له صراحة دون مداراة.

ورأت أن صمته وتبسمه معها تجاوباً، لكنه صدمها على غير توقع منها فقال لها في جدية وإصرار: بأنه زوج ويحب زوجته

ويحترمها، وله منها أولاد، وغير مستعد أن يثبت أسرته من أجل نزوة أو مغامرة غير محسوبة.

لكنها لم تصدق حديثه في قوله فقد كانت تعلم شخصيته الهينة وخوفه من سطوة زوجته وغضبها مما قد يحدث إن علمت بزواجه منها، فانتهجت طريقة أخرى معه، فأخذت تُقَوِّى إرادته، وتنفخ في روحه من روحها القوية، وتخفف من مخاوفه من العواقب التي ستترتب على زواجهما، فعرضت عليه أن يتزوجها سراً، وأن تبقى في بيت أهلها مع والدتها وبأيتها وقتما يشاء، لا تريد منه سكناً خاصاً، أو عدلاً مع زوجته، فقط تريده معها ولو قليلاً، بين ساعات العمل أو بعده، كانت تحبه بصدق وتراه دنايها وسعادتها، وأصررت على أن تفوز في المعركة، هو يحتاج بعض الشجاعة ليتخذ قراره، فرغم سنه الكبير الناضج إلا أن شخصيته مترددة وبطيئة تحب السلام والوداعة وتخشى الآلام.

قضت آسيا أياماً لتقنعه، وتحمل معه مخاوفه لتبدها، وتشاركه ما يشعر به، وفي النهاية أبدى استعداداً لهذا الأمر، على أن يظل سرياً للغاية، لا يعلم به أحد من العاملين بالمكان، وألا يبدو عليها أثر ذلك معه، فتتغير في طريقتها معه، بل تظل كما هي علاقتهما علاقة عمل فقط، حتى لا تلتفت الأنظار نحوهما فيتحطم كل شيء.

طلب منها مهلة شهر يرتب فيها حياته ويهيئ نفسه لما هو مُقدم عليه، وافقت وما كان لها أن ترفض فقد كان شغفها به يعمي

بصرها وبصيرتها عن تردده ورعبه الذي بدأ يظهر في تعاملاته وبدأت هي تلاحظه.

لا يمكن لإنسان أن يتحمل فوق قدراته فلا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها، والدكتور سرحان كانت شخصيته ودیعة مطمئنة تخشى المواجهات، فكان يؤثر السلامة دوما في كل خياراته، وكان على من يتعامل معه أن يدرك مدى قدراته ولا يكلفه ما لا يطيق فيذهب عقله وينكسر ظهره، وكان على آسيا أن تدرك هذا جيدا فكانت قريبة منه وتتعامل معه يوميا فهي أجدر الناس بمعرفة قدراته حتى لا تبني أحلامها على جرف هار فينهار به وبها.

مر الشهر وسرحان في عصبية وتوتر ففقد وداعته وهدوءه، تسأله آسيا عن سبب حاله، فينكر حاله ويؤكد أنه بخير ولا شيء يقلق، لكنه كان في صراع نفسي كبير، وتحت وطأة ضميره وعذابه الذي لا ينتهي، ولم يستطع أن يرفض أو يتنفض، ترك الأيام تمر بغير قرار يتخذه، إلى أن قال لها يوما إنه سيذهب لمؤتمر علمي في الإسكندرية وسيعود ليتم هذا الأمر، وذهب سرحان في ذهاب بلا عودة، ففي طريق رحلته على الطريق الصحراوي كانت نهاية صراعه، وكان قرار القدر لمن لا يستطيع أن يتخذ قرارا، تصادمت سيارته الصغيرة بإحدى الشاحنات الكبيرة تلك التي يقودها بعض السائقين الذين لا ينتهون عن تعاطي المخدرات إلا ما رحم ربي، صدمته الشاحنة وتركته في

الطريق وهرب السائق بالشاحنة لما رأى سرحان وقد تحطمت سيارته عليه فصارت كقطعة من الصفيح فيها صاحبها غارقاً في دماؤه فاقداً لوعيه.

خاف السائق ففقد مروءته وفر هارباً، ولم يطلب الإسعاف حتى تنقذ ضحيته، لم يفكر سوى في مصيره هو بأنانية أصبحت سمة للكثيرين في هذا العصر.

كانت الحادثة في الصباح الباكر، وكان الطريق لايزال فارغاً إلا من السيارات القليلة، وظل سرحان في سيارته المحطمة فترة طويلة حتى توقفت إحدى سيارات الميكروباص على جانب الطريق لما رأى سائقها هذا المشهد الدامي، توقف ونزل هو ونزل معه كل الركاب الذين معه، اتصل أحدهم بالإسعاف، وتعاون البقية لإخراج سرحان من السيارة ليتأكدوا من حياته، لكن للأسف كان مجيئهم متأخراً جداً فقد نزل كثيراً وفارق الحياة.

أنزلوه بجانب سيارته وغطوه بغطاء حتى جاءت سيارة الإسعاف وأخذته لأقرب مستشفى، وتم أخذ بياناته من أوراقه الشخصية في بطاقته وتم التواصل مع مكان عمله لتبليغ الوفاة لأهله بعد ذلك.

كان الخبر صدمة لكل المستشفى التي يعمل بها الدكتور سرحان، وجاءت أسياً لما علمت بالخبر وصرخت بحرقه ومراة

وأصابها ذهول، وقد عذرها من حولها فكلهم في صدمة مثلها، وقد يبرر لها صدمتها الزائدة لعملها وقربها منه لسنوات، فكانت صدمتها لها قدرها الخاص فلا شبهة فيها.

مات الدكتور سرحان وماتت معه أحلام آسيا ومشاعرها، فظلت ترتدي السواد فترة طويلة وغابت عنها بهجتها، فقد شعرت بتأنيب ضميرها وعذاب نفسها تجاه سرحان، فكانت ترى أنها السبب فيما حدث له، وليته ما حدث.

رفضت كل من تقدم لها للزواج وقررت ألا تتزوج، وأن تبقى مع والدتها لترعاها بعد ما تزوج باقي إخوتها، واكتفت بأبنائهم وبناتهم تزورهم ويزورونها من حين لآخر، ومنها هذه الزيارة التي قررت أن تقوم بها لأميمة وبناتها.

جاءت إليها في اليوم الذي حددته مع أميمة، وصلت قريب العصر وكان الجو طبعيا وهادئا حتى الظهيرة، ثم انقلب بعدها رأسا على عقب، تلبدت السماء بالغيوم واضطربت بالرعد والبرق، كمخاض الولادة لتنبئ بنزول المطر الذي هطل بغزارة وسرعة غير متوقعة، فابتلت الأرض بالماء وامتألت الحفر التي تنتشر في الطرق بالماء.

وأثناء تقلب الجو هذا كان منير في الورشة مع العاملين فيها كالمعتاد، ينهون بعض الأعمال ويتفقون على أعمال أخرى، لكنه لما رأى الجو هكذا توقف عن العمل، وقرر أن يغلق الورشة

مبكرا هذا اليوم ويرجع الكل لبيوتهم قبل حلول الليل، حتى يستطيعوا أن يدركوا المواصلات قبل أن تتوقف حركتها بسبب الأمطار.

أخذهم جميعاً بسيارته ليوصلهم لموقف السيارات الأجرة، ليركب من يركب منهم من الأماكن البعيدة ويصل لبيته قبل انقطاع الطريق.

وسط هذا الجو الملبد وصلت آسيا لمنزل أختها وطرقت بابها بسرعة ودخلت هاربة من وطأة المطر الذي لم يفرق بين رجل وامرأة، فظهر الجميع بدون اختيار منهم.

دخلت آسيا لبيت أختها وكانت آسيا قد بلغت الخمسين من عمرها، وتبدو قصيرة القوام بدينة، بيضاء البشرة، وجهها يضاوي وصغير، وعيونها ضيقة، ولا يبدو منه شيء آخر، فقد ارتدت من الملابس ما تظنه طبقات من الستائر السوداء بعضها فوق بعض فلا يخرج منها سوى كفان صغيران وقدمان صغيرتان أيضا ووجهها المريب دائما.

ما إن انتهت من الأحضان والقبلات، واستعادت آسيا أنفاسها بعدما قطعتها سرعة هروبها من المطر، وجاءت أميمة بمشروب ساخن تحية لها، أشارت آسيا لأميمة أن تجلس ثم ثبتت عينها في عين أختها وقالت:

أين زوجك يا أميمة؟

ابتسمت أميمة مندهشة وقالت في استغراب:
لَمَ السؤال؟ لا أظنك تشتاقين لرؤيته، ما هو سبب التغير
المفاجئ؟

ردت آسيا بسخرية:
بالطبع لا أشتاق إليه، فنحن مختلفان في كل شيء، وأعرف
أين يكون، المهم أن تعرفي أنت أيضا، ولا تكوني مغيبّة، أو غبية.
بدا القلق على وجه أميمة فغابت ابتسامتها وسألت في ترقب:
خير يا آسيا؟ أخبريني هل هناك شيء ما؟
هو في الورشة حاليا كعادته.

بدا على آسيا زهو الانتصار بعدما بثت رعبها الذي تملّك
أميمة وقالت:

زوجك يا هانم رأيته بعيني يركب سيارته ومعه شابة جميلة
تجلس بجواره وبينهما حوار ومرح وعيناها لا تفارق عينيه.
ارتعدت أميمة ونظرت للأرض وغابت في خيالاتها التي لا
تنتهي، وقالت:

الجو متقلب ويمكن أن تكون إحدى العاملات من الورشة
احتاجت أن يوصلها لأقرب موقف تركب منه.
زادت آسيا من نفخ سموها فقالت:

قابلته في طريق المدينة خارج منها بعيدا عن مواقف السيارات، أكيد ذهب لمكان آخر.

أنت حرة، لقد حذرتك حتى تعرفين ما يغيب عنك، زوجك مهتم بنفسه وتتوقعين منه كل شيء.

أنهت آسيا كلامها بعد تسميم عقل وقلب أميمة تجاه زوجها بظنون وتخيلات تفتقد الدليل، ولم تكن لتفوت حدثا كهذا حتى تكيل لمنير الاتهامات وتسقطه أرضا، فكانت تراه شابا لا يغيره تعاقب السنوات، مهتما بنفسه وجسمه، وسيم الملامح، جريء التعامل مع الآخرين، ويمكن أن يصدر أو يُتَوَقَّع منه أي شيء.

أما أميمة فقد أصابها الخرس بعد هذا الحوار فلم تدر ماذا تقول لتنفى تلك الشكوك، فظلت هائمة وذاهلة لا تستطيع النفي، فثقتها في منير ضعيفة وتخشى من الإثبات فتنتهي حياتها معه.

جاءت داليا ورانيا لتكسران جمود الصمت في المكان، مرحبتين بخالتهما فقد كانت محبوبة لديهما، وكانت هي أيضا تحبهما كثيرا كابنتيهما، وراحت تقبلهما وتحضنهما، وتفتح لهما أكياس الهدايا التي اشترتها لهما خصيصا، لترى الفرحة بادية عليهما فتشغل معهما وتلعب وتنسى سنوات العمر التي تمضي في أسى وبطء ورتابة ليس فيها جديد أو مُفرح، كل الأيام متشابهة وكل السنوات سيات.

وجدت أميمة مجيء ابنتيها رحمة لها، فكأً لأُسرها من
خيوط ظنون آسيا التي عكّرت مزاجها، فسارعت بالقيام بحجة
تجهيز العشاء في المطبخ لتنفرد بنفسها، فلا تلاحظ آسيا ما يبدو
عليها من اضطراب وقلق.

مر الوقت ثقيلاً على أميمة، تترقب عودة منير لتثبت من
الأمر، وتدعو الله أن يخيب ظن آسيا، فقد تكون آسيا رأت
شخصاً آخر، وفي غزارة الأمطار وتقلب الجو ظنته منيراً، فهي لا
تحب منيراً وتظنه دائماً لعوبا وغير محل ثقة.

وترجو الله أيضاً إن ثبتت الواقعة أن يخيب ظنها هي أيضاً،
فلا تكون الشابة هي بثينة التي تمقتها، وتكون أي عاملة أخرى
في الورشة.

مر الوقت وآسيا والبتان في غرفة الجلوس يشاهدن التلفاز،
وأميمة قد انتهت من إعداد العشاء وخرجت لتشاركهن المشاهدة،
فجلست قريباً من آسيا لا تنظر إليها، لكن آسيا تنظر إليها خلسة،
لترى ما يبدو على قسمات وجهها.

رن الجرس، وتحرك مفتاح في الباب فكان منير هو القادم،
دخل فخلع حذاءه وأغلق بابيه، وأقبلت عليه ابتناه فرحتين
بقدومه، فقابلهما بابتسامته وأحضانته، ولم تلبث رانيا أن فاجأته
وقالت:

خالتي آسيا عندنا.

فاجأته الصدمة وكأنها صخرة هوت على أم رأسه، لكنه أفاق
سريعا واندھش من مفارقة زيارتها لهم في هذا الجو المتقلب،
فلا فرق بينها وبين طقس اليوم، وقال في نفسه: ربنا يستر
وتنجلي تلك الغمّة، لكنه قطع تفكيره وقال بصوت مسموع
مقصود:

أهلاً وسهلاً.

ودخل غرفة الجلوس يحمل طفليته كعادته عند عودته من
عمله وأنزلهما على الباب وقال في تبسم مصطنع:

أهلاً وسهلاً دكتورة آسيا، شرفتنا بزيارتك، نورت البيت.

ردت على مجاملته بملامح تشققت من اصطناع التبسم:

البيت منور بأهله، شكرا يا أبا داليا، ولو أن وقت الزيارة غير
مناسب.

زاد من حماسه وكأنه يصدق ما يقول:

يا خبر يا دكتورة، البيت بيتك، زدت بيتنا شرفاً ونورا.

أعدت أميمة وداليا طاولة العشاء وجلس الجميع لتناوله، فقد
أعدت أميمة لأختها ما تشتهي من أصناف الطعام، فقد كانت
آسيا تحب الطعام كثيراً، وكان ذلك ظاهراً في وزنها الزائد.

بعد العشاء جاءت داليا بالشاي في غرفة الجلوس، ليشرب
الجميع أمام التلفاز وهم يشاهدون مسلسل رأفت الهجان، وأثناء

ذلك كانت آسيا تنظر لأختها وتنظر لمنير، في انتظار أن تعرف ماذا ستفعل أميمة وكيف تواجهه بفعلته.

بعد انتهاء الشاي قامت أميمة وأخذت صينية الشاي لتدخلها المطبخ، ودخلت معها داليا التي عادت وهمست في أذن أبيها أن يأتي للداخل؛ لأن أمها تريده في أمر هام.

أصغت آسيا بأذنيها وهي تبدى انشغالا بالتلفاز، فسمعت حديث داليا، ونظرت خلسة لمنير لترى ردة فعله التي لم تزد على سؤال داليا: ماذا تريد والدتك؟ فقالت داليا: لا أعلم.

قام منير متوجهاً للداخل، وما إن رآته أميمة حتى أشارت له أن يدخل غرفة النوم الخاصة بهما، دخل وعقله مشغول ولا يعلم ماذا تريد، لكنه لم يستغرق كثيراً في تفكيره، فقد جاءت أميمة بسرعة، وبأسلوب محقق النيابة، سأله بسرعة خاطفة:

أين كنت قبل أن ترجع للبيت؟

نظر إليها باستغراب واتسعت عيناه من الدهشة فقال:

لا أفهم، ماذا تقصدين بالضبط.

قالت بجدية وحِدَّة أعلنت عنها عيناها الواسعتان:

أنت تعلم ما أقصد، أرجو أن تجيب بصراحة بدون لف أو دوران.

استفزه كلامها واتهامها له بالكذب مقدماً، فقال في عصبية:
كالعادة، كنت في الورشة، هل تغيب عنك هذه المعلومة مثلاً،
كل يوم في نفس الوقت أكون في الورشة، ما هو الجديد اليوم
بالتحديد؟

قالت وقد بدأ صوتها يرتفع وخطودها تزداد احمراراً وسخونة:
من كان معك في السيارة يا أستاذ، يا محترم؟
أخيراً وصل منير لمرحلة الفهم فأوماً برأسه ونظر في الأرض
مستنكراً وقال:

قولي أولاً من الذي جاء لك بهذه المعلومة؟
ردت في عصبية بدت في ارتجاف صوتها وتسارع أنفاسها:
ليس مهماً من الذي جاء بالمعلومة، المهم المعلومة صحيحة
أم لا؟

أجابها وقد ازداد هدوءاً وبدأ يتوقع بداية الأحداث:
أنت مخطئة يا هانم، المهم من صاحب المعلومة؟ لأنه أكد
أوصلها بطريقة مسمومة لك.

قالت في خيبة وحسرة وهي تضغط على أضراسها:
إذن فالمعلومة صحيحة؟
أجابها بتأكيد واضح في الضغط على مخارج حروف
الكلمات وإيمائه برأسه:

نعم، كانت معي سيدة في السيارة، هل هناك أسئلة أخرى؟
بُهِتت فأصابتها صمت بل خرس وخافت أن تكون ظنونها
الباقية صحيحة، ابتلعت ريقها بصعوبة واستجمعت حروف
الكلمات ببطء ثم قالت بقلق:

إياك أن تكون هذه السيدة هي؟، فلم تستطع نطق
اسمها.

أجهز عليها منير ليرحمها من عذاب الانتظار، ولتجرع
مرارتها مرة واحدة، فقال في ثبات:
بالضبط، بثينة هي من كانت معي.

دارت الأرض بها فوضعت يداها على رأسها، وقالت في
يأس:

حرام عليك، لم تفعل بي كل هذا؟، احترم نفسك واحترمني
قليلا، أنا تعبت، حرام عليك يا شيخ.

نظر إليها بثبات الواثق من براءته، ونزع يديها من على رأسها،
ووجه نظره صوب نظرها وقال:

أجبتك على كل أسئلتك، فهل من الممكن أن تجيبي عن
سؤال واحد فقط؟

من الذي نقل لك هذه المعلومة؟

صرخت في وجهه بغضب:

ليس مهماً من القائل، المهم أنها للأسف صحيحة.
كرر عليها سؤاله وكأنه يريد منها أن يسمع إجابة يعرفها سلفاً،
فقال:

قلت لك من صاحب الخبر؟

هل هي ضيفتنا الكريمة؟

هزت رأسها يمنة ويسرة ومطت شفيتها متحسرة ويائسة،
فقالت:

للأسف أراد الله أن يفضحك ويكشف سترك أمامها، لتؤكد
شكوكها ناحيتك، بأنك رجل لعوب.

وقد حاولت كثيراً أن أنزع هذه الفكرة من رأسها لكنها لم
تصدقني أبداً.

والآن لن أستطيع الكلام معها لتبرئتك من فعلتك، فقد رأتك
بعينها واعترفت أنت بلسانك بكل جرأة ووقاحة.

تملكه الغضب، فأمسك أذنها وجذبها بشدة لأسفل، ومال
عليها، وقال بغيط مكتوم:

احترمي نفسك، وانتبهي لألفاظك.

لو بقيت خلف أختك دائماً، ستخسرين الكثير.

بقوة حررت نفسها من يده، وتراجعت خطوات للوراء، وقالت
ودموعها ملء عينيها:

جرحتك ألفاظي؟ ولم تخجل من أفعالك؟

بدل ما تعتذر مني وتطلب السماح، تهددني بالخسارة؟

رق لدموعها فعاد لهدوئه فقال لها:

لم تسمعي مني ولم تسأليني ما الذي دعاني لهذا التصرف؟

فقط سمعت من أختك، التي تعلمي جيداً أنني لا أرتاح لها
وهي أيضاً تكرهني.

وبالتأكيد لن تقول مديحاً أو ثناءً، ولن تفسر الموقف بحسن
ظن، ستفسره بأبشع الظنون لتشعل حياتنا جحيماً.

إنها معقدة وكئيبة، وتريد كل المحيطين بها تعساء مثلها.

أخذت منديلاً فمسحت عينيها وخدودها من أثر دموعها،
وهدأت قليلاً، فانتظمت أنفاسها ودقات قلبها وقالت:

موافقة أسمعك وتقول سبب توصيلك للست بثينة.

اتفضل أتكلم.

جلس على السرير وأجلسها بجواره وأمسك بيديها وقص
عليها ما كان، فقال:

كنا كلنا في الورشة كالعادة نتابع عملنا اليومي وكل العاملين
معنا موجودون.

فجأة الجو بدأ يتغير، الشمس غابت والغيوم ملأت السماء، وبدأت تمطر وترعد وتبرق.

المطر نزل بغزارة وسرعة، والكل خاف من انقطاع المواصلات.

رأيت هذا في عيونهم، فقررت أن نكتفي بعمل اليوم، ونغادر قبل أن تحاصرنا الأمطار.

أوصلت الجميع بسيارتي لموقف السيارات الأجرة لتوصيلهم لمنزلهم.

الوحيدة التي لم نجد لها وسيلة مواصلات كانت بثينة، لأنها من قرية على الطريق خارج المدينة، لم يأت منها سيارات أو خشي السائقون من أن يأتوا ولا يجدوا ركاباً، وتحاصرهم الأمطار فتقطع عليهم الطريق.

اقترح بعض زميلات بثينة عليها أن تبيت معهن هذه الليلة، لكنها رفضت فلا يجوز لها أن تبيت خارج البيت، خصوصاً أن أهلها من الفلاحين ولن يتقبلوا ذلك العذر.

أصرت بثينة أن تبقى لتتظر سيارة توصلها لقريتها.

لم يكن هناك اختيار، ولم يكن من اللائق أن أترك فتاة مثلها وحدها في هذه المكان تحت المطر، فقررت أن أوصلها بسيارتي لقريتها، ولم تقبل إلا بعد إلحاح زميلاتنا عليها فليس هناك حل آخر.

أوصلتها وفي الطريق رأتنا الست آسيا أختك، والباقي عندك.
لو كنتِ مكاني ماذا كنت ستفعلين غير هذا؟ أحيانا نكون
مجبزين على فعل بعض الأشياء الغريبة في نظر البعض، ولو
علموا ظروفها لما صَبُّوا علينا ملامتهم وسوء ظنهم.
أنهى كلامه وهو ينظر في عيني أميمة، وقد بدا عليها بعض
الارتياح فقالت:

أتمنى أن تكون صادقا وأن أصدقك، يمكن أن يكون الموقف
فرض عليك هذا التصرف، لكنني أشك في كل شيء تذكر فيه
بشيئة هذه.

بدت على ملامح منير علامات اليأس من رد أميمة فقد كانت
لا تثق به، وكان دائما يكره أن يكون أول الكاذبين وآخر الصادقين
في نظرها، لكنه ليس الموقف الأول ليكتشف ذلك، فقد تعود
على مثل هذا الرد منها، فلم ينصدم بل صمت كعادته إلى أن نبهه
قولها له:

ألن تأتِ تجلس معنا بالخارج مع آسيا؟
أصابه ذهول فكيف يجلس معها بعد كل ما صار، فقال لأميمة:
لا، تفضلي أنت فأنا مُتعب سأنام مبكراً.

تركته وخرجت وأغلقت باب الغرفة، واستلقى هو على السرير
محبطاً كعادته، فكلما زاد حملة وكبر همه هرب إلى النوم كعادة

الكثيرين، فهناك من يهرب إلى النوم، وهناك من يهرب إلى الطعام فينتقم منه، وهناك من يهرب من المكان إلى مكان مفتوح، بحثاً عن الهواء النقي ليماً صدره، ويطردهم المحبوس داخله.

جلستا سوياً تحتسيان كوبين من الشاي، أعدتهما أميمة فور خروجها من عند منير، وكانت داليا ورانيا تشاهدان التلفاز في شغف فلم تعبأ بحديث الكبار، تناولت آسيا كوبها قبل أن يبرد فقد كانت تحب أن تشرب الشاي ساخناً، رشفت منه رشفة ورشفتين ووضعتة جانباً، وتطلعت إلى عيون أميمة التي كانت شاردة في صمت، نهبتها أن تحتسي كوبها قبل أن يبرد، فالجو بارد، والأفضل أن نشرب مشروبات ساخنة نشعرنا بالدفء.

تناولته أميمة وشربت منه ما يكفيها، ووضعتة جانباً أيضاً، وآسيا تراقب ملامحها عساها أن تهدي لما حدث من حوار وراء الأبواب المغلقة، لكن ملامح أميمة كانت أبعد من أن تنبئ بأية تفاصيل أو إشارات، الأمر الذي جعل فضول آسيا لا ينتظر هذا التشويق، فسألتها مباشرة وقالت:

يا ترى ما هي الأخبار؟ هل عند زوجك تفسير لما حدث؟

أجابتها أميمة بهدوء يوحي بثقتها وتصديقها لكلام زوجها فقالت:

الأمور عادية، قال: إن الظرف تطلب منه أن تركب معه ويوصلها لقريتها.

بثت آسيا بعضاً من وساوسها لتزعزع جبال ثقة أميمة، فقالت
في تهكم:

وطبعاً، أنت صدقته؟ والموضوع عادي عندك؟

ردت عليها أميمة باستغراب:

سألته وأجاب، وأكد أنتِ رأيت بعينيك كم أن الطقس متقلب
اليوم.

أكملت آسيا بث وساوسها فقالت بسخرية:

بصراحة الظروف خدمته، والسبب مُقنع أنها تركب على
الكرسي بجواره وليس في الخلف حتى تسنح له فرصة الاقتراب
والانفراد.

وسبحان الله، كل الناس مواصلاتها موجودة إلا هذه البنت
رغم أنها جميلة جداً.

صحيح يا أميمة، عرفتُها من هي؟

يبدو أن آسيا بدأت تنجح في هز الثقة، فظهر على وجه أميمة
بعض الارتباك، فاحمرت خدودها وزادت سرعة عيونها يمنة
ويسرة، ولم تُطق كثير كلام، فقالت في صوتٍ تعلوه عصبية
وبعض من غضب:

آسيا، أنا قلت لك ما حدث، مالكِ لا تصدقين؟

هل لأنك لا تحبين منيرا تصنعين له رواية خيالية ليكون هو فيها البطل الشرير؟

وحتى لا تذهب بك الظنون، البنت اسمها بثينة، من قرية مجاورة لنا، وطريق القرية غير ممهد، لذلك انقطعت المواصلات اليوم، واضطر أن يوصلها بنفسه، وجاء الأمر بدون ترتيب وأمام زملائها.

التقطت آسيا ناصية الحوار فقالت:

وهذه البنت ليست مرتبطة؟ خطوبة أو زواج مثلاً؟

ردت أميمة: لا ليست مرتبطة.

رفعت آسيا حاجباً وأنزلت آخر وقالت في استغراب:

شيء غريب أن تكون فتاة بهذا الجمال وليست مرتبطة، إن جمالها ملفت وواضح للجميع، ألا تري معي أن هناك سرّاً أو شيئاً غامضاً؟

توترت أميمة أكثر فقالت:

وماذا تريدان أن أفعل؟ حياتها الخاصة تخصها وحدها.

تابعت آسيا بصبر وإصرار على توصيل خيالاتها فقالت:

نعم هي حياتها الخاصة كما تقولين، لكن عندما توجد هذه الفتاة بهذا الجمال الفتان في مكان واحد يجمعها بزوجك لا بد من الحذر منها.

كما تشائين يا أختي، لكن كوني على حذر، ولا تعطيه ثقتك الكاملة فهو لاء الرجال مثل الأطفال، أقل النساء جمالا وذكاء يمكن أن تلعب بعقولهم، فما بالك لو كانت فتاة شابة جميلة وذكية، أكيد ستنجح لو أرادت ذلك.

حاولت أميمة أن تبدي تماسكها وثقتها في زوجها أمام أختها فقالت في حزم:

لكن منيرا يكبرها سنًا، فهي في العشرينات وهو قارب الأربعين، منير عاقل وليس عنده وقت لهذه المراهقات.

ضحكت آسيا في مكر لا يريح من يراه، وثقة في ظنها تجاه منير فقالت:

نعم منير سنه أكبر منها، لكن شكله وجسمه لا يبدو عليه عمره الحقيقي ومن يراه يحسبه شابا لم يجاوز الثلاثين عاما بعد.

وأيضاً هو مهتم بنفسه وملابسه وكأنه شاب يبحث عن عروسة، أراه في المستشفى منطلقاً ومنفتحاً مع الجميع، والابتسامة تملأ وجهه دائما.

قررت أميمة أن تضع حداً لهذا الحوار الذي أظهر توترها، وإن كانت داخلتها بعض الشكوك من كلام آسيا فقالت:

طبيعي أن يكون الإنسان علاقته طيبة مع زملائه في العمل، وأكيد التبسم والكلام والمخالطة مطلوبة ومشروعة، وليست

محل ربية ما دامت في حدود علاقات العمل، أرى ما تقولين عاديا ولا يدعو للخوف والشك.

أدركت آسيا أنها ضغطت أكثر من اللازم على أعصاب أميمة وقبلت أن تنهي حوارها مع أميمة لكن بذكرى من وساوس الشك، فقالت لها:

أنا لا أريدك أن تشكي في زوجك، لكن خذي حذرک وراقبيه من حين لآخر.

راقبي اتصالاته، ولا مانع من زيارته في الورشة على فترات متباعدة، وبعد ذلك أنت حرة في حكمك على تصرفاته، أنا أقصد أن تتبهي فقط ولا تتركي الأمور للصدف والظروف.

أنا تهمني مصلحتك وأكد أنت واثقة في هذا.

ردت أميمة عليها دون أن تنظر في وجهها، فكانت مستغرقة في مشاهدة التلفاز:

طبعا واثقة في كلامك، أنت أمي بعد أمي.

سعدت آسيا بهذا الشئ فتبسم وجهها وقالت:

تسلمي يا أميمة، ربنا يكرمك يا أختي، وبعد إذنك أريد أن أرتاح، فقد تعبت اليوم من السفر.

أجابتها أميمة على الفور:

طبعا طبعا، غرفة داليا جاهزة لك، خذي راحتك، وستنام داليا في غرفة رانيا.

قامت أميمة مع أختها آسيا توصلها لغرفة داليا، وعادت وقد شحنتها آسيا بكثير من الوسائس والشكوك تجاه منير وبثينة، اطمأنت على بناتها ثم دخلت غرفتها وقد ذهب منير في النوم، فحمدت ربها أنه نائم ولم يسمع حوارها مع آسيا، وكانت مخطئة في ظنها.

استلقت على سريرها تنظر للسقف مستغرقة في التفكير في كلام آسيا المسموم، وفيما تعرفه هي، وفي وساوسها السابقة تجاه بثينة وقد رأتها بعينها في الورشة، وهي ترتدي ملابساً تبرز جمالها، بألوانها التي تتماشى مع لون بشرتها وخصلة شعرها التي تظهر دائما على جبينها، ورأتها كم هي منطلقة ونشيطة، تلفت النظر والاهتمام بسبب حركتها الزائدة هذه.

تعلم أميمة أن آسيا متحاملة على منير فلم تُصدق كل ما قالت، ولم تظهر لها أنها صدقت بعضا من ظنونها، فقررت ألا تذهب وراء ظنونها وأن تتولى الأمر بنفسها فتراقب زوجها دون أن يشعر، وتواجهه بالزيارات للورشة دون أن يعلم، استقر فكرها على هذه الخطة، فرضيت عنه بما أوحى لها من أفكار، واستسلمت للنوم بعد يوم متقلب في كل شيء.

أصبح الصباح وقام منير مبكراً كعادته، قامت أميمة فأعدت الإفطار على المائدة وأيقظت داليا ورانيا لتناول الإفطار مع منير

والذهاب للمدرسة، فقد كانتا في المرحلة الابتدائية في السنة الخامسة والثالثة.

ارتدى منير ملابسه للعمل وحضرت داليا ورانيا حقائب المدرسة وخرجتا ليوصلهما منير بالسيارة للمدرسة، ولم تذهب أميمة للمدرسة في هذا اليوم، فضلت أن تبقى مع آسيا وقد سبق أن تقدمت بإجازة عن يومها هذا.

بمجرد خروج منير وبناته للخارج، خرجت آسيا من غرفتها وقد تهيأت للرحيل، تفاجأت أميمة فقالت لها:

خير يا آسيا؟ متى استيقظت؟

ولم ترتدين ملابس الخروج؟ هل أزعجناكِ؟

نفثت آسيا فهزت رأسها وقالت:

لا يا حبيبتي، ربنا يبارك فيكم، لكن أنا لازم أسافر فعندي ارتباطات كثيرة.

أظهرت أميمة قليلاً من التبرم وقالت:

أية ارتباطات؟ ألم نقل أن تقضي معنا بضعة أيام؟ وقد أخذت إجازة من المستشفى؟

أجابتها آسيا وقالت:

فعلاً أخذت إجازة من المستشفى، لكن عندي فعلاً بعض المشاوير تخص العمرة، أنا ناوية نطلع عمرة أنا ووالدتك

هذه السنة في شهر رمضان إن شاء الله، ربنا يكتبها لنا ولك يا أميمة.

اقتنعت أميمة قليلاً فقالت:

هل من الضروري أن تسافري اليوم؟

قطعت آسيا كل آمالها فقالت:

غصبا عني والله، الترتيبات كثيرة وتحتاج وقتاً طويلاً والإجازة قصيرة بالكاد تكفي لإنهاء الترتيبات.

وإن شاء الله لنا زيارات كثيرة إن شاء الله.

قالت أميمة:

وما دمت قد قررت الذهاب مبكراً هكذا، لماذا لم تخرجي حتى يوصلك منير بسيارته؟

ردت آسيا بكلمات مقنعة فقالت:

طريقنا مختلف، زوجك سيذهب للمدرسة ثم المستشفى، وأنا طريقي في اتجاه آخر، لم أحب أن يتأخر عن عمله.

قالت أميمة بيأس:

هل بالفعل مصممة أن تذهبي حالاً؟

ردت آسيا بابتسامة خفيفة:

للأسف لازم أسافر بسرعة.

تقبلت أميمة هذا التغير المفاجئ بأعذاره المنطقية، فذهبت سريعاً تعد لها إفطاراً ومشروباً ساخناً قبل أن تذهب، تناولتا الإفطار سوياً، وقامت آسيا مودعة أختها، واعدة إياها بزيارات قادمة، تعانقتا كالعادة ثم ذهبت في طريقها لتستقل أقرب المواصلات لتعود لبيتها.

عادت أميمة بعدما ودعت أختها، ولا تدري سبب ذهاب آسيا، هل فعلاً هي صادقة فيما تقول؟ أم أن الأحداث التي حدثت وحوارهما بالأمس أشعرها بأنها غير مرغوب في بقائها معهم في المنزل؟

لم تؤنب نفسها كثيراً فهي تعلم أختها آسيا، كم هي غريبة الأطوار.

اختلت أميمة بنفسها بعد أن خرج الجميع من المنزل، دارت في خيالاتٍ وظنون ووساوس تنسج خيوطاً واهية كخيوط العنكبوت لكنها مع وهنها تُمعن النظر فيها، فكّرت في كلام أختها كثيراً من جوانب مختلفة، تعلم تحامل آسيا على منير أحياناً، لكنها أيضاً تعلم زوجها وما يحدثه من ريبة في مواقف عديدة.

تساءلت لماذا هذه البنت بالذات تركب معه السيارة؟ هل فعلاً كانت فرصة ليجتمعا سوياً في مكان خاص لا تراهما فيه أعين الناس كما أوحى لها آسيا؟

هل لهذا الحد انقطع الطريق بسبب الأمطار فكان عذره مقبولا؟

ولو كان الطريق مقطوعاً فكيف أوصلها بسيارته هو ولم يحدث شيء؟

كان بإمكانه أن يستأجر لها سيارة أجرة توصلها حيث شاءت.
تري هل أوصلها مباشرة لقريتها؟ أم اقتطعا بعض الوقت في مكان ما؟

مهما يكن فلا ينبغي أن تمر هذه الحادثة هكذا عابرة، لابد أن أراقب تصرفاته حتى أقنع بصدق كلامه.

لم تكن أميمة تحتاج لوساوس آسيا كثيراً، فقد كانت هي أستاذة في سوء الظن وتفسير النوايا كما تراها ظنونها، لا تصدق الأفعال كثيراً، لكن تفكر وتلتقط الأفكار من بين السطور، فتسيء نية المتحدث، وقد سبب لها هذا نفورا كثيراً من المقربين منها، لكنها لم يردعها هذا النفور ويجعلها تراجع نفسها، بل استمرت كما هي، تدعي أنها صاحبة الحقيقة المطلقة والرؤية الثاقبة التي ترى ما خلف الستار وما أخفاه الفؤاد.

كانت دائماً متحفزة للصدام، ولم تكن تحتاج سوى عودا من الثقاب من جعبة آسيا، تلقيه فتشتعل كل الوسواس لتحدث لهما ودخانا لتبدأ به معركة استعادة الكرامة واسترداد الوطن.

لم تكن تشعره بأنها تحبه، بل كانت تريد أن تمتلكه، فيذهب حيثما أرادت ويتوقف لو أشارت، لكنه كان مستعصياً عليها، عنيدا مزهواً بنفسه، يرى نفسه أكبر وأعز من أن يُسجن في قفص، وقد يقبل الرجل أحيانا ذلك الحبس ويقول السجن أحب إلي، إذا كانت من تسجنه تحبه لذاته، فتملاً شغاف قلبه بروحها وبهجتها، فيستغني بها عمّن سواها، بل يغيب عن محيطه ويذوب معها، وتكون تلك جنة الخلد، لا سجنًا للعذاب.

فكلما أحست منه نظرة مريبة، لامرأة أو فتاة قابلها في مناسبة أو مصادفة، تقيم الدنيا ولا تقعدھا، ليس غيرة عليه من تلك المرأة، بل ثاراً لكرامتها، فكيف تجرؤ أن تنظر لها وأنا معك؟ كيف تكون نظرات الناس لي بعد ذلك؟

تصدمه كلماتها فقد كان يظن أنها تغار عليه كأثنى تذود عن ذكرها، لكنها للأسف تدافع عن ممتلكاتها فقط، وأما الحب فذاك شأن المراهقين الصغار، أما الآن فقد صرت أباً وشاباً مفرق رأسك، قد ولى ذلك العهد وغابت مشاعره، ارجع لرشدك، لا تذهب لتهلكتك.

قررت أن تلاحقه وتراقبه، تفتش في أوراقه الخاصة، تتطلع على أرقام الهواتف في مفكرة جيبه الصغيرة، تقرأ خواطره التي يكتبها من حين لآخر، عساها أن تظفر بما يدينه أو ما يبرئه، وإن كانت الإدانة أحب إليها من البراءة غالباً، لتثبت للجميع وله

خاصة صدق حدسها، ولمعان ذكائها، فيعترف لها بما يفعل خوفاً من أن يكشفه منام تراه، أو هاتفاً يلقي على مسامعها برهان إدانته.

كلما دار بينهما حوار غاصت في كلماته تنتهز فرصة لتلتقط هفواته، فإن حدثها في شأن عام، أو خبر أو حادثة اجتماعية، تُسقط الحوار على حياتهما فيكون هو بطل الأحداث المروية فيظل يدافع عن رأيه فتتبعه بتساؤل فحواه (لم تدافع هكذا؟) هل أنت مثل من فعل هذا؟، فينفعل من طريقتها في الحوار وينتهي بعصبية تراها في عينيه اللتين يزيد اتساعهما، وجبينه الذي تزداد خطوطه المستقيمة والمتعرجة على السواء.

كانت دالياً تلحظ تدقيق والدتها أميمة في كلام أبيها منير، فكل جملة ينطقها يعقبها سؤال قد تتبعه عدة أسئلة، كل تعبير أو حركة أو إيحاء منه تفسرها على أبشع صورة، لا تترك له متنفساً أو خصوصية، لو انفرد عنهم ليقراً تلاحقه لتسأله ماذا تقرأ؟ ولم تقرأ وأنت معنا أصلاً؟ فالقراءة تفصلك عنا وتمنع الحوار بيننا (وكان بينهما حواراً أصلاً)، لا تريده أن ينفرد بنفسه أو يخلو بخاطره في الفراغ، دائماً تضعه تحت المجهر.

وكانت ترى تبرم والدها من تصرفات والدتها فينفعل أحياناً ويعلو صوته، وأحياناً يغادر المنزل، وأحياناً كثيرة يقهرها بسطوته، وقد يتطور الأمر للضرب والإهانة أيضاً.

كانت الفتاة تكبر وترى وتحلل وتكون رأياً، وترى ما يزعج الرجل من زوجته، وما تفقده الزوجة في زوجها.

رأت والدها يطلب راحة البال وسكوناً في منزله، فلا يحب الصوت المرتفع المزعج، ولا سيل الأوامر والنواهي الذي ينهمر من شفتي زوجته صباح مساء.

يريد زوجة تطيعه ولا تكسر خاطره، تبر قسمه وتُقدّر رأيه، لكن مع أميمة قد خاب ظنه، فرأيها صواب حتى إن جانبه الصواب، لا تعترف لمدير بثقافة ولا فكر ولا سداد رأي، هي فقط ترى الحقيقة، وإن ثبت خطأها لا تعترف أبداً به، بل تبرره وتأخذها الأنفة ويتملكها الكبرياء أو الكبر فلا تنزل عنه أبداً.

وهكذا تربت البنتان في وسط معركة البقاء للأقوى، بين المطرقة والسندان، فكان إحساساً مرّاً أن يكون والداهما بهذا القدر من التنافر والندية.

هل كل البيوت مثل هذا البيت؟ هل كل الأسر مثل أسرتهما؟

لا تعتقد داليا أن الإجابة نعم، فلا بد أن هناك قدراً من التفاهم أو التناغم بين الأسر، أفضل من هذه الحال التي تعيش فيها، لا بد أن هناك هواءً منعشاً، يكون مُعيناً وداعماً لاستمرار الحياة مستقرة، بعيداً عن صخب الحوارات وعصبية المشاحنات التي تنتهي دوماً بخصام أو هجران. وإلا فالوحدة هي خير رفيق، كما رأى أحد الشعراء حين قال:

وإني بعد تجريبي لأمرٍ أدلك، لا أغشك، بانفرادي



سجال

مرت الأيام، ومع تواليها تزداد شكوك أميمة تجاه زوجها، وذهبت في زياراتٍ مفاجئة للورشة، بحجة مرورها مصادفةً وهي تذهب للمدرسة، أو لزيارة إحدى زميلاتهما، فتنفذ نظراتها مباشرة لمكتب منير المفتوح، لتجد بثينة تجلس بجواره يتحدثان بصوت خافت، فتداهم المكتب بسرعة غير متوقعة، وتظهر المفاجأة وقعها على منير الذي يتنفض من زيارتها دون علمه، ويسألها مستنكراً:

خير يا أميمة؟ هل حدث شيء؟

فتبتسم ساخرة وهازئة له ولبثينة وتهز رأسها وتقول:

آسفة، قطعت حديثكما، لكن أعتقد أن زيارتي للورشة طبيعية ولا تحتاج لمبررات.

ينظر لها منير صامتاً لبرهة، وقد أدرك مأربها، فيحاول امتصاصها فيقول:

أكيد طبعاً، الورشة ملكك تزورينها كما تشائين.

تشعر بثينة بحرج في موقعها بينهما، فتستأذن منير في الانصراف وتقول:

بعد إذنك يا أستاذ منير، وشرفتي يا مدام أميمة، أهلاً وسهلاً بحضرتك.

يأذن لها منير، لكن تعاجلها أميمة قبل أن تنصرف فتقول:

أنت، بثينة؟

ترد بثينة بحرج وقد أصابها القلق:

نعم أنا بثينة.

تمد أميمة أمد الحوار لتستشف ما وراء الكلمات فتقول:

جميلة ما شاء الله، سمعت كلاماً كثيراً عن مهارتك في الورشة.

بالمناسبة، هل أنت مرتبطة؟

ترد بثينة وهي تريد أن تنهى الحوار:

لا، لست مرتبطة.

بدأ منير يدرك أن الحوار سيؤدي لصدام بينهما، فأراد لأميمة أن تجلس وأن تنصرف بثينة، لكن أميمة ظلت واقفة تسد باب المكتب وأصررت على استكمال الحوار فقالت:

معقولة، ألا يوجد من الرجال من يقدر هذا الجمال؟ أم أن الرجال ماتت في الحرب كما يقولون؟

ردت بثينة بإجابة تتفق مع هذه المواقف فقالت:

كل شيء نصيب، لم يأذن الله بعد، وكل شيء في وقته.

بعد إذن حضرتك.

وبدت عليها الرغبة في الانصراف، وأدركت أميمة أنها وصلت لغايتها فلم تعد في حاجة لمزيد من الكلام فخلت لها الطريق وسمحت لها بالانصراف.

جلست أميمة أمام منير فعاجلها بسؤاله:

لم تقولي إنك ستمرين على الورشة، خير إن شاء الله، أي ريح أت بك إلينا؟ هل البنات بخير؟

أجابته أميمة وقد أدركت أن ما تريده من زيارته لن يمر على ذكاء منير دون إدراكه، فقالت بدون لف أو دوران:

كنت راجعة من المدرسة وقابلت في طريقي مدام نادية، زوجة دكتور ثروت زميلك، أصرت على أن أشرب معها الشاي في بيتها القريب من الورشة، وقلتُ أزورك بالمرة، فقد تحتاج لحاجة ما.

ويمكنك أن تتأكد من صاحبك، أسأله.

لم يشكك في كلامها، فلن تستطيع أن تذكر اسم دكتور ثروت بالكذب لأنها تعلم أنه صديقه المقرب، ويلتقيان يومياً في المستشفى، لكنه لم يصدق براءة نواياها فهو يعلمها جيداً.

أظهر تصديقه لها وقبوله مبرر زيارتها، فقال لها مبتسماً:

ما انطباعك عن الورشة؟ أعتقد أنك لم تزورها منذ مدة.

نظرت إليه بابتسامة باردة وقالت:

الورشة جميلة، جميلة جدا، الشغل فيها ممتع، وهذا يدعوني لتكرار الزيارة مرة أخرى.

وجلسك وقتا طويلا أنت والست بثينة دليل كاف على رواج الورشة، أليس كذلك؟

عاجلها بقوله:

ماذا تقصدين بكلامك؟

انفرجت شفتاها عن ابتسامة كبيرة ونظرت في عينيه وقالت:

مالك؟ تسأل وكأنك تخفى أسراراً تخشى كشفها.

أجابها بتوتر:

كلامك له مغزى سيء ولا يوجد أسرار أخفيها.

زادت نبرتها الساخرة فقالت:

بريئة والله، دائما تظلمني.

أنا فقط أقول إن الصدف والظروف التي تجمعك أنت وبثينة كثيرة، مرة بسبب الشغل ومرة بسبب المطر.

أغلق باب المكتب وملأها بنظره وقال:

أخيرا يا أميمة نطقت بالحقيقة، قل لي إنك لم تنسي الموضوع، وأن آسيا نجحت في شغلها معك، وزيارتك للمراقبة ومن حسن حظك لها سبب مقنع.

فقدت أميمة هدوءها فقالت في ضجر:

ألا يوجد غيرها في الورشة؟ كل زيارة أجدها معك؟

هذا كثير وفوق احتمالي كزوجة، وأيضاً صورتني أمام الناس، أنا لا أملأ عينيك أو أكفيك، أليس كذلك؟

تميز وجه منير غضباً، خشي أن يلاحظ المحيطون بهما ذلك، فخفض صوته بجهد وقال وهو يضغط على أضراسه:

آه منك يا أميمة، تدورين في دائرة مفرغة ليس لها نهاية.

ألم يكفيك ما قيل من كلام في السابق في هذا الموضوع؟

كل فترة تعيدن نفس الحوارات ونفس الاتهامات!

نظرت له بغیظ تبين في اتساع حدقاتها فقالت بعصبية:

لا أطيق أن أراها أو أن أتخيلها، لازم تمشى من هنا.

هناك الكثير ممن يصلح للعمل في الورشة، فلن يتأثر العمل بغيابها.

أم أنك تريد بقاءها لأغراض أخرى يا أستاذ منير؟

زادت حمرة وجهه، وبدا دخان الغضب في عينيه، فقال وهو يمسك يدها بقسوة:

قلت لك قبل الآن، اتركي وساوسك جانبا.

بشينة تتقن عملها والورشة بحاجة لها، وكثير من زبائننا مرتبطون بها، يعنى إن تركت الورشة سيتبعونها في عملها الجديد.

أتمنى أن تتحدثي بطريقة مهذبة أفضل من هذه الاتهامات
الباطلة، سئمت من نظرتك إليّ وكأنني مراهق أو رجل تافه، أنا
أفضل من هذه الصورة، لكنك لا ترين.

تطلعت لعينه بياس وقالت:

إذن أنت تريدها أن تبقى ولا تستطيع فراقها.

سأجد طريقة للحفاظ على أسرتي وليكن ما يكون.

سلام يا معلم منير.

وانتفضت قائمة فجأة، وغادرت بسرعة قبل أن يرد عليها.

تركته في مكتبه شاردًا، مفكرًا فيما يمكن أن تفعله، هو يعلم
أنها مجنونة بعض الشيء، ويعلم أن من سبب له كل هذه
المشاكل هي آسيا، عندما رأته، وليتها ما رأته، لكنه القدر الذي
أراد لكل هذا أن يحدث، فقال في نفسه:

لعنة الله عليك يا آسيا، أين أنت يا عزرائيل لتأخذها؟

يعلم أن أميمة سريعة الغضب، وبها كثير من الطباع التي
يكرهها، لكنها ليست مؤذية أو شريرة قد تجلب الضرر لأحد.

لكن الخوف من أن يجتمع خبث ومكر آسيا مع غضب أميمة
وثورتها، وسذاجتها أحياناً، يؤدي ذلك لمؤامرة بشعة، قد تجلب
الكثير من الكوارث.

لذلك قرر أن يغادر الورشة سريعاً، ليلحق بها قبل أن تتطور أفكارها ووساوسها، فاستقل سيارته ورجع للمنزل.

دخل منزله فوجد داليا وrania تجلسان للمذاكرة في غرفتهما الخاصة، كان المكان ساكناً إلا من صوت أواني المطبخ، تقدّم فوجدها واقفة تعد الطعام، تعمل في صمت بدون ضجتها المعهودة، فقد كانت أميمة لا تحب أن تنفرد بالإنجازات وحدها، بل كانت تحب أن يشاركها كل أفراد أسرتها، تكون في المطبخ ولسانها كالسوط يتحرك يميناً ويساراً، يصدر أوامره لداليا وrania بترتيب الغسيل وتنظيف الأرضيات وجمع القمامة، وإن انتهتا من هذه الأعمال ابتكرت لهما أعمالاً أخرى، ولو كان منير نفسه موجوداً يكون له حظ ونصيب من هذه الأعمال، المهم أن يبقى الكل واقفاً مثلما تقف هي فلا وقت للراحة، وإن رأت أحدهم مرتاحاً أو يشاهد التلفاز، يُجن جنونها وتنفن في ابتكار ما يورق راحته وهدوءه.

لكن اليوم منير لا يسمع لها صوتاً، والبنات لا يطفن حولها ككعبة البيت الحرام، إن هذا الهدوء يزيد قلقه واضطرابه، أم أنها تناست ما حدث، أو أنها بيّنت نيتها على فعل أمر ما، وهي الآن ترتب له بهدوء، بدون صخب أو غضب يفقدها تركيزها.

نادى على ابنتيه وسألتهما عن حالهما، وأخبارهما في المدرسة وفي البيت بعد مجيئهما، عساه أن يلتقط أية معلومة تكون حدثت

في المدرسة مهدت لزيارة أميمة للورشة، أو يعرف ماذا حدث بعدما رجعت أميمة من الورشة غاضبة، هل تكلمت مع أحد؟ أو هاتفت أحداً أو بدت عليها عصبية أو غضب؟

لكن إجابات داليا ورائيا لم تزد على (الحمد لله، كلنا بخير، عاديّ ككل الأيام).

علم أن أميمة لم تظهر شيئاً من ضجرها أمام البنات، وتخفي في نفسها ما الله مبديه في الأيام القادمة، حاول أن يخمن ويتوقع لكنه يراها أمامه هادئة، فقد أنهت إعداد الطعام وجاءت به ولم يبد عليها شيء، يتفحص ملامحها جيداً فلا يلاحظ علامات للغضب أو التحفز للصراع، الذي أصبح فرداً من أفراد الأسرة ويتواجد يومياً معهم.

انتهوا من تناول الطعام فجاءت بالشاي أيضاً، ازدادت حيرته وريبته معاً، بعد ذلك قامت وانزوت في زاوية لتراجع بعض أعمال خاصة بعملها في المدرسة، لم يدر بينهما حوار هذه الليلة، انتهت من عملها وتفقدت بنيتها تهيئة للنوم ثم دخلت غرفة نومها بدلت ملابسها ونامت.

لم يأتِه نوم، بل جاءه أرق تسرب إلى فكره وخياله، خرج وجلس في الصالة ساكناً، أسند ظهره للوراء، مريح اليدين، مطبق الشفتين كأنه تمثال للفراعين شاخصاً ببصره عبر النافذة لسماء صافية يرى نفسه مثلها.

لاحت له بعض أفكار قد تُذهب كتابتها ملالة أرقه، أخرج من إحدى الأدراج دفترًا ورقيًا، واختار قلمًا من الرصاص جيد الخط، وجلس متفكرًا يكتب في استغراق:

لست لغزاً حَيَّرَ الأفهام أبداً، فافهموه.

لست شيطاناً أضل طريقكم كي تحرقوه.

لست سماً للأفاعي، لست ثعباناً مخيفاً تحذروه.

بل أنا باب لخير هاتلٍ لو تفتحوه.

انظروا المفتاح، وابحثوا أين الأبعاد ضيعوه.

انتقوا الأوقات والألفاظ حتما تعثروه.

ثم نظر فيما كتب، فأحس أنه كتب خواطره بدمه، فشعر بوجع في صدره، طوى دفتره، وذهب يلتمس النعاس في فراش مليء بسوء الظن والنية، فهل سينام؟ نعم سينام، فكلما حزبه أمر يهرب للنوم، تلك كانت طبيعته.

أصبح الصباح وقد استيقظت الأسرة كعادة كل يوم، تناولوا إفطاراً خفيفاً أعدته أميمة التي جهزت بعد ذلك الفطائر المحشوة بالجبنه أو الشكولاته للبنات، يأكلنها في المدرسة وقت الراحة، وانطلق الجميع في سيارة منير للمدرسة أولاً، ثم ذهب هو للمستشفى.

دخل منير لمكتبه في المستشفى العام، وجلس على كرسيه صامتاً ينظر أمامه، مستغرق التفكير لا يفعل شيئاً، ولم يطلب حتى قهوته الصباحية.

دخل عليه زميل عمله، وصديقه المقرب، دكتور ثروت، بطّته التي تشبه بهجة الصباح، فكان طويلاً جميلاً أنيقاً في ملبسه وعباراته، حيّاهُ بتحية الصباح بابتسامته المعهودة، التي قابلها منير بابتسامة مقتضبة، وتحية بصوت منخفض.

لمح ثروت في عيني صاحبه أسى وألما، أفقده روحه المنطلقة ودعابته المرحّة، التي تسخر من كل شيء حتى من نفسه هو، أحس أن صديقه يتألم فسأله برفق:

مالك يا منير؟

هل حدث شيء لك أو للبنات أو لزوجتك؟

انتبه منير لسؤال صاحبه، فنظر له نظرة طويلة بعض الشيء كأنه يتردد في البوح بمكنونه له، لكنه قرر سريعاً فقال:

الحمد لله كلنا بخير.

تساءل ثروت متعجباً:

إذن لم هذا العبوس والاستغراق؟

رد منير ببعض المداراة فقال:

بعض ما يصيب كثير من الأسر من مشاكل وملل وتقلبات.

فَطَنَ ثروت أن صاحبه لا يريد أن يفصح عن آلامه وأسراره، فلم يحب أن يكون هو الآخر متطفلاً في إلحاحه، فقال في تقرير فكرة عامة ومعروفة:

كل البيوت والأسر يصيبها الفتور والملل، وبعض المشاكل التي أحيانا تكون ضرورية للاستمرار في الحياة، فكما تعلم الصراع بين الأجناس والطباع دائما موجود، منذ بدء الخليقة وسيستمر لنهايتها.

المهم في ذلك ألا ننجرف نحن خلف طباعنا الشريرة، وغرائزنا الأنانية، وأن نُعمل عقلنا بتجرد، حتى نعبّر بحار الظلمة بأقل الخسائر.

استمع له منير بتركيز ثم سأله قائلاً:

وما العمل لو كنت أنت دائما محلاً للشك والاتهام؟ يراك المحيطون بك شريراً لا خير فيك.

أجابه ثروت وقد أدرك وجع صاحبه فقال:

الصبر يا صديقي، واستعمال الحكمة التي تتميز بها بعض العقول على بعض.

استيعاب المخطئ واحتضانه يجعل مهمة تقويمه وردعه أمراً ميسوراً.

لا يجوز لنا أن نترك الملل يبني جدراناً بيننا، تُفقدنا الشعور ببعضنا البعض، وتنزع عنا طاقتنا لتكسير هذه الجدران.

بادره منير وقد بدا له أنه وصل لمرحلة الفهم فقال:

إذن ما هي أسرع الحلول؟

أجابه ثروت فقال في إجابة وجيزة شافية:

أسرع الطرق هي المواجهة والحوار لإذابة الجليد قبل تكوينه، حتى لو أصابتنا بعض الآلام خلال هذه العملية.

كعاداته فقد أعطى ثروت لصديقه وزميله دواء شافيا، ووصفة صائبة لتخَطّي مأزقه دون أن يتطرق لتفاصيل قد تُشعر منير بالحرَج، فقد كان منير كتوماً لا يفضي بأسراره، ولا يحب أن يقتحم أحد عليه حياته دون إذن منه هو شخصياً.

كان يثق في د. ثروت، وفي آرائه التي تزداد ثقلاً وصواباً من واسع ثقافته، فقد كان ثروت قارئاً ومطلعاً على موضوعات شتى في نواحي الحياة.

قرر أن يعمل بنصيحة زميله، وبعد انتهاء عمله لم يذهب للورشة أولاً، بل ذهب لأحد المطاعم واشترى غذاءً جاهزاً، ثم ذهب للمدرسة وانتظر في سيارته لنهاية اليوم الدراسي، ليأخذ معه زوجته وبناته.

ولم يمض وقت طويل حتى رن جرس المدرسة بالانصراف، فخرج التلاميذ أفواجاً وقد أثاروا جلبة وضجيجا، ومن بعيد أهلت داليا ورائيا، ناداهما منير فجاءته داليا مسرعة، فسألها عن

والدتها فقالت إنها ستذهب إليها وتعلمها بوصوله، رجعت داليا لتخبر والدتها بقدوم والدها وانتظاره بالخارج، فأمسكت يدها وخرجتا سويا ناحية السيارة حيث منير وراينا التي احتلت الكرسي الأمامي بجوار والدها.

أشار منير لراينا أن ترجع للخلف، وأن تجلس أميمة بجواره، لكن أميمة رفضت أن تستجيب له فأصرت أن تجلس في الخلف، في إشارة منها لما حدث سابقاً من جلوس بثينة بجواره، فلم ترض هي أن تجلس مكانها.

لم يلح عليها وانطلق بهم سريعا للمنزل، دخلوا سويا وغيروا ملابسهم، وذهبت أميمة لتحضير الغذاء كعادتها لكنها سرعان ما أتنها رانيا قائلة لها إن أباهما قد أشتري غذاء جاهزا، به أنواع شهية من المشويات والأصناف اللذيذة، رجعت مع رانيا لسفرة الطعام، وقد فتح منير علب الغذاء على طول الطاولة، وبدأ الجميع بتناول الغذاء الذي اشتراه منير خصيصاً، نوعاً من التودد لأميمة لإزالة الحواجز، ومنعا لتلال الملل والجفاء أن تتكون.

قرر ألا يذهب للورشة هذا اليوم، وأن يجلس مع زوجته ليخرجها من صمتها ولا يتركها لنفسها فتحرقها نار الوسواس والغيرة.

أحضرت الشاي بعد الغذاء، وجلس الجميع أمام التلفاز يحتسونه ببطء، أشار منير لداليا وراينا أن تذهبا لاستذكار دروسهما

اليومية في غرفتهما الخاصة، ودخلت أميمة للمطبخ لغسل الكاسات وترتيب بعض الأغراض ثم دخلت غرفة نومها، لحقها منير فدخل وأغلق الباب خلفه فاندھشت من غلقه الباب، فقد كانت عادته أن ينزل الآن للورشة، زادت دهشتها لما رأيته يستلقي على السرير جانبها ويقرب منها، أبعدته عنها وأعطته ظهرها، اقترب منها فأنطقها فقالت له:

ماذا تريد مني الآن؟ اذهب إلى ورشتك.

زاد من دهشتها حين أجابها فقال:

لن أذهب للورشة اليوم، اليوم ملك لك يا أميمة.

داخلها بعض السرور من كلامه فقالت:

ليس من عادتك أن تغيب عن الورشة، فماذا حدث؟

احتضنها مبتسماً وقال لها:

لا شيء سوى أن أكون بجوارك.

لم تدم سعادتها طويلاً، فقد رن جرس الهاتف بصوته الرنان، فسارعت داليا ترفع سماعته لتنهى صراخه، فتعرفت على المتصل ثم أبلغت أباه بالاسم بصوت مرتفع اخترق أذن أميمة:

بثينة على الهاتف يا أبي، تطلبك في الورشة.

امتعض منير فعرض شفتيه، وأغمض جفنيه لسماع اسمها، فعاجلته أميمة في حلق وغضب:

لم تقدر على فراقك ساعة واحدة، اذهب للست هانم.
قام من على سريره مخترقا الباب ووصل للهاتف في مكانه
في ميدان الصالة والتقط سماعته وقال في غضب مكبوت:

نعم يا بثينة، هل هناك شيء هام؟

أجابته من الطرف الآخر:

أنا آسفة يا أستاذ منير على الاتصال لكن موظف الضرائب
عندنا، ويريد الاطلاع على عمل الورشة ولا أدر كيف أتصرف
معه.

أنهى مكالمته معها فقال:

سأتي إليه حالا، أعلميه ذلك.

ووضع السماعة لسمع وابلاً من عبارات الغضب والغيط التي
انهمرت من شفتي أميمة، يعلم مدى ضيقها لكن ماذا يفعل؟
فالأمر فعلاً مهم، أعلمها بالخبر، لم تصدقه، واعتبرته سبباً
لمغادرة المنزل للقاء الهانم في الورشة، تركها وبدل ملابسه على
عجل ولم يسمع لما تقول، نزل من منزله واستقل سيارته وذهب.

تركها والغيرة تشتعل داخلها تحرق الأخضر واليابس، لم تهدأ
ولم تجلس ولم تقف، بل تروح ذهاباً وإياباً في المنزل وجهها
كأنه قطعة جمر لو اقتربت منها لاحتقرت، تنظر إليها داليا فتراها
كالبركان يقذف بحممه حوله، لو سألتها: ما بك يا أمي؟ تنهرها

وتأمرها أن تخرس ولا تنطق ابداً، لم يهدأ عقلها المشوش
لفكرة تريحها سريعاً، ولكن بعد جهد من استجماع قوى تفكيرها
بعدما كاد عقلها أن ينفجر اهدت إلى أن تتصل بعزة زوجة
شوقي، الأخ الأصغر لمنير، والتي تسكن فوق الورشة مباشرة،
اتصلت بها على عجل، وأصابعها ترتعش وهي تضغط على أرقام
الهاتف، وما أن رفعت عزة سماعة تليفونها حتى بادرتها أميمة
بالسلام والتحية على عجل، ثم طلبت منها مباشرة أن تنظر هل
منير في الورشة أم لا؟ أو ترسل أحد أبنائها ليتأكد من ذلك من
الورشة، سألتها عزة: هل هناك شيء؟ لكن أميمة عاجلتها أن لا
شيء لكن منير ذهب سريعاً للورشة فخشيت أن يكون هناك شيء
ما، لكنها طلبت من عزة ألا تخبر منيراً باتصالها هذا.

تركت عزة سماعة الهاتف جانباً، ونظرت من شرفتها لتجد أن
منيراً وبثينة استقلا السيارة وذهبا، رجعت بسرعة وأبلغت أميمة
بما رأت، بطريقة تجعل الإشاعة حقيقة.

دارت الأرض بأميمة، ولم تكن قد توقفت من دورانها وقت
الاتصال الأول، قد بلغت نهايتك يا منير، أيها الحقير الخائن
الكذاب، ماذا ستقول بعد كل هذا؟ هل ستبرر ذلك بأكاذيبك
المعهودة؟ هل ستلعب بعقلي وقلبي ككل مرة؟ لا والله، لست
بهذه السذاجة والعبط، قد كانت آسيا على حق، كانت ظنونها
حقائق ولم أصدقها، كنت يا منير دوماً محلاً للشك، والآن لم

يعد هناك مجالاً للشك، قد انجلت الحقيقة، ولم يعد هناك مكانا للتبرير والدفاع، قد آن لي أن أفعل ما أريد، ليس هناك ما يمنعني، أو ما أخاف عليه بعد الآن، ليس هناك وقت للرجوع أو للمسامحة، الآن وليس بعد، الآن يجب أن أتحرك وأدافع عن كرامتي التي هدرها ذلك الخائن وتلك الفتاة اللعوب.

قضت نهارها تغلي من الغيظ والتفكير، تقيس مساحة بيتها ذهاباً وإياباً، لا تملك صبراً لسماع أي كلمة من بنتيها، تملكها الغضب وحرّكتها العصبية، لا ترى أمام عينيها، لا تعلم ماذا ستقول لذلك الخائن عند عودته، قد فاض بها الكيل ولم يعد فيها صدر يسعه، أو قلب يسامحه.

مرت الساعات ثقيلاً عليها، حتى لملم النهار خيامه وولى، أقبل المساء وأقبل معه منير كعادته مُحمّلاً بأكياس الفاكهة وما تشتهيّه بنتاه من حلوى جميلة.

دخل مبتسماً مبتهجاً، رأت حالته هذه فتأكد شكها، لم ترد أن يكشف ما تنويه فقد قررت ألا تكلمه هذه المرة فيما فعل، لكنها ستفعل ما لا يتوقعه كي ينتهي هذا الكابوس، وتفرض ذلك الاشتباك بينه وبين السافلة بثينة، كما تنعتها دائماً.

كعادتها أحضرت العشاء وجلست معه ومع بنتيها لتناولهن، انزوت بحجة تحضير دروس الغد، دخل منير غرفته وبدل ملابسه واستغرق في النوم، تأكدت أكثر وأكثر لما رأتة منهكاً، يغلبه نعاس أسلمه للسريّر وسرعان ما غرق في نومه.

ظلت فترة في مكانها تتظاهر بانهماكها في عملها، ذهبت بخفة تمشي على طرفي قدميها لغرفة النوم ونظرت لتتأكد من نومه، رآته غارقاً في نومه فلم يشعر بها حينما دخلت عليه وكأنها تضبط عليه غطاءه.

رجعت لمكانها المنزوي وأخذت الهاتف معها وأدارت قرصه بأرقام لا تخطئها، كان الوقت متأخراً لكنها تعلم أن آسيا لا تنام مبكراً، أو لا تنام أصلاً، فلا همَّ لديها لا زوج ولا أولاد، فاتصلت بها.

كانت آسيا في هذه الأيام قد رجعت من رحلة العمرة هي ووالدتها، ومازالت في إجازة من المستشفى حتى تروح من إرهاق السفر، فلم تكن مشغولة بل كانت متفرغة، وإن لم تكن متفرغة فستجد فراغاً رغم شغلها لمساعدة أميمة فيما هي مقدمة عليه.

رن جرس هاتفها فوجدت رقم أميمة يظهر في شاشته، فالتقطته بسرعة تبادلتا التحية والسلام، ولم تصبر أميمة، فقد بادرتها بأنها تحتاجها في أمر هام، سألتها آسيا عن حالها وحال بناتها فطمأنتها، لكنها قالت لها أن الأمر يخص منير، وله علاقة بما أثارته آسيا في زيارتها لها من قبل.

اعتدلت آسيا في جلستها وسألتها بشغف عن الموضوع، فقالت أميمة أنها تأكدت شكوكها تجاه منير أكثر من مرة، وتريد أن تضع حداً لهذه المهزلة، وتحتاج لها مساعدتها برأيها.

تهلل وجه آسيا مما سمعته فقد تأكد ظنها، وظهر صدق وساوسها لدى أختها أميمة، والآن تستطيع أن تفعل ما تريد في منير المتعجرف، الذي يرى نفسه أفضل الرجال.

سألته آسيا عما رأت أو سمعت وجعلها تتأكد من شكوكها تجاه زوجها، فأجابتها أميمة وقصت عليها توالي الأحداث، وأنها الآن لم تكلمه فيما فعل مؤخراً فقد سئمت من المبررات والأسباب، وملت من سذاجتها وطببتها وتصديقها له، وتريد أن تضع نهاية لهذا الأمر.

أصغت لها آسيا وقالت لها أن تأتي لها في بيتها حتى يكون الحوار أفضل، فزوجها الآن قد يسمعها فلا تستطيع الكلام، فقالت لها أن تخبر منيرا أن تأتي غدا إليها لزيارتها بعد العمرة، وبالتأكيد لن يمانع، فليوصلك أنت والبنات بالسيارة، ويرجع هو لعمله، وهنا في بيتي سنكون على راحتنا نتحدث كما نشاء.

اتفقتا على ذلك وانتهت المحادثة الهاتفية ودخلت أميمة للنوم وقد أصابها نعاس من طول السهر.



المواجهة

أصبح الصباح، وكالعادة تهيأ الجميع للخروج، لكن أميمة بادرت منير قائلة له: إن آسيا ووالدتها عادتا من رحلة العمرة، وتريد أن تذهب لتقضي معهما هذا اليوم وتعود مساءً.

سألها عن المدرسة، فقالت: إنها ستبلغ مديرة المدرسة بأنها ستتغيب اليوم، وستأخذ داليا ورانيا معها أيضاً معها لزيارة جدتهما وخالتهما.

كان كلامها منطقياً ومقنعاً، فركبوا جميعاً السيارة وانطلقوا لمنزل آسيا ووالدتها، دخلت وسلّمت على والدتها وأختها، وتبعها منير فهنأ حماته وآسيا على العمرة وجلس قليلاً فشرب قهوته ثم استأذن ليذهب لعمله، على أن يرجع مساءً.

جلست وقتاً كافياً مع والدتها تطمئن على صحتها بعد أداء العمرة، فقد كانت مسنة وتجاوزت الخامسة والستين، تركتها مع داليا ورانيا أمام التلفاز، وانتقلت هي وآسيا لشرفة المنزل لتحدثا فيما جاءت من أجله، على انفراد.

كانت آسيا تنتظر هذا الحوار على أحرّ من الجمر، وما أن واتتها الفرصة حتى أخذت أميمة من يدها وشجعته على الكلام،

وتصنعت هي الحيادية حتى توهم أختها بحرصها على علاقتها بزوجها منير، فتغريها بالبوح بتفاصيل أكثر وأسرار أعمق عن زوجها، سردت لها أميمة ما سردت من كلام مُعاد وشكوك مكررة، وكعادة الكثيرين الذين يحبون تكرار الكلام مرات ومرات فقد أصغت لها آسيا أذنانها وكأنها تسمع الكلام لأول مرة، حتى انتهت أميمة من البوح بما تضرره من نيران أحرقتها وأرقت نومها.

انتهت مرحلة الكلام لدى أميمة وهي الآن تنتظر مرحلة الفعل، تريد أن تفعل شيئاً يحفظ لها كيانها وكرامتها، بعدما تبعثرت على يدي الخائن والسافلة كما كانت تصفها دائماً.

صمتت آسيا طويلاً حتى نبهتها أميمة فقالت لها:

جئت لأسمع رأيك لا لأكتشف صمتك، أين ذهبت يا آسيا؟

انتبهت لها آسيا ورفعت نظرها فالتقت بعيني أميمة وقالت لها بهدوء:

أفكر في كلامك يا أميمة وفيما تريدان أن تفعلني.

أنت تريدان شيئاً ينهي علاقة زوجك بتلك الفتاة نهائياً، لذلك فالأمر يحتاج لتفكير جيد وترتيب محكم، حتى لا يتصرف زوجك ككل مرة فيخدعك بكلامه ومبرراته.

لا بد أن يحدث شيء بسرعة على غير توقع، حتى لا يكون مستعداً لذلك، فتصدمه المفاجأة ولا تجدي مبرراته حين ذلك، سيكون الوقت قد ولى.

لاقي كلامها وقعاً وقبولاً لدى أميمة فأثار فضولها، فقالت في تلهف:

أصبتِ يا آسيا، لكن، ما هي أفكارك؟

نظرت آسيا لها بجدية توحى بقدرتها على الفعل وقالت لها:

ما معلوماتك يا أميمة عن هذه البنت؟ من أي مكان هي؟ وما هو مستواها الاجتماعي؟ يُمكن لهذه التفاصيل أن تساعدنا في التفكير.

لم تكن هذه المعلومات بعسيرة على أميمة، فانطلق لسانها بالإجابة كالماء المنساب بسهولة فقالت لها:

في يوم من الأيام سألتُ هذه الأسئلة لإحدى زميلاتنا في الورشة فقالت لي: إن بشينة من قرية ريفية على بعد 20 كيلومتر تقريباً من المدينة، وأهل البنت مستواهم الاجتماعي متوسط، والدها ووالدتها على قيد الحياة ولها أخوان أكبر منها.

لكن فيما ستفيدك هذه المعلومات؟

ابتسمت آسيا وكأنها وجدت غايتها فقالت لها بثقة:

لأن بكلامك هذا، المشكلة تقريباً انتهت.

اتسعت عينا أميمة وقالت بلهفة:

وكيف ذلك؟

ردت آسيا بثقة المرأة الخبيرة:

معظم أهل الريف متشددون تجاه بناتهم، خصوصاً لو عرفوا
أو سمعوا أي شيء يمس الشرف، فيتخذون القرارات قبل التفكير
بالعقل، يعملون بمبدأ سد الذرائع.

أميمة وقد أحست أنها بلهاء قالت بصعوبة:

لم أفهم شيئاً، قل لي شيئاً أيسر على الفهم.

ضحكت آسيا وقالت لها:

حسناً سأتكلم بما تفهمينه. هذه البنت إذا وصل خبر لأهلها
أنها على علاقة مشبوهة بأحد الرجال، سيتم قطع هذه العلاقة
كخطوة أولى وبدون تردد، وقد يتفاقم الوضع ويؤدي لقتلها
وإيذاء الرجل الذي معها في هذه العلاقة.

بدت على أميمة علامات خوف ورعب مما سمعته، فلم تكن
بطبعها تحب الأذى، ولم تكن شريرة بالقدر الذي يجعلها تشترك
في مؤامرة قد تؤدي لإزهاق روح إنسان، فقالت لآسيا بصوت
مرتجف:

قتل! لا أريد قتلها أو إيذاء زوجي، أريد فقط أن تنقطع العلاقة
بينهما وتذهب هي لحال سبيلها، أنا عندي أيضاً بنات، ولا أريد
ارتكاب مصائب فيعاقبني الله بذنب ما فعلت.

طمأنتها آسيا بثقافتها الدينية المزيفة فقالت لها:

لا يوجد ذنب أصلاً، هي من اعتدت على حياتك فأغوت
زوجك، ولا بد أن تعاقب والآية تقول (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل

ما عوقبتم به) صدق الله العظيم، وأصلاً الموضوع لن يصل
للقتل أو الإيذاء كما تتوهمين، فقط سيتم قطع علاقتها بزواجك.
كل من أذنب لا بد له من العقاب، الدين ليس لعبة أو مرحاً،
(إن ربك لبالمرصاد).

وتغلبت على آسيا نزعتها المتشددة التي ترى أن مظاهر
العبادات من صلاة وصيام وعمره وحج هي دليل الإيمان فقط،
ومن أتاها كان من المتقين المستحقين دخول الجنة وسيادة الناس
في الدنيا، ومن تولى عن هذه العبادات فهو من الخاسرين
الأسقياء، الذين وجب عليهم أن يعلموا وضعهم في أسافل
الناس، فلا يطمحون للراقي ولا للجنات، فهل يعقل أن يتساوى
هؤلاء بهؤلاء؟

فكانت تظهر عبادتها بطريقة مُلفتة للجميع، تصلي في
المساجد وإذا كانت في العمل صلّت في مكتبها فروض صلاتها،
وليس ذلك فحسب بل تصلي نوافل وسنن كالضحى، وإذا سأل
عنها سائل في المستشفى يجد مكتبها مغلقاً قبيل الفرض وبعده،
لأن الدكتوراة آسيا تصلي، ولا يهم أن تتأخر مصالح الناس.

وإذا صامت تنفلاً أو تطوعاً أعلمت الجميع بصيامها، فإن
سَرَّها أحد قالت له: سأدعوك اليوم دعوة قبل الإفطار فدعوة
الصائم لا ترد، فيرد: وهل حضرتك صائمة اليوم؟ فتقول في فخر
وزهو نعم الحمد لله صائمة، فالأيام القمرية من كل شهر وكل

إثنين وخميس أصومها، فيدعو لها بقبول صيامها فتزد في تواضع المتكبر (وياك يا أخي).

وكان أشهر ما تتمتع بهذه هذه السيدة الفاضلة هو جمع التبرعات بسبب وبدون سبب، مثل تجهيز بنت فقيرة أو مساندة لأي محتاج، لكنها وإن كان معظم ذلك لا حرج فيه، إلا أن الحرج أن تُستلب من الناس صدقاتهم وهم في قمة الحرج، فتذهب لكل العاملين والزملاء وتطلب منهم أن يتصدقوا، وأن يعطوها صدقاتهم حالاً، أو أن تأخذ منهم وعداً بالصدقة عند استلام المرتب، دون النظر لاحتياجاتهم هم، وكأنها صاحبة دين عليهم، وللأسف يتفاعل معها الكثيرون، فيذبحهم سيف الحياء ويعطونها، حفاظاً على ماء وجوههم أمامها، واتقاء لشر لسانها عليهم إذا رفض أحدهم أن يعطى ما طلبت منه.

وتنهال من شفيتها اليابستين دعوات بالتوفيق والتوبة وحسن الخاتمة لكل من تحب، تتظاهر بمظاهر دينية تزيد عن المألوف، وقد تؤدي بك للنفور من هذه السلوكيات الغريبة.

ترى بكل ما سبق أنها وصلت للسماء السابعة فطبقت الأوامر واجتنبت النواهي، ترى أنها مبعوثة لهداية المحيطين بها، فنصائحها لا تنفذ ودعواتها دائماً تتجدد.

وقد طبقت الآية (وأُنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) على أهلها فتدخلت في شئونهم بدعوة وبغير دعوة حتى تبرئ ذمتها أمام الله يوم القيامة (كما تدعي هي).

وقد جاءت لها مشكلة أميمة أختها على طبق من ذهب،
لتثبت أنها على حق فيما تفعل، فتزل القضاء والعدل الإلهي
على ذلك المنفلت منير، الذي لا يعطيها قدرها من التوقير
والتبجيل، ويراهها امرأة عادية وليست كما ترى نفسها هي، الداعية
العالمة بدينها ودنياها.

انتاب أميمة شعور بالخوف مما قد يحدث، لكنها لم تكن
تستطيع العودة للوراء مرة أخرى، وجالت في رأسها أفكار
وخيالات كثيرة لو تراجع، فكان لزاما عليها التقدم لإنهاء آلامها
المتكررة، حتى وإن صاحب ذلك بعض المخاطر، أو الثورة من
قبل زوجها منير، فقررت أن تكمل مع آسيا خطتها للنهاية.

انتهت من شرودها وانتبهت فقالت لآسيا:

وإذن يا آسيا، فكيف التصرف؟

ردت آسيا بتحمس:

سنحاول أولاً أن نوصل معلومة لأهل البنت بشبهة العلاقة
بينها وبين زوجها، والباقي عليهم وما علينا إلا المشاهدة، ولا
أعتقد أن الموضوع سيطول بل بالعكس سيتهي أسرع مما
تتوقعين.

قالت أميمة بأمل:

يا رب يا آسيا ينتهي على خير، ربنا يستر.

لكن لم تقولي كيف سننقل هذه المعلومة لأهل البنت؟

أجابتها آسيا بثقة القادر على حبك المؤامرات فقالت مبتسمة:

لا تقلقي، سأبحث عن أحد من هذه القرية، أو قريب منها يعمل معنا في المستشفى، وما أكثر المترددين على المستشفى، وأنفق معه أن يوصلها بطريقة ما، بدون أن تذكر أسماؤنا أنا وأنت.

فقط انتظري ولا تقلقي.

مر النهار سريعاً ووصلت الزيارة لمنتهاها وبلغت مآربها، واتصل منير في المساء يعلن عن تحركه بالسيارة في طريقه إليهم، وصل بعد مدة وجيزة، فخرجت إليه أميمة والبتان ليعودوا جميعاً للمنزل بعد المغرب.

وقضت أميمة ليلها مؤرقة، قد جافاها النعاس وهي تترقب ماذا سيحدث، وتحدث نفسها هل أخطأت باتفاقها هذا مع آسيا أم لا؟ لكنها قضت على تأنيب ضميرها بأنها قد نبهت وحذرت سابقاً، وليست ملامة على ما سيحدث، ومن زرع حصد.



المؤامرة

أما آسيا فقد استعدت للمؤامرة جيداً، فبدأت تسأل عن قرية
بشينة، هل هناك أحد منها يعمل في المستشفى معهم؟ سألت
أحدى عاملات النظافة في المستشفى الموكلة بتنظيف مكتبها،
والتي كانت لا تتخلف عن مكتب آسيا يوماً، لتحصل على نفحتها
الصباحية من نقود تشتري بها إفطاراً، أو تدسّها في ثيابها وهي
مبتسمة ممتنة للدكتورة آسيا، وفي مقابل هذا تنساب كشلال
المياه تخبرها بكل تفاصيل المستشفى، وما يحدث في الأقسام
الأخرى، وتعلمها بكثير من الإشاعات الرائجة هذه الأيام، تبوح
لها بذلك وهي تمسح الأرضيات، وتنظف المكتب وزجاج
النوافذ، ولا تُعيّرُها آسيا كثيراً من التركيز حتى لا يبدو عليها
الاهتمام، لكنها في الحقيقة تكون في قمة التركيز لكل التفاصيل
التي تسمعها، لكنها تتظاهر بالتغافل، ولا تزيد ردودها عن (ربنا
يستر) أو (ربنا يسهل للجميع).

فمن كانت في مثل ظروف آسيا من الوحدة والفراغ، تراها
تتلهف لسماع أخبار الآخرين، لتشعر بالحياة كما يشعرون،
وتعيش في الأحداث معهم، حتى لا تأكلها الوحدة.

أما عاملة النظافة هذه فكانت من تلك الطبقة المطحونة في المجتمع، لا يكاد مرتبها الحكومي يكفي مواصلاتها، أو يكفي لثلث الشهر كعادة مثيلاتها في تلك الطبقة.

كانت هذه العاملة وتسمى رضا (ولم يكن لها من اسمها نصيب) بدينة جداً، ومليئة بالأمراض من سكر وضغط وجلطات، وكانت دائمة الشكوى تستعطف الناس لمساعدتها، فشكو من إيجار الشقة، ومن المواصلات وزحمتها وتكلفتها، ومن ولدها الذي أنهى تعليمه المتوسط ولا يجد عملاً، وتريد أن تقترض له قرضاً يسدّد من راتبها الشهري، حتى تفتح له يتكسب منه، وإذا وصف لها أحد الأطباء دواءً أو تحاليل، تذهب لكل من تجده ليقراً لها الروشّة والتحاليل، وتُظهر علامات المرض والأسى على قسّمت وجهها الممتلئ دائماً، علّه يعطف عليها بشيء من جيبه الخاص، وكانت آسيا تعلم علّتها وتستغل حاجتها، فتمنّ عليها بنفحة الصباح كما كانت تسميها، لتنهمر عليها أسرار كل الزملاء والعاملين بالمستشفى، وذلك بفضل علاقات رضا بزميلاتها من العاملات في الأقسام الأخرى، فيتبادلن الأخبار أثناء الراحة للغذاء، وترجع هي بمخزون واف وكاف من الأسرار الخاصة، لتلقيه على مسامع الدكتورة آسيا، فهذه تم طلاقها، وهذه زوّجت ابنها، وهذه بينها وبين زوجها مشاكل، وهذا الرجل يريد أن يتزوج ثانية، وهذه الزميلة توفي زوجها وأصبحت أرملة، فهل ستبقى تربّي أولادها أم ستبحث عن زوج لتستمتع بحياتها وتهمل أولادها؟ وهكذا فالمعلومات والإشاعات لا تنتهي في

طبقة العائلات هذه، فإذا أرادت معرفة معلومة أو سر يخص أي شخص، فلتذهب إلى إحداهن وتضع في يدها قليلا من المال، وستجد ما يسرُّك بعدها.

وما إن لمَّحَتْ آسيا لرضا هذه، أنها تريد معلومة عن أي أحد من قرية بثينة حتى وجدتها متحمسة لهذه المهمة، تبدي استعداداً وقدرة، أنستها أوجاعها وآلامها التي تسردها كل صباح على مسامع آسيا.

وقد كان لرضا هذه بنت تمت خطبتها، وتحاول بالكاد أن تتم تجهيزها حتى تتزوج، وقد أسرَّت لآسيا بالصعوبات المادية التي تواجهها فتكلفة الزواج كثيرة جدا، ودخلها هي وزوجها بالكاد يكفي معيشتهم اليومية، لكن آسيا وعدتها أنها ستجمع لها مبلغا من أهل الخير والإحسان يساعدها على هذا الأمر.

فلما سنحت لرضا الفرصة سعت بسرعة لتقديم القرابين لنيل هبات الست آسيا، ورأت أنها لو ساعدتها فيما تطلب بلغت هدفها فنالت مبلغا يساعدها فيما هي مقدمة عليه من زواج ابنتها.

سألتها آسيا عما تريد، فبادرت رضا بأنها طبعا تعرف، فهناك زميلة لها في قسم الجراحة من هذه القرية، وبينهما علاقة ود ومحبة، ولو طلبت منها شيئا فلن تردها طبعا.

وسألت رضا آسيا عما تريده من هذه القرية، وألحَّت عليها مؤكدة أنها قادرة على أن تحصل على أية معلومة تريدها فلتجربها وسترى.

كانت آسيا تخشى من تناثر الكلام هنا وهناك فيفتضح أمرها، خصوصاً، أن منيرا يعمل بنفس المستشفى، فكانت متحفظة وحذرة من أن تخبر رضا بما تريد، لكن رضا فهمت ما يدور بعقل آسيا من مخاوف، فقررت أن تزيل مخاوفها، وإن عمل الشر وصناعته ليتطوع له الكثيرون، فتجد الهوى والشیطان والنفس الأمارة بالسوء كلهم طوع يدك، وتجد دائماً الأفكار تنهمر، والخطط يتم حياكتها، والعقول تنور بالفهم، فيتم الأمر المطلوب، وليته ما تم.

جلست رضا قبالة آسيا، وطمأنتها أنها ستؤدى ما يُطلب منها بسرية تامة، وأن زميلتها الأخرى لن تعرف أن الدكتورة آسيا نفسها هي صاحبة الطلب، سيكون الأمر بين رضا وبين زميلتها فقط، وزميلتها هذه ستؤدى ما يطلب منها من خدمة إن علمت أنها ستنال بعضاً من أموال الخير التي تديرها آسيا، فتمنحها بعض النفحات تساعد في أعباء الحياة.

تشجعت آسيا على الكلام مع رضا بعد أن حذرتها من إفشاء ما ستسمع منها، قالت لها أنها تفعل ما تفعل من باب عمل الخير لا أكثر ولولا هذا ما فعلت، وأن الحفاظ على أسرة مستقرة من فتنه قد تحطم تلك الأسرة أمر مهم وثوابه عند الله عظيم.

حكّت لها حكاية منير وبثينة والعلاقة المريبة التي بينهما، وزوجته التي تأكلها الغيرة والشكوك، التي تؤدي لكثير من

الصدمات بينها وبين زوجها، والآن وقد لجأت لها تلك الزوجة المسكينة، تستشيرها في هذه المشكلة فواجب على آسيا أن تقف بجوارها تساندها وتدعمها، فإغاثة الملهوف لها أجر عظيم، لذلك فإن الباعث على ما تقدم عليه من أمر هو عمل الخير فقط، ومنعا للفتنة والمشاكل بين الزوجين بسبب تلك الفتاة، لذلك هي تفكر في طريقة ما لإبعاد هذه الفتاة عن الزوج. سردت لها كل شيء لكن بدون ذكر أسماء.

كانت رضا تستمع إلى كلام آسيا بإنصات ملحوظ، وقد بدا عليها الفهم والامتنان لآسيا لثقتها فيها ورفعها إياها لطبقة المتحدثين أو المستمعين لها، وهذه درجة في حد ذاتها عالية ورفيعة، أكسبتها ثقة جرأتها على النطق والتعقيب فقالت لآسيا:

لا تقلقي يا دكتورة آسيا، حضرتك تصنعين خيراً للجميع، وللبنت نفسها سبب المشكلة، لأنك بقطع العلاقة بينها وبين هذا الزوج، ستحافظين على سمعتها قبل أن تحدث مشاكل أكبر.

أنا فهمت حضرتك، وسأتواصل مع زميلتي بسرية تامة، وسينتهي الموضوع سريعاً على خير بإذن الله، وربنا يقدرنا على فعل الخير وستر الأعراض.

نظرت لها آسيا ورأت في عينيها قدرة على الفعل بثقة فقالت لها:
جميل إنك فهمت ما أقصده يا رضا، أتمنى الموضوع يمر
بسلام.

ردت رضا وقد أسكرتها جرعة الثقة التي منحتها إياها آسيا:
أكيد يا دكتورة طبعاً، فأنا متعلمة وحاصلة على دبلوم تجارة،
اطمئني.

بدت على آسيا ابتسامة توشي بإعطاء الضوء الأخضر لرضا
لعمل اللازم، قامت رضا بعدما أنهت تنظيف المكتب، فذهبت
لقسم الجراحة لتقابل زميلتها سامية، التي قابلتها بالأحضان
المعهودة، والقبلات المستهلكة التقليدية بين أولئك السيدات،
ولما اطمأنت لفراغها بعض الوقت أسرّت لها بما تريد لكن
بدون ذكر اسم الدكتورة آسيا، وأقنعتها بمثل ما اقتنعت به من
كلام آسيا، بأن ذلك عمل خير وحفاظ على أسرة من أن تُهدم،
ووعدها بهدية إن أنجزت ما هو مطلوب منها.

نقلت لها رضا خطة كانت قد أعدتها مع آسيا، وهي أن
تذهب لبيت أهل بشينة وكأنها تريد أن تشتري من عندهم بعضاً
مما ينتجونه من لبن وجبن وبعض الطيور البلدية، ككل بيوت
القرية والريف العامرة بمختلف الخيرات دائماً، ثم وهي تتحدث
معهم تسألهم عن أولادهم وبناتهم، ثم تسأل عن بشينة التي تراها
كثيراً في المواصلات معها، وهل تقدم أحد لخطبتها أم لا؟ وأن
الواجب على الفتاة في هذه المرحلة التي تكون مؤهلة للارتباط،
أن تبتعد عن أي شبهة تمسها من قريب أو بعيد، وبذلك ستبشّر
الغيرة في قلوب أهلها، فيغضبون ويؤكدون على عفاف ابنتهم

وعلى قطع لسان من يقول غير هذا، وبالطبع ستقولين لهم أنك لمحتها أكثر من مرة مع صاحب الورشة، ينفردان بالحديث غير المسموع، ولما أن سألت عليها ذات مرة، وأنت تمرين صدفة من أمام الورشة، إحدى زميلاتنا قالت: إنهما يجلسان كثيراً وطويلاً، وأنها لا تنزل نظرها من على صاحب العمل، فتساءلت حينها: هل يمكن أن تكون هناك علاقة بينهما من نوع ما؟ وهذا ليس بالقطع أن يكون حراماً، فقد يكون زوجها أمام الله والناس، أما إن كان غير هذا والعياذ بالله فلا بد أن تبادروا لحل هذا الأمر.

بعد أن ضمننت سامية جائزتها من رضا وانتهت من عملها اليومي ورجعت كالعادة لقريتها، وغيّرت طريق بيتها فسارت من شوارع أخرى جانبية أوصلتها لمنزل أهل بثينة، وجدت أم بثينة تجلس في الشارع على مصطبة من الطين بجانب باب بيتها، ألقت عليها سامية التحية فقابلتها بتحية أحسن منها ودعتها لشرب الشاي أو الجلوس معها قليلاً للاستئناس بها.

وكعادة كل الموظفين الريفيات في مستشفيات المدن، تجد أن الموظفة الريفية أو القروية التي تعمل في المستشفى العام أو المستشفى المركزي، يكون لها ثقل اجتماعي في قريتها ربما أكبر بكثير من مكانة الطبيب نفسه، فهي تستقبل أبناء قريتها إن أتوا للمستشفى في مرض أو عملية جراحية كبيرة، تواسي النساء وتساعد الرجال في إنهاء الأوراق أو الملفات المطلوبة لاستكمال

الإجراءات الخاصة بالمستشفى، تسير معهم وتدخل على الأطباء منبهة أنهم من بلدها وتريد إكرامهم، كرامة لها، تتدل بهذا على الأطباء والطبيبات فيجيبونها لطلبها، ويجبرون خاطرها فلا يخذلونها أمام أهل بلدها، فتتم المهمة على خير وجه، ويعود الناس يشيدون بوقوفها معهم ومساندتها لهم، وأنها لم تتركهم أبداً حتى اطمأنت عليهم.

تلك الأعمال هي ما جعلت لأولئك الموظفات سواء أكانوا ممرضات أم عاملات، مكانة كبيرة لدى مجتمعهم فرفعتهم لدرجة الاحتراف بهن أينما وجدن، والترحيب بقدمهن حيثما حللن، إكراماً وتقديراً لصنيع قدمهن، ويُتَظَر منهن أن يقدمنه مرات أخرى.

وكانت سامية من أولئك النسوة صاحبة البشاشة والابتسامة والتطوع بقوة لتلك الخدمات، لذلك كانت مُقدَّرةً من أهل بلدها، فما إن رأتها أم بشينة وقد هَلَّتْ وأطلت في شارعهم حتى سارعت للترحيب بها والجلوس معها تدعيماً لعلاقات الود والمحبة.

جلست سامية مع أم بشينة بعدما فرشت لها الأخيرة كليماً من الصوف فوق المصطبة العريضة أمام بيتها، وبدأت معها في الكلام عن أمور عادية وأخبار مستهلكة، حتى لا تشك بأن هذه الزيارة مقصودة وتم الترتيب لها، ثم تطرق الحديث إلى الزواج

وإلى البنات والشباب، وبدأت سامية تجرّها لما تريد أن تتحدث فيه، فسألته عن بثينة ثم أفرغت لها ما أمّلته عليها رضا في الخطة التي تمّ التبنيّ لها من قبل، انفعلت أمّ بثينة فأحمرّ وجهها وردعتها عن قولها، لكن سامية هدأت من روعها، وقالت أن ما ذكرته ليس من عندها هي فهي تعلم هذه الأسرة جيداً ولا تشكّك في الأخلاق أو التربية التي لدى كل أفرادها، لكنها سمعت هذا الكلام من أناس أغراب لا يعرفون أهل بثينة، وقد يكثر تردد الكلام هنا وهناك، وتزيد الإشاعات بزيادة من ينقلونها، لذلك فهي (أي سامية) ذكرت ما ذكرت، حفاظاً على هذا البيت المحترم قبل أن تُلوّث سمعته، وأن يتأكّدوا من هذا الكلام الذي يمكن أن يكون افتراءً وزيفاً، فما عليها إلاّ البلاغ، حفاظاً على سمعة قريتها، وبنات قريتها، وأهلها الطيبين.

أنصتت أمّ بثينة لكلام سامية وقد وجد منها مكاناً للتصديق، فلم يكن هناك ثمة مبرر يجعل سامية تكذب أو تفتري على ابنتها، ولعلها تكون صادقة كما تقول في نصحتها وخوفها عليهم، لذلك بادرت بالحديث معها قبل أن يتنقل الكلام كتنبُّل الحرائق في القش الجاف المنتشر على أسطح القرية في يوم صيفٍ شديد اللمب والحر.

نظرت لسامية ورجتها أن تحتفظ بما قالتها، حتى تفكر في الأمر مع زوجها ويروا ما سيصنعون، وشكرتها على خوفها

عليهم وعلى سمعة بئينة ابنتهم، فردت عليها سامية أن هذا من واجبها تجاه أهل بلدتها فهُم أهلها، واستأذنت منها فتركها وذهبت لبيتها.

جلست أم بئينة والأفكار تغلي في رأسها كبركان زادت حمم نيرانه، يوشك أن ينفجر، لم تصبر حتى يرجع زوجها من الحقل في المساء كعادته، بل دعت ابنها الصغير وأمرته أن يذهب لأبيه مسرعاً ومخبراً إياه أن يأتي على عجل لأمر هام، وبالفعل جاء زوجها بسرعة وقلق، وما أن وصل لبيته حتى ترك حماره وعربته التي يذهب بها للحقل خارجاً، ودخل وسحائب الفضول تملأ عينيه، وجدها جالسة هادئة، حدّق فيها بنظراته القوية، وأشار لها بيديه مستعلماً عما يجري، وعما تخبيء، وعما أرسلت له فيه.

أشارت له أن يجلس بجوارها، وأغلقت باب الغرفة المطلة على الصالة أو الدهليز كما يطلقون عليه، وقامت فتأكدت أن الشباك مغلقاً، جلست وقصت عليه ما سمعته من سامية منذ قليل، وسألته: ما العمل؟ وكيف التصرف؟

جُنّ جنون زوجها فوقف على قدميه، وصرخ في وجهها أنها السبب في كل ما جرى، فهي من أصرت أن تلبي رغبة ابنتهما بئينة في أن تعمل في المدينة، وأقنعت بذلك بعدما كان مُصرّاً على أن تساعد في أعمال الحقل، كمعظم البنات في القرية ممن هن في مثل عمرها.

صَبَّ عليها وإبلاً من السُّباب والتَّأنيب، وعلاه الغضب، فذهب وجاء مرأتٍ عديدة في الغرفة، وزوجته تنظر إليه في حزن وأسى، وتعلم مدى ثورته، لكنها لم تزد على أن قالت له أن ما حدث قد حدث، ولا داعي لهذا الكلام الآن فلن يفيد، وأن عليهما أن يفكرا في حل يحفظ كرامة أسرتهما وسمعتها، قبل أن تتناولها الألسنة في القرية فيصيبهم العار.

خارت قواه، فتعب من الوقوف على قدميه فمِنذ أن ذهب للحقل في الصباح وحتى الآن لم يجلس، لكنه لم يشعر بنفسه إلا أن جلس بجوارها من فرط تعبهِ، صمت ليس ليفكر لكن ليبدأ جولة أخرى من الغضب والثورة، ولم يكن حكيماً كزوجته، بل كانت به بعض رعونة وطيش، قام فارتدى جلباباً نظيفاً وَهَمَّ بالخروج، سألته: ماذا ستفعل؟ أجابها: ستعرفين بعد قليل فلا تتعجلي، رجته ودموعها على خديها ألا يفعل سوءاً في ابنته، فربما الكلام كذباً وليس هناك شيء، لم يسمع لها وخرج مسرعاً، ومتجهاً ناحية موقف السيارات، ليستقل إحداها توصله للمدينة لينهي هذا الأمر من أساسه.

لم تدر ماذا تفعل أم بثينة، تعلم رعونة زوجها، وتعلم أنه محق في غضبه، لكنه قد يرتكب جناية لا تنتهي توابعها، فحاولت أن تتدارك الأمر بصورة أخرى.

أرسلت بسرعة لأخيها في بيته ليحضر عندها، وبالفعل وصل أخوها وسألها عن الأمر، حكّت له حكايتها بمرارة تقطع أوصالها،

وطلبت منه أن يلحق بزوجها بسرعة، قبل أن يتصادم زوجها مع ابنته وصاحب الورشة، ويرتكب حماقة، هم في غنى عنها.

ذهب أخوها مسرعاً في إثر زوجها للموقف، لكنها ساعة الذروة وكل السيارات ذهبت للمدينة منذ قليل، تنتظر خروج الموظفين وطلاب المدارس والجامعات ليأتوا بهم للقرية.

انتظر طويلاً إلى أن وصلت سيارة وأفرغت من فيها وهمت بالرجوع ثانية، لحق بها بسرعة، أخبره السائق أنه سيرجع لبيته وليس للمدينة، طلب منه أن يركب معه إلى أقرب مكان يمكن أن يستقل منه سيارة أخرى للمدينة، وافق السائق وأخذه معه وأنزله على أول الطريق، مشيراً له أن يقف ريثما تأتي إليه سيارة فيكمل معها طريقه ففعل.



الهدية

وصل سريعاً للمدينة، ومدّ رجله في خَطّوها في طريق ورشة منير، دقائق قليلة مرت عليه كسنواتٍ طوال، لا يرى الطريق، ولا ينظر حوله، أمامه فقط ينظر، ووجهة واحدة يقصد، يخاف على شرفه وعرضه، يذود عن سمعته، فهو لا يملك غيرها، كغالب المعدمين في هذه الأرض.

وصل إليها أخيراً وقد غطى العرق عنقه وجبهته وجنبه، وامتألت عيونه بدموع التعب وغبار الخوف، لم يعبأ بتعبه، بل غلبه خوفه، وما إن وصل للورشة حتى اقتحمها بخشونة، بغير استئذان ولا تنبيه، فليس هناك وقت يضيعه في هذا، وليس هناك بقية عقل تهديه لذلك.

وجدهما جالسين في المكتب يتحدثان، انطلق إليهما كجمل شارد بدون قياد، انتزعها من ذراعها الضعيف الذي استسلم لقوة ذراعه وسطوته، نظرت إليه في رعب ودهشة، فنظر إليها في تهديد ووعيد، خافت، وارتعدت، فارتعشت، وغلبها البكاء مما قد يصيبها، ومما أصابها الآن أمام الناس،

توقف العاملون عن عملهم وتجمع الناس خارج الورشة، فأبوابها الواسعة كشفت ما دار داخلها، والكل أطاع فضوله

ليعرف الحوار الدائر، وإن كان المشهد لثلاثتهم يكفي لأن تُنسج حوله حوارات شتى.

هال منير منظر الأب وهو يكاد يكسر ذراع ابنته، فنهره في غضب وقال له:

ماذا تفعل يا رجل؟ خيراً، ماذا هناك؟

نظر له والدها والشرر يطير من عينيه فقال:

ومن أين يأتي الخير وأنت تلعب ببنات الناس؟

صدمت الكلمات منيرا فتفهم غضب والد بثينة وقال:

من قال لك هذا؟ لا يوجد بيني وبين ابنتك إلا العمل كغيرها من العاملات هنا.

ثار الأب فقال في حنق وغيظ:

ولم هي بالذات معك هنا وحدكما؟ حرام عليك يا شيخ؟ نحن لا نملك سوى شرفنا وسمعتنا؟

اندهش منير، فقال بسرعة وتأكيد:

من قال لك هذا الكلام المسموم؟ أقسم لك ليس هناك شيء.

رد عليه الأب في حزن يعتصر قلبه:

الكلام جاء من هنا؟ الكلام كثير يا أستاذ؟ يكفيننا هذا القدر من كلام الناس علينا.

حاول منير أن يقنع الرجل بأنه ليس هناك شيء من الأساس، لكنه لم يفلح، حاول أن ينتزع بثينة من بين يديه وقد ملأت دموعها وجهها فلم يفلح أيضاً، فقد كانت يد أبيها الخشنة قوية على ذراعها، أغضبه مشهد الناس المتفرجين خارج الورشة فنهرهم جميعاً، وصرخ فيهم ليعود كل أمرئ إلى عمله، هم الرجل بالخروج، وقف قبالة منير يمنعه من الخروج، يريد أن يفهم الحقيقة، لكن غضب الرجل كان أعمى، فضرب منير ضربة أبعدته عن طريقه، وقع على الأرض وسط أقدام العاملين معه، وجدهم ينظرون جميعاً إليه، وكأنهم مصدقين كلام الرجل وهو يفترى عليه، صرخ فيهم: لماذا تنظرون هكذا؟ أنتم شهود هنا، هل حدث ما يدعو لذلك؟ لم يردوا عليه، بل التزموا الصمت.

خرج والد بثينة يجرب ابنته من يدها ويصرخ فيها أن تمشي أمامه، وكل من في الشارع حينها رأى وسمع ما حدث، هم منير باللاحق بالرجل، لكنه اصطدم برجل آخر، اصطدم بخالها الذي جاء متأخراً يحاول أن ينقذ الموقف، لكنه تأخر كثيراً جداً، فقد حدثت الفضيحة وظهر كل شيء على الملأ، منع خالها منير من اللحاق بزواج أخته وابنته، حاول منير أن يشرح له ما حدث، لكنه كان ينظر للطريق الذي يتلحظ أثر الرجل وابنته ومشغولاً بمصيرها، أقسم لخالها أن لا شيء مريب ولا مشكلة من الأساس، أبدى خالها تصديقه فقد كان به بقية عقل، وكان يعرف منيراً قبل ذلك،

طمأنه أنه سيحاول أن يعالج الأمر، وما على منير إلا أن ينتظر ويلتزم السكون هذه الفترة.

عاد منير للدخل وهو ينفذ ملابسه مما علق بها من تراب بعد وقوعه على الأرض، دخل لمكتبه الخاص وجلس صامتاً حزيناً لا يصنع شيئاً، ولا يجرؤ أحد على سؤاله عن شيء، فقد كانت أمارات الغضب والعصبية تغزو ملامحه فتملؤها رعباً ورهبة.

يفكر كثيراً فيما حدث منذ ساعة، وكأنه قيام للساعة، كيف حدث هذا؟ لا يصدق، كيف هجم الرجل على المكتب وانترع بشينة وكأنه أسد ينتزع فريسته؟ تدور في رأسه أسئلة كثيرة لا يدري لها حلاً، لكنها تؤرقه، ويعصر فكره حتى يستتج الأسباب:

ما الذي جاء بالرجل هكذا مغضباً؟

من الذي نقل إليه هذه الإشاعة والافتراءات عليه وعلى بشينة؟

وكيف صدّق الرجل ما سمعته أذناه قبل أن يتحقق منه؟

هل هذا الأمر صدفة؟ أم هو أمر تم الترتيب له من قبل؟

بمن يشك؟ هل أميمة رتبت لهذا الأمر، أم لا؟

فكّر كثيراً حتى أصابه التعب فلم يستطع مواصلة أفكاره، فقرر أن يذهب ليرتاح قليلاً، ثم يفكر بهدوء في هذا الحدث الذي قد يؤدي لمشاكل في عمله في الورشة.

رجع لمنزله منهكاً من شتات أفكاره، دخل صامتاً لغرفة نومه، بدّل ملابسه وتمدد على سريريه، وأغمض عينيه هرباً من تبعه، وسعيّاً وراء غفوة متمردة تصيب عينيه ولو دقائق معدودة، فيستعيد نشاطه.

رأته أميمة بحالته هذه، تبعته لغرفته، وجدته قد أطفأ ضوءها واستلقى على السرير، أغلقت عليه الباب وتركته كي يستريح.

وكان الخبر قد وصل لأميمة مع زيادة بعض البهارات عليه من زوجة شوقي، وكانت قد سمعت ورأت الأحداث كلها من بلكونتها الصغيرة المطلة على الميدان الذي فيه الورشة، فنقلت البث المباشر لأميمة بكل التفاصيل الدقيقة.

نام قرابة الساعة، وقام متجهاً للحمام ثم خرج يجلس مع أسرته، صامتاً كعادته كلما ألّمت به مشكلة أو اعتراه هم، يلوذ بالصمت ويهرب إلى النوم، ثم يثب وثبة الأسد فيلملم الأوراق ويرتب الأحداث، ليكتشف الحقائق التي طمستها الأكاذيب وأخفتها عن الأعين.

جلس هادئاً ينظر للتلفاز مع ابنتيه وزوجته أميمة، سألته: هل بك شيء؟ أجابها بعد مدة يسيرة فقال: لا تشغلي بالك، لكنها لم تطق صبراً فقالت له:

لقد علمت ما حدث اليوم، عزة اتصلت بي، وسردت لي كل شيء حدث في الورشة.

نظر إليها وما تزال شفثيه مطبقتين، فلم يكن يريد الكلام الآن، لكنه أجبر لسانه على النطق فقال:

وما دُمتِ قد علمت بما حدث، فما رأيك أنتِ؟

تلعثمت لكنها استطاعت مدارة ارتباكها فقالت سريعاً:

ما حدث قد حدث، ويمكن أن يكون هناك من نقل هذا الافتراء لأهلها.

الورشة موجودة وسط الميدان والمحلات، والسوق حولها، والمترددون على المنطقة كُثر، قد يكون واحد منهم هو سبب هذه المشكلة.

نظر في عينيها متفحصاً براءتها أو إدانتها، وقال في صراحة لم تتوقعها:

متأكدة أنتِ يا أميمة أن ليس لك دخل بهذه المشكلة؟

احمر وجهها وزادت سخونة خديها فقالت مدافعة عن كيانها:

وما دخلي أنا بهذه المشكلة، لا أعرف قرية بشينة ولا بيت أهلها حتى أذهب إليهم.

وأنت تعلم أنني دائماً أقول ما في قلبي، ولا أؤذى أحداً.

أنصت لكلامها مصدقاً بعضه، فهي كما قالت لا تؤذي أحداً، وهو يعلم ذلك جيداً، يعلم أنها مندفعة وتثير المشاكل حتى قبل أن تتحقق من صدق الإشاعات أو براءة من تتهمهم، لكنها ليست أيضاً

بهذا المكر والذكاء الخبيث، الذي يحيك المؤامرات ويرتب للمصائب، ولا يهتم لمن تصيبه هذه المصائب، لذلك فقد صدّق زوجته في بعض كلامها، لكنه لم يزل يشك بأن لها إصبعاً في هذه الأحداث. ولأنه لا يملك دليلاً على شكوكه، فقد أرجأ هذا الشك ونحّاه جانباً، فعسى أن تكون بريئة، فلم يتعجل في الحكم عليها.

كانت أميمة بعدما علمت بما حدث، قد اتصلت بأسيا تخبرها بالأمر وتسألها هل لها يد في هذه المشكلة أم لا؟ وقد أجابتها أسيا أنها رتبت لهذا الأمر بعدما اتفقتا في شقة والدتهما عليه، وقد تم ما كان مطلوباً منها، والآن قد غادرت هذه الفتاة الورشة ولا خوف على زوجها بعد الآن، لكن أميمة اعترضت وقالت لها أن الطريقة التي تمت لم تكن مناسبة، فقد أدت لفضيحةٍ لمير، وسط ورشته ومنطقة عمله، وتخشى أن يكون لذلك عواقب وخيمة تؤدي لمصائب أكبر منها، طمأنتها أسيا مخبرة إياها أن الأيام كفيلة بنسيان هذه الأحداث، وأن الدنيا ستستمر، فلا تخاف ولا تقلق.

لكن أميمة بعد حديثها مع مير زاد قلقها من طول صمته وهدوئه معها، فهي تعرفه جيداً، فعندما يرتدي صمته، ويكسوه الهدوء، فإنه يفكر في شيء ما، ولن يدع الأمور تمر هكذا، وليته انفعل عليها وغضب منها، فأخرج ما في باطنه أمامها فتستريح، لكنه ابتعد محتفظاً بكل شيء، ولم يفقد أعصابه، أو ينفلت لسانه،

أو تمتد يده، بل تركها وخرج يجلس على أحد المقاهي فترة، ثم عاد بِصَمْتِهِ وجلس يتناول عشاءه وينام، ويصبح صباحه فيذهب لعمله، وهكذا تكرر هذا النمط في الأيام التي تلت تلك الحادثة، حتى خافت منه أميمة أكثر فأكثر، ويحيلها خوفها لآسيا فتتصل بها تخبرها بحاله، فتزد عليها الأخرى بأن هذه أعراض طبيعية، فقد كانت على حق في شكوكها تجاه تلك الفتاة، ويبدو فعلاً أنه كان بينهما شيء ما، أو وعد ما، وأن ما حدث وأدى لقطع العلاقة، كان أمراً هاماً ومحتماً، للحفاظ على زوجها، لها وحدها، لا تشاركها فيه أنثى أخرى.

وحالته هذه دليل على هذا الشك، وهو الآن في مرحلة استشفاء، كمرحلة انسحاب المخدرات لدى المدمنين، فحبها الآن يخرج من قلبه، فلا تقلق عليه إن رآته شاردًا، أو مستغرقًا، فكل ذلك أعراض مؤقتة، ستزول مع الأيام.

مرت الأيام ثقلاً، ومنير حالته سيئة ومزاجه متغير، يثير غضبه أتفه الأسباب، يشعر بالذنب تجاه تلك الفتاة التي انتزعها والدها من ورشته منذ شهور، واتهمه وإياها بتهمة لا وجود لها، لا يدري أين هي؟ ولا كيف حالتها؟ يتمنى أن يطمئن عليها ولا يدري كيف يمكن هذا، فإن سأل عنها أحداً من قريتها الذين يترددون على السوق بجوار الورشة، قد يتأكد الشك، ويصيبها أذى أكبر مما هي فيه، فالتزم البعد خوفاً عليها، وخوفاً من تهور الأغبياء، الذي

قد يودي بحياة فتاة بريئة، بسبب إشاعة كاذبة، أطلقها لسان خبيث، فسَرتْ كالنار في الهشيم.

وفى أحد الأيام دخل عليه من جاء يطمئنه عليها، جاء خالها الذى حضر تلك الحادثة في ذلك اليوم المشؤم، وقد كان لمنير يد سابقة عند هذا الرجل، فقد قدم له خدمات كبيرة عندما كانت زوجته في المستشفى، تُجرى لها عملية جراحية، وقد استجاب لطلب بثينة عندما جاءها اتصال بالخبر وهي في الورشة، وما أن أعلمته حتى أخذها وذهب بالسيارة للمستشفى ليساعد ذلك الرجل، وللأسف فإن هذا المعروف هو ما أدى للمشكلة الكبيرة بعد ذلك، فلما رأتها زوجة أخيه من بلكونتها، أخبرت أميمة بخروجها سوياً مستقلين السيارة، مما أثار شكوكها التي أوصلتها إلى أن ترتب شيئاً لقطع العلاقة بين منير وبثينة، دون أن تتحقق، أو تسأله عن أسبابه ومبرراته، فكان ما كان.

جلس الرجل في مكتب منير مذكراً إياه بمعروفه معه، وشكره مرة ثانية على ما قدمه له من خدمة، ثم طلب منه أن يسامح أبا بثينة عما بدر منه ذلك اليوم، فالرجل كان معذوراً، فشرّف ابنته يهان، وسمعتها كانت على الألسن، أقسم له منير أنه ليس هناك ما يחדش سمعته، بالعكس هو حريص على سمعة بثينة وكل من معه، أكد خال بثينة أنه يثق في أخلاق منير، وأنه لا يصدق تلك الإشاعات، لكن قد حدث ما حدث، للأسف، ولم نستطع أن

نتدارك الأمر، سأله منير عن بثينة وما حل بها، قال له إن والدها قد أوسعها ضرباً وإهانة، وأنه منعها من الخروج من المنزل، وإنهاء لهذه المشكلة فقد تقرر أن تتزوج ابن عمها، رغم رفضها له، فتم الزواج سريعاً بعد الحادثة بشهرين تقريباً، حتى تنقطع الألسن عن نهش عرضها وسمعة أهلها.

تألم منير لسماح تلك الكلمات، ومن الظلم الذي وقع على الفتاة بغير سبب أو دليل، وتملكه الغيظ ممن صنع بها هذا، وأضر في داخله أنه لن يترك الحادثة تمر دون عقاب لمن تسبب فيها.

مرت الأيام بطيئة على منير، يجبر بعضها بعضاً، ساء مزاجه وفقد هدوءه، واكتسب مع مرور الوقت عصبية وغضباً، يُصْبُّه على كل من حوله، وقد كان هناك ما دعا لهذه الحالة فقد ساءت حال ورشته، تقلص العمل فيها بسبب الحادثة، فلا يخفى على أحد أنها ورشة للأزياء النسائية وكل زبائنها من النساء والفتيات، وما حدث من انتشار خبر الإشاعة بين منير وبثينة قد عقد الأمور، فأهم شيء في هذا العمل هو الأمانة مع النساء والفتيات، وعدم المساس بما يدنس سمعتهم، فابتعد الكثير من الزبائن عن الورشة، وآثر البعض منهم أن يتعاملوا مع أماكن أخرى يقتصر العمل فيها على النساء فقط، تكون خالية من الرجال درءاً للشبهة، وفضل البعض الآخر أن يشتري ملابسه من المحلات الجاهزة

التي بدأت في الانتشار، ويُعرض فيها الكثير من التصميمات والأقمشة المتنوعة للفساتين والأزياء المختلفة المتنوعة، التي تتناسب مع كل الأعمار ومختلف الطبقات الاجتماعية، ووفرت عليهم الوقت الذي يضيع في التردد على الورشة أكثر من مرة لاختيار نوع القماش، واختيار التصميم المطلوب، والاتفاق على السعر المناسب، أما هنا في محلات الملابس الجاهزة فتكون زيارة واحدة كفيلاً بأن تتضمن كل هذا، بل وشراء الملابس في نفس اليوم.

ومع تقلص العمل لدى منير بدأت التعاملات معه من الفتيات يتركز الورشة، ويتجهن لأماكن أخرى للعمل، أو البدء في تكوين عمل خاص بهن في بيوتهن، وبالطبع كل واحدة منهن سحبت بعض العملاء من الورشة التي أصبحت خاوية على عروشها، يجلس فيها منير النهار كاملاً، ولا يجد زبونا أو أنيساً لوحدثه، فكان كل هذا سبباً في تغيير مزاجه وسوء طباعه، فأصبح عصيباً لا يقبل كثير كلام أو نقاش، فارقه بهجته ومرحه، واكتسى وجهه بملامح العبوس والجدية على الدوام.

كان قد تعود على الربح الكثير، وعلى جريان المال بين يديه، وكان مسرفاً لا يحرم نفسه وأسرته من الرحلات والتنزه، وارتداد المسارح والسينما لمشاهدة كل العروض الجديدة، ولما ضاق حال ورشته أحس بشح الدخل، والحرمان من كثير مما كان

يجلب له السعادة والمرح، فأضحى كما كان قبل أن يقيم هذه الورشة، موظفاً حكومياً، يعتمد فقط على راتبه من عمله الذي بالكاد لا يفي له ولأسرته بحاجاته الضرورية، كحال الموظفين الحكوميين في بلدنا العظيمة.

وكلما ضاقت ذات يده زاد إصراره على الانتقام ممن سبب له هذه الحالة السيئة، من كان سبباً في تلك الإشاعة، التي أدت لفضيحة رآها القاضي والداني، وصار بسببها حديث المجالس والتجمعات، فأضرت بمهنته، وقضت على ورشته القضاء المحتوم.

مرت الأيام والكساد يخيم على الورشة، فاضطر منير في نهاية الأمر أن يغلقها حتى يرى ماذا سيصنع، واكتفى بعمله اليومي من الصباح حتى قبل العصر، يذهب ويعود بآلية وروتين يقتل الحياة من الملل، يفكر ماذا يفعل فلم يعد يطيق أن يكتفى بمرتبته فقط، يريد أموالاً يومية تجرى في يده، لا أن ينتظرها نهاية كل شهر من مسئول الحسابات في العمل، وما أن يرجع لبيته حتى تتوزع بين متطلبات البيت، فلا يبقى في جيبه سوى ما يكفي لشرب القهوة والشاي اليومي من بوفيه المستشفى.

وفي يوم من الأيام ذهب كعادته لعمله في المستشفى، واتجه لقسم الجراحة ليطمئن على حالة أحد معارفه الذي وصل للمستشفى ليلة أمس، وكانت حالته حرجة، ارتقى السلالم حتى وصل للدور الثالث حيث قسم الجراحة والعمليات، ووصل

للغرفة التي فيها هذا المريض، وجده برفقة أقاربه الذين ما أن رأوه حتى طلبوا منه أن يطمئن من طبيب الجراحة على حالة مريضهم وأن يخبرهم بحالته، بعد أن حياهم منير وطلب لهم بعض المشروبات على حسابه الخاص، تركهم واتجه حيث يتواجد قسم الجراحة، ليلتقي بمن أجرى الجراحة لهذا المريض، سأل بعض الأطباء بعدما أعطاهم اسم المريض ورقم الغرفة، وعرف منهم أن الدكتور شريف عادل، هو من قام بالجراحة وأنه الآن موجود بمكتبه نهاية الممر.

وصل بخطواته الواثقة للمكتب وطرق بابه، فسمع صوت الدكتور شريف يسمح له بالدخول، دخل وحيّاه بتحية الصباح، وما أن رآه الدكتور شريف حتى هش وبش، وابتسم له ابتسامة أفرجت عن ضحكة كبيرة ملأت خديه، وقال له:

أهلاً وسهلاً أستاذ منير، جئت في وقتك تماماً، كنت بحاجة لمثقف مثلك الآن.

رد عليه منير وقد علت ملامحه ابتسامة استغراب واستفهام فقال:

خير يا دكتور شريف، أنا في خدمتك طبعاً.

رد دكتور شريف فقال له في اندهاش:

الميكيفيلية وصلت للمستشفى، تخيل!

رد عليه منير فقال:

وما الغريب في هذا؟ الميكيفيلية وصلت لكل المجتمع، للأسف.

واصل د. شريف كلامه بعد أن ظن أن فكرته لم تصل لمنير فقال:

كلامك صحيح، لكن المدهش أنها وصلت للطبقات الفقيرة في المجتمع، وصلت لأناس يمارسونها بالفطرة، بدون معرفة بالمسمى، أو صاحب الاصطلاح نفسه.

تخيل أنى وجدت إحدى عاملات النظافة تمارس الميكيفيلية في أبشع صورها، لم أكن أتصور أن يصل الأمر لهذا الحد.

أنصت منير بتركيز شديد لكلام د. شريف، وقد أصابه الفضول لسماع التفاصيل، فقال في اهتمام:

كيف عرفت هذا يا دكتور؟ ماذا قالت لك هذه السيدة بالضبط؟ قد أثرت فضولي.

استمر د. شريف في سرد الحوار الذي كان بينه وبين عاملة النظافة قبل قليل، فقال:

كانت هنا قبل دقائق قليلة، تنظف المكتب كالعادة، وكانت كثيرة الكلام، فتحدثت عن أعمال الخير والمعروف، وثواب ذلك عند الله، وما كان مني إلا أن أثنت على كلامها طبعاً، لكنها

فاجأتني بأحدث أعمالها الخيرية، وذلك ما صدمني، وما أتكلم معك عنه الآن.

انجذب منير للحوار فاستمع له بشغف وقال:

نعم، تمام، أكمل يا دكتور.

أكمل د. شريف، كلامه بعدما رأى علامات الاهتمام بادية على وجه منير فقال:

قالت لي أن أفضل أعمال الخير هي توفيق رأسين في الحلال كما يقال، لكن الأفضل من هذا أيضاً هو المحافظة على أسرة مستقرة من الضياع، فهذا له أجر عظيم.

واستطردت فقالت إنها فعلت شيئاً غريباً، حتى تحافظ به على أسرة من التفكك، فقد علمت أن هناك زوجاً وزوجة، بينهما أبناء، وحياتهما مستقرة، لكن هناك فتاة تحوم حول الزوج، وتكاد أن تعصف باستقرار الأسرة.

اتسعت حدقتا منير، وبدأت على ملامحه أمارات الجذال والاندھاش، فأوماً للدكتور شريف أن يكمل بسرعة، وقد لاحظ د. شريف اهتمام منير بالحوار، فلم يطل صمته، فاستكمل حديثه وقال:

قالت إن هناك قرية لهذه الأسرة أبلغتها بالقصة، وفكرتا كيف تساعدان تلك الأسرة لتحافظ على استقرارها، فتم اللقاء بينهما

والترتيب لإنهاء علاقة تلك الفتاة بالزوج، وبذلك تنتهي المشكلة، وبالفعل تم تنفيذ خطة وضعتها قريبة الأسرة، وتم تبليغ أسرة الفتاة بشبهة العلاقة بين ابنتهم وذلك الزوج، حتى تثير في نفوسهم الحمية والغيرة على الشرف، وبالفعل تم المراد وتم قطع العلاقة.

دارت الأرض بمنير، فصُمّت أذناه، وعلا الضباب أمام عينيه الداهلتين فلم ير شيئاً، ولم يسمع، ونسي أين يكون، وفي أي وقت كائن.

أصابه الخرس فانعقد لسانه، وتاهت حروف الهجاء عن موضع لسانه وشفتيه، فتمتم بلا شيء، وطأطأ رأسه من ثقلها، فلم يستطع حملها من ثقل حملها، فسقطت على صدره.

نظر إليه د. شريف فاندesh لحالته، سأله: ماذا بك يا أستاذ منير؟ هل أنت مريض؟ بماذا تشعر؟ خَمَّن أن يكون أصابه هبوط في الدورة الدموية أو أن يكون مصاباً بالإجهاد، لكن منيراً أفاق من ذهوله، ففتح عينيه ونفض رأسه ورفعها، ثم قال:

أنا بخير، لا تقلق يا دكتور. فقط أخبرني من هذه العاملة التي أخبرتك بحديثها هذا؟

استغرب د. شريف من اهتمام منير الزائد بالموضوع، لكنه أجابه فقال:

إن العاملة تدعى سامية، لكن لم تسأل عنها؟

تهرَّب منير من إجابة السؤال فقال في ابتسامة مصطنعة:

لا شيء، مجرد فضول.

سأله د. شريف عن سبب زيارته له، فأجابه منير قائلاً:

كنت أريد أن أطمئن على حالة المريض الذي يرقد في غرفة 453، هل حالته جيدة؟

أجابه د. شريف، بسرعة فقال:

نعم إن حالته مستقرة، فليس هناك ما يدعو للقلق، فلتطمئن، سيخرج بعد يومين أو ثلاثة على الأكثر.

شكره منير على وقته وتعاونه، وشكره سراً على إهدائه له حلاً للغز الذي ظل محيراً عقله وباله، أياماً وشهوراً، ثم تركه وعاد لمكتبه سرعياً.

دخل مكتبه يسند رأسه بكفيه، يمسح وجهه ليفيق من هول صدمته، فبعد أن سأل عامل البوفيه عن سامية هذه، من أي مكان هي؟ وعلم أنها من قرية بثينة، تملكه الغضب، وأحمر وجهه كأنه قطعة جمر، وفي مكتبه دار في جهاته الأربع، يضرب بقدميه الأرض، وقد فقد ثباته وهدوءه، ولما أن أصابه التعب جلس على كرسيه ليفكر، ويربط الخيوط التي حصل عليها، ليعرف من الجاني؟ ومن صاحب التدبير؟ فيما حدث له ولبثينة.

هذه العاملة من قرية بثينة، وتعمل بقسم الجراحة، وحكت الواقعة كما حدثت، فلا بد أن ظنونه صحيحة، يريد أن يتثبت، لكنه

يخاف من انتشار الإشاعات في المستشفى، فتؤثر على سمعته وعمله، لكنه يريد ربط الأحداث، سامية هذه تعمل بقسم الجراحة، فمن أين لها أن تلتقي بأميمة، إن كانت أميمة هي من دبرت هذه الكارثة، لكنه يعلم أميمة جيداً، فهي أجب من أن تفعل هذا، إنها تعتمد عليه هو في كل شيء في داخل المنزل وخارجه، ولا تستطيع أن تنجز شيئاً بمفردها، فكيف لها أن تدبر مثل هذه الخطة الشيطانية؟ لا ليست أميمة، أو قد تكون فعلتها بمساعدة شخص آخر معها.

وفجأة توقف عن التفكير لحظة مرورها في أفكاره، وكأنه قد نسيها تماماً، فلم تأت في خاطره، لكن لحظة بروق صورتها له، راح في دوامة من التفكير، أوقفت كل محركات عقله، بل أصابته بالشلل الدماغي، نطق فقال: آسيا! نعم إنها آسيا، آسيا وكفى، آسيا ولا تسأل عن الباقي، إنها تكفي لتدمير قارة من القارات بتفكيرها الشيطاني، وسوء ظنّها، ونواياها تجاه العالم، لم تأخرت في التفكير فيها؟ ليس هناك غيرها يرتب ذلك الأمر.

وبدأ يستعيد هدوءه مرة أخرى، محاولاً استنتاج التسلسل الذي جرت عليه الأمور، فقال محدثاً نفسه:

وأخيراً وقد حدث ما حدث، وتدمرت حياة تلك المسكينة بشينة، فتزوجت غصباً عنها، رجلاً لا تحبه، وتدمرت ورشته العامرة، ففقدت روادها من الزبائن، فخلت منهم، وأصبحت

خاوية على عروشها، وغازت بئرها التي كانت تأتي بالخير الوفير له ولأسرته، وللعاملين معه. فمن المتسبب في كل هذه المصائب يا ترى؟ هل هي هذه العاملة؟ لا، فلم تكن إلا أداة للتنفيذ، وقد تكون بحاجة لبعض المال ففعلت ما فعلت من أجله. إذن هل هي آسيا اللعينة؟ لا تستطيع آسيا أن تفعل هذا من تلقاء نفسها، دون موافقة أميمة نفسها على الخطة والتنفيذ.

إذن فالمسئول الأول هي أميمة نفسها، التي تركت أذنيها لشیطانها تملؤهما بالوساوس، حتى أكلت رأسها، ثم اندفعت بشكوكها لآسيا تسألها: كيف تتخلص من بثينة؟ ومن ثم كانت الخطة والتنفيذ.

أميمة هي السبب، ولا بد أن تُعاقب على ما فعلت في تلك الفتاة، فقد دمَّرتَها، ودمرت مستقبله هو، فانهارت الورشة مصدر الربح الوفير، الذي نضب في لمح البصر.

انتظر مرور الوقت الذي مرت ساعاته ببطء، زادت من مرارته، حتى انتهى وقت العمل، فذهب مسرعاً لـمنزله، ليفصل في قضية، الجاني فيها زوجته وشركاؤها، والمجني عليهم، بثينة وهو بذاته.

دخل المنزل عابساً مغضباً، وجد داليا أمامه فسألها بغضب عن أمها، أجابته ابنته بخوف وقلق، أن أمها في الخارج تشتري بعض الأغراض للمطبخ، جلس في الصالة بملابسه الرسمية، لم

يدخل غرفته ليبدلها، الشرر يتطاير من عينيه، صامت كأنه جماد، نظرت له داليا وجدته مرعباً، خافت وذهبت ظنونها كل مذهب.

بعد قليل وصلت أميمة للمنزل، دخلت للمطبخ لتترك فيه الأغراض، نظرت للصالون، فوجدت منيراً يجلس أمام التلفاز صامتا، دخلت غرفتها لتبدل ملابسها، صُغت من صوت باب الغرفة عند إغلاقه، التفتت فجأة، وجدته خلفها، وبراكين غضب تجرى في وجهه، سرى الرعب في جسدها، أمسكها من ذراعيها بقوة ذراعيه، تسارعت أنفاسها، بصعوبة ابتلعت ريقها، وبالكاد استجمعت ما تعلمت من حروف الكلمات، لتكون جملة مقتضبة مرتعشة، فقالت برعب:

خير يا منير؟ مالك؟ أهنأك شيء؟

فتح شفتيه المطبقتين منذ مدة، لتخرج لهيباً وناراً، فقال:

الأشياء كلها عندك يا هانم، سرّك انكشف يا مجرمة.

تلقت كلماته كصخور سقطت من قمة جبل على رأسها، فزادت رجفتها التي بدت على شفتيها فقالت:

لا يوجد أسرار عندي، لو عندك شيء قل.

ثباتها المصطنع زاد من غضبه، وعنادها ضاعف سخطه، فقال وقد ارتفعت نبرة صوته:

بثينة يا هانم! والورشة التي صارت خطأ! ألسنت أنت وراء كل هذا؟ اليوم تكشفت لي الأوراق التي لعبتما بها لعبتكما القذرة

أنت وأختك، فهل ستواصلين الإنكار بعدما سمعت بأذني
خطتكم الدنيئة؟ لعنة الله عليكما.

وطرحها بذراعيه على السرير، فصرخت في وجهه:

نعم فعلتها، ولن أنكر شيئاً فعلته من أجل أسرتي.

تريدني أن أرى زوجي يقع لعبة في أيدي فتاة مجرمة مثلها،
وأتركه؟

أأترك أسرتي تُهدم؟ وبيتي يخرب؟ وأنتظر، مشلولة اليدين؟

هز رأسه مندهشاً من صراحتها، وقال:

أحسن، اعترفتِ بجريمتك إذًا، فلم الإنكار والمراوغة؟

أكملت دفاعها فقالت:

أنا اعترفت أنني حاولت أحافظ على بيتي، لكن لم أكن أقصد
أن يتطور الأمر كما حدث.

عاجلها فقال:

وتظنين أنك حافظت على بيتك؟ أنتِ بالفعل دمرت كل شيء،
لوثت سمعة فتاة بريئة، وشهرت بسمعة زوجك، وخربت الورشة
مصدر رزقنا، وبعد كل هذا تقولين (كنت أحافظ على بيتي).

أخرجني الآن من بيتي، فليس لك مكان بيننا.

ردت عليه في إصرار وعناد:

لن أخرج من بيتي الذي أفنيت فيه سنوات عمري.
قاطعها بعناد أشد من عنادها، وقد أمسكها من شعرها وجذبها
ناحية الباب:

بل ستخرجين من بيتي ولن تعودى إليه أبدا، في ستين داهية.
وفتح باب الغرفة وألقاها في الصالة، فسقطت على الأرض.

كانت داليا ورايا بالخارج تستمعان لصوتهما المرتفع، الذي
ربما سمعه بعض الجيران أيضاً، هالهما المشهد وسقوط أمهما
أمام أعينهما، مضرّجة بدموعها، بجوار الحائط.

همّ منير بالحقاق بها ليطردها خارج المنزل، وقفت في وجهه
داليا التي نظرت إليه بشجاعة طفلة لم تتجاوز الثانية عشرة من
عمرها، وحاولت أن تمنعه، لكنه طرحها بيمينه جانبا، فلم تكن
تحتاج لكفتي يديه ليلقيها أرضا، كانت هشة كالعصفور، وما أن
طرحها حتى سقطت وزحفت لأقصى الصالة فتملكها الرعب
والبكاء من هول صدمتها، وارتعبت أختها الصغيرة رايا التي
التصقت مكانها فلم تنطق بكلمة، فقط دموعها تنهمر على
خديها، وشفاتها ترتجفان من الرعب والهلع.

لم يكفه ما فعل، بل جذب أميمة من شعرها وأمرها بالخروج
مرة أخرى، أصرّت على عدم ترك المنزل، ألقي عليها يمين الطلاق
لينهي إصرارها العنيد، طلبت منه أن تأخذ بناتها معها، رفض

ذهابهما، بل أدخلهما بالقوة داخل غرفتهما وأغلق عليهما الباب، الذي سُمعت من ورائه أناتهما وصرخاتهما، تناديان على أمهما ألا تتركهما، شعرت بالعجز أمام هذا البركان الهائج، وخافت أن يفعل شيئاً في داليا وrania، فقد بدا أعمى لا يرى من شدة غضبه، فاكتمت بأن خرجت باكية، مصدومة من هول ما حدث، توجهت لأقرب مكان تستقل منه سيارة توصلها لبيت أمها.

أغلق وراءها الباب بقوة، وحذر داليا وrania من الصراخ وإلا فالعقاب ينتظرهما، خفت صوتهما خوفاً من سطوته وغضبه، ومضى اليوم مرعباً وكئيماً على الجميع.



صدع

مر قرابة شهر على حادثة الطلاق، وأميمة في بيت والدتها وأختها آسيا، كَسِيرَة حزينة، تَحِنُّ لبيتها وبناتها اللتين تأتينها من حين لآخر لزيارتها، بعد موافقة أبيهما طبعاً، تجلس أحياناً مع آسيا التي لا تزال تبث سمومها في عقلها، وتشد على يديها بأن تثبت، ولا ترجع لذلك الزوج الهمجي المتوحش، الذي أهانها وبعثر كرامتها على الأرض أمام بنتيها، ولا تسمع لنداءات الوساطة التي تأتي من حين لآخر، لرأب الصدع الذي أصاب تلك الأسرة.

وأحياناً تجلس مع والدتها المسنة التي تنصحها كثيراً بأن تعود لزوجها وبيتها، ولا تُشمت بها الناس فتصير سيرة على ألسنتهم، وتنصحها سرّاً بالألا تسمع كثيراً لكلام آسيا، فآسيا لم يشأ الله لها، ولم تقبل هي أن تصير زوجة وأمّاً، فلم تتذوق طعم هذه الأشياء، لذلك لا تدرك معنى فراق الزوجة لبيتها وأبنائها، ولو كان لها حظ في الزواج، ونصيب من الأبناء، لكان لها رأي آخر.

تخشى والدتها عليها من أن تنهار حياتها بسبب عنادها، ووسوسة أختها لها، وأيضاً هي تدرك زوج ابنتها جيداً، وتعلم

مدى عناده وصلابة رأيه الذي قد يؤدي لمزيد من الشتات للأسرة.

جاء إخوة منير واحداً تلو الآخر، كل منهم يأتي بزوجه ويحاولون إقناع أميمة بأن تقبل بالعودة لبيتها، وقد سبق زيارتهم لها، زيارة مشابهة لمنير لتعنيفه عما بدر منه، وأن يتعهد بأن يقبلها، ويطيّب خاطرها حال موافقتها على العودة، لكنهم يصطدمون دوماً بأسيا التي تتدخل في كل شيء، وتكلم كالرجال، وتشترط أن يأتي منير بنفسه، فيعتذر ويبيدي أسفه لها أمام الجميع، ويتعهد ألا يعود لمثل ما فعل ثانية.

وما أن يرجع المصلحون بخفيّ حنين لمنير، ويذكرون ما قالت لهم آسيا، يُجنُّ جنونه، ويصر على عدم الذهاب، ومقابلة تلك الشيطانة التي خرّبت بيته ومستقبله، فيزيد الشقاق ويرى الناس صعوبة الأمر، ويختار الوسطاء ماذا يفعلون ليسكتوا آسيا؟ لتمر تلك العاصفة، وترجع أميمة لزوجها وبيتها مرة أخرى.

وكان لا بد من رجل قوي تحسب له آسيا حساباً، وله قدرة على إخراج وتنحية آسيا عن تلك المشكلة، ليتم الصلح، وقدّر الله أن يكون هذا الرجل موجوداً، وقد جاء لمنير يستأذنه ليتدخل في الوساطة، عسى الله أن يُصلح به ما كُسر.

جلس معه صديقه المقرب د. ثروت، ليقنعه بإرجاع زوجته، أم بنتيه، وأن يسمح له بأن يكون وسيطاً في هذا الصلح، فقد يفتح

الله على يديه. أنصت منير لصديقه بهدوء وثقة، واقتنع برأيه، ولم يتبرم أو يغضب من إدانة ثروت له، وتحميله الذنب في بعض الأحيان، فما كان بينهما من الود والصفاء، كفيل على أن يشفع لكل منهما تجاه الآخر، وتلك مزية الصداقة الحقيقية البعيدة عن المصالح والتزلف، أو الود المصطنع.

شرح له منير ما قد صار في الأمر حتى الآن، وتعتت آسيا ورفضها الصلح، ورَدَّها لكل من يذهب طلباً للصلح، وخشي على صديقه من الحرج، فطرح كل شيء بين يديه حتى يكون على بينة من أمره، فإما أن يحتمل صلفها و صفاقتها، أو أن يتراجع في عرضه، إن علم في نفسه عدم قدرة على تحمل طباع آسيا المتعجرفة.

طمأنه ثروت تجاه مخاوفه هذه، مؤكداً على معرفته جيداً بها، فقد كانت زميلته في الجامعة ويعلم شخصيتها جيداً، ويعلم كيف يقنعها أو يرغمها على قبول الصلح إن تطلَّب الأمر لهذا.

أعطاه منير موافقته وأبدى امتنانه له، وتمنى له التوفيق والنجاح.

في اليوم التالي ذهب ثروت للمدرسة للقاء أميمة، بعدما رتبت له زوجته لقاءً معها، بعيداً عن آسيا، وقد أثر أن يستطلع رأى أميمة أولاً، ويعرف نيتها الحقيقية، ثم بعد ذلك، يعد عدته للقاء آسيا المتعجرفة.

وصل للمدرسة وقابل زوجته التي أشارت له أن يجلس في حجرة المدرسين ريثما تنادي له أميمة، بعيداً عن زملاء العمل.

انتظر دقائق حتى هَلَّت عليه أميمة، وما أن رآها حتى رحب بها فقال مبتسماً:

مرحبا يا ست أميمة، لم نلتق منذ مدة طويلة، يا ترى كيف حالك؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة صافية، وقالت:

الحمد لله، بخير، فعلاً لم نرك منذ مدة، يا رب تكون حضرتك بخير.

رد عليها بهدوء واستغراقه:

الحمد لله على كل شيء، كلنا بخير، شكراً لك أميمة.

احكى لي يا أميمة، قل لي ما تريدين، سأسمعك، كلي آذان صاغية.

ابتسمت مرة أخرى، فقد كان ثروت رغم شخصيته الوقورة المهيبة، إلا أنه يتمتع بخفة ظل ومرح، لا يلبث معه الآخرون إلا أن يتسموا، أو يضحكوا رغم جديته في حواره، فقالت مبتسمة وقد زادها التبسم حسناً:

أكيد يا دكتور كل الأخبار عندك، لا شيء يخفى هذه الأيام، و حضرتك صديقه المقرب (تقصد منير ولم تستطع نطق اسمه)، وطبعاً حكى لك كل التفاصيل.

أكّد ثروت حدسها فقال:

صحيح، منير فعلاً حكى لي كل التفاصيل، لكنني أحب أن أسمع منك أنت، لا يكفي السماع لطرف واحد، لا بد من الحيادية والإنصاف، لكن سأعفيك من التفاصيل الصغيرة، وأطلب منك الآن أن تقول لي ما هي طلباتك؟ أو شروطك للعودة مرة أخرى؟

ازدادت ثقته في كلامه، فهي تعلم كم لثروت من تأثير على منير، فقالت في تأكيد:

أريده أن يراني كما أستحق، فليست قطعة أثاث في المنزل، وليست خادمة تعد الطعام وتغسل الملابس وتربي الأطفال، أريد أن أحس بكياني معه، فيحترمني ويقدرني، هل هذه شروط صعبة التحقيق؟

شعر ثروت بمقدار الأسى الذي يسري بداخلها، وشعور الفقد الذي تعانيه، فقال لها في تبسم:

أكيد لك كل الحق في أن تشعر بكيانك وذاتك داخل أسرتك، لا أحد يعارض هذا الحق، وأنا بالفعل تكلمت مع منير في هذه النقطة، وألقيت اللوم عليه فيما فعل من أحداث لم يراع فيها مشاعرك، أو رأى أنها هيئة ولن تؤذي، وأقر بخطئه، وهو مستعد أن يراجع نفسه ويبدأ معك من جديد.

لكنه غاضب منك جداً فيما بدر منك، والمؤامرة التي تمت وما ترتب على هذه الحادثة من فضيحة وتشهير به وبالفتاة، وما تلا ذلك من ركود بالعمل بالورشة، أدى لإغلاقها وضياع مورد للرزق كان يساعد بجزء كبير في تحسين الوضع المادي لكما.

أنصتت لكلامه حتى انتهى، ثم قالت:

كنت مخنوقة مما يحدث، أشعر كما تشعر أي سيدة مثلي ترى كرامتها تهان وبيتها ينهار، استعنت بآسيا وفضفضت معها، فهي أختي الكبيرة، لكن لم أتوقع أن تصل الأمور لهذا الحد، قامت آسيا بكل شيء بدون أن أعلم، ولو أخبرتني لرفضت فكرتها، فأنا أكره أن أؤذي أحداً أو أعرض بأي إنسان، فكيف أفعل هذا بزوجي؟

أعلم أنه غاضب جداً، وأنا أيضاً غاضبة مما حدث، ومما أصابنا بعد ركود الورشة وغلقها، ففي النهاية أسرتنا هي الخاسرة.

كان ثروت مصدقاً لكل كلمت تفوهت بها، فقال لها مؤكداً:

أنا بالفعل قلت هذا الكلام لمنير، كنت أتوقع ذلك بالضبط، وصدق توقعي، فلست شريرة بطبعك، رغم غيرتك كأى امرأة، ولست أنت صاحبة الذنب فيما حدث.

إذن ففي النهاية أعتقد أننا اتفقنا على العودة، أليس كذلك؟

قالت في تبسم ماكر:

تقريباً، لا أعدك بهذا.

اتسعت عينه وارتفع جفنه، فقال:

لم أفهم، ماذا تقصدين؟ هل سترفضين العودة بعد كل هذا الحوار؟

علت ضحكتها من ردة فعله، فقالت:

لأجل خاطرك فقط سأعود، لكن مازالت أمامك عقبة صعبة لا بد أن تتجاوزها، آسيا أختي.

مط شفتيه، وتبسم بمكر، وقال:

المهم أنت، والباقي كله سهل، اتركي آسيا لي، فلا يفل الحديد إلا الحديد.

انتهت المقابلة وقد اتفقا على ألا تعارض فكرة الصلح بينها وبين منير، وعلى أن تحدد موعداً بينه وبين آسيا يلقاها لينهي هذه المسألة.



التَّام

وصل د. ثروت للقاء آسيا في الموعد الذي تم الترتيب له من قبل أميمة، وقبل أن يأتي، كان قد رتب مع منير بعض الترتيبات، وأتفق معه على أن يلتزم بما يقوله ثروت، فلا يحتك بآسيا ولا يرد على كلامها، عليه بالصبر والصمت حتى النهاية، وقد أذعن له منير بالموافقة، وعاهده بالالتزام.

استقبلت أميمة ثروت في غرفة الضيوف، وذهبت لتحضر له مشروباً وتستدعي له آسيا للقائه، ثم عادت بعد قليل ومعها آسيا التي رحبت بثروت وقالت:

أهلاً وسهلاً يا دكتور ثروت، أول مرة تشرفني في بيتي المتواضع، أيلزم أن تحدث مشكلة حتى تأتي لزيارتنا؟

قابل ثروت ابتسامتها الباردة بابتسامة استعارها من القطب الشمالي، فقال في مكر:

أهلاً دكتورة آسيا، الشرف لي طبعاً.

لا توجد مشاكل بإذن الله، وبعد، فنحن زملاء من أيام الجامعة، قبل أن نكون زملاء عمل في المستشفى، يعنى نعرف بعضنا جيداً، أليس كذلك؟

وقعت كلماته موقعها عند آسيا التي ارتابت من فحوى كلامه،
فقالت وقد خفت ابتسامتها:

أكيد يا دكتور، معك حق، فمعرفتنا قديمة منذ سنين عديدة.
واصل ثروت كلامه، وكأنه يسير على سيناريو قد رسمه مسبقاً،
فقال في تأكيد:

أكيد حضرتك على علم بسبب زيارتي لكم، أنا طلبت من
أميمة تقول لحضرتك، ونأمل أن نصل إلى حل يرضى الطرفين
في مشكلة منير وأميمة إن شاء الله.

وما أجمل أن يكون الصلح برضى حضرتك يا دكتورة آسيا
وبمباركتك، والصلح خير كما يقال في القرآن، أليس كذلك؟

استمعت آسيا لثروت وقد أحست منه إصراراً على هدفه، وأنه
سيبذل كل طاقته وقوته في الوصول إليه، فهي تعلم كم هو عنيد
ومثابر من أيام الجامعة، فقررت أن تؤجل اللقاء لجولة أخرى
تستعد فيها أكثر وتخور عزيمته هو بعض الشيء، فينطفئ حماسه
ولا يفوز بما يريد، فقالت في برود:

الموضوع يا دكتور ثروت، يحتاج لوقت حتى تتضح بعض
الأمور، وأنا لست متعجلة، المرة القادمة تشرفنا ونحدث فيه، أما
هذه المرة فأنت ضيفنا المكرم ونشرف بك، ودع هذا الأمر لمرة
أخرى، أم أنك لا تود زيارتنا؟

أدرك ثروت ما ترمى إليه آسيا، فزاد إصراراً وعناداً، فقال في تبسم مصطنع:

يا ست الكل، زيارتكم شرف كما قلت، وأنا على استعداد نكررها أنا وزوجتي لكم، بعيداً عن هذه الأمور، فما بيننا من عشرة يكفي للود، بدون أسباب أو نية لإصلاح بعض المشاكل.

أما عن إرجاء الموضوع، فأنا أختلف مع حضرتك، لأننا نتكلم عن أسرة مشتتة، زوج وزوجة وأطفال صغار، وانشغال عن المستقبل، لذلك من واجبنا أن نجنبهم ضياع الوقت ونلم شملهم سريعاً.

ردت عليه آسيا، وقد فقدت ابتسامتها وبعض هدوئها فقالت:

لا بد لزوجها أن يعرف قيمتها، وأن يتربى لمدة طويلة، حتى لا يهينها أمام أطفالها مرة أخرى. آسفة يا دكتور، لا أستطيع أن ألبى طلبك.

جهز ثروت كل أسلحة هجومه، وقد أدرك عنادها ورفضها فقال:

تكلمت مع منير، وعَنَّفته كثيراً، وأقر بخطئه، لكنه له بعض العذر فيما فعل، فقد كانت خسارته كبيرة، والتشهير به أضر بسمعته وعمله.

كانت الطريقة سخيفة ووضيعة، أضرت بكثيرين، ولم تراع عرفاً أو ديناً.

قال ثروت جملته الأخيرة، وهو يقصدها تماماً، وعيناه ثابتتان لا ترمشان، تحدقان بسهامهما في عيون آسيا التي خافت منه، واستشعرت غضبه، فقالت في رجفة وقد ولّت وجهها بعيداً عنه:
لم يكن هناك طريقة أخرى، الحفاظ على الأسرة كان أهم من أي اعتبار.

عَاجَلَهَا، فقال في غضب:

وهل حافظتِ على الأسرة يا دكتورة، لقد تم الطلاق بينهما،
ألا تدركين هذا؟

ازدادت رجفتها ودقات قلبها، وهَمَّت بالنطق، لكنه سبقها
فقال:

ألا تشعرين بشتات الأطفال بين أبوين متنازعين؟ ألا تدركين
ما يتكون في شعورهم الداخلي من عقد نفسية بسبب هذه
المشكلة؟ ألا تعينك مشاعرهم؟ هل ستتحملين مسؤولية ذلك
كله؟ أم أنك ستتابعين نشاطك اليومي، وتتركين المسكينة أختك
وبناتها، يلاقين مصيراً مجهولاً؟

ليس كل الناس مثلك يا دكتورة، هناك قلوب من زجاج، هشّة،
تكسرها الكلمة قبل أن تحطمها الهموم.

أخرسها بكلماته القوية المتتابعة، وحاصرها بمنطقه العاقل،
فأحسّت بالوحدة في صحراء عقله الشاسعة، خافت من المسؤولية،
وألقت الكرة في ملعب أميمة فقالت:

لكن هذا هو رأى أميمة أيضا.

أدرك أنه أجهز عليها، فأعطها ضربة القاضية فقال:

أميمة لها رأيها الخاص، وقد سمعته منها بنفسى، هي تريد أن تجمع أسرتها وتبدأ معها من جديد.

أصابتها جملته في مقتل، فنظرت لأميمة بدهشة وغضب، وقالت:

هل تقابلتما، واتفقتما من قبل على كل شيء؟

أومأت أميمة برأسها إيجاباً، خوفاً من سطوتها، لكنه قالها في وجهها غير عابئ بسخطها، فقال:

نعم قابلتها، أليست هي صاحبة الشأن؟ ومن سيقع عليها كل شيء، بعدما يتخلى عنها الناس؟

ازداد غضبها وحنقها، فقالت وقد احمرّت خدودها كاللهب:

هي حرة في نفسها، تهدر كرامتها وحقوقها كما تشاء، لكن لا تأت لي بعد الآن تطلبين المساعدة.

تُرى كيف ستعودين بيتك؟ هل ستذهبين لزوجك دون أن يطلبك أو يأتي ليأخذك؟ ماذا لو قال لك: لم آت لأسترجعك، اذهبي لبيت أبيك؟

لم تنطق أميمة بكلمة أمام بركان آسيا الملتهب، لكن ثروت لم يفته أن يحسب حساب هذا الأمر، فقال في هدوء الواصل:

كرامتها محفوظة قبل كل شيء، وزوجها منير منتظر بالخارج
ليأخذها بنفسه.

صدمها كالعادة، ومن تكرار الصدمات وتتابعها لم تستطع أن
تفيق، وما زادت إلا أن تركت الغرفة ساخطة ويائسة.

أشار ثروت لأميمة أن تجمع ملابسها ومتعلقاتها بسرعة،
وتقدم ناحية الباب فأشار لمنير أن ينزل من السيارة ويأتي، تقدم
منير بخطواته تجاه المنزل ووقف بجانب الباب مع ثروت، الذي
أكد عليه التزامه بالصبر والصمت كما اتفق معه.

خرجت أميمة بعد قليل من غرفتها، وقد جمعت أغراضها،
وخرجت وراءها داليا وrania، بعد أن أفاتهما من نومهما، فخرجتا
تمسحان عيونهما من النعاس، ولا تدركان ما يحدث، تقدم منير
فأخذ حقيبتها من يدها، وأمسك يدها بيده، وتبعهما ثروت، وفي
يديه داليا وrania على يمينه ويساره، خرجوا جميعاً وأغلقوا الباب،
وتركوا آسيا تنظر إليهم من وراء نافذتها، ودموعها تجري على
خديها من ذكريات قديمة استدعتها الذاكرة، كانت تحلم يوماً أن
تمسك يدها بيد سرحان، كما تفعل أميمة ومنير، لكن القدر
فرقهما فتركها وحيدة بائسة منبوذة حتى من أقرب الناس إليها.

وبعد مرور شهور على تلك الحادثة شعرت آسيا بجفاء من
جانب أختها وكأن أميمة تخشى على أسرتها منها، فلم تعد
تتواصل معها كثيراً كسابق عهدها وشعرت آسيا بفتور في

الكلمات عند اللقاءات التي تجمعهما فأحسَّت بالوحشة بين هؤلاء الأقربين بعدما خذلوها وأشعروها بوحدها وكانت قد ظنَّت أنها صنعت لهم معروفاً باهتمامها بشؤونهم والحرص عليهم من وجهة نظرها هي، وأصابها الإحباط فقررت الهرب، فبحثت جدِّياً على عمل خارج مصر في تلك الفترة الباهتة من حياتها وبالفعل وجدت فرصة لها في السعودية فلم تتردد وقررت أن تُسافر بعدما أقنعت والدتها بأنها ستأخذها معها لزيارة البيت الحرام والمسجد النبوي وتسعد بهذا الجوار وما أحلاه من جوار.



مرحلة جديدة

مرت الأيام سراعاً على أسرة منير، تكبر البنتان فتتقلان من صف دراسي إلى آخر، حتى وصلت داليا للصف الثالث الإعدادي، ولحقها رانيا في الصف الأول الإعدادي أيضاً.

أما منير فقد شغله عمله الجديد فكان معظم وقته يقضيه خارج المنزل، وبالرغم من أنه غيّر نشاطه الخاص بعد ورشة الملابس إلى عمل آخر، بعد نصيحة صديقه ثروت بأن يبدأ شيئاً جديداً يليق به وبثقافته الواسعة، ينفق فيه وقت فراغه بعد عمله الرسمي، بدلاً من إحداث المشاكل بينه وبين زوجته من حين لآخر، وقد استجاب كعادته لنصيحة صديقه، لثقته غير المحدودة فيه، إلا أنه لم يتوقف عن إحداث المشاكل هنا وهناك، كعادته المشاغبة والمشتبكة مع محيطه دائماً.

وترقّت أميمة في درجاتها الوظيفية في المدرسة، رغم صغر سنّها بعض الشيء عمن يشغلون هذه الدرجات، لكن صفاتها التي يراها منير سيئة، مثل جديتها وصرامتها ودقتها ومراقبتها المستمرة له، قد وجدت لها مكاناً محموداً، يجعلها صفات إيجابية أدت بها لهذا الترقّي الوظيفي.

كان ثروت قد اقترح على منير أن يفكر في عمل آخر في المساء يشغل فيه وقته، وقد رأى أن يستثمر منير موهبته الأدبية وثقافته الواسعة في مجال ما، فعرض على منير أن يعمل في الجريدة المحلية بالمحافظة، فينشر فيها آراءه ويسلط الضوء على القضايا المهمة التي تشغل المجتمع، وقد أبدى منير موافقته على الاقتراح الذي كان مدعوماً بتوصية من ثروت لمدير المجلة، يقدم فيها منير بأنه موهبة وقادة، وقلم مبدع، سيثري الجريدة بعمله فيها.

ذهب منير فعلاً للجريدة، وقابل مديرها واستلم عمله في قسم التحقيقات، في صفحة المجتمع، وقد رأى أنه سيصلح شيئاً ما، فكان متحمساً لمحاربة الفساد، وتعرية المفسدين والمرتشين، وأن في وطننا الغالي من يسمع للأصوات الحرة والضمان الحية، لكنه فوجئ بخيبة أمل كبيرة، حين أبلغه مدير الجريدة بعدم موافقته على نشر بعض المقالات (ترضية لبعض المسؤولين)، وأن يخفف من حدة هجومه المستمر على العاملين بالقطاع الطبي، فقد استاء المسؤولون من طريقته التي انتقد فيها حملات التطعيمات، وما فيها من ملابس تنبئ عن الفساد، وأيضا انتقاده لهيكل الإدارة، وما يخفى من محسوبية ومجاملات بين الكبار، ونفاق من الصغار، فقد كشف منير الغطاء، لكن للأسف أدى ذلك كله إلى إحالته للتحقيق في عمله، متهماً بالتشهير بالمستشفى ومديرية الصحة بالمحافظة، وأدى ذلك في النهاية إلى توقيفه عن العمل بالجريدة، كسراً لقلمه، وإخراساً للسانه الذي بدا أن هناك من ينصت إليه من العامة والمثقفين، فكان الحل هو

التهديد والوعيد له، وترهيب مدير الجريدة ليفصله عن عمله فيها، وكان أصحاب المنفعة والمصالح المتشابكة والمتبادلة هم من خططوا لهذا، فعاد كسابق عهده يؤدي عمله اليومي في صمت، فقد خشي أن يفقده هو الآخر، فلم يعد له مصدر للرزق غيره في الوقت الحالي،

واستشعر مسئوليته تجاه أسرته، وأنصت لنصائح زوجته بأن يتبعد، ويؤثر السلامة، فالفساد ينتشر بسرعة، وهو متغول ومتجذر، ولا يستطيع أحد بمفرده أن يبسط إصلاحه وتقواه عليه.

آمن أن التغيير ليس بهذه السهولة أو ذلك الحماس، فهناك أشياء أعمق، وحسابات متشعبة ومتداخلة، بين أرباب المصالح المتشترين في مختلف القطاعات، واكتشف أنهم شبكة واحدة كبيرة تشابك جذورها في الخفاء، وتتصارع ألسنتها في الهواء، ذراً للرماد، ومراعاة لقوانين اللعبة، وكان عليه أن يتفهم ذلك جيداً قبل أن يقحم نفسه في هذه الشبكة المتينة، التي تم زرعها ونماؤها خلال سنوات طويلة وعقود مختلفة، ورغم اختلاف الأجيال التي تتوارث على هذه المنظومة الفاسدة من جيل إلى جيل، إلا أن الشخصيات التي يتم لعب أدوارها الأساسية والثانوية هي نفسها لا تتغير، بل تتكرر، وتُغيّر جلدها وأقنعتها وفقاً للزمن والظرف الراهن لها، فتراهم مرة موظفين عاديين (ترثي لحالهم) في القطاع الحكومي، وتراهم أحياناً رجال أعمال من ذوي المال والجاه، وتراهم كثيراً من أرباب السلطة والنفوذ من أصحاب المناصب السيادية العليا في الدولة، وتراهم مرات كثيرة

-للأسف- من المثقفين المزيفين، أو ممن يطلق عليهم رجال الدين، إلا ما رحم ربي.

وإن أشد الفساد تأثيراً في المجتمع وأطولُه عمراً هو الفساد الفكري والثقافي، قبل الفساد المالي أو الاقتصادي، فالفساد الفكري من هؤلاء المثقفين المزيفين، الذين باعوا شرف فكرهم، ونتاج عقلهم، لذوي السلطان والقوة، رغبة في رفعةٍ، أو تجنباً لصدام بينهم وبين أصحاب النفوذ، ذلك الفساد يضرب في المجتمع لأجيال متعاقبة، تشرب من سمومهم الحلوة على مهل، خلال مناهج التعليم الفاسدة، أو من خلال المقالات المنشورة والكتب المطبوعة، أو من خلال ظهورهم في برامج تبث على شاشات التلفاز، في كل بيت مصري بدون استئذان أو تشفير.

أدرك منير هذه اللعبة مكتملة، لكن بعد دخوله للملعب دون تدريب كاف، يؤهله للتعامل مع مفردات هذه اللعبة، ومراعاة تداخل المصالح بين الكبار، لذلك فقد وقع في عش الدباير، واصطدم بأركان الدفاع في أرض الملعب، فطرحوه أرضاً، على غير توقع منه، فسقط ولم يستطع أن يكمل الشوط الأول من اللعبة، وما كان من أصحاب الأتعة إلا أن تدخلوا ليخرجوه من الملعب، وقالوا إنهم سيعالجونه خارجه، لكن الحقيقة أن الإصابة كانت بالغة وأدت إلى تغييره، فلم يكمل المباراة، واكتفى بمقعد المتفرج، فلم يكن في الإمكان أكثر مما كان.



لقاء من الماضي

فوجئت أميمة في يوم من الأيام، بهاتفها يرنُّ معلناً عن أحد المتصلين، رفعت سماعة الهاتف لتستعلم عنه، فقالت:

السلام عليكم، من معي؟

فوجئت بصوت نسائي، ليس غريباً على أذنها، لكن الذاكرة تخونها، فلا تمنحه لعقلها ليتذكره، فقالت المتصلة:

أهلاً يا أميمة، كيف حالك، مشتاقة لكِ من زمان.

استغربت أميمة من تلك المتصلة التي تعرفها، وتحديثها وكأنها أقرب صديقاتها، فقالت:

أهلاً وسهلاً، لكن، من حضرتك؟

بدا على صوت المتصلة الحزن فقالت معاتبة:

معقول نسيت صوتي يا أميمة؟ لم أتوقع منك هذا الجفاء.

كانت أميمة في غاية الحرج، فأخذت تعصر تركيزها عساها تتذكرها، لكن هيهات فعندما نطلب شيئاً كهذا فإنه يغوص في قاع المحيط، ويتوه في صحاري القارات، فلا نجده ولو بشق الأنفس، أعلنت إفلاسها، والتمست عذراً وسماحاً من المتصلة،

التي ضحكت ضحكة كبيرة مرتفعة، كانت بمثابة الإشارة
والمفتاح لحل اللغز، وقبل أن تنطق باسمها عاجلتها أميمة
فقالت:

ماجدة!! أنت ماجدة؟ أين أنت؟ وكيف حالك؟

أجابتها المتصلة:

نعم يا أميمة، أنا ماجدة، أفتقدك بشدة.

أميمة:

وأنا أيضاً، أريد أن أراك، تعالي في أقرب وقت، لا بد أن
نتقابل.

ردت عليها ماجدة فقالت:

قريباً إن شاء الله، أنا موجودة في مصر، ويمكن أن أزورك
الأسبوع القادم بإذن الله، إذا لم يكن هناك مانع طبعاً.

قالت أميمة:

يا خبر يا ماجدة! لا تقولي مثل هذا الكلام، أنتِ أختي قبل أن
تكوني صديقتي.

سأنتظرك الأسبوع القادم بشوقٍ لرؤياك، فلا تتأخري، أو
تؤجلي الموعد، اتفقنا؟

قالت ماجدة:

اتفقنا، إن شاء الله نتقابل.

أستأذنك الآن لبعض الظروف، سيكون لنا لقاء طويل، ألقاك على خير.

أغلقت أمانة الهاتف بعد هذه المكالمة المفاجئة، التي حملت معها ذكريات من الماضي، مع صديقتها المقربة ماجدة، التي فارقتها منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، بعد أن تطلّقت من زوجها الأول، وتزوجت رجلاً آخر، يعمل في إحدى دول الخليج، فسافرت معه واستقرت هناك حيث يعمل، وها هي الآن تعود في زيارة لها، على غير توقع، فيا تُرى كيف كانت في السنوات الماضية؟ وكيف أصبحت الآن؟ تتشوق أن تراها وتتحدث معها، فحديث الذكريات لا يصيبه الملل، حتى وإن كان مكرراً مرات ومرات.

في المساء رجع منير للمنزل، بعد انتهاء موعد عمله الآخر، فقد أفتحه ثروت بعدما فقد عمله في الجريدة، بسبب عناده وهجومه المستمر على من يراهم فاسدين ومرتشين، أفتحه أن يفتح مركزاً للتأهيل النفسي، يمارس فيه مهنته التي يحبها، وكالعادة اقتنع برأي ثروت وقام بتغيير ديكورات الشقة التي كانت ورشة للملابس يوماً من الأيام، حتى تصبح مركزاً للتأهيل النفسي، تتردد عليه كل الفئات العمرية، للمساعدة في إيجاد الحلول لمشاكل الأطفال من تعديل سلوك ومشاكل تخاطب، وأيضاً لحل المشاكل التي تنتج من عدم توافق الأزواج، رغم أنه

هو يقع في مشكلة أزلية مع زوجته أميمة، لكن ليس كل الأزواج مثله ومثل زوجته، فقد تكون الفجوة صغيرة، والمسافات لم تبعد كالمسافات بين القارات، وقد تنجح بعض العلاقات بالطبع، لذلك لم تحبطه مشكلته الخاصة، أو تزعزع ثقته في نفسه، فاستمر قُدماً في مشواره واثقاً في نجاحه، وقد كان.

بعد تناول العشاء مع أسرته، أخبرته أميمة بمكالمة ماجدة صديقتها القديمة، صَمَتَ ليتذكرها، ثم اتسعت عيناه وقال:

ماجدة زوجة أحمد إبراهيم؟

ردت أميمة تبدى اندهاشها هي الأخرى:

نعم، هي بالضبط، تخيل!

تنهد منير وهو يسترجع سنوات طويلة وقال:

يا ترى ما أخبارها؟ وكيف هي بعد طلاقها من أحمد؟

أجابته منيرة فقالت بسرعة:

تزوجت من أحد أقربائها، كان يعمل في السعودية، وبعد الزواج سافرت مباشرة معه هناك، وقد نزلت إجازة لمصر واتصلت بي اليوم، وأخبرتني هذه التفاصيل.

على فكرة أنا دعوتها لزيارتنا الأسبوع القادم.

أوماً برأسه إيجاباً وقال:

طبعاً طبعاً، تشرّف.

تخليلي أني لم أر أحمد زوجها السابق منذ سنوات أيضا، فقد تزوج هو الآخر بعد الطلاق، وبعد فترة انتقل لمحافظة الجيزة قريبا من مكان عمله.

لكن أين ابنهما؟ كان صغيراً وقتها.

تساءلت أميمة مثله فقالت:

لا أعرف الآن أين هو؟ كل ما أعرفه أنه بقي مع والده فترة بعد زواجه، ثم انتقل للعيش مع جدته، وبالطبع سأسألها عنه.

كانت داليا على مقربة منهما تسمع الحوار، عن تلك الصديقة القديمة وزوجها، اللذين تطلقا وتركوا طفلا وراءهما، ومضى كل منهما في حياته الخاصة لا يأبه بشيء، وتقارن بين هذا الحال، وحال والديها اللذين تطلقا أيضا، لكنهما أثرا الرجوع مرة أخرى، حفاظاً على الأسرة، مع أنهما لم يتخلصا بعد من صراعاتهما، على السيطرة والهيمنة وفرض الرأي، فأَيُّ النموذجين هو الأفضل؟ أو أيهما أنسب؟ الخلاص بتراً للألم؟ أم البقاء مع بعض الألم وضياع الأمل؟ عموماً، مازالت صغيرة بعد على التفكير في مثل هذه المشاكل العويصة، التي يحار فيها ذوو الرأي والخبرة.

انقضى الأسبوع سريعاً، وجاءت ماجدة حسب اللقاء المحدد مع أميمة سلفاً، قدّمت ومعها بعض الهدايا لصديقتها القديمة، قابلتها أميمة بحفاوة بالغة، فقد كانت ومازالت، قريبة من قلبها، تبادلوا القبلات والأحضان المعتادة، ثم دخلتا غرفة الجلوس،

وأشارت أميمة لماجدة بالجلوس فجلست، وجلست هي قبالتها تتأمل ملامحها التي كستها الزينة والماكياج، وملابسها التي تنبئ للوهلة الأولى لمن يراها أنها قادمة من خارج مصر، أو أنها سائحة من دول الخليج، جاءت لتبهرنا بما أنعم الله عليها من نعم.

تأملتها أميمة مبتسمة أو مندهشة، ثم قالت:

كيف حالك يا ست ماجدة، لم أرك منذ سنوات، لم تتغيري كثيراً، بل بالعكس، ازددت جمالاً وشباباً، احكي لي أين كنتِ؟

تبسمت ماجدة أيضاً، وضحكت ضحكة خفيفة، وقالت:

مهلاً، يا حاضرة الناظرة، بالراحة يا ستي، سأحكي لك كل شيء بالتفصيل.

قاطعتها أميمة فقالت متعجلة:

نسيت أن أسألك: ماذا تشربين؟ شايا. قهوة؟ حتى نجلس سوياً، وأسمع مغامراتك.

نظرت ماجدة لها بمكر وتبسمت وقالت:

مغامرات مرة واحدة! حسنٌ يا أميمة، أحضري لنا كوبين من القهوة وتعالني لتسمعي مغامراتي.

دخلت أميمة المطبخ وبسرعة أعدت فنجانين من القهوة التركية الأصيلة، ثم جاءت لتجلس مكانها، وقالت:

كلي أذان صاغية، هات ما عندك.

أخذت ماجدة رشفة من فنجان قهوتها، وامتصت شفيتها
استمتاعاً بمذاقه وقالت:

قهوتك جميلة يا أميمة، تسلم يدك.

ردت أميمة في شغف فضحته الابتسامة فقالت:

شكراً يا ست ماجدة، بالهناء يا حبيبتى.

والآن لا تتركيني هكذا، يقتلني الفضول، هيا، اعترفى.

ضحكت ماجدة ضحكة عالية، وبدا أنها سترحم فضول
صديقتها اللحوحة، فوضعت فنجان قهوتها أمامها، ونظرت في
عينى أميمة، وابتسمت وقالت:

كلامك أوامري يا هانم، سأعترف بكل شيء حالاً وأقص لك
كل شيء من البداية.

وبدأت ماجدة تحكى لأميمة تفاصيل السنوات الماضية التي
فرقت بينهما، فقالت:

طبعاً تعرفين ما كان بيني وبين زوجي السابق، من مشاكل
وخلافات واختلافات، أدت لاستحالة الاستمرار بيننا، وانتهت
بالطلاق. وبعد انتهاء العدة، تقدم لي أحد أقربائي من جهة أمي،
يطلب يدي للزواج، وكان يعمل في السعودية، وأيضاً كان قد
انفصل هو وزوجته السابقة، المهم تقابلنا لعدة مرات للتعرف
على بعضنا، وبعدها اتفقنا على الزواج في مصر، والسفر مباشرة
للسعودية نقيم حيث يعمل هناك.

قاطعت أميمة حديثها فقالت:

انتظري هنا، سرحت في الكلام ونسيت ابنك من زوجك الأول، وكأنه غير موجود، أين هو من تلك الأحداث؟

أجابتها ماجدة وقد تفهمت مشاعر أميمة الحنونة فقالت:

أعرف أنك كنت تحبين عصام كأحد أبنائك، وتريدين أن تطمئني عليه، هو بخير والحمد لله، وأنا دائماً على تواصل معه.

قاطعتها أميمة ثانية فقالت:

قولي لي ماذا حدث لهذا الولد المسكين بعد الطلاق؟ لماذا تتهربين من هذه النقطة، وتريدين تجاوزها سريعاً؟ هل هو شعور بالذنب مثلاً؟

ردت ماجدة وقد شرد نظرها للاحية النافذة قليلاً، ثم عادت وقالت في أسي:

ليس هروباً يا أميمة، وأكد وقتها شعرت بمرارة الألم، لكن كان غضباً عني. ومع ذلك سأحكي لك ما حدث بالنسبة لعصام.

بعد الطلاق كان عصام معي في بيت أهلي، كان وقتها صغيراً عمره ثمانية سنوات تقريباً، بقي معي حتى نويت أن أتزوج مرة أخرى، تزوجت وكنت مضطرة أن أتركه، تركته مع أمي ترعاه، حتى جاء والده وأصر أن يأخذه ليعيش معه في بيته، بعدما تزوج هو الآخر.

لم يستمر عصام في بيت أبيه طويلاً، فلم يألف زوجة أبيه، فلم تكن حنونة عليه، بعد فترة عاد مرة أخرى لبيت أمي ليعيش معها، وكنت على تواصل معه دائماً، وفي كل زيارة سنوية أخضه بكثير من وقتي، حتى أعوضه عما فقد.

والآن قد استكمل دراسته الجامعية وتخرج من الجامعة، وهو الآن يؤدي الخدمة العسكرية.

هذه حكاية عصام يا ست أميمة، أتمنى أن تكوني اطمأنت عليه.

قالت أميمة بعد خروجها من انصاتها الشديد:

هذه حكاية عصام، فماذا عنك أنت؟ ماذا فعلت في كل هذه السنوات؟

ردت ماجدة وقد عادت لها ابتسامتها فقالت:

أنا عشت مع زوجي الثاني كما قلت لك وقد رزقنا الله في هذه السنوات بثلاثة أبناء وبنت واحدة، والحمد لله الحياة مستقرة، وما زلنا مقيمين بالخارج حتى الآن.

بادلتها أميمة الحديث خوفاً من السامة والملل فقالت لها:

ربنا يسعدك يا ماجدة في حياتك الحالية، رغم أنني لي بعض التحفظات على تصرفاتك السابقة، لكن هذه حياتك الخاصة تديرينها كيف شئت.

لمحت ماجدة في عيون أميمة ونظراتها كلاماً يريد ترجمة من اللسان، لكن أميمة تتحفظ أن تقوله، حفاظاً على ود صديقتها، فقررت أن ترفع عنها الحرج، فقالت لها:

مالك يا أميمة؟ عيونك تحكى كلاماً كثيراً، فقول لي وبوحي بما تكتمين.

تقولين أنني انتصرت لذاتي، تركت وليدي يقاسي الهوان، هربتُ بعيداً لأنجو بنفسِي؟

أجابتها أميمة وهي تراقب نظرات عيونها الثابتة فقالت لها:

بصراحة يا ماجدة، أنا فعلاً نفسي أسألك هذه الأسئلة، يا ترى طريقتك في الحياة هي الطريق الصحيح أنك تنفصلي إذا كان هناك مشاكل مع زوجك، ولا يردعك وجود طفل صغير بينكما، يحتاج لأسرة سوية، أم أن البقاء والصبر على المشاكل، حرصاً على الأطفال الموجودة، وخوفاً من تشويه حالتهم النفسية، هو الحل الصائب؟

حقاً، هذه الأسئلة تحيرني كثيراً، وطالما فكرت فيها، وبحث لها عن أجوبة، وليتك تتكلمين من واقع تجربتك لو تملكين إجابة لها.

تبسّمت ماجدة وقالت:

صديقتي الغالية، ليس لهذه الأمور قاعدة ثابتة، لكنها تتغير حسب الأفراد وحسب قدرة كل منا على التكيف، والصبر على

حياته، ما فعلته أنا، يناسبني أنا، وقد لا يناسب غيري، أنا لم أستطع الصبر، ولم أطق كثرة المشاكل بيني وبين زوجي السابق، وهو الآخر لم يكن سعيداً، كان كل منا ينتظر هفوة من الآخر، حتى تنفض الشراكة بيننا، ولا يلومه الناس بعد ذلك.

وجدت نفسي مشوهة من الداخل، فلم يعد هناك قلب، فلم أعد أسمع دقاته التي تحركني كأنتي، أحسست أنني سأظلم نفسي، لو قررت الاستمرار معه في هذه الحياة المزيفة.

وكان أشد ما يؤلم في قراري، هو ابني الذي لم يتجاوز ثمانية سنوات فقط، لكني رأيت أنه سيكون يوماً ما، ويتفهم حينها سبب قراري هذا، أفضل من أن أستمّر تعيسة في حياتي، ويكون الاستمرار لأجله هو، وأحمله مسئولية تعاستي بعد ذلك، وقد يقول حينها: لم قررت البقاء ما دمت تعيسة وغير سعيدة؟

هذه تجربتي الخاصة يا أميمة، لا تخلو من الآلام، لكني راضية عما فعلت، وأحاول أن أعوض عن تقصيري مع ابني ما استطعت، وفي النهاية لا يخلو بشر من نقص أو تقصير.

نظرت لها أميمة نظرة محبة وشفقة، فقد أحست أنها بكلامها عن ذكريات الماضي قد نكأت الجراح الدفينة فيها، فشعرت بالألم حين تذكرت ما مضى منذ سنوات بعيدة، وحاولت أميمة أن تخرجها من حالتها فقالت:

معك حق يا ماجدة، فكل واحد منا له تجربته الخاصة، وله قدرة وصبر يختلف عن الآخرين فيها، فلا يجوز تعميم الكلام

على الكل، وكل مشكلة ولها ظروفها الخاصة وملابساتها، التي يُعلن منها البعض، ويخفي منها الكثير، فلا لوم على أحد، ولن يتحمل أحد عن الآخر آلامه أو جزءا منها.

المهم الآن أنني أتشوق لرؤية عصام، لم أره منذ زمن طويل، أفتقده كثيراً.

ابتسمت ماجدة وقالت لها:

إن شاء الله، فور نزوله إجازة سأتي به إليك، أعدك.

انتهت زيارة ماجدة لأميمة. بعدما وصلا الود القديم مرة ثانية، على وعد بتكرار الزيارة قريباً فودعتها وذهبت.

كانت زيارة ماجدة حديث أسرة منير أياما متتالية، تتحدث أميمة مع منير عنها، فيتذكر زوجها، فقد كان أحمد إبراهيم صديقاً له، إلى أن غادر المحافظة وسكن في محافظة أخرى لظروف عمله، وأحياناً تتحدث مع بنتيها، تسرد لهم هذه التجربة في الحياة، وتقنعهما بأنها ليست هي الطريقة الأمثل، فالأفضل للزوجة أن تصبر على المشاكل وعلى طبع زوجها، حتى تربي أبنائها في كنف الأسرة المستقرة.

مرّت الأيام سريعاً، والكل منشغل و غارق في مسؤولياته الحياتية، ولا تخلو حياة منير وزوجته من مشاكل وأزمات لكنّهما لم ينزلقا لما حدث سابقاً، فبقدر المستطاع يتجنبان الصدام، ويعود كل منهما إلى عرينه، حفاظاً على سلامة حدود الأسرة.

تكبر داليا وسط هذا الصراع الدفين، والوجوه القاسية المتحفزة للافتراس دائماً، التي تتمالك أعصابها في اللحظة الأخيرة، حتى تسير السفينة وترسو لمرساها.

مرت الأيام وجاءت ماجدة حسب وعدّها لأميمة، وإلى جانبها شابٌ يبدو كرجل في منتصف العمر، قد أعطته ملامحه الكبيرة في كل شيء، سنّاً أكبر من سنه، فرغم أنه في بداية العشرينات من عمره، إلا أنه يبدو كرجل في منتصف الثلاثينات، عريض الوجه أسمر اللون، عيناه سوداوان وحادتان، يحتفظ بشارب غير مهذب، جعد الشعر، هيكله عريض، قصير نسبياً وبطينٌ قليلاً. رآته داليا وهي تقف وراء أمها ففزعت من حجمه، واشمأزت من شكله، ولم تطق أن تقف تسمع صوته الغليظ، فتركتهم جميعاً وذهبت للداخل، تذاكر بعض دروسها.

سلمت ماجدة على أميمة وقدمته لها فقالت:

هذا هو عصام يا ستي كما طلبت، بشحمه ولحمه.

تقدم عصام مبتسماً وقال:

السلام عليكم، أهلاً بحضرتك أستاذة أميمة.

ابتسمت أميمة بحنانٍ واضح، ورفعت عينيها إليه، تتصفح ملامحه وقالت مازحةً:

أستاذة! أنا خالتك أميمة يا عصام، هل نسيت؟

أجابها وقد أصابه الخجل فقال:

لم أنس بالطبع، لكن هذا من باب الأدب مع حضرتك.

اتسعت ابتسامتها فقالت:

هذه المرة سماح، لكن بعد ذلك تناديني خالتي أميمة، اتفقنا؟

تبسم هو الآخر وقال:

حاضر، اتفقنا يا خالتي أميمة.

ضحكوا ثلاثتهم، وأشارت أميمة على ماجدة وعصام بالدخول، دخلوا وجلسوا في غرفة الضيافة، قامت مستأذنة منهم، تعد لهم مشروباً بارداً، خصوصاً، أن الوقت كان في بداية الربيع، وبدأت نسائم الصيف تزور المكان.

اتصلت أميمة بمنير حتى يأتي للمنزل، ويقابل الضيوف حسبما اتفقا سابقاً، ودخلت عليهما بعصير المانجا الطازجة، يخفف عنهما حر الطريق.

وبعد قليل وصل منير، دخل وسلّم على ماجدة وعصام، ورحب بهما بحفاوة وبشاشة، دار الحديث في الذكريات في الماضي وفي أحداث الحاضر، تكلم منير مع ماجدة أولاً، اطمأن على أخبارها ثم تركها للأميمة، ووجه شطره لعصام مرحباً به مرة تلو الأخرى، يذكره بنفسه حينما كان عصام صغيراً ويتردد على منزلهم ليلعب هناك، سألته عن دراسته وعن مستقبله، أخبره عصام أنه تخرج من كلية الآداب، وتم اختياره معيداً، وستتم إجراءات استلام عمله في الكلية، بعد انتهائه من الخدمة العسكرية التي لم يبق منها إلا شهرين.

أعجب به منير كثيراً، وفرح به وبتفوقه رغم الظروف الأسرية التي مر بها في طفولته، ووجد عصام في منير ألفة ومودة ومحبة صادقة، ظاهرة على ملامح الرجل الذي لا تفارقه الابتسامة، لم يرها في أحد من قرابته، حتى أنه لم يرها في أبيه بهذا القدر من القرب، فانفتح قلب عصام لمنير أيضاً، وتحدثا وكأنهما صديقان من سنين طويلة، أو كأنهما أب وابنه بينهما توافق واتفاق طيلة العمر، وجد عصام الأبوة التي حرم منها، ووجد منير الولد والابن الذي حرم منه أيضاً، فجبر كل منهما كسر الآخر، لتلتئم جروحهما، ويكونان سنداً لبعضهما البعض.

كانت هذه المودة والألفة بين منير وعصام، ظاهرة لدرجة أنها لفتت نظر أميمة وماجدة معاً، فما كان منهما إلا أن تنظران لبعضهما، وتبتسمان من هذه الألفة السريعة من أول لقاء.

نادت أميمة على داليا حتى تتعرف على الضيوف، دخلت داليا باحترام وسلّمت على ماجدة، التي حضنتها وقبلتها وحصنتها ببعض الأدعية ضد الحسد والعين، ثم دارت يميناً تسلّمت على عصام، الذي ابتسم لها ابتسامة مخيفة، فسَلّمت عليه بسرعة، وانصرفت مرة ثانية تمتعض بشفتيها وأنفها، من ذلك الضيف غير الخفيف.

انتهى اللقاء وهَمَّت ماجدة وعصام بالانصراف، على وعد من عصام بتكرار الزيارة كلما نزل إجازة، وذلك بعد إصرار كبير من منير وأميمة، ولم يكن من عصام إلا أن وافق على هذا ووعدهما به.

توالت الأيام وتاه الكل في دواماتهم الخاصة في هذه الحياة، وجاء عصام لزيارة أسرة منير مرتين أو ثلاثة، خلال الشهرين المتبقين من خدمته العسكرية، يستقبله منير وزوجته أميمة، بمزيد من الحفاوة والترحيب، لا ينقصها تكرار الزيارات، اقترب منهما كثيراً، وجد فيهما أباً وأماً، لطالما اشتاق لاجتماعهما سوياً، فتعامل بقرب أكثر، وراحة أكبر مع كل أفراد الأسرة، إلا داليا، فقد كانت لا تقبله ولا يروق لها كثيراً، تعتبره ضعيفاً عابراً، تؤدي له واجبات الضيافة المعتادة، لكنه زاد عن كونه ضعيفاً عادياً، فهو يعتبر نفسه واحداً من أفراد الأسرة، يتحدث بأريحية مع الجميع ويتدخل في كل التفاصيل، يجالس أباهما وأمهاتهما كثيراً، يمزح مع رانيا كثيراً أيضاً، لكنه لم يستطع كسب ود داليا، التي تعتبره شخصاً ثقیلاً الظل ولا تقبل بوجوده إلا تحت مسمى صديق والدها فقط، لكنه كان أكبر من هذا، ووالدها وأمهاتهما من رسماً له هذه المكانة في الأسرة.

انشغلت عن كل هذه الصور والعلاقات بدراساتها، فدفت رأسها بين كتفيها، وصبت غضبها وسخطها وهواجسها في المذاكرة وقتاً طويلاً، رغم مراقبته لها وبحته عنها، وابتسامته السمجة الثقيلة الباردة، كلما رآها مارة في ردهة المنزل، فلا يفوت فرصة ولو كانت لحظة خاطفة إلا ويظهر فيها أمامها، يعلن لها عن وجوده معهم، وإصراره على بقاء ذلك الوجود، رغم عدم تقبلها له وعبوسها الدائم في وجهه، لكنه كان سمجاً.



فرمة

أمام سوبر ماركت للمواد الغذائية، أوقفت دراجتها الصغيرة الحمراء، المزينة بشتى ألوان الزينة، ودخلت تشتري بعض ما أملته عليها أمها، مما يلزم لحاجة البيت والضيوف، فاليوم ليس عادياً، إنه نهاية مرحلة وبداية لمرحلة أخرى.

اليوم ظهرت نتيجة امتحانات الشهادة الإعدادية، وسيأتي المهنتون من الأقارب والمعارف والجيران، يباركون لها، ويتمنون مستقبلاً مشرقاً مليئاً بالتفوق، ولا بد أن يُكرم الزوار ببعض الحلوى والعصائر المثلجة، لترطب أجوافهم في هذا الصيف شديد الحرارة.

تناولت سلة كبيرة وبدأت في ملئها بقائمة طلبات كتبتها على ورقة صغيرة فور إملاء أمها لها، حتى لا تنسى شيئاً مما طُلب منها.

كانت داليا منظمة وذكية ومسئولة، تكبر أختها الصغرى بستتين، لكنها كانت تقوم بدور الأم والناصح الأمين لها، وكانت عون أمها منذ صغرها، مطيعة دائماً، تحب أن توصف بما يتصف به مثيلاتها من البنات المؤدبات المطيعات لأهلهن.

كانت في الرابعة عشرة من عمرها، لكن الناظر لها لا يراها تتعدى العاشرة، فكانت قصيرة نحيفة القوام، لا ينبئ جسدها بعمرها الحقيقي، حتى ملامح وجهها الدقيقة الصغيرة، وعيونها السوداء الجميلة، دائماً ما تُشعر المحيطين بها بأنها صغيرة السن، حتى أن أختها الصغيرة بدأت تكبر، حتى ساوتها في حجمها، فكان الناس يظنونهما توأمتين، لتساوي حجمهما، وتقارب ملامحهما.

خرجت من السوبر ماركت، وركبت دراجتها متجهة للمنزل الذي لا يبعد كثيراً، فقد كان في نهاية الشارع، دخلت بأكياس كثيرة للمطبخ حيث أمها موجودة وقالت بصوت متهدج:

أمي: لقد أحضرت كل شيء، السكر والبسبوسة، وعلب الحلويات، والفاكهة، فهل تريدين شيئاً آخر؟

ردت أمها بصوت بعيد من داخل المطبخ فقالت:

تسلمي لي يا داليا يا حبيبتني، كل حاجة موجودة، ربنا لا يحرمنا منك.

اليوم أصنع لك أحلى حلويات، لأحلى حفلة لنجاحك، ودخولك الثانوية العامة إن شاء الله.

غيرى ملابسك وانظري هل رانيا استيقظت من نومها أم لا؟ فلدينا أشغال كثيرة في البيت تحتاج لإنهاءها.

دخلت داليا لتوقظ أختها، لكنها وجدت رانيا مستيقظة، ومنكبة على أدوات المكياج تطبعها على خدودها وشفاهها، تاركة أمها منهكة في المطبخ، لا تهتم لأصوات الأطباق أو الغسالة، تعيش في عالمها الخاص، حيث لا مسئولية ولا تنغيص.

هكذا كانت رانيا تعيش طفولتها كالعصفورة، لا تبالي بمن حولها، وعلى الرغم من أنها تصغر داليا بستتين فقط، إلا أنها تعاملها على أنها أمها الثانية، تلقي بكل المسئوليات عليها، فلا تشاركها في أعمال المنزل الداخلية أو الخارجية، بل إنها كسولة حتى عن ترتيب سرير نومها.

كانت رانيا شقية كعادة الأطفال، كثيرة الحركة والكلام والضحك، تأخذ لُبَّ والديها بمرحها وخفة روحها، مما جعلهما يحبانها ربما أكثر من داليا، قليلة الكلام كثيرة الفعل، المتميزة في الدراسة، فكانت رانيا فاكهة البيت، تمرح وتُضحك من حولها، وكانت في المقابل تجني ثمار هذا من الإعجاب والابتسام والتدليل، وكانت داليا تلحظ كل هذا، تدركه لكن لا تظهر تأففاً ولا تبرماً، تلحظه بعينها سريعاً، فتتوارى عيناها بسرعة البرق قبل ملاحظتهما لها، وإدراكهما لإدراكها كيف يعاملان رانيا، فإذا ما فطنوا لذلك وأحبوا العدل بينهما، قالوا: إن رانيا جميلة وشقية، وداليا ذكية ومتفوقة في الدراسة، كل هذا قد يكون شيئاً عادياً يحدث في أغلب الأسر بين الأبناء ووالديهم، لكنه ينمو ويكبر

مع مرور السنوات، إذا لم يُنتبه له، ويترجم في صور أخرى من المشاعر والتصرفات، التي تبث الغيرة أو الفرقة أو التمييز بين الأبناء، ليتساءل الآباء والأمهات حينها عن سبب ذلك، ويجهدون عقولهم لاستنباط الدوافع، ناسين أو متناسين، أنهم هم سبب ما حدث، وما يحدث من مبتدأ الأمر، وقد يستمرون في إذكاء روح الفرقة هذه لسنوات طويلة في عمر أبنائهم وأحفادهم.

داليا بوجه مغتاظ وصوت منفعل:

رانيا ماذا تفعلين؟ ألا تسمعين حديثنا أنا وأمك؟ ألا تشعرين بما نفعله وما يجب أن ننتهي منه اليوم؟ المطبخ والبيت يحتاجان لترتيب ونظافة. وعليك أن تساعدنا في هذه المهمة.

كل الشغل والترتيب لا بد أن ينتهي قبل رجوع أبي من عمله.

قالت رانيا وهي تهز رأسها، وموشحة بوجهها عن أختها، والعبوس يرتسم على شفتيها:

وماذا علي أن أفعل؟

ردت عليها داليا باستنكار فقالت:

ألا تعلمين أن بيتنا اليوم ستقام فيه حفلة في المساء؟؟

تغير لون رانيا، وأحست بسخونة خدودها، فكتمت غيظا داخلها، وقالت وهي تضغط على أسنانها:

هذه الحفلة لنجاحك أنت، لا دخل لي بها.

قالت هذا وهي تحاول جاهدةً أن تخفي غيرة داخلها من تفوق أختها في الدراسة، فقد حققت داليا مركزاً متقدماً، بين العشرة الأوائل بين زملائها في الشهادة الإعدادية، بينما رانيا نجحت بالكاد في الصف الأول الإعدادي، وليس لها ترتيب بين الأوائل، وليس هناك احتفاء بنجاحها مثل داليا، فكانت تداري هذا بالمرح والفكاهة، والتدلل على والديها اللذين لا يستطيعان مقاومة خفة ظلها وبهجتها وجمالها، لكن لم يظهر ارضى كبيراً عن مستواها الدراسي، بل كالا لها التأنيب لأنها تلعب كثيراً، وتتحرك كثيراً، وتنشغل بالتلفاز عن المذاكرة والتركيز فيها، وكان طبيعياً أن تؤدي هذه المقدمات إلى هذه النتائج الطبيعية.

لكن لنجاح داليا طعم آخر، فبمجرد ظهور النتيجة صباح أمس، جاء مندوب من المدرسة ليبلغ النتيجة للأسرة، راجياً أن يحصل على مكافأة مجزية لتلك البشري الكبيرة، ولم يخب ظنه، فعندما زف الخبر لوالد داليا أعطاه مكافأة قيمة، وأيضاً أم داليا لم تبخل عليه، فقد خرج من بيتهما راضياً شاكراً راجياً لداليا التفوق في كل عام، حتى يحصل على مثل جائزته تلك كل عام.

احتضن الأب ابنته، وقبلها في خديها وجبينها، وهنأها على تفوقها الباهر، وأقبلت أمها مسرعة، والفرحة تملأ وجهها وعيونها، لتحضن ابنتها المطيعة المتفوقة، وتقبلها وتتمنى لها السعادة الدائمة، وداليا يخفق قلبها من الفرح، وتلمع عيونها من

السعادة، وتكلم بكلام متقطع لسرعة أنفاسها، سعيدة لأنهما سعدا بها، ولأنها شعرت بحنانها الذي يغيب كثيراً عنها، ولا بد أن تجتهد كثيراً، وتغلق على نفسها بابها لتذاكر وتحقق تفوقاً، يجعلهما يفتنان أن لديهما ابنة كبرى، غير رانيا، لها حق في عطفهما وحنانها واحتوائهما.

أما رانيا، فابتسمت ابتسامة باردة، ولما رأت هذا الاحتفاء بداليا تظاهرت بالانشغال في بعض أمورها، حتى لا يلاحظ عليها الغيرة.

وبعد أن جلس منير، أجلس داليا بجانبه، ثم قال لها باسمًا:

مبروك يا ست داليا، قولي لي الآن: ما هي أمنيتك؟

ضحكت داليا، ونظرت بقوة لعيني والدها وقالت بتأكيد:

أمنيتي قد اتفقنا عليها من قبل، أنا وحضرتك، أم تراك نسيت؟

رفع حاجبه الأيسر فأتسعت عينه اليسرى عن اليمنى التي تراجع قليلاً وقال:

حسناً، أنت ما زلت مصرّة على الدراجة التي رأيناها بالأمس؟

ردت داليا بتأكيد وإصرار فقالت:

بالضبط يا أبى، كما قلت تماماً.

أردف منير فقال:

يا ابنتي: الأولاد هم من يركبون الدراجات، وليس البنات.

تدخلت أميمة في الحوار، وكانت قد جاءت من المطبخ للتو،
فقالت:

اشتريتها يا منير، لا فرق بين البنات والأولاد، ثم إنني أحتاج
طلبات من أماكن مختلفة، وبعيدة أحياناً، لذلك فالدراجة ستكون
مفيدة وسريعة، وموفرة للوقت والمجهود.

ويبدو أن منيرا اقتنع أخيراً بالرأي فقال:

تمام، ما دامت ستكون وسيلة مواصلات لكم، أنا موافق، مع
إن والدتك هي من يجب عليها شراءها.

ردت أميمة بسرعة فقالت:

ليس لي دخل بالموضوع، أنت من وعدت بشرائها، أنت حر.

ضحك منير ضحكة عالية وقال:

كالعادة، الهروب السريع لأم داليا، عموماً، موافق لكن لا بد أن
نسمع رأي رانيا أيضاً، ما رأيك يا رانيا؟

ردت رانيا بغيرة مكتومة تحاول مداراتها فقالت:

أنا أصلاً لا أحب الدراجات، فهي غير مناسبة للبنات.

فقال، بعدما أدرك ما تضمّره من غيرة:

وكالعادة أيضاً، المعارضة من أجل المعارضة، لزعيمة المتمردين
رانيا منير.

ولا يهتمك يا ستي، المهم قللي أنت، ماذا تريدين؟
أجابته رانيا بلهفة، وإجابة تبدو أنها أعدتها سلفاً فقالت:
أريد عروسة كبيرة جداً، ومعها كل حاجاتها.
ابتسم منير لها وقال:

كما تريدين مولاتي الملكة رانيا.

أنهت أميمة وداليا الترتيبات للحفلة، ولضيوف المساء،
وساعدتهما رانيا على مضض، لكنها أصرت أن تساعد في ترتيب
الصالون، وتنظيف البيت فقط، وليس عمل أي شيء في المطبخ،
شرباً أو طعاماً، رضىا منها ذلك لقلّة حيلتهما تجاهها، حتى لا
تنصرف كُليّة عن المساعدة، فهي سرعان ما تتلون، وتنقلب إلى
الغضب بعد الرضا، والنكد بعد المرح.



الحفلة

وصل منير مبكراً من عمله، وأحضر ما طلبته زوجته، وجدها
في المطبخ مشغلة، ناداها:

ألم تنتهِ التحضيرات بعد؟

قد قرب موعد وصول الضيوف، هل تستقبلينهم بملابس
المطبخ تلك؟

أجابته بصوت يعزف سيمفونية مع أدوات المطبخ فقالت:

قاربنا على الانتهاء، نصف ساعة إن شاء الله، ويكتمل كل
شيء.

دخل عليها المطبخ وجدها مشغلة بما تصنع، فقال بعدما دار
بصره في المكان:

أين داليا؟ لم أراها.

أجابته، ولم تزل منهمكة في عملها، فلم ترفع بصرها إليه،
فقالت:

داليا في غرفتها، تجهز ملابسها الجديدة التي أحضرتها لها
لترتيديها في حفلة نجاحها.

اقترب منير من غرفة ابنتيه، وطرق الباب ففتحت له داليا،
فقال لها:

ما الأخبار حبيبتي، الفستان مناسب لك؟

ردت عليه والفرحة تملأ عينيها فقالت:

جميل جداً يا أبى، أنظر إلي.

ابتسم لها في رضى، وقال:

ما شاء الله تبارك الله، هو جميل حقاً، مبروك عليك داليا.

لكن، أين رانيا؟

قالت له:

رانيا في الصالون تشاهد أفلامها المفضلة، الكرتون.

وجّه نظره صوب الصالون ونادى بصوت عالٍ:

رانيا، تعالي هنا.

قامت متكاسلة من كرسيها، تمشي وكأن قدميها مربوطتان
بسجادة الصالون، تنظر للأرض بعينين جعلتهما ضيقتين، بعدما
مطت شفتيها ونكست رأسها وضمت ذراعيها لجنييها، وكأنها
تتحاشى سهام الأعداء، وأخيراً وصلت لأبيها وقالت:

نعم يا أبى.

سألها مستنكراً فقال:

لَمْ ترتدين ملابس البيت حتى الآن يا رانيا؟ أين الفستان الجديد؟

أشارت بيدها الصغيرة لغرفتها وقالت:

في خزانة الملابس، سأرتديه بعد قليل.

قال لها مشجعاً:

ليس هناك متسع من الوقت يا رانيا، استعدي مثل أختك.

أنبأت عن مكنونها، ففضحتها غيرتها، وقالت:

لماذا أستعد؟؟ هي صاحبة الحفلة؟؟ أليس كذلك؟

ليس مهما أن أرتدى أي جديد، فلن ينظر أحد إلي.

فطن لغيرتها من أختها، فضمها إليه وقال:

من قال هذا؟ فالحفلة لنا كلنا، ولا بد من إظهار الفرح واستقبال الضيوف بابتسامة حلوة.

أعمامك وأولادهم، والجيران ومعارفنا، كلهم يحبونك ويتظرونك في الحفلة، كلهم سألوني عنك عندما دعوتهم للحفلة، هيا وتجهزي مثل داليا وتزيني للحفلة، فلن يكون للحفلة طعم إذا غاب عنها القمر، رانيا.

كلام أبيها خفف عنها وطأة الغيرة، ولم يكن ذلك مهما لـرانيا، لكن المهم عندها هو أن يقول أبوها كلامه هذا، بما فيه من

تدليل، أمام داليا، حتى تُسمعها، وتعلمها أنها مازالت مفضلة عند أبيها، حتى وإن تقدمت عليها داليا في بعض الأشياء الأخرى.

اكتملت التحضيرات، وتهيأت الأسرة لاستقبال ضيوفها المنتظرين، راجعت أميمة كل التفاصيل في البيت أكثر من مرة، الصالون نظيف ومرتب، الستائر مهندمة، الأرض نظيفة، والسجاجيد متربة، خصوصاً، لأن الشقة دور أرضي، فكثيراً ما يدخل الغبار والتراب إلى الشقة، رغم الإغلاق المحكم للنوافذ، رائحة المعطر تكسو أنفها كما تريد دائماً،

رن الجرس بإصرار واستمرار فكان ذلك إعلاناً عن أول زائر، ولم يكن غريباً، بل غريب الأطوار أحياناً، إنه العم شوقي، الثثار وزوجته عزة، التي تعمل ليل نهار وتكد من أجل كبح جماح لسان زوجها، الذي غالباً يأتي بالمصائب، ويفشى الأسرار، ويروج للشائعات كثيراً، من أجل شهرة له، أو أملاً في نيل حظ من التقدير والإنصات، ممن يحضرون مثل هذه المناسبات الجميلة.

تبادلت الأسرتان التحيات والأحضان، وقدمت التهاني والضيافة من الطرفين، وتوافد باقي الضيوف من الأهل والجيران تبعاً، وجلس العم شوقي يتكلم كثيراً كعادته، ينسب لنفسه الكثير مما وصلت إليه داليا، فقد كان يشجعها دائماً ويحثها على التفوق، وكانت ثقته في محلها فلم يخب ظنه بها، وباقي الحضور يسمعون ويتفاعلون مع حديثه تصنعاً حتى ينتهي هذا الكلام المكرر، كلما حلت لهم مناسبة أو تجمع.

حضر عصام بعد قليل، وما إن حضر حتى قام منير يستقبله، وهش له وبش، وقاده إلى مقعد مميز في وسط الحضور، فقد كان له في قلب منير مكان ومكانة.

امتلاً المنزل بالزغاريد والضحكات والتبريكات، وارتسمت البسمات وعلت الضحكات بين الحضور، وراحت داليا ورانيا وصديقاتهن يذهبن ويحجن بكاسات العصائر وأطباق الحلوى بين الضيوف، حتى انتصف الليل، وانصرف الضيوف مودعين وداعين للبنتين بدوام التوفيق، شاكرين للأبوين كرم الضيافة، إلا أن ذلك الشاب، عصام، انتحى جانباً بمنير ليدعوه أن يأتي لحضور مناقشة رسالة الماجستير الخاصة به في القاعة الكبرى بكلية الآداب، وذلك نهاية الأسبوع آملاً أن تحضر معه باقي أسرته ليشعر بالدفء والثقة بينهم، وقد لمعت عينا منير من الخبر، وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، مؤكداً حضوره مع الأسرة لمثل هذه الرسالة الباعثة على الفخر، لمثل ذلك الشاب الذي يعده ولده الأكبر.

غادر عصام المنزل كباقي الضيوف، ورمقته كلتا البنتين بعيون متعجبة، فقد كان الوالد يحبه كثيراً، والأم أيضاً تحبه محبة مميزة خاصة، لكنه كان يكبر كبرى البنتين، داليا، بما يقرب من عشر سنوات، فكانت البنتان تعدانه أحد أعمامهما، وذلك لكبر سنه نسبياً عنهما، وأيضاً لضخامة جسمه.

أغلق منير باب منزله بعد ليلة جميلة لداليا، لكنه كان مرهقاً من طول وقفته خدمةً وإكراماً لضيوف ليلته، فما أن غادر الضيوف حتى استلقى على أريكة وثيرة، وغلبته جفونه فأغمض عينيه، طلباً للراحة والسكينة.

بينما قامت أميمة كعادتها واستدعت بنتيها، لتنظيف المنزل من بقايا ما قدم للأكل والشراب، وكنس الأرضيات وتهذيب المقاعد، وغسل الأطباق والكاسات وترتيبها في أماكنها المخصصة، ومع أن داليا ورانيا قدمتا لها كل طلبات الرجاء والتوسل أن تتركهما ليسترicha، إلا أنها أصرّت على أوامرها التي يصعب عليهما عصيانها، فقامت البنتان متناقلتين، تضع رانيا ذراعها على كتف داليا لتتوكأ عليها حتى المطبخ، لتنفيذ الأوامر الأممية حرفياً ودون تأخير، درءاً لعاقبة غضبها عليهما.



قـر

جاء يوم الخميس وحانت مناقشة الماجستير لعصام، استعد منير وكان مصراً أن تذهب أميمة وداليا وrania، رغم أن البنتين لا يروق لهما عصام كثيراً، فقد كان بعيداً عن روحيهما، يبدو منه ثقل ظل إذا تقرب منهما بكلام أو دعابة، رفضت داليا الذهاب، متعللة بزيارة صديقتها سمر التي وعدتها بها منذ يومين، غضب والدها وتغيرت ملامحه، وتكلم بجذ وتحذير من عاقبة رفضها للذهاب معه، قالت له:

لا أريد الذهاب يا أبى، يكفي أن تذهبوا أنتم، ليس مهماً أن نذهب مجتمعين.

رد عليها بحزم:

لا بد لك من الذهاب معنا، ليس الأمر محل اختيار.

قالت في توسل:

لكنه يا أبى ليس قريباً لنا، فيعتب، إنه فقط صديقك أنت.

وقع كلامها عليه كالصاعقة، فنفر وزفر ثم قال:

عصام أقرب لنا من أقربائك، وهو فرد من أسرتنا، وسيكون هكذا طوال العمر.

تدخلت أميمة لتفض الاشتباك قائلة:

داليا ستأتي معنا اليوم، وبعد العصر ستذهب لسمر، وأشارت لداليا خلسة أن توافق، خوفا من تفاقم غضب أبيها الذي يدمر كل شيء. فوافقت داليا على مضض.

وصلوا للجامعة، ودخلوا القاعة الكبرى لكلية الآداب، وجدوا عصاما يجهز نفسه للمناقشة، يراجع الرسالة، ويرتب أفكاره يستجلب الثقة، فما أن رآهم حتى فرح وذهب اضطرابه، وشكرهم على مجيئهم وأجلسهم في مقدمة الصفوف في القاعة.

جلست داليا مغضبة تبسم ابتسامة الواجب، تنظر في ساعتها متى ينتهي هذا اللقاء؟

دخل زملاء عصام وبعض الطلبة في الكلية في قسم علم النفس، ليحضروا رسالة الماجستير لأستاذهم الشاب، ودخل بعد ذلك السادة المشرفون والمحكمون للرسالة.

امتدت المناقشة قرابة الساعتين، إلى أن تم منح عصام درجة الماجستير في علم النفس.

ضجت القاعة بالتصفيق، وشكر عصام الجميع، وقام الحاضرون بتهنئة بتهنئته، وكان أول المهنيين بالطبع هو منير، ثم أميمة، تبعتهما داليا ورانيا، ثم باقي زملائه وتلاميذه.

رجعت داليا ممتعة، من فرض والدها الذهاب عليها، وتسارعت دائما في قراراته، فقد كان لا يراعي مشاعرها في كثير من

الأحيان، بل يملئ عليها ما يريد لأنه الوحيد الذي يعرف ما تريد كما يزعم هو، لأنه الأذكى والأكثر خبرة من زوجته وبنتيه.

ذهبت لسمر مسرعة لتشم عندها بعض الهواء الحر، بدون قيود على الكلام، أو تعليق وتجريم للأفعال.

كانت سمر أقرب رفيقات داليا، وكانت كهفها ومأواها الآمن، ومخزن أسرارها الخاصة.

كانت تحب داليا كثيراً، وذلك لأن داليا رغم جمالها وتفوقها إلا أنها لم تترك رفقتها يوماً، أو تستبدلها بمن في مستوى جمالها أو تفوقها، فهي ترى داليا مميزة ومحظوظة كثيراً، وكانت سعيدة بصحبها.

وما إن استعادت داليا لأنفاسها بانتظام، حتى بدأت تسرد ما حدث من أبيها، وفرضه رأيهم بالقوة، في الذهاب لهذه المناسبة، وهي لا ترى أن أسرتها بهذا القرب من عصام هذا، حتى يكون حضور تلك المناسبة فرضاً عليهم، وكأنهم أهله.

أنصت سمر لصديقتها، وأعطتها مساحة كافية لتخرج كل حقها وغضبها من ذلك الموقف، لكنها تساءلت:

عصام شاب طموح ومجتهد وخلق فلم لا يروق لك؟

لم تنكر داليا ذلك لكنها قالت:

لا أرتاح لوجوده يا سمر، أحس بثقل الجبل على قلبي إن رأيته، أو تحدث إلي.

يكفيه أبي، الذي فرضه علينا، وقد كان كافياً أن يصاحبه من بعيد، خارج أسرتنا.

ووجدت أن الكلام طال عنه، وهو لا يستحق ذلك الوقت كله، فقالت لسمر.

دعك من هذا، المهم قول لي ما آخر الأخبار؟ هل من جديد؟
أجابتها سمر فقالت:

لا جديد، لكنى اقتنيت بعض الروايات الجديدة الجميلة، ستدهشك لو قرأتها.

لمعت عينا داليا، وذهب عنها ما كانت فيه من الحنق والغضب، وقالت:

وصامته طوال هذا الوقت؟ أين هي يا ابنتي؟

قامت سمر مبتسمة وأحضرت الروايات، وتلقفتها داليا بتلهف، ومررت عينيها على الأسماء والعناوين وهي تبسم وتقول:

جميل جداً، رائع، سيكون لنا حفلة مع هذه الروايات.

مرت الأيام والشهور، ومرت السنة الأولى والثانية من الثانوية العامة لداليا، وجاءت السنة الثالثة، ولحقتها رانيا فدخلت السنة الأولى.

كانت السنة الثالثة مهمة جداً لداليا ول مستقبلها، فهي السنة التي يتحدد فيها التقدير والمجموع، الذي بدوره يحدد الجامعة والكلية التي تريد الالتحاق بهما.

اجتهدت داليا في المذاكرة والتحصيل والتركيز، فلم تضيع وقتاً في غير فائدة، وكانت أميمة تشجعها دائماً، وتفتخر بذلك أمام زملائها من المعلمين والمعلمات في المدرسة، وكان منير أيضاً يشجع تفوقها، لكن ليس كما ينبغي، فكان مشغولاً بعمله في المركز الخاص به، فكان مكتبه لا يخلو من أصحاب الأسئلة والمشاكل، الذين يقصدونه ليساعدهم على تجاوز أزماتهم، ومنها المشاكل الزوجية، والعجب أنه ينصح الزوجين لتجاوز الأزمات، ولا يطبق كلماته على نفسه، أو زوجته، وتلك طامة كبرى تصيب الكثيرين من البشر، ترى الرجل أو المرأة ينصح ويخطط، ثم تجد الفشل يعيش في بيته وبيتها، فهل يتخذ ما تعلمه مهنة فقط تجلب له المال؟ ألم يكن من الأجدر أن يكون التعليم هو منهج للحياة، يرقى من مستوانا الإنساني والاجتماعي؟ لكنها آفة طريقة التعليم عندنا، وهي التعليم للحصول على الشهادة، التي تمنحك رخصة وفرصة للعمل لجني المال، وليس التعليم للترقي والتحضر، وأيضاً للعمل، إنها فجوة لا بد لها من التفكير في ملأها بفكر جديد للتعليم في مجتمعنا.

مرت الأيام وداليا تجتهد كعادتها، وفي نفس الوقت هي عون أمها في البيت، وتوالت لقاءات منير وعصام في البيت، بحجة رسالة الدكتوراه التي يعمل عليها عصام، التي ترتبط ببعض العناصر النفسية، لذا فهو يحتاج لخبرة منير وتخصصه، وكان ذلك مبرراً كافياً للقاءات متكررة في المنزل ليلاً، وذلك يتطلب

بعض الضيافة من الشاي والقهوة وبعض الكيك، وكانت داليا بدورها لا بد أن تقوم بهذه الأمور مع أمها، مما سبب لها الكثير من النفور تجاه هذه الأشياء التي تقطع تركيزها، ويتطلب قيامها مرات كثيرة متقطعة، مليئة نداء أمها لتدخل بالقهوة، أو تأخذ الكاسات بعد فراغها، لتغسلها وترتبها في المطبخ.

رمقها عصام بطرف عينه وهي عابسة، وكان منير يلحظ ذلك التبرم والتأفف منها، لكنه لم يرق له ما يرى، فقال:

مالكِ يا داليا؟

لا شيء، لكن عندي دروس لازم أذاكرها.

وجد عصام فرصة للكلام معها، فظن أنه سيلطف الجو، فسأل بابتسامة مصطنعة:

أنتِ في القسم العلمي أو القسم الأدبي؟

ردت داليا على مضض:

في القسم العلمي.

أردف عصام بانتقاص وبرود فقال:

ولماذا القسم العلمي الكئيب؟ كنت دخلتِ أدبي أحسن.

ثم إنك لا تملكين قدرة للقسم العلمي، فهو يحتاج وقتاً وذكاء وتعباً.

وفى النهاية تدخلين كلية معقدة، كالطب أو الهندسة، تستهلك ما بقي من طاقتك وشبابك.

غيرى مسارك للأدبي ولو دخلت كلية آداب أساعدك بكل طاقتي.

أصابتها دهشة وصدمة، من ذلك المتطفل السمج الذي اقتحم عليها حاضرها ومستقبلها، وأعطى لنفسه حق تقرير مصيرها، وكأنه قريبها أو صديقها، وهو في الواقع لا هذا ولا ذاك، ما هو إلا صديق لأبيها، ولا يجوز له الخروج على حدود اللياقة والأدب، وعليه ألا يتدخل فيما لا يعنيه.

هل يقول هذا الكلام حقاً لحرصه عليها؟ أم أنه لا يريد أن تسبقه لإحدى الكليات المسماة بكليات القمة، فتكون قد تفوقت عليه هو؟ أم أنه يريد أن يديرها في دائرة بصره، ليعرف عنها كل شيء، ويمنع عنها كل شيء؟ أم يريد أن يغلفها بعينيه، كي لا تهرب منه، ولا يكن أمامها إلا هو، فتتصاع لإرادته هو وحده؟

تمالكت نفسها بعد هذا الدش الساقع الذي غمرها، فشعرت بقشعريرة تنساب في جسمها من جبل الجليد الجالس أمامها، ونظرت لأبيها لعله ينصفها فيرجعه عن قوله، لكنها وجدته صامتاً، وكأن الكلام لاقى منه قبلاً واستحساناً، فلم يكن أمامها بُدٌّ من الدفاع عن كرامتها، التي تناثرت كقطرات المطر على الأرض، فقالت في عصبية:

أولاً، حضرتك، أنا الحمد لله متفوقة قبل دخولي الثانوية العامة.

ثانياً، أنا لدي إرادة وقدرة على اتخاذ قراراتي بنفسي.

ثالثاً، أنا لست بحاجة لمساعدات حضرتك.

رابعاً وخامساً وعاشراً، أنا لم أسمح لحضرتك بالتدخل في مستقبلي، ولم أطلب نصيحتك، وأتمنى ألا تتدخل مرة أخرى فيما لا يخصك.

لا تدري كيف كتمت غيظها، وقالت كلامها بصوت مؤدب، بعيداً عن الصراخ في وجهه، لكنها استطاعت ذلك.

تَلَقَّى عصام كلماتها كلطمات على وجهه، أو كأنها ضربات سيوفٍ قطعت جسده، فأخرس لسانه، ولم يستطع الرد، واكتفى بالنظر في الأرض، بعدما أدرك قبح ما فعل.

وقد كان يظن أن له في قلبها مكاناً، لكنه اكتشف خواء قلبها، وقسوتها عليه.

لكن منيرا نهرها بعصية قائلاً:

كفي يا داليا، احترمي ضيفنا، أهذا جزاؤه لأنه خائفٌ عليك، مهتم بك؟

أجابته داليا بشموخ وعزة، فقالت في ثقة:

لم أسئ احترامه، لكني رددت على كلامه بأدب.

سمعت أميمة الحديث، وكانت بالداخل منشغلة ببعض حاجاتها، فنادت داليا لتحضر إليها، لتفرض هذا الاشتباك، وما أن جاءتها داليا حتى سألتها أميمة:

خير يا داليا؟ ماذا حدث؟

نفرت وزفرت وتملكتها العصبية، فقالت وهي تتنفض:

يا أمي، أريد أن أفهم، لم هذا الرجل يتدخل في شؤني بهذه السخافة؟

أجابتها أميمة بهدوء تحاول أن تمتص غضبها، فقالت:

يا بنتي، هو مثل أخيك الكبير، وهو صاحب أبيك، لا تكبري المسائل.

قالت داليا في حزم:

إذن فليلتزم حدوده معي، أنا أعامله باحترام لأجلك أنت وأبي، أما أنا فلا أقبله، ولا أريد الاختلاط به.

رانيا موجودة، ممكن تقدم له الشاي والقهوة، أبعدوني عنه.

قالتها بعصبية وانصرفت لغرفتها، بعدما أحست أن أميمة هي الأخرى لم تر حرجا في تدخله في حياتها، واعتبرته فرداً من الأسرة، له صلاحية المشاركة والقرار.

والحق فإن هذه العلاقة كانت زائدة عن الحد، فقد كان عصام بشكل شبه يومي، بسبب وبغير سبب، يتردد على الأسرة، بطلته

الباردة وروحہ الثقيلة، والمصيبة الكبرى كانت عندما يمثّل أنه خفيف الظل، فسبحان الله، ينقلب لأسخف مخلوق، يسبح في بحر السماجة وثقل الظل، وظل هكذا كأنه قدر وأصاب داليا، يتسم لها في برود لو قابلها، ولا يمنع نفسه من السؤال عنها وعن دراستها، ولا يملّ رغم إعراضها الواضح عنه، وشعور الاشتمّاز البادي على عينيها حين تراه.

كانت داليا تلحظ خلال زيارته الحفاوة التي يقابلها به والدها، والترحاب الذي يظهر على وجه أمها، فكانت تتعجب من اتفاق النقيضين على شيء أخيراً، لكن للأسف، فمنيّر وأميمة مع مرور السنوات أصبحتا لا يتفقان على طريقة الحياة، أو على التخطيط للمستقبل، أو الطموحات لنفسيهما وبناتهما، الحق أنهما كانا مختلفين كالليل والنهار، إذا ظهر منهما أحد، اختفى الآخر.

دخلت داليا لغرفتها وسحبت دفترًا تكتب فيه بعض اليوميات والمذكرات، وانتقت قلمًا جيدًا وبدأت تكتب:

إنهما يختلفان لأنفسه الأسباب، تجد البيت معبأً بدخان الغضب، وثورة الكلمات، وكأن حدثاً جليلاً قد وقع، وإذا فتشت في أسباب الصدام، فقد تجدها تدور حول مواعيد الطعام، إذا رجع أبى جائعاً وأراد أن يأكل، فتصرّ أمي أن ينتظر قليلاً، حتى يكون الطعام في المساء مثلاً، أو أن تطبخ أمي وصفة أو طعاماً تشتهيّه هي، لكن لا يروق له، فينصدم بطعام لا يحبه، وإذا وجه

لها السؤال، أجابت: بأنها تحب ذلك الطعام فصنعتة، فيشتاط غضبه أكثر، ويعد ذلك أنانية منها، وعدم تقدير لرغباته، فهي تفكر في نفسها فقط، أما هو، فيتدبر أمره.

أما المشكلة الأزلية التي تؤرق أبي، فهي يوم إجازته وراحته، أو يوم الغسيل والتنظيف عند أمي، فكثيراً ما كانت تصر على غسل الملابس صباح الجمعة، ويستلزم ذلك أن تفتح زر الغسالة التي يصرخ صوتها، فيسمعه من في الشارع، فليس أبى وحده الذي يسمع.

وإذا ما تغلب على الصوت بمخدة فوق رأسه، تذهب إليه أمي بصوت خافت، لتطلب منه ملء السرير، الذي ينام عليه الآن لتغسلها مع الغسيل، فإذا ما تقلب يمينه ويسرة ليعطيها الملاءة ويستكمل نومه الذي طار، تطلب منه أيضاً أكياس المخدات التي تحت رأسه، فيتصب جالساً على السرير، يضرب كفاً بكف، يستغفر الله كثيراً، ويتبع الاستغفار بلا حول ولا قوة إلا بالله، ويضع يده على جبهته التي تغلي من الغيظ ثم ينفجر فيها:

أما وجدت غير يوم راحتي لتتبعيني؟

ألا أهناً بنوم كاف يوم إجازتي؟

لكنها بكل برود واستفزاز، وأحياناً غباء وسذاجة، تقول له:

أكمل نومك، لن أطلب شيئاً آخر.

فيرد في حق وغيظ:

وكيف أنام وغسالتك تدور كالتائرة بالخارج، وملاءة السرير
سحبته من تحتي، وأكياس المخدات نزعت من تحت رأسي؟
أليس كل هذا إزعاج؟ كيف أنام في هذا الجو البديع يا امرأة؟

حسبي الله ونعم الوكيل.

استيقظ مرغماً، فساء مزاجه، خرج لغرفة الجلوس وطلب
إفطاراً، لكن أمي دائماً كانت عند ظنه، فقالت له: حضّر طعاماً
لنفسك، فلست متفرغة لك، يزفر أكثر وأكثر، يدخل المطبخ
ويأتي ببقايا طعام في الثلاجة، ويأتي ليأكل، يجدها تدخل
وتطلب السجادة لتنظفها، يجلس على مقعد، ويصمت في يأس،
تصدمه بدخولها مرة ثانية، وهي تمسك بالممسحة والجرذل،
لتمسح الأرضيات، وتشير له أن يرفع رجله من على الأرض،
يكتم غيظه، ويتعلم الصبر المر على قدره العجيب.

وهكذا كل يوم جمعة، حتى خلا بها ساعة صفاء منها، وقرر
أن يقيم حواراً ديمقراطياً معها (سمعته مرة وأنا في غرفتي) فقال:

أما وجدت يوماً غير يوم الجمعة، لتفعلي كل هذا؟

أجابته هي الأخرى بحوار متحضر فقالت:

أنا طوال الأسبوع عندي شغل بالمدرسة، لا يوجد وقت غير
يوم الجمعة.

أقنعتة، فبحث لها عن بدائل، فقال:

يمكنك بدء هذه المعركة بعد عودتك من المدرسة في أي يوم، لماذا اليوم ولماذا الآن؟

صدمتها خياراته، ورأته أنانياً، لا يرى تعبها وجهدها، فقالت:

تريدني أعمل بالصباح، وبعد رجوعي أعمل حتى موعد نومي؟ تريد مرضي وموتي!

لعن الديمقراطية ومن ينادون بها، ولعن كل شبيهاتها من النساء، وفقد هدوءه فقال في عصبية:

حسبي الله ونعم الوكيل.

وقام مغضباً ثائراً، وتركها وكأنها قطعة جليد لم تذبها حرارة غضبه، ولهيب عصبيته.

وهكذا كانت حياتنا دائماً، مشاكل على التوافه، أبى يريد راحة واهتماماً، وأمي تريد مظهراً جيداً أمام الناس في بيتها وحياتها، وليس مشكلة أن يتبرم زوجها أو لا، ولأنه يؤس من اقناعها، فقد استعمل أسلوب السطوة والقهر لفرض رأيه، الذي لا يخلو من خطأ ككل البشر، لكنه رأى أن يكسر آراءها، ويهشم الأنا التي تعلو أنفها، فكان القهر منهاجاً، والصوت المرتفع عنواناً.

ولا أعلم، هل هذا هو الحل مع شخصية أمي الجامدة هذه؟ قد يكون صواباً كما يقولون، فلا بد أن يُخضع الرجل زوجته، وتشعر ببعض الخوف منه، إذا باءت محاولات الإقناع بالفشل.

لكنه كان قاسياً جداً عليها، وبالطبع علينا، وأصبح لا يسمع لأحد سوى صوته هو، وللأسف هي الأخرى كانت ترى أنها حكيمة زمانها، وأصوب الناس رأياً، ولا تدخر جهداً في استفزازه وإثارة غضبه، بقصد وبغير قصد، وبغباء وسذاجة أحياناً.

هل كونها ناظرة لإحدى المدارس، وما تقتضيه مهنتها من حزم وقوة وانضباط له انعكاس على شخصيتها في بيتها؟

هي فعلاً لم تستطع الفصل بين الست ناظرة المدرسة، وبين الزوجة الحانية اللينة مع زوجها.

وكان أبى يتذمر كثيراً من طباعها القاسية، وجمود عينيها، وتبلد ملامحها وهو يحاورها، كزوجين طبيعيين، كانت باردة كالثلج كما يقول عنها دائماً.

وقد شكاها لجدتي كثيراً، لكن جدتي قالت بأن أميمة يابسة الرأس، إذا أرادت شيئاً فعلته، ولا يثنىها أحد عنه، فرجع يائساً محتسباً، صابراً على بلواه.

كنت أنا وراينا نتابع هذه الأحداث، ونشارك فيها، فعندما يثور غضب والدي كنت أدرك ذلك، وأخاف كثيراً، مشفقة من نهاية هذا الأمر، فالتزم الصمت وأطيع الأمر حتى لا أكون ضحية هذا الصراع.

وراينا كثيراً ما مرضت، بسبب هذه الأحداث، فقد شكت يوماً من مغص جعلها تبكي من الألم، وذهبت بها للطبيب الذي قرر أن

هذه الأعراض نتيجة حالة نفسية لراينا مرت بها، سببت لها هذه الحالة، وكثيراً ما يتأثر الأطفال بخلافات والديهم، ويكون التعبير ليس بالكلام أو بالاعتراض، وإنما يتحول لمرض عضوي، وقد سأل الطبيب أبي وأمي هل هناك مشاكل لديكما، فنفيا بكبر أن يكون هناك مشاكل، فأردف الطبيب أن ابنتكما حساسة، فلتبتعد عن أي مشاحنات نفسية أو خلافات أسرية.

لكن سبحان الله مقلب القلوب، فقد جمعهما عصام على وده، واتفقا على محبته، وهو أيضا كان يحبهما، وجعل منهما أسرته، بعدما تشتت أسرته.

أنهت ما كتبته، وأغلقت دفترها، ووضعتة جانبا، وأسلمت عينيها للنعاس.



نضوج

مرت هذه السنة بسرعة، كعادة السنين في هذا الزمان، تمر الأيام والشهور والسنون، ويهرب بنا العمر، لمراحله بين الطفولة والصبا، والشباب والكهولة دون انتباه منا، بل نستغرب إذا نظرنا في المرأة، ووجدنا ملامح تتغير، وتجاعيد تتكون، وشعرا يشيب، وننسى للحظات، أننا تجاوزنا محطات عدة، لكن سرعة القطار أنستنا المحطات، فأحياناً، يغزونا النعاس وتغمرنا الغفلة من شدة السرعة.

مرت السنة الثالثة من مرحلة الثانوية، بعدما أخذت من داليا مجهوداً كبيراً، وساعات كثيرة أمضتها في القراءة والمذاكرة والتركيز، حتى قاربت الامتحانات أن تدق أبواب الطلاب.

استعدت داليا جيداً لاجتياز هذه المرحلة، فلم يبق سوى أمتار وتجتاز خط النهاية، لتحقيق التفوق المنشود.

تركت كل ما ينغص عليها مشاعرها جانباً، فلم تهتم بالخلافات اليومية بين أبيها وأمها، فقد صارت تلك الخلافات جزءاً من الحياة اليومية، وإذا اختفت خلافاتهما، يكون الحذر أكبر والخطر أعظم، تغلق عليها باب غرفتها لتذاكر وتذاكر لتغرق في مستقبلها، بعيداً عن شواطئ الصراخ واللعنات المحيطة بها.

تخرج لتساعد أمها كالعادة، تلاحظ جمود أمها وقسوة ملامحها، تجلس معها ليتناولوا الغذاء فترى سخط أبيها، وعدم رضاه عن أمها، إذا طلب شيئاً وصارت طاعته جدالاً، فلم تتأثر بتبرمه، ولا تتأثر لتسلطه على أمها، فهي ترى أن أمها تستحق ذلك القهر، وأنها المسبب الأكبر له، تساعد أختها في المذاكرة وتحضنها على التفوق، حتى يكون لها شخصية مستقلة لا يقهرها الآخرون.

وتجاهلت ذلك العصام، الذي تنفر من مجرد رؤيته، فلم تعباً لسماجته أو تطفله، تعامله كأنه ظل، أو خيال ليس موجوداً، تجنبته توفيراً لطاقتها ووقتها فيما يهتمها، ولم تهتم لسؤاله أو نقاشاته السخيفة، التي تشعرها بمدى غروره، وتحقيره للآخرين من حوله، فكان يقول ولا تسمع، وإذا سمعت لا ترد ولا تجيب، حتى يؤس منها، فقلّت جرأته في الحديث معها، وأيقن أنها لا تعطيه ما يستحقه من الانبهار والإكبار، وعجب من ذلك أشد العجب، فتركها وشأنها.

اجتازت داليا كل هذه الأيام بجهد، وإصرار على إنهاء هذه المرحلة، فقد كانت تتوق لذلك اليوم الذي تخرج فيه من بيت أبيها، فقد ملت كل شيء وسئمت مما تراه، وما يُفرض عليها ويقهرها.

انتهت فترة الامتحانات، وانتظر الجميع ظهور النتائج النهائية، لينتهي القلق والأرق، ويعرف كل طالب أين قاده مصيره.

الكل ينتظر أن تعلن النتائج في المدارس ويذهب ليعرفها، أما الخواص الذين لهم معارف عليا فقد يعرفون النتيجة قبل إعلانها في المدرسة، كانت داليا تنتظر كالباقين لكنها لم تعلم أن لها واسطة، له معارف يستطيع أن يعرف النتيجة لها، وبالطبع كان العم شوقي هو صاحب البشرى لهذه النتيجة.

اتصل شوقي بمنير يخبره أنه عرف النتيجة الخاصة بداليا، وقال إنه سيأتي ليلاً ليشرها، أصر عليه منير أن يقول له النتيجة، لكن شوقي أحب أن يثير فضول منير وأسرته، وأن ينتظروه بشوق واهتمام، استقبلاً للبشرى.

تميزت داليا من الغيظ فور معرفتها بالأمر من أبيها، حنقت على عمها شوقي الذي أراد أن يرى قلقها وارتباكها، فقد كان يعد نفسه من الظرفاء المرحين، لكنه بهذا التصرف تم تصنيفه من السمجين ثقيلي الظل، مثل صاحبنا.

قطعت مساحة البيت كله ذهاباً وإياباً، وكأنها تسعى بين الصفا والمروة، حتى استفزت منيرا الذي قال لها:

اجلسي يا داليا يكفيني ما نحن فيه من توتر.

ردت عليه وهي تنظر للأرض:

لا أستطيع يا أباي، عمي شوقي زاد من توتري.

حاول تهدئتها فقال:

اقترب وصوله وسنعرف النتيجة، أهدأي أرجوك.

أذعنت لرجائه فقالت:

حاضر

وأخيراً رن الجرس.

هرولت داليا نحو الباب وفتحت، وجدته مبتسماً ابتسامة باردة
كعاداته، وقال:

مرحبا داليا كيف أنت؟

ردت فقالت:

أهلاً وسهلاً يا عمى، أين النتيجة؟

ببرود ابتسم وقال:

اصبري يا ابنتي، ألا يوجد مشروب بارد أشربه في حر الصيف
هذا؟

ضغطت داليا على أضراسها، كاتمة غيظاً يكاد أن ينفجر تجاه
عمها شوقي، لكن منيرا ساعدها هذه المرة قائلاً في إصرار:

أخبرنا النتيجة يا شوقي، كفالك بروداً وظرفاً.

شعر شوقي بحنق أخيه، فلمعت عينه التي لم تستطع النظر
إليها، وهز رأسه الأصلع العريض كاتماً ضحكة كادت تنفلت من
بين شفثيه، من مشهد الرعب والتوتر البادي على أسرة أخيه،
لكنه خاف من سطوة منير فآثر السلامة وقال:

ألف مبروك يا ست داليا، ستصبحين أجمل طبيبة في عائلتنا،
مجموعك يؤهلك لكلية الطب، لكن لا تنسي أنني صاحب
البشارة، ولا بد أن يكون لنا خصم خاص.

تنهدت أميمة بالحمد لله، وحضنت داليا التي تسمرت من
الفرحة، مسحت بيدها دموعاً حارة، نزلت على خدين ضاحكين،
وتتمت: الحمد لك يا رب، لم تضعي تعبى ومجهودي.

أما منير فتمتم متنهداً: الحمد والشكر لك يا رب، وكانت
الفرحة ملء وجهه، فها هي داليا مرة أخرى سيفخر بها أمام
أصدقائه وأقربائه ليظهر للجميع كم هو أب رائع، أحسن تربية
بناته، حتى أصبحت الكبرى طبيبة، وستلحقها الصغرى رانيا في
مكان مرموق أيضاً، ولذا فقد أسرع بحضن داليا، وتقيلها بين
عينيه مهناً مباركاً، ثم استدار لرانيا وقال:

افعلی مثلها يا رانيا، جميل هو التفوق والتميز، أريدك أن
تصبحي طبيبة أو مهندسة إن شاء الله.

ابتهجت الأسرة والعائلة بالخبر السعيد، وجاء الأصدقاء
والمقربون للتهنئة والمباركة، وكان منير يزداد زهواً وفخراً، فهو
والد داليا المتفوقة على قريناتها في العائلة، التي لا تخلو من
أفرادها الغيرة والتنافس في كل شيء.

فالغيرة بين الأقارب موجودة وأزلية، وإن أراد البعض إنكار
وجودها تظهر على قسماات وجوههم، وفي نظرات عيونهم،
تقول الكثير مما يصعب على اللسان النطق به.



الجامعة

دخلت داليا كلية الصيدلة، على الرغم من رفض والدها، فقد كان يريد لها أن تدخل كلية الطب، وتصبح طبيبة مشهورة يفتخر بها، لكنها صدمته باختيارها وإصرارها عليه بعناد كبير، فلم يكن أمامه بُدٌّ من موافقتها، فمجال الطب والصيدلة تقريباً واحد. استعدت لدخول الجامعة، وكانت بانتظارها بشوق كبير حيث الانفتاح الأكبر على الحياة، ومساحة الحرية الكبيرة نسبياً، عن مراحل التعليم السابقة، وحيث مستقبلها يتكون أمامها في أولى بداياته، وعليها الاستمرار والإصرار، للوصول للتفوق المنشود.

دخول الجامعة لليوم الأول له مذاق خاص، وانبهار بالمرحلة الجديدة، ارتسمت على شفيتها ابتسامة صافية لدى رؤيتها مشهد الجامعة، وكانت سعيدة وفرحة، لم ينقص فرحتها إلا غياب رفيقتها سمر، صديقة الطفولة والصبا، التي لم تدخل معها كلية الصيدلة، فقد دخلت كلية الآداب، لكنها لن تغيب كثيراً عنها، فالجامعة تحوي في جنباتها كليتي الصيدلة والآداب، وستلتقي بسمر في فناء الجامعة، وفي مقهى الجامعة بين المحاضرات أو بعدها.

ها هي سمر تقبل من بعيد، ملوّحة بيدها لداليا، مرحة بها،
وما أن لمحتها داليا حتى نادى عليها بحزم:

ذهبتُ إليك في الصباح حتى تأتي معاً، أين كنتِ؟

أجابتها سمر بابتسامة حزينة، فقالت:

أسفة يا داليا، لكن جدتي كانت مريضة، واضطرت أن أذهب
إليها قبل الجامعة، بناء على رغبة أُمي، ألم تخبرك أُمي بالأمر؟

أومأت داليا برأسها وقالت:

بلى لقد قالت لي ذلك، لا عليك، المهم كيف حال جدتك
الآن؟

حالتها مستقرة والحمد لله، عمرها كبير وتعرفين الشيخوخة
ومشاكلها.

دعت لجدتها بالشفاء، وقالت:

ربنا يطمئنك عليها يا سمر.

افترقت الصديقتان، فذهبت داليا لكلية الصيدلة، وذهبت سمر
لكلية الآداب، وكانت سمر قد دخلت كلية الآداب، قسم علم
نفس حسب درجاتها في الثانوية العامة، وليس حسب رغبتها،
فليس للرغبات في تعليمنا نصيب، فحيثما ارتقت درجاتك كان
مكانك، سواء أحببت ما تتعلمه أم لا؟ فهذا لا يهم، المهم أن
تحصل في النهاية على شهادة، تفيد بأنك سكبت ما حفظت على

ورق أبيض، وتقديرك على مقدار ما سكبت، أو حجم ما لوثت من الورق الأبيض.

دخلت المدرج حيث الدفعة الأولى، دفعتها، التي تعجز العين عن حصر أعدادها الكبيرة، والكل في هرج ومرج وتعارف بين البنين والبنات، وبعد قليل دخل شابٌ بدين، كلاسيكي الهيئة، ألقى عليهم تحية الصباح، ورحب بهم في الجامعة، وتمنّى لهم تجربة مفيدة، وبدأ بتعريف نفسه فقال:

معكم د. عصام إبراهيم، مدرس مساعد في قسم علم النفس.

فوجئ الجميع بهذا الشاب الكهل، الذي تظلمه دائماً قسمات وملامح وجهه الكبيرة، وأيضاً قوامه البدين وهيئته التقليدية، التي تذهب به بعيداً عن الشباب ومرحه، فقد بدا بملابسه تقليدياً، يبدو أكبر من عمره كثيراً، كما يظهر الكثيرون ممن هم في مثل مهنته، ظناً منهم أن ذلك يزيد من الوقار والاحترام لهم بين هؤلاء الطلاب، فيتوارى الشباب قليلاً، لتظهر الكهولة في الأمام.

لكن سمر لم تتفاجأ برؤيته، فقد كانت رآته مرة أو مرتين، وهو يتردد على بيت منير والد داليا، وكذلك فقد حكّت داليا لها عنه بعض الأشياء، استمعت كما استمع باقي زملائها له وهو يشرح خطة الدراسة لهذا العام في قسم علم النفس، وتسمية كل جزء من المنهج، والأستاذ الذي سيدرسه لهم، وتمنّى لهم عاماً موفقاً، ثم تركهم وذهب.

كانت سمر تنظر له ولا يعنيه كل ما ذكرناه، فقد رآته شخصية مختلفة، وشاباً يستحق السعي وراءه، وليس كما تصوره لها صديقتها داليا، المغرورة بجمالها وذكائها.

خرج متوجهاً لمكتبه، فخرجت خلفه، تريده قبل أن ينشغل، دخل مكتبه وما لبث أن جلس على كرسيه حتى سمع صوت طرق الباب، تستأذن إحداهن في الدخول، أذن لها فدخلت سمر مبتسمة وقالت:

صباح الخير يا دكتور عصام.

تفحصها بنظرة شاملة وقال:

أهلاً وسهلاً، صباح الخير، تفضلي.

جلست حيث أشار لها بالجلوس، ثم تشجعت وأعلنت عن نفسها فقالت:

رأيت حضرتك أكثر من مرة في منطقتنا حيث أسكن.

ذهب فكره في اتجاهات مختلفة، بحثاً عن شيء يتوقعه ليقوله، لكنها لم ترهقه طويلاً، فأردفت وقالت:

رأيتك تتردد على منزل الأستاذ منير، والد داليا، صديقتي.

بدت على ملامحه ابتسامة تدل على أمارات الفهم فقال لها:

أهلاً بك يا.....، لم أعرف عليك بعد، فما هو اسمك؟

تبسمت أكثر بعدما زالت عنها رهبتها منه فقالت:

سمر، اسمي سمر عبد الحميد.

أراد أن يسألها، وقد بدا أنه وقع على صيد، أو على شبك صيد، فقال:

هل أنت معنا في الكلية هنا؟

أجابته، وقد راق لها سؤاله، ورأته اهتماماً منه، لا يجب أن تضيعه فقالت:

نعم أنا في كلية الآداب قسم علم نفس، في السنة الأولى.

اطمئن لصيده فقال لها مبتسماً وممتناً:

أهلاً بك عندنا، بالتوفيق مقدماً، نحن في خدمتك، فلا تتردد في أي سؤال، إن لزمك أي شيء في القسم.

تبسمت وقد زادت ثقتها بنفسها فقالت:

شكراً لحضرتك جداً، أكيد أنا لن أضيع هذه الفرصة، سأزعج حضرتك كثيراً.

قالتها وقد علت ضحكتها، فضحك هو الآخر، واستأذنته للخروج وخرجت وهي تظنُّ كما ظنَّ هو منذ لحظات، أنها وقعت على صيد ولا يجب أن تفلته.

التقت دالياً في كلية الصيدلة بصديقتها وزميلتها الرائعة ونصفها الآخر، سوزان، بنت الدكتور ثروت، صديق والدها،

وكانت سوزان بالنسبة لداليا العقل الناصح والضمير الحي، وكانت تحبها كثيراً وتطمئن لرأيها وأفكارها أيضاً.

ولأنها تلازم سوزان كثيراً ذهاباً وإياباً في الكلية، ولأنها كانت سافرة الشعر غير محجبة بعد، ولأن اسمها داليا منير، فلا يوحى بأي صفة دينية، فقد ظن الكثيرون أنها مسيحية الديانة، وكان الطلبة المسيحيون منغلِقون على أنفسهم في الكلية، يتجمعون ويتسامرون ويضحكون مع بعضهم فقط، كأنهم جزر منعزلة، وسط أغلبية مسلمة من الطلبة، وليس ذلك إشارة على أي تعصب أو تطرف، إنما كان شيئاً ملفتاً أن تجدهم في مجموعات بعيدة عن باقي زملائهم، حتى وإن تقرب منهم البعض، تراهم يتعاملون بحذر وحساسية، لا تفهم دوافعها.

ظنُّوا في بادئ الأمر أنها منهم، وصدمتهم المفاجأة أنها ليست لهم، إنما هي فتاة مصرية سمحة، لا تشغل بالها بهذه الأفكار الغريبة، ولما زاد تتبعهم لها قررت أن ترتدي الحجاب، لتبتعد عن مراقبتهم وتقربهم، لكنها لم تسلم أيضاً، فعلى الطرف الآخر، كان هناك من هم في ضحالة فكر أكبر من سابقهم، فقد ظنُّوا أنها اهتدت وتابت وأنابت لربها، فتقربت منها بعض المحجبات ليزدن من إيمانها، ويحذرنها من مصاحبة من ليس في دينها، فإن ذلك نذير خطر على عقيدتها ودينها، فلا يجوز مودتهم وموالاتهم، والأكل معهم والاختلاط بهم.

نفرت من أولئك أيضاً فبعدت عنهم، فلم يستحقوا أن تشغل تفكيرها بما يفعلون وما يقولون، واكتفت أن تكون كما هي، بدون أية أقنعة تُزيّف ظاهرها فيناقض باطنها.

فلا تعنيها كثيراً الديانة بقدر ما تعنيها الأخلاق والمعاملة، وكيف يكون الدين هاماً لها وهي ترى المتسبين إليه متشددين ومنغلقين يرون أنفسهم الفئة الناجية الفائزة بالجنة، وما عداهم يكونون من أصحاب النار في الآخرة؟ كانت داليا واعية فلم تهتز لمثل هذه الأفكار السطحية الهشة، التي وردت كثيراً في التاريخ، وتكررت في كتابات وروايات عديدة، من تلك التي تقرأها وتملاً مكتبتها بكثير منها.

وكانت داليا تشعر فعلاً بعدم وجود فرق، بين أسرتها وأسرة دكتور ثروت، التي نشأت وتربت على أن تناديه بـ«عم ثروت»، وكذلك ابنته سوزان كانت تعدّها أختها، تزورها وتدرس معها، وإذا حضر وقت الطعام تأكل معها، سواء أكان ذلك في منزلها أم منزل سوزان، ومن الطريف أنها حين سألت أمها أميمة، فقالت لها:

ما هو سبب ارتدائك للحجاب يا أمي؟

أجابت أمها فقالت:

عمك ثروت هو السبب.

دهشت داليا من الرد فقالت مستغربة:

عمي ثروت! أليس هو مسيحياً؟

قالت أميمة:

والله يا ابتي كان عمك ثروت غريب الأطوار، فعلى الرغم من كونه مسيحياً إلا أنه قريب جداً لنا كمسلمين، أقرب من كثيرين من ديننا، حتى أننا شككنا كثيراً في أمره.

كان مرة يزورنا هو وزوجته، وقال لي يا أميمة: لماذا أنت متبرجة؟

صعقني بقوله فنظرت له بدهشة، أدرك دهشتي فقال:

مالك مستغربة؟ لا بد للمرأة أن تكون محتشمة دائماً، وهذا لا علاقة له بالدين إنما الفطرة تحتم ذلك، فنحن كشرقيين لنا عادات وتقاليد خاصة بنا، وذلك قبل ظهور الأديان أصلاً.

استغربت داليا ما تسمعه وبدا ذلك على وجهها لكن والدتها أردفت ما يزيد دهشتها فقالت:

هل تعلمين يا داليا أنه كان يدعونا للإفطار عنده يوماً في شهر رمضان، وفي هذا اليوم يصوم كما نصوم، ويفطر معنا بعد المغرب، ويقول إنه يحب أن يجرب شعور الصيام عند المسلمين.

قالت داليا:

غريب جداً أن يصوم معكم، كيف كان إذن؟

قالت أميمة:

يوماً ما مازحته فقلت له: إن جزاء الصوم الجنة، فهل سندخل جميعاً الجنة يا دكتور ثروت؟

ضحك وفكر قليلاً ثم قال:

هل سمعتِ عن صلاح الدين؟

قلت:

نعم طبعاً، إنه سلطان المسلمين في عصرٍ قديم، فما علاقته بحوارنا؟

قال دكتور ثروت بعدما نادى والدك أن يحضر تلك الجلسة:

يُذكر في كتب التاريخ، أن صلاح الدين احتاج لبعض المال فأرسل إلى أحد أثرياء اليهود يدعوه إلى العشاء، وظنَّ اليهودي أن السلطان يريد ماله، لكن تفاجأ عندما سأله السلطان عن أحسن الأديان الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام، فأجاب الرجل بقصة رمزية وقال:

كان يعيش في الأيام الخالية رجل عظيم الشأن كثير المال، وكان من بين ما عنده من الجواهر الثمينة في كنوزه خاتم عظيم غالي الثمن، وأراد أن يورث هذا الخاتم أبناءه من بعده، وأن يبقى عندهم إلى أبد الدهر، فأعلن أن الذي يوجد منهم عند وفاته ممتلكاً للخاتم يجب أن يعترف الباكون به وارثاً لأبيهم، وأن يقرَّ له الباكون بالزعامة والسياسة.

واتبع من أوصى له بالخاتم هذه الخطة نفسها مع أبنائه هو، ففعل مثلما فعل والده، وأخذ الخاتم يتنقل من جيل إلى جيل حتى وصل آخر الأمر إلى يد رجل له ثلاثة أبناء صالحين، فاضلين، كلهم مطيعون لأبيهم أحسن طاعة، ومن أجل هذا كان الأب يسوي بينهم جميعاً في حبه، وكان الأبناء يعرفون قيمة الخاتم وفائدته، ويريد كل واحد منهم أن يأخذه ويصير أعظم الثلاثة قدراً بين قومه.

ولهذا أخذ كل واحد منهم يرجو أباه، أن يوصي له بالخاتم من بعده، ولم يكن ذلك الأب الصالح يدري كيف يختار من بين أبنائه من يُفضله على أخويه فيوصي له بالخاتم، ففكر في أن يرضيهم هم الثلاثة.

وعهد في السر إلى صانع ماهر يصنع له خاتمين آخرين يشبهان الخاتم الأول شَبهاً يكاد يعجز هو نفسه عن التفريق بين الحقيقي والمقلد، فلما قربت وفاته أعطى كل واحد من أبنائه خاتمه سرّاً، ولما مات الأب وأراد كل واحد من الأبناء أن يرث المال والشرف دون غيره أظهر خاتمه ليؤيد به حقه، فظهرت الخواتم الثلاثة وكلها متشابهة كل الشبه ويصعب التفريق بينها، وتأجل الفصل في أي الثلاثة يرث أباه، ولا يزال ذلك مؤجلاً حتى الآن.

ثم قال اليهودي: وكذلك أقول لك أيها السلطان أن كل شعب من الشعوب الثلاثة يرى أنه هو الذي يرث من الله شريعته الحقّة

ووصاياه من بين الشرائع الثلاثة التي أنزلها الله أبو الخلق على هذه الشعوب، فأَيُّ شعب منها هو صاحب هذه الشريعة وتلك الوصايا فإن هذا لم يُعرف بعد، وشأن ذلك شأن الخاتم سواء بسواء.

ثم قالت أميمة:

انتهت القصة فسألت عمك ثروت وقلت له:

ما معنى هذه القصة؟ من سيدخل الجنة إذن؟

صمت عمك ثروت ونظر لوالدك وأشار له أن يجيب فقال
أبوك:

اسألني الصانع الذي صنع الخواتم الثلاثة، فهو وحده من يعلم.

زادت دهشة داليا حينها مما سمعته عن عمها ثروت، الذي لم تشعر بفرق في الدين أبداً معه، أو مع أفراد أسرته، وعلى رأسهم صديقتها سوزان.

وعندما تسترجع تلك الذكريات، وهذه الشخصيات، وتقارنها بالواقع الآن، فلا تدري من أين جاءت هذه الفرقة بين الأفراد، وتوقع كل مجموعة على نفسها، تدّعي أنها وحدها صاحبة الجنة، وما عداها سيصلى سعيير النيران؟



شوقي

كان شوقي، الأخ الأصغر لمنير، يعمل في إدارة الجامعة، في إدارة رعاية الشباب وكانت زوجته، عزة، تعمل في شؤون العاملين أيضاً، تزوجها موظفةً ولها راتب ثابت، ليضمن مساعدتها له في هموم الحياة المادية، فقد كان شوقي، مادياً قبل أي شيء آخر.

لم يكتف شوقي، بوظيفته الحالية ذات الراتب المتواضع، الذي لا يكفي لحاجات الأسرة الضرورية، فقد عمل في مجال آخر ليسد حاجاته واحتياجاته، عمل في مجال المقاولات، كوسيط تجارى بين الملاك والعملاء، يصطاد زبائنه وعملاءه، ويعرض عليهم بضاعته بعد أن يزينها بكثير من الإغراءات والتسهيلات، وقد كانت وظيفته في الجامعة، خير معين له في عمله الآخر، فأساتذة الجامعة، مستواهم المادي أعلى نسبياً من الموظفين العاديين في الجهاز الإداري للدولة، ولهم بعض المزايا المادية الخاصة بهم، لذلك فقد وجدهم شوقي، خير عملاء للتسويق العقاري، فوطّد علاقاته بالجميع تقريباً، من أصغرهم سناً، الذى يحلم بتملك شقة للزواج، إلى أكبرهم درجة علمية، والذى يسعى للاستثمار في مجال الأراضي والعقارات، وبالطبع

كانت شخصية شوقي، المبتسمة دائماً، والضاحكة بسبب، وبدون سبب، الفضولية والساعية لحب الاستطلاع، كفيلة لجذب هذه الطبقة، للتعامل معه في مجال العقارات.

ومن بين هذه الطبقة بالطبع كان عصام إبراهيم، المدرس المساعد بكلية الآداب، فقد تم تعارفه بشوقي، في بيت منير، في إحدى المناسبات، ولمح عصام في شوقي سعيه للمصلحة، وبذله أي شيء في سبيل تحقيقها، فسعى عصام هو الآخر، للعب على هذا الوتر الحساس من شخصية شوقي، الضعيفة الشرهة، فبدأ بإغرائه بالتعامل معه في بعض الصفقات، وزاد من إغرائه عندما ذكر له أن والدته وزوجها يعملان في الخليج، ولديهما نية أكيدة في استثمار أموالهما في مجال آمن، مثل مجال العقارات، وأنه لن يجد شخصاً أميناً مثل شوقي، يساعده في هذا الأمر، كل هذه، كانت شباكاً من عصام، يلقبها على المقربين من أسرة منير، لكسب ودهم، عسى أن يحتاج لذلك الود يوماً ما.

وفرّح شوقي كثيراً بعصام، ورسم الأمان والطموحات، ونشر عروضه وإغراءاته على عصام وكل من يأتي من طرف عصام إكراماً له.

دخل عصام لمكتب شوقي في الجامعة، يطلبه في أمر هام، وبعد أن رصّ شوقي كل عبارات التودد والتزلف، من عينة: (تؤمر حضرتك، ونحن رهن إشارتك، وفي خدمتك)، التي أردفها بكثير من الألقاب، التي تم إلغاؤها بعد إلغاء الملكية، ويقول ذلك

وقسمات وجهه تكاد تتساقط من شدة سروره وفرحه، والتي رآها عصام سمات من البلاهة، والرعونة المفرطة، لكنّ هذا غير مهم، المهم هو الهدف الأسمى البعيد الذي يحضّر له من الآن.

بعد أن انتهى شوقي من فقرة التهريج المعتادة، طلب منه عصام أن يستمع له بتركيز وجدية فيما يقول، أذعن شوقي وهزّ رأسه مطيعاً لأوامره، بدأ عصام يتحدث عن والدته التي في الخليج وما تنوى أن تفعله، فقد قررت أن تستقرّ في مصر في أقرب وقت ممكن، ولذلك فهي تريد أن تجهّز منزلاً يليق بها بعد سنوات الغربة، التي قاربت عشرين عاماً، لذلك فهي تنوي شراء قطعة أرض في مكان مناسب وراق في المدينة، تقيم عليه بيتاً تسكن فيه، ويسكن معها أبناؤها.

وبالطبع فقد كلفت ابنها الأكبر، عصام ليتولى هذا الأمر، ويبحث لها عن أهل ثقة تتعامل معهم، بعيداً عن المحتالين من الوسطاء، الذين ينتظرون مثل هؤلاء المغترّبين بأموالهم الساخنة، بعد قضاء سنوات طويلة في الغربة، غابت فيها عنهم الأخبار، والأسعار الحالية للبيع والشراء، فيسهل خداعهم بقليل من المجهود. طبعاً وحسب كلام عصام فإنه لم يجد أهلاً للثقة والخبرة والأمانة في هذا المجال مثل الأستاذ شوقي، لذلك فهو معه الآن، يعرض عليه الأمر، ويرجو منه أن يساعده في تحقيق ما تريده والدته.

تهلل وجه شوقي العريض الممتلئ، من سماعه تلك الكلمات، وهذا الشناء، وشكر عصام على ثقته وتقديره، ووعد

بأن يبحث له عن قطعة أرض في أرقى مناطق المدينة، بعيداً عن العشوائيات والرحام، وأن تكون بسعر منافس جداً، لا يجد مثله في السوق.

شكره عصام وهم بالخروج، على وعد قريب بأخبار جديدة وسارة في هذا الخصوص، وتركه وانصرف. خرج عصام، وقد ترك أحلاماً وأماناً تتراقص في خيالات شكرى، وأمام عينيه، فكر في العائد من الربح الذي سيجنيه من تلك الصفقة الكبيرة المزدوجة، فهي صفقة لشراء قطعة أرض غالية الثمن بالطبع، وسيحصل منها على عمولة كبيرة من البائع والمشتري، وأيضاً فقد يكلفه عصام ببناء هذا البيت، والإشراف عليه حتى النهاية، فعصام ليس متفرغاً لهذا الأمر، ووالدته وزوجها في دولة أخرى، وسيكون هو الخيار الأنسب للقيام بهذه المهمة، التي قد تعود عليه بربح كبير في كل مراحل تنفيذها.

لم يستطع صبراً على هذه الأخبار السارة، ولم يهدأ، فقد كان رغم وزنه الزائد وشكله المتكور، خفيف الحركة في مثل هذه الأمور، فذهب مسرعاً لإخبار زوجته التي لا تبعد عنه كثيراً، فهي في مبنى قريب منه أيضاً في الجامعة، ذهب لها ودخل عليها مبتسماً ابتسامته الرعناء، وكلامه المتدفق كالشلال بدون رابط أو ضابط، فقال لها كل ما حدث، ويكاد أن يسيل لعابه من السعادة، فرحت هي الأخرى وهنأته، وشكرت لعصام أنه قصده وخصّه بهذا الأمر، وبدوره هو الآخر فقد قال: إن عصاماً ابن حلال ويستحق كل خير، وأنه يتمنى أن يرد له معروفه هذا يوماً ما.



تَمَلُّكُ

أصبح عصام فرداً حقيقياً من أسرة منير، على الرغم من امتعاض داليا لهذا الأمر، لكنها لم تستطع وقف هذا الحب الجارف، والعاطفة الجياشة من أبيها وأُمها، تجاه هذا العصام.

يطلبه منير في كل أموره، فإذا خرج كان رفيق دربه، وإذا تحدث كان أنيسه وجليسه، وكذلك أُميمة عدّته ابناً لها، بجانب داليا ورائيا.

زياراته تتكرر كثيراً، شبه يومية تقريباً، تجده في منزل منير، بمناسبة، وبدون مناسبة، أصبح التكلف معدوماً بينه وبين هذه الأسرة، مما جعله يتدخل في كل التفاصيل لها، لما وجد من تأييد وعدم ممانعة من الأب والأم، لكن ذلك سبّب استياءً كبيراً لدى داليا، التي أصبحت في الجامعة الآن، وأيضاً سبب ضيقاً لرائيا التي أصبحت على أعتاب الجامعة أيضاً، وقد زاد ضيقها وتذمرها من عصام خلال زيارة خالها مصطفى وأسرته لهما، في إجازة عيد الأضحى للتهنئة بالعيد.

فقد كان المهندس مصطفى، الأخ الأكبر لأُميمة، يعمل في حلوان، في مصنع الحديد والصلب، منذ سنوات طويلة، وقد

اضطرته الظروف أن يسكن في حلوان، قريباً من عمله، فاتخذ مسكناً له ولزوجته رباب وأبنائه، وكان لديه ثلاثة من الأبناء، ولدان هما أحمد وعمر وبنت واحدة تسمى سحر،

وصل الخال مصطفى، في ثاني أيام عيد الأضحى، ليزور أخته أميمة وأسرتها، فلم يرها منذ مدة طويلة، وكانت إجازات الأعياد هي الفرصة الوحيدة التي يستطيع أن يقنصها من عمله، ليخلو بنفسه وسط أهله وأصدقائه في بلده الأصلي، جاء بعد دعوة كريمة من صهره منير، الذي ألح عليه أن يأتي بأسرته كلها، يقضي معهم عيد الأضحى.

وفى يوم وصوله تصادف وجود عصام، ككل الأيام في منزل منير، فرحت الأسرة كلها بزيارة مصطفى وأسرتة، فقد كان منير يحترم مصطفى، ويقدره لخلقه وأدبه، وكانت أميمة تحبه كثيراً فهو أخوها الأكبر، وأيضاً فإن زوجته كانت راقية، وكانت قريبة من أميمة ومن بناتها، خصوصاً داليا، فقد كانت تعد داليا صديقة لها رغم صغر سنها، وكانت أيضاً معجبة برانيا، وشقاوتها وخفة ظلها.

لاحظ عصام كل هذه الحفاوة والاستقبال لأسرة مصطفى، فقد وجد العيون والقلوب توجهت إليهم، حتى أنه وجد نفسه وحيداً، كالطفل الذي وضعت أمه أخاً له أصغر منه، فإنه تأكله الغيرة من ذلك المولود، وما سلبه إياه من مكانة سابقة، كان فيها مدلاً من الكل، ومحط رعاية الجميع.

وجد منير مشغولاً عنه فقد جلس مع مصطفى، وذهبا بعيداً في الذكريات والأحاديث، وقد ارتفعت أصوات ضحكهما، وذلك على الرغم من جلوسه قريباً منهما، وأيضاً فقد قدّمه منير لمصطفى، على أنه صديق للأسرة، لكنه شعر بأنه على الهامش، وليس في بؤرة الاهتمام كعاداته، ولّى وجهه بعيداً، شطر أميمة، لعله يجد ما يهدئ غيظه من منير، لكن للأسف، فقد كانت أميمة أشد قسوة في تجاهلها من منير، فقد انهمكت مع رباب في الكلام والدعابة، وأخبار الأبناء والبنات، وكل ذلك في إطار من السرور والبهجة، وجو حافل بالأطعمة والمشروبات الباردة والساخنة، دون اهتمام به أيضاً، فشر بالحنق من أميمة، كما شعر من منير، قبلها.

نظر لداليا، وجدها تضحك وتبتسم، وتمرح وتمزح مع زوجة خالها وابنته، والسعادة تغمرها، وتكاد عيونها تدمع من شدة فرحتها، وهي تتحدث معهما، استغرب منها، فهي دائماً عابسة، لا تضحك، جادة، لا تمزح، فهل تكون طبيعتها التي تتعامل بها معه مصطنعة؟ هل هو قناع من الجمود والنفور تتعامل به معه هو فقط؟ ما كل هذا التغير يا ست داليا؟ أهؤلاء أفضل مني وأرقى مني؟ إنني الأفضل وأستحق تسليط الأضواء، وأستحق أن أملك كل شيء، فقد اجتهدت وتعبت وحفرت في الصخر حتى وصلت لما وصلت إليه من مكانة، لكن أمثالك لا يبصرون حقائق الأشياء، فستبصرينها يوماً ما، شئت أم أبيت.

أما صدمته الكبرى فكانت في الصغيرة رانيا، قد بدا له أنها لم تعد صغيرة، فهل كبرت فجأة؟ ماذا حدث؟ إنها تقف مع ابن خالها وتمزح معه، والسعادة تغمرها وتطل من عينيها، أخذته الغيرة فأكلت قلبه، لم يطق أن تكون هي الأخرى لأحد آخر، ما الذي يجري، وأي الأمور تتكشف الآن؟ لماذا تتملكه كل هذه المشاعر الغريبة؟ هل هذه غيرة طبيعية لشخص يحب عائلة ما بكل شخصوها؟ أم أنه حب تملك، فلا يقبل أن يدخل أحد آخر إلى حماه؟ هل يحب منير كأبيه وأميمة كأمه، فيغير عليهما كما يغير الطفل الصغير على أبويه، إن أظهر الاهتمام بغيره؟ هل يحب داليا مثلاً، ويغير من خروج بسماتها وضحكاتها لأحدٍ غيره، في الوقت الذي أجهده السعي وراءها، لينال رضاها وصادقتها؟ أم هل يحب رانيا هي الأخرى؟ فرانيا مازالت صغيرة وهي لا تشغله كثيراً، لكن ماذا حدث؟ هل كبرت فجأة أمام عينيه، فرآها أنثى تستحق الغيرة عليها؟ إنها في السابعة عشرة من عمرها، نعم لقد كبرت وتخطت مرحلة الطفولة، وتتعامل الآن كفتاة ناضجة مع ابن خالها، الذي مازال مراهقاً، ولا تبدو عليه أمارات النضج.

لكنه قرّر أن يتدخل ويفسد تلك العلاقة المزعجة، التي ربما تتطور فيفقد ما يظن أنه يملكه، تقدّم نحوهما حيث يجلسان، في ركن بعيد عن البقية، ابتسم ابتسامة المغضب، وحيّاهما بتحية باردة، سأل رانيا أن تعرفه بابن خالها، ففعلت، سأله عصام:

في أي مراحل التعليم أنت؟

رد الفتى فقال وهو يبتسم ابتسامة بريئة:

في الثانوية العامة، السنة الثالثة، علمي.

ضحك عصام وقال في برود ظاهر:

يبدو أن القسم العلمي أصبح لقباً، وموئلاً لكل من هبَّ ودبَّ،
تُرى هل تنوي دخول كلية بعينها؟ أم أنك تركت ذلك لاختيار
القدر؟

بدا على الفتى الارتباك، من هذا الحوار الذي يظنه أقرب
للسخرية والتهكم، وشعرت رانيا بمثل ما شعر به أحمد،
واستاءت من طريقة عصام، فردَّت عليه في حزم وقالت:

أحمد ينوي أن يدخل كلية الهندسة، إن شاء الله، ويصبح
مهندساً مثل أبيه، خالي مصطفى.

لم تردع عصام نظرات رانيا الجادة والغاضبة، فاستكمل
حواره السخيف وقال:

ربنا يوفقك يا أحمد، وتصبح مهندساً مثل أبيك، وتعيش غريباً
عن أهلِكَ، كما يعيش هو الآن، أو تصبح مهندساً للبترول،
وتقضى سنوات عمرك في الصحراء، أو تكون مهندساً مدنياً، ولا
يكون بينك وبين مقاول المباني أي فرق، فتندم حينها على
دخولك كلية الهندسة.

صدمتهما كلماته السخيفة الوقحة، التي تدلُّ على شخصية لا تقدّر الآخرين، نظر أحمد إلى رانيا وقد تغير وجهه، ولم يستطع الرد على هذا الشخص، الذي يبدو أنه أكبر منه سناً بعدد كبير من السنوات فلا يجوز توبيخه، ولا يدري كيف أتى بهذه الجرأة على أن يتدخل ويتطفل لهذه الدرجة، فعلى حد علمه، فإن عصاما هذا صديق للأسرة ليس أكثر، لكن ما يراه أحمد الآن يؤكد أن عصاما أكبر من هذا، وإلا لما تجرأ أن يقول ذلك.

قرأت رانيا في نظرات عيونه كل تلك الحيرة، فأشفقت عليه لما سمعه من عصام، وحاولت أن تخفف من وطأة اللغة السخيفة التي تكلم بها عصام فقالت:

يا دكتور عصام، أحمد يحب الجانب العلمي كثيراً، وهذا ليس تقليداً لأبيه، وكلية الهندسة غير ما تقول، فمجالاتها كثيرة ومتنوعة، وأكد الناس المتعلمة تفهم ذلك، ولا معنى لهذا الكلام الذي قد نقبله من أناس متوسطي التعليم، والثقافة، ولا نلومهم عليه لجهلهم به.

نظر لها عصام، ولم تؤثر فيه كلماتها، فقال في برود شديد، ظهر في نظرات عينه التي تتكلف الابتسام:

سنرى ذلك إن شاء الله، بالتوفيق مقدماً.

نظرت له رانيا مغضبة، لعدم تقديره لصديقها وابن خالها، وإحراجها وإحراجة معاً، ولم يفض ذلك الاشتباك إلا صوت

منير، يناديه فذهب، وتنقّست رانيا الصعداء بعد رحيل عصام، نظرت لابن خالها وتبسمت في رفق وحنان، واعتذرت له عما بدر من عصام، وطلبت منه أن يقبل اعتذارها وعذرها، فعصام رغمًا عنها، أصبح فرداً من الأسرة بمباركة أبيها وأمها، لذلك هو يتعامل بهذه الطريقة التي تبدو تطفلاً.

تبسّم لها أحمد معلناً عن قبوله أسفها، وذلك لأجل خاطرها عنده، فهي تعلم كم هو يقدرها، ويكنُّ لها الكثير من الود، الذي يفوق علاقة القرابة التي بينهما.

مر اليوم سريعاً، ومع حلول المساء استأذن مصطفى وأسرته، وكانت هذه الزيارة كاشفة لعلاقة عصام بأسرة منير، فقد كشفت لعصام نفسه أشياء لم يكن يدركها أو يتوقعها، لكنه قرر بعد ذلك أن يزود بكل قواه عن كل شيء يرى أنه يستحقه، ولا يسمح لأي فرد أياً كان، أن يسلبه منه، مهما كلفه ذلك من عناء أو مال.



تَفَقُّح

في رحاب الجامعة، تتلاطم الأمواج وتتلاقى الأفكار، وتتألف الأرواح بعد نضوجها، فتفتح الزهور. وفي هذا السن تتكون العواطف البريئة قبل إيرادها على العقل، الذي يفنّد وينتقد، ويتنقى ويقرر لمن أرادوا أن يكون لهم العقل دليلاً.

كانت داليا، وسوزان، لا تفرقان في الكلية، ففي المحاضرات جارتين، وفي الطريق رفيقتين، وبعد الانتهاء من الكلية صديقتين مقربتين.

وفي تلك الفترة، وهذا العمر الذي يشرب بعنقه، يحاول الوصول للسنة العشرين، تكون العواطف فيه جياشة، وتبحث كل روح عن أليفها، فإذا شعرت به ألفتها واثلتف معه، ولم تكن داليا بعيدة عن دائرة البحث، فقد لاحظت تكرار نظرات بعض زملائها من البنين، يتبعونها، كلٌّ على حدة، وكأن كل واحد منهم لا يراه الآخر، ولا يرى أحداً غيره، لاحظت ذلك فأعرضت عنه، ولاحظته سوزان فنبهتها ظناً منها أن داليا لم تدرك ولم تظن، لكن داليا، كانت سابقة الإدراك، وجيدة الفطنة، لكنها ترى كل ذلك محض مراهقة، لم تنضج بعد، ولم تر في نفسها قبولاً لهذا

الأمر في هذا التوقيت، فما تراه من تجربة أيها وأمها لا يعطي أملاً في نجاح تلك العلاقات، فالمعاناة رفيقة أسرتها منذ نعومة أظفارها، فلم ترهما سعيدين، بل بالعكس، تراهما نديين، بل أسدين، يحذر أحدهما لقاء الآخر، فإذا كان اللقاء مقدوراً، صار صداماً محتوماً، تنتج عنه أشلاءً ودماء، وتتمزق معه أواصر العلاقة، فتزداد الهوة بين الطرفين، فأى غرام في علاقة شبيهة بتلك العلاقة.

إن فرحتها الأساسية بمرحلة الجامعة، كانت بسبب خروجها من ذلك المحبس، وهذه القضبان، التي تخفي وراءها تعاسة وآلاماً، لم تشف على الرغم من توالي السنوات، وتتابع الإنجازات، فهل تلقي بروحها الرقيقة في آتون هذه المحرقة مرة أخرى لتضلى ناراً ذات لهب؟ أم تؤثر السلامة وتنجو بنفسها، بعيدة غير مشوهة، حتى لا تلقى نفس المصير؟

أغلقت أبواب قلبها بمغاليق كبيرة وكثيرة، وألقت بسلسلة مفاتيحه في أعماق البحار، حتى لا يستدلّ رجلٌ عليها، فيفتح قلبها عنوة، فهل تنجح في هدفها؟ أم أن هناك ثغرات في حصونها، لم تجد تحصينها بعد؟

لكنّ سمر صديقتها وجارتها، كانت على عكس ذلك، ففي كلية الآداب رسمت أحلامها، عندما رأت أنها ممكنة بعض الشيء، وإن كانت ما زالت صعبة، فكلما رأت عصاماً أحسّت

بدقات قلبها تتسارع، فتتظر إليه وتطيل النظر، تبسم له إن وقعت عينه عليها في محاضرة، أو في طريق، تتعمّد أن تظهر أمامه، فتذهب إليه بحجة الدراسة والمراجع، جلسا كثيراً وتحدثا طويلاً، اعتاد على رؤيتها، فأظهر لها بعض الود، الذي فهمته وفسرته شيئاً آخر، يُشبع أمانها، استغلها ليتعرف منها أكثر على داليا، التي تبدو جافة جامدة، حاولت أن تصده عنها، وتأخذ هي مكانتها من اهتمامه بها، أيدته في رأيه في داليا، فقالت: إنها فعلاً جافة وباردة، ولها تطلعات بعيدة، وطموحات عالية، ترى نفسها في مكان مختلف عن باقي الفتيات.

تبسم لها عندما يسمع كلماتها تلك، فتظنُّ أنه صدّقها، ولم يعد أمامه غيرها، لكنها أخطأت، فتبسمه لها سببه كشفها كم هي تغيّر من داليا، وتحقد عليها، فيتعلق أكثر بداليا المُتمنّعة، ويرجو أن يمسك لجام جماحها، فيروضّها، فتصير له وليس لغيره.

وكانت سمر، إلى حد ما مُحقة فيما تقول، كما تظنُّ هي، فقد رأت عصاماً مثلاً للرجل الناجح، صاحب المستقبل المستقر المطمئن، الذي لا يحتوي طريقه على حفر أو مطبات غير منظورة، فهو الآن في هيئة التدريس الجامعي، وسيتدرج ويرتقي في درجاته العلمية ومناصبه الإدارية التي بالطبع ترتقي معها الحالة المادية، علاوة على المكانة الاجتماعية والأدبية له كأستاذ جامعي.

وترى رفض داليا لكل هذه المميزات بطراً وتكبراً وكفراً
بالنعمة، تراها متكبرة بجمالها الظاهر للجميع، ورقّتها التي تسلب
الشباب عقولهم، فتجعلها مقوماتها تختار من عدة خيارات، كلها
جيدة وممتازة، ولا يسحرها أو يغريها أن يكون من بينهم أستاذ
جامعي، كعصام، فقد يتقدم لها كثيرٌ مثله، أو أفضل منه.

تسمع من داليا شكواها من سماجة عصام، وثقل ظله، وتطفله
الزائد عليها، وترد عليها بأنها محقة، وعليها ألا تتقبل أحداً لا
يقبله قلبها، فليس معنى كونه في الجامعة وحاز رضى أبيها، أن
تقبله هي أيضاً، تقول لها هذا لتصرفها عنه، ولينصرف هو أيضاً
عنها، إذا رأى منها صدوداً ورفضاً، وساعتها تظهر سمر أمام
عينيه، وتقول له: أنا هنا أراك وأشعر بك وأحبك أكثر من تلك
المغرورة، داليا، وستكون معي سعيداً وهانئاً، فلتأت وتلتجرب
فقط، ولن تندم على اختيارك لي أبداً.

حاولت سمر كثيراً في الناحيتين، تبعدها، وتقرب هي، تنفّره
وتجذبه إليها، لكنّه لا لا يبدي مرونة أو ليونة، مازال متحفظاً رغم
تودّده معها، ولطفه وحديثه إليها، فأصبحت لا تدري على ماذا
ينوى؟ وإلى أي الأهداف يرمي؟

لكنها بعد مرور سنة وستين في الجامعة، صدمتها طريقته عندما
رأته يتعد شيئاً فشيئاً عنها، بعدما وجد بديلاً لها، فقد ظهرت رانيا
الصغيرة في الأفق، ولعبت دورها في مسرح الأحداث.

كانت رانيا قد أنهت الثانوية العامة، والتحقّت بكلية التربية النوعية، التي تقع أيضاً في الحرم الجامعي، وأصبح عصام يتردد كثيراً عليها، ويعيها بمساعدته لها من خلال علاقته مع هيئة التدريس، بكلية التربية النوعية، فيأتي لهم وتكون بصحبته، ويعرفهم عليها وأنها قريبة جداً منه، ومهمة جداً لديه، فيخرج وقد نال منهم توصية واهتماماً في أي شيء تحتاجه وتريده، فيخرج معها ويظهر أمامها، وقد لبس تاج الزهو، ومشى مشية الطاووس، ليقول لها: أنا هنا، أنا مهم لك، وليس بمقدورك الاستغناء عني، ستجدينني دائماً داعماً لك، وما عليك إلا أن تجري هذا.

وبالطبع فتاة مثل رانيا في السنة الأولى، لا تعلم شيئاً عن هذا المجتمع الجديد، بحاجة لمثل هذا الدعم وهذه العلاقات، خصوصاً، أنها ليست مجتهدة بالقدر الذي يضمن لها نجاحاً مستمراً وتفوقاً دائماً، فهي تحب أن تهتم بنفسها أكثر، فتتفق الوقت الكثير على مثل تلك الأشياء، التي تستحوذ على اهتمام الفتيات في مثل هذا السن المتفتح، فسلمت لعصام قيادها، وأظهرت له رضاها وامتنانها لما يفعله من أجلها، ولم تبخل عليه بصداقتها، ومرحها معه في الجامعة أو في المنزل، فعوضته كثيراً مما كان يفقده من سلوك داليا معه، وما كان يرجوه من قربها، وإنه كان ليرضى بالزر اليسير جداً من داليا لو أظهرت بعض الود له، ونال منها بعض البسمات والكلمات الجميلة لترضي غروره الكبير.

مرّت السنوات الأولى والثانية على رانيا في كلية تربية نوعية، وقد اجتازتهما بفضل علاقات عصام، بتقديرات جيدة.

ووصلت داليا لنهاية السنة الرابعة من كلية الصيدلة، وقد توجت مجهودها بتقديرات ممتازة، في طليعة دفعتها، فكانت في أشد الفرح والسرور، وكذلك فرحت أسرتها، لكن لم تفرح رانيا لها كثيراً، وذلك لاختلاف التقديرات والترتيب في الجامعة، أيضاً لم يفرح عصام كثيراً لها، رغم إبدائه بعض الابتسامات المزيفة والمباركات الباردة لها، فقد أحسّ أنها تفوقها هذا ستبتعد عنه كثيراً، وستزداد المسافة بينه وبينها، ولن يستطيع أن ينسج حولها شبابه، خصوصاً، أن تفوقها كان بسبب مجهودها فقط، ولم يكن له فيه أي دور، كما فعل مع رانيا بعلاقاته المتشعبة مع زملاءه، فالت تقديراً جيداً، رغم عدم أحقيتها فيه.

وهكذا كان مجتمع الجامعة، تلعب فيه العلاقات لعبتها القذرة، فتجد من لا يحضرون المحاضرات ولا يتظمون في الدراسة يتخرجون بتقديرات جيدة، وذلك لعلاقاتهم ببعض الأساتذة والمعيدين ببعض الأقسام، وقد يجامل أستاذ أستاذاً آخر زميلاً له، فيرفع له درجات أحد معارفه أو قرابته، وذلك في مقابل أن يرد له مثل جميله في موضع آخر.

ومع انتهاء السنة الرابعة من كلية الصيدلة، اتفقت داليا مع صديقتها سوزان، على التدريب العملي خارج الكلية، والعمل في

إحدى الصيدليات للتعرف على طبيعة العمل عن قرب، وكيفية التعامل مع العملاء والشركات والزبائن، فكل هذه المهارات لا يتم تعليمها داخل المدارس أو الجامعات، ولا بد للمرء أن يكتسبها بنفسه من المجتمع، ويطورها باستمرار لتلائم سوق العمل، وما يحتويه من تنوع في كل شيء.

واقترحت سوزان على داليا أن يذهبا للقاء عمتهما، الدكتورة سيادة، والتي تملك صيدلية خاصة بها، وأيضاً تدير صيدلية أخرى كبيرة، وافقتها داليا على الفكرة، وتم تحديد موعد معها، وذهبتا في الموعد المحدد للدكتورة سيادة التي فرحت بهما كثيراً، وعدتتهما زميلتين لها في المهنة من الآن.

ولأنه كان هناك فرق وبعد في المسافات، بين منزل داليا ومنزل سوزان، فقد اقترحت دكتورة سيادة، أن تتدرب سوزان معها في الصيدلية التي تديرها بنفسها، وأن تذهب داليا لصيدليتها الخاصة، والتي تقع في مكان قريب من منزل داليا، فتدرب فيها، وسوف تتواصل مع المدير المسئول هناك، وتطلب منه أن يعتني بداليا جيداً، وأعلمت داليا، أن مدير الصيدلية هذا، شاب مجتهد جداً في عمله، مهذب ومحترم، وسوف تسعد بالتدريب معه، وتخرج بإفادة ممتازة في كل شيء.



لقاء

ذهبت في اليوم المتفق عليه، للتدريب بالصيدلية، كانت في غاية سعادتها وانطلاقها، كونها على أعتاب مرحلة جديدة، ستحررها من سطوة المنزل، وتسلط أبويها، وما بينهما مما صنع الحَدَّاد، كما يقال.

وصلت في التاسعة صباحاً، تعلوها ابتسامة مليئة بالتفاؤل والأمل، وصلت فقابلها شاب في منتصف العشرينات تقريباً، طويل ورشيق أبيض البشرة ناعم الشعر، أسود العينين، طلق الوجه مبتسم الملامح، وما إن رآها حتى أحدثت فيه شيئاً، لم يعرف وقتها ما هو، لكنه قابل ابتسامتها وتحيتها له بابتسامة مهذبة، وتحية، فيها كثير من الحفاوة والترحيب.

جلس على مكتبه، وجلست في قبالة يتعرف عليها، وأخبرته بما تريد، وابتسامتها الطفولية لا تفارق وجهها الدقيق الجميل، وعيونها الساحرة بلمعانها الأخاذ لا يستطيع هو إلا أن يكون معها، فلا يقوى على الشرود أو الهروب.

أخبرته أنها تريد أن تتدرب معه على العمل وتتعلم، فهي شغوفة بهذا المجال وتحبه كثيراً. قدَّر فيها حماسها وإقبالها على العمل، فقام وقامت معه، في جولة داخل الصيدلية، يُعرِّفها على

أصناف الأدوية، وترتيبها وتركيبها أيضاً، فقد كان هو الآخر محباً لعمله، موهوباً فيه، وإنه لذو حظ عظيم، ذاك الذي يلتقي عمله بموهبته، فيصير مبدعاً خلاقاً، فلا يشعر بشتات في سنوات عمره المقبلة، وتمزقه بين مهنة يؤديها لكسب الرزق، وموهبة يحبها لكن لا يجد سبيلاً ليستكمل فيها طريقه.

أنهى جولته معها في المكان، على إثر صوت أحد الزبائن، يطلب منه شيئاً يخفف آلامه، أعطاه مسكناً للألم، ونصحه بمراجعة الطبيب، اشتكى هذا المريض من ضيق ذات يده، ومن ارتفاع الكشف عند بعض الأطباء، الذين يكثر فيهم الجشع، فيرفعون قيمة الكشف، ويطالبون مرضاهم بأصناف معينة من الأدوية، تكون موجودة في صيدليات بعينها، قريبة من عياداتهم، ليس ذلك فحسب، بل يطلبون من مرضاهم أن يرجعوا إليهم بعد شراء الأدوية، لكتابة الجرعات لهم، هذا ما يقال، ولكن الحقيقة أن يتأكدوا من أن المرضى اشتروا بالفعل الأصناف المكتوبة، من الصيدلية التي تحتوى على هذه الأدوية، وبذلك تطمئن قلوبهم وجيوبهم للنسبة التي يتقاضونها من مثل هذه الصيدليات، وذلك عبر اتفاق معها منذ بداية عمل العيادة.

ابتسم رءوف لهذا الرجل البسيط، الذي استطاع بفهمه الفطري أن يستوعب ما يجرى في المجتمع من خلل، وللأسف هذا الخلل يسرى في دماء صفوة المتفوقين من أبناء المجتمع، الذين سمت درجاتهم فأدخلتهم كليات الطب المختلفة.

أعطى للرجل وصفةً تهدئ آلامه، على أن يمر عليه بعد بضعة أيام، ليكرر العلاج إن احتاج الأمر لذلك.

كانت داليا تراقب المشهد عن قرب، وسمعت الحوار الذي دار بين رءوف وبين الرجل البسيط، وأعجبها عطفه على الرجل وسعة صدره معه، لكنها لم ترض عن إعطائه دواء أو وصفة دون استشارة الطبيب المختص، فهذا يعتبر خطأ مهنياً.

قدّر حماسها الطبيعي والمنطقي لصحة ما تقول، لكنه أخبرها بمدى صعوبة الحياة، كما ظهر في حوار ذلك الرجل البسيط، وليس كل الأشياء الصحيحة تُفعل دائماً، فهناك بعض المواءمات والتوازنات، حتى تسير الأمور في اتجاه يخدم غالبية المجتمع، استطاع بهدوئه وعقله أن يستوعبها، ويمتص انفعالها، كما يحدث كثيراً، بين الأجيال الكبيرة والأجيال الشابة المتحمسة أكثر من اللازم أحياناً، ورجع بها لموضوع الزيارة الأساسي، فعاد للمكتب ثانية وعادت معه، أطلعها على بعض الدفاتر والفواتير للشركات الموردة للأدوية، وشرح لها كيفية تنسيق العمل إدارياً في الصيدلية، واكتفى بهذا القدر لأول يوم لها في الصيدلية، على أن تعود إليه غداً، لتبدأ في رحلة التدريب والعمل، الذي طالما انتظرته حتى تخرج من سجن أبيوها، وتنسم عير الحرية وتحقيق الذات.

دأبت داليا على الحضور مبكراً للصيدلية، تنسم عير الصباح قبل تلوثه بعوادم السيارات، تحتسي قهوتها الصباحية المقدسة، التي لا تستطيع تركها يوماً من الأيام، تراجع الأدوية مراتٍ

ومرات، تقرأ في كل شيء يخص مهنتها، من كتب ومجلات علمية ووصفات طبية، تقابل زبائن الصيدلية ببشاشة وابتسامة مفعمة بالأمل، يلاحظها رءوف، ويراقب أسلوبها في التعامل مع الناس، فيزداد سروراً برضى الزبائن والعملاء عنها، وتكرارهم للزيارة للصيدلية من حين لآخر.

وإذا ما هداً الجو، جلسا سوياً يتحدثان في أمور العمل والإدارة، يجدها يقظة لَمَاحة ذكية، صاحبة تركيز شديد، وذاكرة قوية، يُعجب بها حين تفوقه في المعلومات أو الأرقام، ويرضى بتفوقها عليه، وجد فيها الحياة والحيوية، البراءة والأنوثة، الجمال والرقى، الثقافة والأدب، أعجب بها بداية الأمر كمتدربة معه في عمله، يؤهلها لتصبح مديرة للمكان، فيعتمد عليها أكثر وأكثر، لكنها أَسْرَتْهُ بشكل كبير، دون قصد منها، أو توقع منه هو، لم يصارحها بمشاعره، فلم يكن متسرعاً، انتظر مدة طويلة من الوقت، يختبر فيها مشاعره تجاهها، هل هي حقيقية أم مجرد إعجاب يزول مع الوقت؟ لكنها مع الوقت ثبتت جذورها أكثر، وأعمق في تراب قلبه، فأحيتها، فمنت زهورها وورودها بين جوانحه، وتنسم عير روحها كلما لاح طيفها وظهرت أمام عينيه بنظراتها القاتلة.

أما هي، فلم تكن تنوي أن تعير قلبها لرجل يقهرها، مثلما فعل أبوها، ففرض سطوته على شريكته، ظلت أياماً وأياماً تتعامل مع رءوف في حدود العمل فقط، لم تقصد بابتسامتها ووداعتها أن تجذبه إليها، كانت هذه طبيعتها وفطرتها، كانت مهذبة وأنيقة في

المظهر والجوهر، وذاك ما أغراه فيها. بالطبع فيه ما يجعلها تلتفت إليه، وتعطيه بعضاً من تركيزها لتفحصه، وتساءل: هل هو رجل مثل أبيها معسول الكلام، مستبد في رأيه وفعله؟ أخذت وقتها بتمهل لتتعرف على الإجابة، تراه هادئاً باسماء، ينتظرها دائماً لتبدأ الحوار، ربما ذوقاً منه، وعملاً بمقولة (النساء أولاً)، أو ربما لنقص في جرأته وشجاعته، وإيثاره السلامة دائماً.

صوته هادئ كصوتها تجذبها نغماته، قليل الكلمات، كثير البسمات، أحياناً يعجز عن التعبير فيبتسم، وينظر إلى الأرض خجلاً أو حيرة، وكأنه يستدعي منها ما يرد به الجواب، لا يصرخ ولا يغضب، أعجبها سمته ورسمه، فقد كانت ملامحه سهلة بسيطة، مُنمّقة وجذابة.

اختبرته كما اختبرها، فليست أقل منه ذكاءً ولا فطنة، راقبته من بعيد، فتبتعد عن قصد، لترى هل سيجذبها إليه سريعاً أم لا؟ لا تستطيع البعد، تبتعد بنظراتها وتولييه ظهرها، لكن سرعان ما تشتاق، فتلتفت لتبتسم، تبحث عنه كما يبحث عنها، أدركت أن شيئاً ما حدث، وأنه حقيقي وليس مزيفاً كما كانت تظن.

وفى كل صباح تهيم روحها بل تطير، فلا تكاد الأرض تحملها، أو تطأها قدماها، فرحاً وابتهاجاً، بمن سوف تراه ويراه، أحست بقلبها يدق سريعاً، وصدرها يخفق بقوة ورجفة، أدركت أنه هو، ولا يجب أن تضيعه.

يلتقيان سوياً، فتحكي عيونهما كلاماً يصعب على اللسان الإتيان به، لصعوبة معرفة حروف هجائه، يتعاونان في العمل ويتحدثان كثيراً، لكن إن ذهب النية للحديث عن المشاعر، تاهت الكلمات وهربت الحروف، وتوقفت الترجمة، فيسود الصمت الفاضح لكل مستور.

اعترفت عيونهما بالهيام، أحسا بُدنيا جديدة، مشرقة مبهجة، مليئة بالأحلام والأمانى، لم يكتما ما يشعران به من مودة، وشغف وألفة عند اللقاء، وما يجدان من وحشة وفقد وشوق عند الغياب، التقت أرواحهما فائتلفت، وسعدت عيونهما عندما نظرت، فباحث واستراحت مما حملته من أسرار عن الجوار، وانساب الحوار بينهما فبدأ بعدما تجرع دواء للجرأة، وقرر أن ينطق، لكنه لم ينطق، غلبه الخجل فاحمرَّ وجهه، شجَّعته على القول فلم يتشجع، أنهى كلامه معها ذلك اليوم بتلعثم وخيبة.

أصابتها الحيرة، وتملكتها الشكوك مما تشعر به، ما هذا الذي تشعر به؟ هل هو حقيقي؟ أم وهم وإعجاب؟ وما هذا الشاب الذي يتعثر في كلماته ونظراته، فيسقط أرضاً ولا يصدر صوتاً؟ هل كلهم مثله؟ أم أنه مثله؟ يتصبب عرقاً قبل أن يتم جملة، أو يتم سطرًا، هل هذا الخجل محمود؟ لعلَّه كذلك، ألا يقال إن الحياء كله خير؟ فليكن خيراً إذن، ولنتنظر قليلاً أو طويلاً، ونرى عاقبة الانتظار.



رءوف

رجع رءوف لمنزله مرتبكاً متوتراً، يشعر بتبعثر جسمه وأفكاره، وما إن وصل غرفته حتى سقط على سريره يستجمع شتات نفسه، هل كانت حلماء أم كانت حقيقة؟ قد جذبته هذه الفتاة دون مجهود منها، هل هو ضعيف لهذه الدرجة أن يسقط في بحر الهيام بها؟ أم أنها تملك قدرة كبيرة من السحر، جعلته رهن شباكها ولم يستطع فكاًكاً منها؟

هو من أسرة متوسطة الحال، مجتهد في دراسته وعمله ومثابر رغم ما يصادفه من صعاب، له أختٌ واحدة أصغر منه، يسكن معها ومع أمه، فلم يكن له سواهما، بعد أن توفي والده في سن مبكرة، فنال حظاً كبيراً من أعباء الأسرة، وكان عليه أن يعمل ليسد بعض الاحتياجات المادية لأسرته، وبالفعل بدأ العمل بالصيدليات، منذ كان في الجامعة وحتى الآن، ويأمل أن تكون له صيدلية خاصة به يوماً ما، لكنه مشغول عن هذا الآن، بوالدته وأخته التي بدأت دراستها الجامعية، وتحتاج لمزيد من المال أيضاً، لتوفير ما تحتاجه أي فتاة في مثل سنّها مقبلة على الزواج في سنوات عمرها القريبة، لذلك فقد أرجأ رغباته إلى أجل غير

مسمى، فلم يعد يفكر في الارتباط حالياً أو الزواج، إلا بعد أن يطمئن على أخته الصغيرة التي يعُدُّها ابنة له.

سمع صوت مروة، من خارج الغرفة، تناديه أن يأتي لتناول العشاء، معها ومع أمها، تأخر عليها فجاءت إليه، وجدته مازال يستلقي على سريره، بملابسه الرسمية، أشارت عليه أن يبدل ملابسه ويخرج إليهما، فالطعام شهى ولن ينتظر كثيراً.

خرج لتناول العشاء الذي أعدته مروة وجلس بجوار والدته، وفى قبالة مروة تراقبه، وتغمز له بعينيهما، وكأنها اكتشفت سره المكنون، فقالت:

مالك يا دكتور؟ خير يا سيدي؟

نظر إليها بنظرة رادعة أثارت تبسمها فقال:

لا شيء، الحمد لله كله تمام.

أصرّت على إغاضته فقالت:

أكيد يعني؟ أنت متأكد؟

نظر لها بحدّة وزجر وقال:

أكيد يا مروة، وركزي في طبق المحشي قدامك.

كتمت ضحكتها برغم تبسمها، ونظرت في طبقها، وصمتت.

كانت الأم تراقب هذا الحديث المتبادل الذي يخفى شيئاً ما، لكنها تدرك أن مروة تحب المزاح كثيراً، ورءوف سهل الاستشارة

والغضب، لذلك تركته يعنفها حتى تصمت، لكنها أحست بشيء مختلف في ولدها، ففطنت له، كأي أم تشعر بخبايا أبنائها، لكنها لم تحب أن تُلحَّ عليه أن يفصح، بل تركته حتى يفعل ذلك بإرادته.

في نهاية السهرة دخل رءوف لغرفته ليتهيأ للنوم، بعد دقائق طرقت مروة الباب، تستأذن في الدخول، سمح لها فدخلت منكسة الرأس، مبتسمة ابتسامة خجولة، وقالت:

أنا آسفة يا رءوف، على ما فعلته معك على العشاء، أرجوك سامحني، لا تتم وأنت غاضب مني.

نظر لها وتبسم ابتسامة الرضا والحنان وقال:

تعالِي يا مروة هنا بجاني.

تقدمت منه وجلست على طرف السرير، أمسك يدها وقال:

يا مروة أنتِ ابنتي قبل أن تكوني أختي، انسي ما حدث.

وفعلاً، هناك ما يؤرقني، وأريد مساعدتك حتى أتغلب على هذا الأرق.

أبدت مروة اهتماماً وتركيزاً فقالت:

خيراً يا أخي؟ قل ما لديك، أنا رهن أمرك.

تفحصها بنظرة شاملة وعميقة، وكأنه يريد أن يؤكد لنفسه أنها محل ثقته، فقال:

بصراحة وبدون مقدمات طويلة، تعرفت على فتاة منذ مدة وجيزة، شغلت تفكيري، ولا أعرف هل مشاعري تجاهها حقيقة أم لا؟ وهل هي تبادلني نفس المشاعر، أو أنى أتوهم هذا؟

هل يمكن أن تساعدني في هذا الموضوع؟

ابتسمت مروة ابتسامة كبيرة وحنونة، فرغم أنها أصغر من رءوف، إلا أنها تشعر بأنه ابنها، وذلك لرهافة مشاعره ورقة قلبه، اقتربت منه أكثر، ونظرت في عينيه بمكر، وقالت:

أخيراً وقعت يا بطل! لا بد أن أمنح هذه الفتاة جائزة كبيرة على هذا الإنجاز.

بدت في عينيه بوارد الغضب فقال لها:

الموضوع لا يحتمل مزاح يا مروة، يبدو أنى أخطأت في ثقتي بك.

ردت بسرعة قبل أن ينقلب حاله، من صفاء إلى إعصار، فقالت بتبسم:

حاضر، لم أقصد، لكن المفاجأة غير متوقعة.

احك لي ما حدث وأكد سأفعل كل ما أستطيع.

حكى لها عن داليا، فوصفها من حيث الشكل والروح، حكى عن جمالها وبرائها، عن مرحها وخفة ظلها، عن ذكائها وثقاقتها، حكى كل ذلك، وعيونه تلمع، وصوته يرتجف من

تسارع دقات قلبه، أنصبت له مروة، فلم تقاطعه، لَمَّا رأت كم هو سعيد وهو يحكى عن داليا هذه، كان مبتسماً وهو يسرد، يقول وينظر أمامه، وكأنها أمام عينيه، لا تفارق خياله أو باله، كالطفل عندما يحكى عن شيء أحبه، أو لعبة رآها، يحكى وكأنه مَلِك الدنيا.

كانت مروة مبتسمة أيضاً، وسعيدة بهذه الحال التي أصبح عليها رءوف من السعادة والبهجة، بعدما قضى وقتاً ليس بقليل في شعور بالتعاسة وخيبة الأمل، مما حدث له سابقاً، حتى صار وحيداً منطوياً على نفسه، حتى وسط أسرته الصغيرة التي تتكون من أمه وأخته فقط، وها هي تراه الآن سعيداً مبتهجاً، مقبلاً على الحياة، فهذا يجعلها أيضاً سعيدة وراضية.

لم تقاطعه طوال سرده، بل تركته يحكى ويحكى، واكتفت بالإيماءات والابتسامات التي ملأت وجهها، ولَمَّا انتهى من كلامه نظر إليها يستطلع رأيها فقال:

ما رأيك يا مروة؟ فيما سرحتِ؟

انتبهت وقالت له:

معك يا رءوف، جميل جداً، أقصد، جميلة جداً داليا.

يبدو أنك وقعت يا كبير، وغرقت من أخصم قدمك حتى رأسك في بحرها الواسع.

غاضته بدعابتها فقال:

شكراً على هذا الاكتشاف الكبير يا مروة، والآن ماذا أفعل؟
وكيف أتأكد أن كل ما قلته هو حقيقة فعلاً، وليس مجرد فراغ
عاطفي؟

قالت:

هل اعترفت لها بهذه المشاعر؟

رد عليها وهو ينظر للنافذة، فقال:

بالطبع لا، لم أستطع، كلما حاولت خانتني إرادتي واختفت
جرأتي، ولا أدري إلى متى يستمر هذا الحال، ولذلك طلبت منك
المساعدة.

تفهمت مروة ما قاله، فهي تعلم كم هو خجول في مثل هذه
الأمور، فقالت في حزم وثقة:

إذن فالخطوة القادمة هي أن أعترف على داليا عن قرب،
وبعدها نُقيِّم الوضع.

سأتي إليك في الصيدلية غداً، كأنها زيارة تمت مصادفة دون
ترتيب، أعترف عليها ونرى بعد ذلك.

راقت الفكرة له، فأوماً برأسه إيجاباً وقال:

تمام، اتفقنا، أنتظرك غداً.



صفحة

قام رءوف نشيطاً من نومه، ارتدى ملابسه وخرج من غرفته، وجد الإفطار قد تم إعداده على طاولة الطعام، ألقى بتحيةة الصباح على والدته التي دخلت المطبخ لتجهيز الشاي الساخن، ثم مرّت على غرفة مروة توقظها للمرة الثالثة من سباتها العميق، خرجت مروة متكاسلة تشاءب وتمسح عينيها بيديها، وتبدو بشعرها المنفوش ويبجامتها المقلّمة كأنها بلياتشو في سيرك، ذهبت للحمام تجرّ رجليها، ووقّع حكّها على الأرض يُتعب الأذان، ثم خرجت بعدما نضحت بعض الماء على وجهها الخمري اللون، وجلست في مكانها المعتاد على الطاولة، بعدما أدت تحية الصباح، بصوت يملأه النعاس الذي لم يفارق عينيها بعد.

تناول الجميع إفطارهم، انتهى رءوف سريعاً، وقام ليخرج لعمله، بعدما غمز بعينه لمروة يذكرها بما اتفقا عليه، فردت هي الأخرى عليه بغمزة، وابتسامة مأكرة.

وصل للصيدلية في موعده المحدد ككل صباح، شغل نفسه بعمله حتى لا يستولي عليه فكره في شيء آخر لا يقوى على التحرر منه، لكنه لم يستمتع كثيراً بحريته، فقد جاءت من

استولت على فكره وقلبه، جاءت ومعها كعادتها شباكها، وسهامها، التي تخرج من نظرات عينها السوداوين، دخلت عليه الصيدلية بعد ساعة تقريباً من وصوله، ألقت عليه تحية صباحية جميلة، تصحبها ابتسامة مفعمة بالأمل والنشاط، لم يقوى تجاهها على المقاومة، فابتسم لها رغماً عنه، وحيها بتحية مشابهة.

ارتدت الباطو الأبيض الخاص بها، ونظارتها التي تزيدها جمالاً وبهاءً، وبدأت في عملها اليومي، تراجع بعض الأدوية وتجرد بعض الأصناف، في فترة الصباح الباكر، قبل ازدحام المكان بالزبائن في منتصف اليوم.

يختطفان النظر لبعضهما، يخفيان الشوق وراء وجوه تخشى الفشل من التجربة، بدا رءوف اليوم مختلفاً، فتعمد الابتعاد عنها، والانهماك في بعض الأعمال هنا وهناك، انتظاراً لمجيء مروة لتتظر معه بعينيها وتعضد رأيه في داليا، أو يكون لها نظرة مختلفة ورأي آخر.

تراه داليا بحالته هذه، فتأخذها الأفكار والظنون بعيداً، لكنها ترجع لنفسها وتقول إنه لم يقل شيئاً أو يبح بأية مشاعر، فليس عليه لومٌ إن اقترب أو ابتعد، فانشغلت هي الأخرى في بعض أعمالها.

في حدود الحادية عشرة قبل الظهر، وصلت فتاة جميلة تنبئ ملامحها عن سنّها الذي لم يتجاوز العشرين بعد، نادى على داليا فقالت:

صباح الخير، لو سمحت يا دكتورة، هل دكتور رءوف موجود؟
كانت دالياً مستغرقة مولّية ظهرها للخارج، سمعت الصوت
فأصابتها سهام الكلمات، ارتابت في أمر هذه الفتاة وارتبكت،
فتأخر ردها، تُرى من هذه الفتاة؟ ولم تسأل عن رءوف؟ هل
هي.....؟ لا، لا يمكن، لو كان مرتبطاً بأي علاقة من أي نوع
كانت ستعرف ذلك، فليست ساذجة لهذا الحد، إنه يتصبب عرقاً
لو مر بجانبها، وذلك ما ينفى ارتباطه أو خبرته بالفتيات، لو كان
مرتبطاً لكان أكثر جرأة مما هو عليه.

مرّت كل هذه الأفكار في عقلها خلال ثوان، ريثما سمعت
الصوت واستدارت، فالتفتت، ثم قالت بهدوء:

نعم موجود، من حضرتك؟

لمحتها الفتاة، وأدركت بذكائها بعض ما مرّ من أفكار على
عقل داليا، لمّا رأتها صمتت لثوان، تحدّق فيها قبل أن تُجيب،
ابتسمت وقالت لها بطريقة تزيد اشتعال مشاعر داليا:

قولي له: صفا، هو يعرفني جيداً.

أجابتها داليا، إيماءً برأسها، ودخلت لتبلغ رءوف، أن هناك
أنسة تسمى صفا تنتظره بالخارج، وما أن أخبرته حتى تبسم
وأشار لها بأن تدخلها للصيدلية تنتظر قليلاً حتى ينتهي مما
في يده.

رجعت لها داليا، وهي تشعر بشيء ما يشتعل داخلها، ويزيد من حرارة جسمها، فدعتها للدخول للصيدلية، وأشارت لها أن تجلس، فجلست صفا تتفحصها وتطيل النظر إليها، ثم قالت:

حضرتك الدكتورة داليا؟

تفاجأت داليا من تلك الفتاة الغريبة التي تعرف اسمها، فأخفت دهشتها وقالت:

نعم، أنا داليا، حضرتك كيف عرفت اسمي؟

ضحكت صفا ضحكة كبيرة أثارت شكوك داليا فقالت:

من رءوف، طبعاً، هو يحكى لي كل شيء.

سألته داليا والكلمات بالكاد تخرج من شفيتها، خوفاً من الصدمة، فقالت:

وهل حضرتك تعرفين دكتور رءوف من قبل؟

أجابتها صفا ببعض التلاعب والمكر، فقالت:

طبعاً أعرفه منذ سنين بعيدة، ومعظم الوقت بعد الشغل نقضيه سوياً.

أصاب داليا صدمة كبيرة، شلت تفكيرها للحظات، فماذا يعني أنهما يقضيان معظم الوقت معاً؟ هل هي خطيبته؟ أو قريبة له؟ خافت وتوجست، فلم تنطق أو تسأل، خوفاً من إجابة تعطيها ضربة قاضية، بأن تلك الفتاة مشروع ارتباط لرءوف، ولم يخبرها به.

صمتت فَبَدَا عليها الارتباك، ولاحظت الفتاة ذلك، فتركتها
تحترق أكثر، مر الوقت ثقيلاً حتى جاء رءوف، فقال بابتسامة
مربية:

أهلاً وسهلاً يا جميل، هل هذه صدفة أم زيارة؟
ردت عليه بابتسامتها التي لم تفارق عيونها اللامعة فقالت
في دلال:

والله يمكنك أن تسميها زيارة بالصدفة، كنت قريبة من
الصيدلية وجئت لأراك، فقد اشتقت لك (قالتها بمكر وتصنع)

تسمع داليا الحوار بينهما، والنار بين ضلوعها مشتعلة، لم
تجد من يطفئها، من هذا الحوار المريب، بين رءوف وبين تلك
الفتاة اللعوب. لكنَّ الله شاء أن تنطفئ نارها، ويبرد لهيبها، عندما
قال رءوف:

ألم تتعرفا على بعضكما البعض؟

ردت داليا فقالت:

صفا أخبرتني باسمها، واتضح أنها تعرف اسمي من قبل أن
تأتي، وهذا بفضل حضرتك.

أحس رءوف أن شيئاً غريباً وراء كلمات داليا، فقال:

أخبرتكَ باسمها فقط؟ ولم تخبرك من تكون؟

قالت داليا:

نعم، تعرفتُ على اسمها فقط.

ابتسم رءوف، عندما أدرك ما تضمّره داليا، وقال لها:

هذه أختي الصغيرة الشقية، لم تأتِ فرصة لأحدثك عنها أكثر.

تنفست داليا الصعداء، رجعت لها روحها بعدما أحست أنها
تسحب منها شيئاً فشيئاً منذ رأت تلك الفتاة، استعادت وعيها
وابتسمت ابتسامة حقيقية دون خوف أو توجس، لكنها تذكرت
شيئاً، فقالت باستغراب:

لكنك لم تحدثني عن صفا أبداً، حدثني فقط عن مروة.

ضحك رءوف، وضحكت أخته ثم قال:

صفا ومروة شيء واحد، هما أسمان لفتاة واحدة.

نظرت داليا لمروة وابتسمت قائلة:

أهلاً وسهلاً بك يا مروة، سعيدة برؤيتك، أم تحبين أن أناذك
بـ«صفا»؟

ردت مروة بابتسامة ضاحكة فقالت:

أنا الأسعد يا دكتورة داليا، تشرفت بمعرفتك، ولك حرية
الاختيار في كلا الاسمين.

تدخل رءوف في الحوار، فقال:

القصة باختصار يا دكتورة داليا، أن أمي رُزقت بطفلتين توأمتين، وكان تاريخ ميلادهما يوافق موسم الحج، لذلك تم تسميتهما بصفا ومروة، تيمناً بمشاعر الحج، لكن بعد فترة قصيرة للأسف، توفيت صفا وبارك الله في مروة التي تقف أمامك، لذلك هي تستغل كلا الاسمين، وقتما يحلو لها.

هزت داليا رأسها وقالت:

هكذا إذن؟ الآن فهمت، وعلمت أن مروة فعلاً شقية، كما حدثتني عنها.

ضحكوا ثلاثتهم، وطلب رءوف مشروبات مثلجة، من سوپر ماركت بجوار الصيدلية، فقد كان الجو حاراً ويحتاج لمثل هذه المرطبات.



الغيبوت

عادت ماجدة صديقة أميمة من السفر، قررت أن تستقر في مصر بعد سنواتٍ طويلةٍ من الغربة، جئَتْ خلالها ما يكفي من الأموال لشراء قطعة أرض، وبناء منزل مناسب لها، وقد اتفقت مع ابنها عصام على أن يشتري لها قطعة الأرض، وبالطبع طلب عصام من شوقي أن يساعده في هذا الأمر، ولم يتأخر شوقي في المساعدة، فقد كان دائماً، تحتوي ذاكرته على كثير من العروض وتنوع في الأسعار للعقارات والأراضي.

عرض شوقي على عصام عدداً من قطع الأراضي التي تتوافر فيها المواصفات المطلوبة، وبعد دراسة الخيارات من عصام وعرضها على أمه وزوجها، تم الاتفاق على إحداها، وتم إنهاء إجراءات الشراء والملكية من خلال شوقي، وبدأ بناء المنزل المراد.

في تلك الأثناء، تحدثت ماجدة مع ابنها عصام، في أمر زواجه، فقد وصل عمره الآن ثلاثين عاماً، ولم يُقدِّم على الزواج، على الرغم من أن من في مثل عمره قد تزوجوا، وأنجبوا طفلاً أو طفلين. تعلَّل بدراسته وأبحاثه وانشغاله بمستقبله، فهو على

وشك الانتهاء من رسالة الدكتوراه، ولا يريد أن يشغله شاغل عن إتمامها على أكمل وجه.

أحست ماجدة أن هناك ما يشغل بال ابنها، لكنه لا يحب الإفصاح عنه الآن، فتركته لتعطيه وقتاً كافياً يحدد فيه رغباته، فلم تحب أن تضغط عليه، أو تؤثر على قراره، فارتبط بزوجة لم يقتنع بها تمام الاقتناع فيذوق من وراء اختياره المتعجل هذا تعاسة لا تمحيها الأيام، وخشيت أن تكون سبباً لذلك، فُشّقيه كما شقيت هي من قبل، فتركته وشأنه.

بعد شهور قليلة، اكتمل بناء المنزل، وعزمت ماجدة على أن تنتقل إليه هي وأبنائها فور تجهيزه، أثنت على شوقي في اختياره للموقع، واهتمامه بالبناء حتى النهاية، وكافأته بأكثر مما يتوقع منها، فعاد ممتناً وسعيداً بهذا المكسب الكبير.

اتفقت مع عصام أن تسكن هي وأبنائها في الدور الأول، وتكون له هو الشقة التي بالدور الثاني، فعليه أن يبدأ في تجهيزها لتكون شقة الزوجية، وعليه ألا يتأخر في التجهيزات، فهي تريده أن يتزوج سريعاً لتفرح به وبأبنائه.

وأثناء هذا الصيف ذهب كعادته للجامعة لاستكمال عمله، واستيفاء بعض المراجع الهامة للرسالة، وأثناء تواجده في مكتبة الكلية، سمع صوتاً يحبيه بشوق وفرحة قائلاً:

مرحباً دكتور عصام، صدفة سعيدة جداً أن أراك اليوم.

سمعها وهو يباشر بعض رفوف الكتب في المكتبة، فاستدار
لذلك الصوت ليرى من مصدره، فوجد فتاة تعلوها ابتسامة
أنارت خديها وزاد معها لمعان عيونها من سعادة اللقاء، ابتسم لها
ابتسامة خفيفة وقال:

أهلاً وسهلاً.

امتعضت، فزالت بسمتها، وقالت في أسى:

يبدو أنك نسيت صوتي يا دكتور، لم أكن أتوقع منك هذا
الجفاء.

تفحصها مُخرجاً وما زالت الابتسامة تعلو شفثيه، وفجأة
اتسعت عيناه وانفجرت شفثاه وقال:

سمر!! أهلاً يا سمر، ملامحك تغيرت كثيراً عما كانت عليه
من قبل، فسامحيني، لم أنتبه.

نظرت له بدلال وقالت:

وهل تغيرت ملامحي للأحلى، أم للأسوأ؟

أجابها دون تأخير:

للأحلى طبعاً.

أخجلها، فزاد بهاؤها، وزادت ثقتها في نفسها، فنظرت للأرض
مبتسمة ثم قالت:

هذا من ذوق حضرتك يا دكتور عصام.

جلسا سوياً في ركن من أركان المكتبة، تحدث إليها وتحدثت إليه، سألتها عن حالها، فأجابته أنها تخرجت هذا العام، وهي تنوى أن تستكمل مستقبليها في الدراسات العليا، وجاءت تستعلم عن شروطها، فوعدها عصام بالمساعدة فيما تريد فعله.

وقد كان عصام معذوراً لجهله بها للوهلة الأولى، فقد تغير مظهرها بعدما وضعت الكثير من الماكياج على وجهها وعيونها، وكانت ترتدي ملابس متناسقة في ألوانها، تتماشى مع مكياجها، ولون بشرتها الخمرى، فازدادت جمالاً وأنوثة ونضجاً، كانت ملفتة له بالطبع، أعجبه جمالها واعتناؤها بأنوثتها، لكنها للأسف تفتقد لأهم شيء يطلبه، أهم شيء فقده منذ صغره ويريده الآن، إنه يبحث عن أسرة تحتويه، وبالرغم من أن سمر أبدت إعجابها الصريح بشخصيته، وأنه حلم وأمنية لأي فتاة شابة تبحث عن رجل ناجح ناضج، وقد بقي فقط أن تقول له: وهبت لك نفسى، إلا أنه لا يحب السهولة في مثل هذه الأمور، يغريه التمتع والصدود، يغريه فتح القلاع المحصنة، والأبواب التي عليها مغاليق من الفولاذ، يحب الحرب وسطوتها، ويعشق النصر ونشوته.

لم تياس منه سمر فحاولت أن تنسج شباكها حوله فيراها عن قرب ويرى كم هي راغبة فيه، فظنت أنه سيملّ من داليا ويثار لكرامته من صدودها عنه فيرتبط بأخرى، خدعها هو الآخر

فسايرها وأعجبه ذلك منها فقد كانت تهتم بزيبتها وأنوثتها ولا تحرمه من نظراتها وبسماتها في دلال ورغبة.

ظنت أن قبوله لهذا وعد بشيء، لكنه لم يعطها أي شيء، فهو يحب وينجذب لهذا النوع من النساء المُدرك لأنوثته، لكن في عقله هدف واضح ورؤية أسمى لحياته القادمة وذلك حسب ظنه، فلم يصد سمرا بل استمتع بما جادت به دون أن يعطيها ما تتمنى منه، وكأنه يقول لها: حسبك هذا فلا تتطلعين لما هو أكثر.

لكنها استمرت في خططها فقابلته مرات كثيرة وحسبت أنها نسجت شباكها القوية حوله لكنها للأسف لم تكن شباكا بل كانت خيوطا واهية كخيوط العنكبوت أو أشد وهنا.



الوالد

تلقّى عصام اتصالاً هاتفياً من والده، أحمد إبراهيم، يطلب منه الحضور إليه حيث يسكن، حتى يحضر حفل زفاف أخته من أبيه، خلال الأسبوع القادم، فاستعد عصام للذهاب، وبالفعل عزم على السفر إليه في يوم الزفاف المحدد.

كان أحمد إبراهيم، والد عصام، قد تزوج بإحدى قريباته بعد طلاقه من ماجدة، وقد اضطرته الظروف إلى أن يسكن ويقيم قريباً من عمله في العاصمة، ومرت السنوات وهو هناك، وكان بين الحين والآخر يأتي ليطمئن على عصام بعدما تركه عند جدته لأمه، بالاتفاق مع ماجدة، بعد فشله في رعايته مع زوجته الجديدة التي كانت قاسية على عصام ولم تُبد له حناناً أو عطفاً.

مرت به السنوات وهو مقيم هناك، رزقه الله من زوجته الثانية عائشة، بأمل ونشوى وحازم، على الترتيب، وكبر أبنائهما خلال عمره الذي قارب الستين، وجاء اليوم الذي يستعد فيه لزفاف ابنته، أمل، بعد تخرجها من الجامعة، وكان يأمل أن يزوج عصاماً أولاً، خاصةً أنه بلغ الثلاثين من العمر، لكن عصاماً اتبع مبدأ التسويف كلما فاتحه والده في هذا الأمر، سواء في الزيارات الخاطفة التي يقوم بها والده لبلده الأصلي، حيث أهله وقدامى

أصدقائه، أو من خلال تواصله معه هاتفياً، كلما لاحت لهما فرصة، لذلك فقد وجد في مجيء ولده هذه المرة، فرصةً ووقتاً، يستطيع أن يحدثه فيه بجدية، بل ويعرض عليه بعض الخيارات، إن لزم الأمر.

وصل عصام قبل الزفاف بيوم، حتى يساعد أباه فيما يلزم، من ترتيبات لهذا الزواج، خاصةً أن أباه كان بمفرده، فما يزال حازم صغيراً على أن يعاونه، فكان على عصام، الابن الأكبر، أن يبقى بجانب أبيه، يعينه في مثل هذه المناسبات.

استقبله أبوه بحفاوة كبيرة ومحبة صادقة، فقد كان فخوراً به لاجتهاده بين أقرانه، وكذلك أظهرت له زوجة أبيه بعضاً من الود، الذي لا بد له أن يظهر في مثل هذه المناسبات، التي تكثر فيها العيون التي تتطلع وتطفل وتترقب، وتنتظر كل سقطة وهفوة.

قابلهما عصام بفرحة وتهنئة حارة وذهب لغرفة أخته العروس فبارك لها وتمنى لها زواجاً سعيداً وحظاً جميلاً، وشكرته بدورها على مجيئه لزفافها، فهو أخوها الأكبر الذي تعده أباً لها بعد أبيها.

قابل أخته الصغرى وأخاه الأصغر الذي مازال في سن الثانية عشرة من عمره، أعطاه هدية كان قد اشتراها خصيصاً له، وجلس يمرح معه بعض الوقت ثم تركه ورجع لأبيه مرة أخرى، وما إن جلس بجوار أبيه حتى سأله فقال:

كيف حالك يا عصام؟ لم أرك منذ فترة طويلة.

تبسم له عصام ودارت في رأسه الأفكار، عمن الواجب عليه السؤال، والزيارة دائماً، هل الابن في كل الحالات ملام على التقصير؟ ألا يلام الوالد على تقصيره في حق ولده؟ ألا يجدر بالابن أن يسأل والده هو الآخر، فيقول له: لِمَ لَمْ تزرني أو تطمئن عليّ؟ لكنه أثر التغافل عن كل هذه الأسئلة، فليس هناك طائل من سؤالها، ففي مجتمعنا الذي يقدس كل شيء، سيكون اللوم على الولد فقط، لأنه يقصر في حق أبيه، ولن يخرج من أسئلته بإجابات تشفي فكره المضطرب، أو تجمع شتات قلبه المنفطر منذ الصغر.

نظر لوالده مبتسماً ابتسامة كلها تساؤلات وقال:

أنا بخير والحمد لله، اعذرني على تقصيري يا أباي، فالحياة مشاغل كما تعلم.

نظر له والده، وخشي أن يدخل معه في متاهات الماضي، وتأنيب الضمير، لما رآه في عيني ولده من غموض، فتحاشى تلك المواجهة، وقفز به إلى مكان آخر، فقال:

إن شاء الله، أختك ستتزوج غداً، ونريد أن نفرح بك أنت الآخر، ألا ترى أنك تأخرت في هذا القرار؟

رد عصام بمزيد من الغموض فقال:

لست متفرغاً حالياً، وإن شاء الله أتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

لم يفهم والده قصده، لذلك تمادى في طرح الأسئلة،
للتكشف له نوايا ولده، فقال:

هل هناك فتاة ما، تشغل بالك؟ أم أنك فعلاً مشغول عن
ذلك؟

رد عصام:

ليس هناك أحد، الدراسة تشغلني هذه الفترة فعلاً.
تفحصه بعينه ليصطاد صدق حديثه، ثم جرّب معه طريقة
أخرى، فقال:

إن كان بالك خالياً، فهناك من تملؤه، وهي جديرة بك.

لاحت دهشته في نظرات عينيه، فقال لأبيه:

ألهذا الحد يشغلك حالي يا أبي؟

رمقه والده، بنظرة استغراب وقال:

طبعاً يا عصام، أنت ولدي الأكبر، كيف لا يشغلني حالك،
ومستقبلك؟ أنسيت أنني أبوك؟

رد عصام في أسى:

وهل تذكرت الآن أنني ولدك، حتى تطمئن عليّ؟ لماذا لم
يشغلك مستقبلي عندما كنت صغيراً، وقضيت سنوات طفولتي
بين البيوت، ككرة تُركل من منزل لآخر؟ في حين كان من في
مثل سني، يهتّون بطفولتهم وحنان والديهم.

نظر والده للأرض، ولم يحرج جواباً، ثم رفع رأسه وقال:
معك حق يا بني، لكن الظروف والواقع حينها كان صعباً،
كانت حياتنا تعيسة، ويصعب الاستمرار فيها.

سامحني على ما مضى، ودعنا نتطلع لمستقبل جديد معاً.
انظر يا عصام، غادة بنت عمته، قد كبرت، وصارت فتاة
رائعة الحسن والجمال، وأرى إن كانت لك رغبة بها، ولها قبول
لديك، أن نخطبها من عمته، فماذا ترى؟

لم يكن عصام بهذه المرونة في التفكير أو الحوار، كان يابس
الرأس، عنيداً، وأراد أن ينهي هذا الحوار، الذي رآه مستفزاً، ويغلق
باب الجدل مع والده، فقال في برود واضح:

إن شاء الله، ربنا يختار الخير.

ثم طلب من أبيه الإذن ليخرج لقضاء بعض اللقاءات، في
جامعة القاهرة مع المشرف على رسالته، ومراجعة بعض الأمور
الإدارية التي تخص عمله. أذن له والده بالانصراف فغادره على
الفور ليتنفس هواءً جديداً.



غادة

جاء الغدُ يحمل معه فرحة الزفاف، امتلاً منزل أحمد إبراهيم بالضيوف من إخوته وأخواته وأصدقائه وأبنائهم، هرولت صديقات العروس لغرفتها، يهتئنها لما هي مُقدمة عليه، جلس الكبار من الرجال في غرف الجلوس بالشقة، ذهبت النساء لوالدة العروس، فجلسن معها في الصالة وفي المطبخ أحياناً، وكانت من هؤلاء النسوة، عفاف، أخت أحمد إبراهيم، فقد جاءت ومعها أبنائها وبناتها لتشهد زفاف بنت أخيها، ومن بين بناتها، ابنتها الكبرى غادة، التي أنهت دراستها الجامعية والتحقّت للعمل بإحدى المدارس، كمعلمة.

كانت غادة جميلة فارعة الطول بيضاء البشرة، تمتاز بأدب جم وأخلاق عالية، تقدم لها الكثير من زملائها في العمل لخطبتها، لكنها لم تقبل أحداً منهم، كانت معجبة بعصام الذي لا تراه إلا في المناسبات العائلية التي تجمعهم على فترات متباعدة، لكنها كانت تتواصل معه هاتفياً في بعض الأحيان لتأخذ رأيه في أمور الدراسة في الجامعة، وكان يلمح فيها ما ترمي هي إليه، لكنه لم يظهر اهتماماً بها رغم مقوماتها الكثيرة.

ظهرت عادة بكامل أناقتها بجوار والدتها، سلّمت على زوجة خالها بأدب، ثم جاء خالها فسَلَّم عليها وعلى والدتها، تلفتت فوجدته قادمًا بهدوء وثقة، فسَلَّم على عمته وعليها، نظرت له نظرة مُغرقة، لكنه لم يغرق فقد كان ماهراً في السباحة، ولم ينس ما كان في الماضي، فانتقم من الحاضر بغير ذنب جناه، والحقيقة أنه جنى على نفسه دون أن يدري، ولو حَكَّم العقل قليلاً وترك الحقد والكراهية وقتاً قصيراً لنال راحة وسعادة، لكنه كسائر البشر تعميهم الكراهية ويغريهم الانتقام، فلا يروا إلا التشقي ممن آذوهم، ولو عفا وأصلح، لكان أجره على الله، ولكان عَوْضه الله، ولكن البشر يستعجلون فلا يهدأون حتى تنطفئ نيران قلوبهم، لذلك، لم ير جمالها ولا حسننها، لم ير براءتها وعقلها، بل رأى والدتها فقط التي كانت في يوم من الأيام عوناً لوالده على والدته، وشجعتة على الانفصال عنها، فكانت سبباً في شتات أسرته، وضياع أمره، فأحب أن ينتقم منها، وأحب أن يذكرها بفعاليتها، فلا يريد لها هناءً ولا راحة، ولن يحقق لها أملاً وحلماً، حتى لو كان متاح يستحق التفكير قبل أن يُرْفَض.

كانت عفاف لا تحب ماجدة زوجة أخيها، وكانت تأكلها الغيرة منها، وكلما زارتها، أو جمعت بينهما مناسبة، تصيّدت لها الأخطاء، ووسوست لأخيها بكل شيء سيء عن زوجته، تراها متعالية على أخيها تتعامل بصلفٍ معه، وأحياناً تراها تتعامل بدون تحفظ مع الأقارب من الرجال أو الشباب، فتضحك معهم

أو تمزح مع بعضهم، وسوست لأخيها أحمد أن زوجته لا تليق به، فهي متطلعة دائماً لما في يد غيرها، ولا تقنع بما تملك، ولأن أحمد لم يكن له مشيرٌ غيرها، فكان يعطي لها أذنيه، تملأها بما تشاء من حقائق وأكاذيب، وكانت مُصدّقةً لديه، ومحل ثقة.

ولمّا أن ظهرت بوادر شقاق بين أحمد وزوجته، ذهب أخته إليه فقص عليها المشكلة، فما كان منها إلا أن صبّت مزيداً من الزيت فوق تلك النار المتقدة، فازدادت اشتعالاً ولهيباً، وانتهت بإحراق تلك الأسرة، وتشريد ذلك الطفل، الذي لم يجنِ ذنباً، ليعيش تلك الحياة البائسة، بعيداً عن حنان أمه ودفع والده.

فهل بعد كل ما حدث قديماً يكافئها عصام ويتزوج ابنتها؟ بعدما صار رجلاً له مكانة بجده واجتهاده؟ أم هل بير والده بتلك المصاهرة لترضى عنه أخته؟

دارت كل هذه الأسئلة في رأس عصام منذ فترة، وتوقع كل تلك الأحداث قبل أن تقع، فلم يكن ينتظر المفاجآت حتى تحدث، وصمم في قرارة نفسه على ألا يريح لأبيه وعمته بالاً، إن لاحت لهما تلك الأفكار، رغم ما تتفرد به عادة من شخصية رائعة في كل شيء، يتمنى كل شاب في مثل سنه، أن يرتبط بمثلها، لكنها للأسف، ابنة عمته التي شرّدت في البيوت، ومزقته كل ممزق.

بدأت مراسم الزفاف، وجاء العريس ليأخذ عروسه لقاعة الحفلات، وقام الحفل بما فيه من فرح وصخب ومجاملات،

وتلقى والد العروس التهاني والمباركات، وبجانبه عصام، يتلقى الدعوات بتمام عرسه هو الآخر، في القريب العاجل.

وفى نهاية الحفل، جاءت عفاف ومعها غادة، فسلمت على أخيها، وعلى عصام، ودعا أحمد لغادة، بأن يتم الفرح بزفافها أيضاً قريباً، فخجلت ونظرت في الأرض حياءً، وانتهزت عفاف الفرصة لتدعو هي الأخرى لعصام، بأن يرتبط ويتزوج بفتاة ذات أصل وأخلاق تصونه وتكون له نعم الزوجة وتفرح العائلة كلها بزواجه، قالتها بمكر وإشارة إلى غادة، فشكرها عصام ببروده المعتاد، وانصرف الجميع إلى منازلهم.

أراد عصام، أن يسافر مباشرة حيث محل إقامته، لكن والده أصر عليه أن يأتي معه للمنزل، ليقضى فيه ليلته، فقد تأخر الوقت كثيراً وما هي إلا ساعات قليلة ويأتي النهار، وهو يريد أن يتناقش مع عصام في أمر هام قبل أن يسافر.

رجع أحمد وعصام، للمنزل وكان الضوء خافتاً، والحركة ساكنة، فقد دخلت زوجته لتنام، بعد يوم مرهق، ونامت ابنته، ونام حازم الصغير، أيضاً، وبعد أن أعدَّ أحمد لنفسه ولعصام مشروباً ساخناً، جلس قبالة مبتسماً وقال له:

الحمد لله مضت هذه الليلة بخيرها، ولم يكن هناك ما يعكر صفوها.

شاركه عصام فقال:

الحمد لله يا أبي، أختي تستحق كل خير.

استغل أحمد الموقف فقال:

وأنت يا عصام، أما آن لك أن تتزوج؟ قد بلغت الثلاثين، ولم ترتبط بعد.

لم يحب عصام الحديث في هذا الموضوع ثانيةً مع أبيه، لتوقعه لما سيقوله والده، فقال:

كل شيء في وقته يا أبى، وعندما يأذن الله وتتناسب الظروف، سيحدث ما تتمناه.

رد عليه والده فقال في جد:

وماذا يمنعك الآن يا عصام؟

أمورك مستقرة، في العمل والحمد لله، وأنا مستعد لتحمل نفقات الزواج، فقط عليك أن تختار من تريدها شريكة لك في حياتك.

حاصره والده بكلامه، فحاول الفكك من شبাকে، فقال:

إن شاء الله، سأختار فتاة مناسبة، لكن هذا لا يحدث في يومٍ وليلة، أحتاج بعض الوقت.

تملّك والده التبرم من طريقة عصام في التهرب دائماً كلما فاتحه في هذا الموضوع، فقرر أن يكون صريحاً وواضحاً حتى تقصر الطرق ويعلم ما في باطنه، فقال له:

الفتاة موجودة، ولا غبار عليها، وألف شاب يتمنى رضاها، ألا تراها أنت؟

رد عصام في تغاب:

من تقصد؟

أجابه والده بغيظ فقال:

أقصد غادة، ابنة عمك، ألم ترها كم هي جميلة، ومناسبة لك؟

تقطّب وجه عصام، وبدت عليه علامات الضجر فقال:

لا أفكر فيها، ولست مناسباً لها، ولا أحب تلك الزيجة.

نظر له والده مندهشاً، وقال:

ولم يا عصام؟ هل ينقصها شيء ما؟ أو هل يعيبها شيء؟

نظر عصام في عيني أبيه، وكأنه يريد أن يفهمه، دون أن يضطر لمزيد من الكلام، فقال:

هي لا غبار عليها، لكنني لا أحب الارتباط بها، فكلما رأيتهَا ذكرتني بعمتي التي كانت السبب في تشريدي طوال تلك السنوات.

فهم أحمد، ما يضمّره عصام، من غلٍ تجاهه وتجاه عفاف فحاول أن يبرئها فقال:

يا بنى، العلاقة بيني والدتك كانت سيئة، وكان محكوم عليها بالفشل، ولا دخل لعمتك عفاف فيما حدث.

وبفرض أن لها يدٌ في ذلك، فهل ستأخذ عادةً بذنب أمها،
أليس ذلك حراماً؟ ولا تزرر وازرةً وزر أخرى، ألا تعلم هذا؟
استنكر عصام هذا الاستدلال، وإن كان صحيحاً، لكن، ساءه
أن يفسر الحلال والحرام حسب هوى كل إنسان، فقال لوالده:
لكل منافعاته التي يعلم بها الحلال والحرام، وأما هذه
العلاقة فلست مضطراً لها، ربنا ييسر لغادة من هو أفضل مني، إن
شاء الله.

بدا على وجه أحمد اليأس، مما سمعه من ولده، فقال له:
ستندم كثيراً على خسارتها، العفو والسماح يتبعه راحة البال، أما نار
الكراهية، إن ظلت بداخلك فسوف تحرق فيك البراءة والطيبة.
رد عليه عصام بتأكيد على قوله، فقال:

لقد احترق فيّ الكثير يا أبا منذ زمن، فلم أعد أشعر بشيء
مما تقول، فقط دعني وشأني، دعني أختار وحدي وأتحمل نتيجة
هذا الاختيار.

أدرك أحمد أنه قد تأخر كثيراً، فقد كبر ولده، وصار له رأياً،
وقناعات لا تتأثر بكلامه هو، فقال له في حسرة وألم:

قلْتُ ما قلت، حباً لك ومودةً فيك، ويعلم الله كم أنت عزيز
على قلبي، فأنت أول فرحتي، وتلك حقيقة لا تغيرها الأيام،
ولا السنوات والأحداث.

وبعد، فكما تشاء يا عصام، افعل ما تراه في صالحك، وأتمنى لك السعادة.

أنهى أحمد كلماته، والدموع تغرق عينيه، وترك عصاما، ودخل غرفته لينام، وجلس عصام للحظات يفكر في كلام والده، لكن الصراع الداخلي فيه لم يُسلمه للسماح أو العفو، ذهب متثاقلاً لينام في غرفة أخيه حازم حتى الصباح، وما أن لاح ضوء الصباح، حتى رجع مسافراً لمدينته مرة أخرى، عاقداً العزم على بسط إرادته هو وانتزاع سعادته بيده، مهما كلفه ذلك الأمر.



عاد رءوف لمنزله في المساء، فوجد مروة في المطبخ تعد الطعام، ووالدتها في غرفتها، ترتب ملابسها، وما أن رأته مروة قد أطلَّ حتى غمزت له بعينها، وعلتها ابتسامة كبيرة ملأت وجهها، وقالت في مكر:

أهلاً وسهلاً يا دكتور، حمداً لله على سلامتك.

نظر لها نظرة رادعة، وقال:

أهلاً يا ست مروة، هل انتهيتِ من إعداد الطعام؟

هزت رأسها وقالت في دلع:

تحت أمرك يا سيدي، دقائق وينتهي كل شيء.

تركها ودخل غرفته ليبدل ملابسه، وما هي إلا لحظات حتى وجدها خلفه، تقول:

داليا جميلة جداً كقطعة قمر، ورقيقة كنسيم الصباح، أهنتك على اختيارك يا دكتور.

ابتسم في هدوء وقال:

هل أعجبتك؟

ردت بسرعة:

طبعاً، لكن المهم أن تكون أعجبتك أنت.

سأخبر أمي بالأمر ستفرح لك كثيراً.

لم يُبد اعتراضاً وصمت، تركته وعادت للمطبخ لتنتهي من عملها، ثم هيات طاولة الطعام ودعته ونادت أمها لتناول العشاء سوياً.

بعد تناول العشاء، جلست مروة ووالدتها ورءوف يشاهدون التلفاز، ثم قطعت مروة ستائر الصمت وقالت، وهي تنظر إلى رءوف:

هناك أخبار سعيدة يا أمي، هل تريدين سماعها؟

نظرت لها أمها باستغراب وقالت لها:

وهل هناك من يرفض سماع الأخبار السعيدة؟ خيراً يا مروة؟

أطالت نظرتها لرءوف، حتى تنتزع منه موافقة على استمرارها، ولما رآته لم يبد إشارة للتوقف استرسلت فقالت وهي تبسم:

رءوف ينوى الارتباط بزميلة له في العمل.

ابتسمت الأم ابتسامة كبيرة، ونظرت له مندهشة، وقالت:

يا ألف نهار أبيض، يا رب يا رءوف يا ابني، أخيراً ربنا هداك وسمعت كلامي!

ومن هي زميلتك هذه؟ هل نعرفها؟

ردت مروة بسرعة:

لا تعرفينها يا أمي، لكنها روعة في الجمال.

زجرتها أمها بنظرة حانية، ثم نظرت لرءوف وقالت:

اصمتي قليلاً يا مروة أريد أن أسمع من رءوف.

ابتسم خَجلاً، وقال:

اسمها داليا، وهي مازالت طالبة في كلية الصيدلة في السنة النهائية، وجاءت للتدريب معنا في الصيدلية، ليست من منطقتنا أو من معارفنا.

قالت الأم:

المهم أنها أعجبتك أنت، ثم يأتي دورنا نحن في التعرف عليها.

رد فقال:

هي محترمة ومؤدبة، وبنت ناس.

قالت أمه في مكر:

فقط! ماذا عن جمالها يا رءوف؟ هل ستخفي عنا جمالها؟ أم أنك خَجِل؟

تدخلت مروة بشقاوتها المعهودة فقالت:

قلت لك إنها جميلة جداً جداً، قمر والله.

ضحكت الأم وحفظت حياء رءوف الذي أحمرَّ وجهه، وقالت:
ربنا يقدم الخير يا رءوف، ربنا يسعد قلبك يا ابني، توكل على
الله وربنا ييسر الأمور كلها، إن شاء الله.
رد، وقد زادت فرحته، فقال ممتناً لوالدته:
لا حرمننا الله منك يا أمي، ربنا يكرمك ويكتب لنا الخير
دائماً.

تدخلت مروة كعادتها فقالت:
وكان كل شيء تم والحمد لله، ما هذه الطيبة وهذا الرضى يا
ست ماما؟

لازم يا سيدي تعترف للبنت بمشاعرك، وإلا فلن تجدها بعد
ذلك، فمن في مثل صفاتها لا ينتظرن طويلاً، سيأتي أحدهم
ويخطفها منك.

ارتبك رءوف وقال:
لم تنته دراستها بعد، أمامها سنة كاملة، وبعدها نرى ماذا
نفعل.

أكدت الأم على رأي مروة فقالت:
أختك معها حق، لا بد أن تظهر لزميلتك اهتمامك ونيتك، حتى
تعرف مكانتها عندك، وقد تكون مرتبطة أصلاً وأنت لا تدري.

ردت مروة فقالت:

لا، ليست مرتبطة.

سألها والدتها:

وكيف عرفتِي؟ هل سألتها؟

قالت مروة:

لم أسألها، لكنني أحسست بذلك أثناء لقائي بها.

قالت الأم لرءوف:

لا بد يا رءوف أن تخطو خطوة إليها ولا تنتظر حتى تنهي دراستها، وبعد التخرج إن شاء الله ترتبط بها بطريقة رسمية.

اقتنع رءوف برأي والدته وأخته، وقرر أن ييؤح لداليا بمشاعره تجاهها، ترَقَّب فرصة مناسبة تأتيه فيها الشجاعة ليعترف لها، لكنه يتردد كثيراً ويخجل كثيراً. تراه داليا فيتملكها الغيظ منه، فهو دائم النظر لها، فتبادله بنظرات حانية مشجعة، تفتح له الباب ليقول بدون خوف، لكنه خذلها كثيراً إلى أن جاء يوم وكان الجو هادئاً فقرر أن يتخلص من عقدة لسانه، فقال:

دكتورة داليا، لو سمحت، ممكن أتكلم معك في أمر خاص، بعيداً عن العمل؟

نظرت له مرتابة، وقد حاولت تخمين ما يضمّره، فقالت:

تفضل يا دكتور رءوف.

استجمع ما لديه من شجاعة، وقال في حرج بدا في نظرة
عينيه للأرض:

هو سؤال شخصي، وأرجو ألا أكون متطفلاً، هل أنت مرتبطة؟

ابتسمت في خجل، وصمتت للحظات، ثم قالت:

لا، لست مرتبطة.

تهلل وجهه فرحاً وملاً بالتبسم وجهه ولمعت عيناه في سرور،
وتشجّع أكثر وقال:

إذن فاسمحي لي أن أقول: أنى أُكِنُّ لك مشاعر جميلة وأنا
معجب بك منذ رأيتك أول مرة هنا.

علتها حمرة الخجل فنظرت في الأرض، ولم تنطق فأدرك
حالتها وقال:

أتمنى أن يكون لي قبول عندك يا داليا، وأن تبادليني نفس
المشاعر، ساعتها سأكون أسعد الناس.

أربكها بكلامه المفاجئ، وقد كانت تنتظره طويلاً أن ينطق به،
لكنه لمّا تأخر عنها يئست منه، فلم تنتظر منه شيئاً، فلما أنطقه
الله وفاجأها أحجلها، لكنها تماكنت نفسها، وقالت في أدبٍ
وذوق، لا يفارقها أبداً:

أكيد حضرتك شخصية محترمة، وأنا أقدرك جداً.

صدمه ردها، فقطَّب جبينه عابساً وقال:

لم أفهم، ماذا تقصدين؟

ألا يوجد لديك مشاعر إيجابية تجاهي؟

رفعت رأسها وهي مبتسمة وجبينها الأبيض زاد بريقه بعدما

مالت عليه خصلة من شعرها الأسود الفتان فزادته جمالاً وفتنة،

ثم نظرت في عينيه نظرة هائلة وقالت:

أكيد فيه مشاعر إيجابية طبعاً.

أحس بالراحة فابتسم لها، وابتسمت له على استحياء، وشعرا

بسعادة وكأنهما ملكا الدنيا بما فيها.



قراء

بعد عودته داهمته الأفكار وتصارعت في رأسه فأصابته
بالصدع، أحس بثقلها مما يغلي بداخلها، تأرقت عيناه ففارقه
النوم، ولبث لياالي وأياماً بين النوم واليقظة، لم يستطع تحمل
حالته، فقرر أن ينهي صراع أفكاره، يشفي وساوس قلبه.

ذهب لوالدته، فرجت به، وفرحت بقدمه، رآته عابساً
مهموماً، شغل بالها فهَمَّت بسؤاله لكنها خافت من ردة فعله،
الصادمة أحياناً، فقد كان مندفعاً بعض الشيء في كلامه، لا يزن
كلماته قبل أن يتفوه بها، وقد يعتبر ذلك تدخلاً منها في شؤنه
ويلتزم الصمت معها فيكتم همّه بداخله، حتى يصير بركاناً ينفجر
في أقرب المحيطين به، ففضلت أن تتركه لنفسه فإن أحب باح
وإن أحب كتم.

أدخلته الغرفة الكبيرة المطلّة على ناصية الشارع، حيث الهواء
المنعش قبل المغيب، جلس تجاه النافذة ومد بصره في الأفق،
فغاب للحظات حتى أفاقه صوتها حين قالت:

أهلاً بك عصام كيف أمورك؟ لم أرك منذ فترة.

استدار برأسه نحوها في هدوء، نظر في عينيها يتأكد من صدق لهفتها عليه، وجدها مبتسمة ابتسامة حانية، باعثة على الأمن والطمأنينة، تشجّع لما رأى فيها ملامح الأمومة التي افتقدها منذ سنين، أعادته طفلاً مرة أخرى لكن للحظات قليلة، أحسّ فيها باحتياجه إليها أو إلى أي شخص يحنو عليه، قطع نظره لها وقال:

الحمد لله يا أمي، سامحيني، كنت مشغولاً الفترة الماضية.

اتسعت بسماتها، فملأت خديها وخمّنت أن وراءه شيئاً ما يريد أن يبوح به لكنه يفتقد للثقة والطمأنينة، فمنحته إياها وقالت:

ولا يهملك يا حبيبي، أنا لا ألوّمك على غيابك لكن ما يهمني هو أن أطمئن عليك، أنت أول فرحتي يا عصام وأتمنى لك الهناء وراحة البال.

أحس بدفء كلماتها فصَدَّقَها، كم كانت المسافة بعيدة والسنوات عديدة؟ فلم يسمع لمثل تلك الكلمات الدافئة منذ زمن، أحس بدموع تتجمع في عينيه تنوى الهرب لكنه عاجلها بقسوته فجفّت وانسحبت لسجنها مرة أخرى، أراد أن يمد الحوار مع أمه عساه أن يستريح فقال:

كنت الأسبوع الماضي عند والدي، كان حفل زفاف أختي.

تفاجأت ماجدة، فقالت:

والله! ألف مبروك يا عصام، وإن شاء الله نفرح بك قريباً.

أرادها أن تفتح هذا الموضوع فكان كما أراد، أظهر بعض التردد والتمنع بحجة العمل، حتى لا تظن أن الأمر مدبراً من قبل، رآته لم يغضب كعادته، بل رآته متجواباً في الحديث معها، فحاصرته بحنانها ودفء أومتها القديم، فقالت له بتلهف:

لا بد لك يا بني من حسم هذا الأمر فقد كبرت، فلا تضيع سنوات أخرى وحيداً أعزب، والعمل لن ينتهي أبداً، لكن الزواج له وقت رواج ووقت أفول، فاغتنم رواج الفرص قبل أن يفرض الواقع عليك فرصاً لا تحبها.

قرر يا بني، وإن شئت جلبت لك أكثر من عروس تسر قلبك وعينيك، ذلك لو لم يكن هناك من يشغل قلبك بالطبع، ولت قلبك مشغولاً فنسعه بمن يحب.

قالتها بدفء وإخلاص ومحبة كان في أمس الحاجة إليها، كانت مُقنعة بكلامها، صادقة في شفقتها وحنانها، فهي أمه حتى وإن جفت أحياناً، صمت برهة قبل أن يفصح لها عن مكنونه، ثم قال:

هناك من أريد أن أخبرك عنها يا أمي، لكنني لا أريد التعجُّل.

قالت في لهفة أفقدتها بسمتها:

قل يا عصام، لكن اعلم ألا شيء سيبتظرك، إن لم تبادر أنت سيبادر غيرك.

أراد أن يزيح جبلاً من فوق كتفيه، فاستجمع شجاعته وقال:
هي ليست غريبة عنك، ابنة أعز صديقاتك.
سماحته وغموضه استفز غضبها، فقالت:
قل بصراحة من هي، دعنا من الغازك ودهاليز أفكارك الآن.
قال:

داليا بنت صديقتك، الخالة أميمة.

صعقتها المفاجأة فأخستها، فلم تسرها كما توقع هو، كانت
تريد له أن يرتبط بواحدة من العائلات الثرية، التي تعرّفت على
البعض منها في غربتها، فظلت شاخصة لا تتحرك حدقتها
للحظات، ثم عادت لتركيزها وقالت:

داليا بنت أميمة ومنير؟

أكد كلامها قائلاً:

بالضبط، هي يا أمي، ألم ترينها أثناء زيارتك لهما؟ أم أنها لم
تعجبك؟

فكّرت في كلماتها قبل أن تلقيها فجأة، فلا تعلم حتى الآن ما
مدى قوة اقتناعه بهذا الاختيار، فحاولت أن تستعلم بطريقتها، فقالت:

رأيتها بالطبع، لكن لم أتحدث إليها، ولم أستطع أن أكوّن رأياً
عنها، قد يكون لك أنت رؤية ورأي من خلال زيارتك، لكن
ألا تبدو صغيرة على مثلك؟

ضحك عصام وقال:

ليس كما ظننت، هي في السنة الأخيرة لكلية الصيدلة لكنها تبدو صغيرة الجسم، حتى إن أختها الصغرى قد فاقتها في الجسم وتبدو أكبر سنًا منها.

حاولت أن تضع له بدائل مغرية ترى كفتها راجحة على داليا، فقد كانت ترى أسرة أميمة من الطبقة المتوسطة والتي لا تناسبها الآن بعدما خرجت هي من هذه الطبقة لعالم الأغنياء وتحاول الآن أن تبني علاقات معهم وتبرأ مما نشأت عليه، فقد غيرتها مغريات المال في الغربية، وظهر ذلك في ملبسها ومكياجها وعطورها، وطريقة كلامها، واستهجانها لمفردات تتردد في الطبقة التي نشأت هي فيها، فتحاول الانسلاخ منها ولغير رجعة إليها، وتحاول أن تتخذ ولدها الأكبر عصام مطية لها، للوصول لطبقات أرقى وأغنى، من وجهة نظرها هي، فلمّا رأته يحاول الارتباط بداليا وأسرتها، حاولت أن تشتت رغباته، وتغريه بالكثير من المال والجاه والجمال، في خياراتٍ أخرى، فقالت:

إن كانت لا تقنعك تمام الإقناع، فهناك غيرها من ذوي الحساب والنسب، فقد تعرفت على أسر ممتازة أثناء السفر، ولم تنقطع صلتى بهم، ولديهم فتيات في غاية الجمال والأدب، ممن يرحن البال ويملأن العين.

قرأ أفكارها، فقد كان يعلم مدى حبها لنفسها ومصلحتها قبل
مصلحة الآخرين حتى لو كانوا أبناءها، لكنها أمه، فقرر إنهاء
شلال أفكارها المتدفق، وقال في حزم:

بل مقتنع جداً، وأرجو منك أن تنقلي الخبر لوالدتها، لنرى ردة
فعلهم.

امتعضت وعبست، بعدما رجعت بخفي حنين، نظرت إليه
طويلاً لعله يتراجع، أو يستمع لكلامها مرة ثانية، وجدته حازماً
عازماً غير متردد، فاستسلمت وقالت:

فليكن ما تريد يا عصام، فما يهمني هو سعادتك فقط يا بني.
سأذهب لأميمة وأفتحها في الأمر، كن مطمئناً.



أملام

تطورت علاقتهما، فبعد أن صرَّح لها بإعجابه وبادلته نفس المشاعر، صارت تنمو في قلبها أزهار وورود تكبر بلقائهما وترتوي بحديثهما فتفتح ليخرج منها رحيقاً، يعطر الجو و السماء، يلتقيان فلا يكادان يفترقان، لا يملآن من الكلام في كل شيء وأي شيء، لا تنزل عين أحدهما عن عين الآخر، كأنما يحرسها من أن يراها غيره أو تقع على غيره، ومع نهاية ساعات العمل تؤلمهما ساعة الفراق، فلا يكاد رءوف يتركها، فيذهب معها قريباً من منزلها حيث تسكن، ويودعها بابتسامة حانية، ولا تبخل عليه دالياً بوداع أشد حرارة من وداعه بنظرات ملؤها الشغف والشوق، من عينين سوداوين لطالما سحرتاه بنظراتهما، فتتركه بنظرة طويلة صامتة ثم تدير وجهها تلقاء منزلها ولا تفارقها الابتسامة، ولا تكاد تصل حتى يتصل بها مساءً على الهاتف بالمنزل ليطمئن عليها، وغالباً ترد هي على الهاتف، فقد اتفقا على مواعيد محددة للتواصل في أوقات خاصة يكون الجو فيها مناسباً للمكالمات بعيداً عن التوتر والقلق، ليعبر لها عن مدى شوقه لها ووحشته بدونها.

وما إن تبسم الشمس للأرض فتمنحها أساور من أشعتها الذهبية حتى تستعد داليا للذهاب للصيدلية، فترتدى ملابسها قبل أن يستيقظ البقية وتتناول إفطارها على عجل وهي واقفة على أطراف قدميها لا تستطيع الجلوس، فكل ما فيها يأبى تراخيها، قلبها يدق أجراس المسير وعقلها مزدحم بأفكار الكلام وعيونها مليئة بمشاهد اللقاء، فلا تكاد قدماها تحملها، تحس أنها تطير فوق المازين، أو أن نسيماً يحملها فوق الزحام، فلا تشعر بطول المسافة ولا جهد المسير، فتتطلق بسرعة لتلقاه مثلها في مثل حالها قد تصيب عرقاً من فرط سرعته للقاءها، فتتلاقى وجوههما المشتاقة التي تلمع عليها حبات العرق، وتتلاقى نظرات عيونهما اللامعة التي ما إن ترى صورته أو صورتها حتى تطبعها وتحضنها بين الجفون وتظلل عليها بالرموش، فتهناً بوجودها في مقلة الحبيب هناءً لا يغيب وتسكن دقات قلبيهما المتسارعة عندما يتلاقى الأليفان، فتهداً وتطمئن إلى حين.

بدأت الدراسة، وها هي داليا في السنة الخامسة لكلية الصيدلة، كانت قد اتفقت مع رءوف أن يتقدم لخطبتها بعد الانتهاء من الجامعة حتى لا تشغل عن دراستها، فقد حصلت على تقديرات ممتازة في السنوات الأربع الماضية وفي ترتيب متقدم أيضاً بين زملائها، وتريد أن تحافظ على هذا التفوق حتى تستطيع أن تحصل على فرصة للتعيين في الجامعة في هيئة التدريس.

كان دأبها الجد والنشاط والالتزام في الدراسة وكانت معها رفيقتها سوزان ثروت، تشاركها هذا الالتزام، انشغلت عن الصيدلية فانقطعت عن التدريب فيها، اشتاق لها كثيراً فقد تعود على رؤياها ولقياها كل يوم، لم يستطع صبراً على غيابها فذهب للكلية يراها بين الحين والآخر، ينهل من جمال عينيها ويستضيئ بنور جبينها الساطع، ويستمد من ابتسامتها المشرقة طاقة تساعده على المضي في الحياة لبناء المستقبل الذي سيجمعهما سوياً بعد شهر.

كانت فَرِحَةً بتردده عليها في الكلية، يجلسان سوياً بين المحاضرات يتحدثان ويضحكان فيرتوى ظمأ روح كل منهما من نهر الآخر، لاحظت سوزان نظراتهما وسعادة داليا عندما تراه، فتواترت قليلاً حتى لا تفسد على المشتاقين لحظة الأنس باللقاء، وبعد أن فارقتها رءوف وذهب جاءت لصديقتها وتعلوها ابتسامة ماكرة دون كلام، لمحت داليا في عيون سوزان أسئلة كثيرة لكنها لم تفصح عنها مخافة التطفل، لكن داليا ما كانت لتخفي أسرارها عن أعز رفيقاتها بل وتستنير برأيها فيما هي مُقَدِّمة عليه. أخبرتها بمشاعرها تجاه رءوف وأيضاً بمشاعره تجاهها التي باح بها بعد صبر طويل وجهد جهيد، أخبرتها بالتفاصيل كلها وحالتها يدي أكثر مما تحكي، فالعيون تلمع ودقات القلب تكاد تسمعها المارة، والخدود أصابها الاحمرار والأنفاس تتسارع وترتجف، ثم سألتها وقالت:

ما رأيك فيما سمعتِ يا سوزان؟

ضحكت سوزان ضحكة كبيرة بصوتٍ عالٍ أثار دهشة داليا،
فما كان منها إلا أن قالت لسوزان:

ما لكِ يا ابنتي؟ أنسيتِ أننا في الكلية ولسنا بمفردنا؟
فلتخفصي من صوتك قليلاً، ثم ما الذي يدعو للضحك
والسخرية من كلامي؟

تمالكت سوزان نفسها قليلاً حتى لا تغضب داليا، ثم قالت:

أضحك من سؤالك عن رأيي يا داليا، هل تظنين أن رأيي مهم
بعد وصفك رءوف بهذه الطريقة؟ والأهم من هذا هو حالتك
أنت وأنت تحكين، فكل جوارحك تكلمت قبل لسانك، عينك،
خدودك، أنفاسك، ولا تحتاجين لرأي أي أحد يا داليا، إن حالتك
هذه لها مصطلح واحد فقط ووصف واحد ليس له ثانٍ إنه
الحب يا داليا، لقد وقعت يا عزيزتي في نهر الحب فهنيئاً لك
وويل لك.

أقلقته عبارات سوزان ولغتها الغامضة بعض الشيء، خصوصاً
كلماتها الأخيرة، فقد قالتها وهي حزينة، فتوجست داليا وهَمَّت
لتطرد خوفها، فسألته:

ماذا تقصدين يا سوزان ب هنيئاً لك وويل لك؟

نظرت لها سوزان بمحبة وحنان نظرة طويلة، ثم قالت:

هنيئاً لك بهذا الحب الحقيقي يا داليا، فالحب الحقيقي نادر الحدوث ويندر أن يتكرر أيضاً، وما الحب الصادق إلا خفقان قلبك عند رؤية من أحببت أو ذوبان أذنيك عند سماع صوته أو حتى سماع اسمه وقت غيابه، وما الحب الصادق إلا بسمات تتدفق على وجوهنا لا نستطيع مداراتها عند رؤية من نحب، وما الحب الصادق إلا لمعان عيوننا لتبوح بأسرارنا على غير قصدٍ منا.

لاحت على وجه داليا ابتسامة كبيرة واندهاش أكبر وكأنها تستمع لسوزان لأول مرة في حياتها، فقالت لها:

يا سلام يا سلام على الرومانسية والرقّة، ما هذا الجمال يا جميل أتقولين شعراً دون أن أعلم؟
فماذا إذن عن «ويل لك»؟ أتحفينا يا شاعرة.

ضحكت سوزان من كلام داليا، وقالت:

هذا الكلام من وصفك أنت يا داليا، وليتني كنت شاعرة، فالشعراء مرهفو الحس والشعور ويتمتعون بالذوق العالي.

أما عن ويل لك، فهو أن الويل كل الويل لمن وجد سبيلاً للحب الحقيقي ثم أضاعه من يده، سواءً بترددٍ أو بعنادٍ أو بخوف، فالحب الحقيقي كما قلت لك نادراً ما يتكرر، وإن فقدناه تجرعنا بعده مرارة لا يذوقها غير من أحس به، ولئن كانت

البدائل كثيرة وجميلة فإنها لا تملأ ما فقدناه في قلوبنا أو تضمد جراح أرواحنا، وكأن هذا الحبيب الذي دخل القلب أولاً كأنما دخل وأغلق القلب من الداخل وألقى مفتاحه في أعماق الأنهار فلن يجده أي شخص بعده مهما حاول مجتهداً أن يدخل ذلك القلب وينشر فيه دفء الحب وأنواره، فالويل لمن أضاع حبيباً كان في يوم من الأيام حبيباً حقيقياً.

هل وصلتك أفكاري؟ أم أن هناك ألغازاً أخرى تريدون فكها؟

ابتسمت داليا في قلق، ونظرت لسوزان وقالت:

وصلت يا سوزان، تفاجأت بعمق أفكارك رغم أننا صديقتان منذ سنين.

انتهى حوارهما عن الحب والرومانسية، ثم رجعتا للمدرج لاستكمال باقي محاضرات ذلك اليوم، لكن كلمات سوزان مازالت ترنُّ في أذني داليا كالجرس، أو كناقوس خطر، فقد كانت تتوقع ألا يمر موضوع رءوف مرور الكرام على أبيها وأمها، فدعت الله أن ييسر ذلك الأمر إن كان خيراً لها.



سباق

بعد أن يئست من إقناع عصام بما تريد، رضخت لإرادته مخافة خسارته، خصوصاً بعدما تحسنت العلاقة بينهما بعد سنوات من الجفاء والشقاق ففضلت أن تفعل له ما يريد، لكنها كعادتها تنسب لنفسها كل فضل ومنة فقررت أن تتكلم مع أميمة وكأنها هي من أوحى لعصام أن يرتبط بابتها داليا مراعاة للصداقة القديمة التي تجمعها بها.

كانت ماجدة قد اتصلت بأميمة هاتفياً تطلب زيارتها للحديث معها في أمر هام، حاولت أميمة أن تعرف ما هو الموضوع؟ لكن ماجدة أخبرتها أنه لا يُجدي أن تتحدث فيه عبر الهاتف لذلك طلبت زيارتها للحديث مشافهة معها واكتفت بأن تقول: إنه خير بإذن الله، حتى لا تتوجس أميمة وتقلق.

جاءت في موعدٍ تم تحديده بعد العصر حيث منير في عمله بالمركز والبنات تشغلن المذاكرة وليس هناك من يقطع حديثهما، وما إن جلست ماجدة بعد أن رحبت بها أميمة حتى سألتها أميمة:

خير يا ماجدة؟ أثرت فضولي.

كان فعلاً الفضول بادياً في عيني أميمة وهذا ما لاحظته ماجدة
التي حاولت أن تهدأ فضول أميمة، فقالت لها:

خير يا أميمة إن شاء الله.

الموضوع وما فيه يا ست الكل: إنني أريد أن تزاد روابطنا أنا
وأنت.

صمتت أميمة، وظهرت عليه علامات الاستفهام فعاجلتها
ماجدة وقالت:

قبل أن تقولي لم أفهم، سأوضح لك.

كما تعرفين يا أميمة فابني عصام الآن في سن الزواج وقد
ألححت عليه كثيراً أن يتزوج بفتاة طيبة من بيت طيب نعرفها
ونعرف حسبها ونسبها وكان متردداً كثيراً يريد أن يؤجل زواجه
لما بعد الدكتوراه لكنني أصررت عليه أن يرتبط الآن ثم يرتب
أموره مع خطيبته كما يشاء.

ارتبكت أميمة قليلاً لكنها لم تُظهر ذلك، وقالت:

ربنا يرزقه بنت الحلال إن شاء الله يا ماجدة، عصام شاب
مجتهد وطيب ويستحق كل خير.

ردت ماجدة مبتسمة:

وجدناها والحمد لله.

فقد قلت له: يا عصام، إذا كنت تبحث عن الأصل الطيب
والتريبة الحسنة فلن تجد خيراً من بيت أميمة صديقتي وحييتي
وبنائها الحلوات.

اتفقنا نخطب داليا بنتك الكبيرة بناءً على رغبته هو-فأنا لا
أعرفها تمام المعرفة-إذا لم يوجد مانع عنكم طبعاً.
تهلّل وجه أميمة سروراً وزاد نوراً، فابتسمت وقالت:

يا خبر يا ماجدة! الشرف لنا طبعاً، عصام تتمناه أي أسرة
محترمة فلا شيء يعيبه، لكن الموضوع يحتاج لمشاورة منير
وداليا في الأمر.

ردت ماجدة:

طبعاً هذه أمور بديهية وطبيعية خذوا وقتكم في التفكير،
ونتظر ردكم يا أميمة، واسمحي لي أن أنصرف الآن فهناك ما
أقوم به.

بعد أن ودّعتها أميمة عادت فرحةً مُغَبّطة وظهرت فرحتها
على ملامحها، فلم تكن تُحسن كتمان أي شيء سواء أكان فرحاً
أو حزناً، فعادت لمطبخها تغنى وتتمايل.

وصلت داليا من الجامعة فسمعت صوت أمها تُغنى، دخلت
حيث الصوت ناحية المطبخ، وجدها مريحة على غير عاداتها
الجادة الجافة، اندهشت فسألته وقالت:

ما شاء الله على الهناء والسرور، يا ترى ما سبب سعادتك يا ست ماما؟

استدارت أميمة مبتسمة ونظرت في عينيها نظرة عميقة، وقالت:

كل خير يا جميل أنت، يا رب أنت أيضاً تفرحين مثلي، يا داليا. لم تُعلق داليا على كلام أميمة، اكتفت بتقديم المشيئة وذهبت لتبدل ملابسها.

بعد قليل وصل منير من عمله وتبعته رانيا أيضاً، وخلال دقائق تم تحضير الطعام وجلس الجميع لتناوله، وأثناء تناول الطعام كانت أميمة مازالت كالأطفال تبسم وتضحك دون أن تبدي سببا لهذا، سألتها منير عن سبب حالتها، فقال:

خير يا أميمة؟ يا ترى ما سبب انبساطك هكذا؟ ربنا يستر.

عبرت فقطبت جبينها في حين ضحكت داليا ورانيا مما استفزها أكثر، فقالت:

ماذا تقصد بـ«ربنا يستر»؟

رد منير وقد أدرك أنه أغضبها فحاول ترضيتها، فقال:

لا تغضبي مني لكن كلما رأيته هكذا أكتشف مصيبة وراء ذلك، لهذا أتوجس خيفة كلما رأيته سعيدة وأتمنى هذه المرة تكون مختلفة.

سحبت نفساً طويلاً وأخرجته، ثم قالت:

رغم سخريتكم هذه التي تجعلكم لا تستحقون الأخبار السارة لكن سأكون أنا الأفضل وأقول لكم: إن هناك من تقدم ليخطب داليا اليوم.

كان وقع المفاجأة كبيراً ومتبايناً في ردة فعله، بين منير الذي ظهر فرحاً ورضاه بالأمر وبين رانيا التي اكتفت بالنظر لداليا تغمز لها بطرف عينيها، وبين داليا التي ظهر عليها الغضب فصمتت لبرهة تستوعب ما قيل، ثم قالت:

ومن قال إنني سأقبل الخطوبة الآن؟ ما زلت أدرس في الجامعة ولست متفرغة لهذه الأشياء.

رد عليها منير فقال:

انتظري قليلاً يا داليا لنعرف من هو أولاً، قللي يا أميمة من هو؟

ردت داليا فقالت:

فليكن من يكون فلن أقبل بهذه الخطوبة.

تدخلت أميمة فقالت بطريقة مستفزة:

(يتمنعن وهن راغبات) كل البنات يقلن مثل هذا لكن ما خفي كان أجمل.

اندهشت داليا من أسلوب أمها المستفز وكأنها ليست أمها بل وكأنها هي ليست ابنتها، إنها تتعامل معها كأنها نذلها لكنها لم تستطع النطق ولم تمهلها أميمة حتى ترد، فأكملت أميمة حديثها الصادم فقالت:

هو ليس غريباً علينا إنه عصام.

كانت المفاجأة هذه المرة مذهلة، فقد هش منير وبش، لكنها أذهبت عقل داليا، للحظات فأفقدتها النطق ولم تفق إلا على صوت أمها:

مبروك يا داليا يا حبيبتى.

ردت داليا بعصبية ظهرت في أنفاسها المختنقة، فقالت:

مبروك على ماذا؟ أنا لم أوافق أصلاً على المبدأ.

والشخص نفسه لا أوافق عليه وأنتِ تقولين (يتمنعن وهن راغبات)، راغبات في ماذا؟ أنا لا أطيقه أصلاً.

تدخل منير:

مالك يا داليا؟ عصام شاب محترم وألف بنت تتمناه.

قالت وقد زاد انفعالها:

لست من أولئك الألف فليذهب لإحداهن أفضل له.

تركتهما بعد جملتها الأخيرة وذهبت لغرفتها وأغلقت بابها، تركتهما مندهشين من ردة فعلها العنيفة، فتوجه منير لأميمة

وسألها عن أصل الموضوع فأخبرته بالحوار الذي دار بينها وبين
ماجدة أم عصام، فلامها لأنها تعجلت في عرض الموضوع على
داليا فهي تعلم كم أن داليا عنيدة وكان لا بد أن يأتي هذا الأمر
بالتدريج، لكنه في النهاية قال لأميمة أن تخبر ماجدة بأن يتم
إرجاء هذا الموضوع بعد انتهاء الدراسة في الصيف القادم
وتخبرها بأن منيرا موافق من حيث المبدأ حتى يطمئن قلبها
وقلب عصام فلا يصرف نظره عن داليا ويذهب لفتاة أخرى ليظل
هكذا عنده أمل الارتباط فليبق وليتتظر، والأيام كفيلة بأن تُلين
رأس داليا اليابس.



صراع

دخلت رانيا لغرفة أختها وجدها جالسة على السرير وقد
نصبت ركبتيها ووضعت رأسها بينهما، نادتها فرفعت رأسها،
قالت لها:

لا تحزني ولا تغضبي يا داليا فقد أرجأ والدك الأمر كله حتى
تنتهي الدراسة.

لكن رانيا لم تكن تدري أن السبب الحقيقي لغضب أختها
ليس هو الدراسة فحسب بل المشكلة الكبرى في الشخص نفسه،
فقالت داليا لها:

ماذا يعنى أن الموضوع تم تأجيله للصيف؟ هل هذه موافقة
ضمنية من أبيك وأمك التي طارت من الفرحة؟
سألتها رانيا:

وهل أنت ترفضين عصام نفسه؟
نظرت لها داليا باستغراب وكأن رانيا لا تعلم من عصام هذا،
فقالت:

يا سلام! ألا ترين عصاما يا رانيا؟ ألا ترين كم هو سمج ثقيل
الظل؟

ردت عليها رانيا فقالت:

لا والله، أنا تعاملت معه عن قرب وأراه شخصية ظريفة
خدومة جداً،

رمقتها داليا بعينها وقالت:

إذا كان يعجبك هكذا فلتتزوجيه أنتِ إذن.

ردت رانيا فقالت:

هو اختارك أنت وليس أنا.

ثم ما ترينه سماجة منه قد تكون اهتمام بك ومحاولة للظهور
أمام عينيك لينال منك الرضا، فلماذا لا تنظرين للأمر بصورة
مختلفة؟

يئست داليا منها وإن كانت لا تُعوّل عليها من الأساس في
شيء، فقد كانت رانيا لا تتحمل مسؤولية أي شيء وتعتبر نفسها
البنيت الصغرى الدلوعة رغم بلوغها لسن العشرين، أنانية وتعمل
لمصلحتها فقط ولا ترى الآخرين إلا إذا احتاجت إليهم.

وكيف لفتاة مثلها أن تُقدّر ما تحمله داليا من هم وحزن،
وكيف لها أن تستوعب علاقتها برءوف الذي لا يأتي من ورائه
نفع لرانيا، بخلاف عصام الذي يمنحها التأييد والدعم في
الجامعة الذي لولاه لتعثرت فيها سنوات أخرى.

كان اليوم التالي لهذا الحدث هو يوم الجمعة فلم تقابل
سوزان، بل اتصلت بصديقتها سمر القرية منها، تحدد معها

موعداً للقائها في بيتها وبالطبع رحبت بها سمر فقد كانتا صديقتين منذ الطفولة رغم تباين شخصياتهما مع توالي السنوات.

حكّت لسمر ما حدث بالأمس حكّت وهي منفعة ويتملكها الغيظ، صدمت سمر المفاجأة فحاولت أن تداري تأثيرها على ملامحها، كانت تتوقع مثل هذا أن يحدث، لكنها كانت تتأمل ألا يحدث فكل شيء ممكن، وكانت على علم بما بين داليا وبين عصام من توتر وذلك مما ذكرته لها داليا من أحداث سابقة من قبل فقد كانت تعلم أن داليا لا تقبل عصاماً ولا ترتاح له، لكن داليا لم تكن تعلم عما تُكنّه سمر لعصام وما دار بينهما من أحاديث ولقاءات أيام دراستها في كلية الآداب وحتى الآن. لم تكن تعلم أن صديقتها المقربة قد أحبتّه وتقريباً لمَحّت له أو أفصحت له في أحيان أخرى عن إعجابها به.

ولم تكن هذه المشاعر التي تخفيها سمر لتغضب داليا بالعكس فليّته يرتبط بسمر ويتركها هي وشأنها لترتبط بمن تحب.

كانت سمر تشعر تجاه داليا بمزيد من الغيرة التي تجيد إخفاءها، فداليا جميلة جداً وشخصيتها تجذب الكثيرين نحوها لما تمتلكه من شخصية مثقفة منطلقة لها كيائها، فكانت ترى أن تفوز هي بعصام، لكنه للأسف كان من هؤلاء الذين يستمتعون بالعذاب، فكلما تمّنع عليهم أمر زاد تعلقهم به، فإن فازوا به أدركوا بُغيّتهم، فكان عصام من هؤلاء وكلما صدته داليا بطريقتها

الجافة وأعرضت عنه تعلّق بها أكثر وحارب طويلاً من أجلها ليفوز بها ليثبت لنفسه أولاً ولآخرين أنه استطاع أن يصل لمبتغاه، فلا شيء يهزمه أو يهرب من يده.

دارت كل تلك الأفكار في رأس سمر أثناء حوار داليا معها، انتهت داليا من كلامها وسألتها عن رأيها، فما كان من سمر إلا أن تحاول محاولة أخيرة لإبعاد عصام عن طريق داليا نفسها، بعد أن فشلت في إبعاده هو عن داليا من قبل، فقالت لداليا:

افعلي ما تشائين يا داليا لا تجعلي أحداً يجبرك على شيء، وإن كان عصام لا تقبلينه فلا توافقي على مثل هذه الخطوبة فليذهب لغيرك.

نظرت لها داليا وقالت:

لكن أبى وأمي موافقان حتى رانيا موافقة.

قالت لها سمر وقد أغاظها ما سمعت:

هؤلاء كلهم رأيهم يأتي بعد رأيك أنت، موافقتهم لا تهم ما دمت أنت رافضة، ولا بد من التصميم على رأيك يا داليا إنها حياتك أنت وحدك.

والحق، أن سمر اقد قالت الحق، قالته ليس حباً في صديقتها أو حرصاً على سعادتها بل قالت ما قالت لعل وعسى أن تفلح داليا في رفضها إياه فلا يجد حينها بدم أن ينظر لسمر بعد أن

يكون أحس بكسر الفؤاد وفى أمس الحاجة لمن يجبر كسره
فيلجأ لأول الحاضنين والمشفقين عليه وبالطبع ستكون هي
(سمر) أول من يللم جروح قلبه فتلازمه ولا تتركه حتى يعرف
قدرها ويخطب ودها.

هكذا كانت تمنى نفسها، فأحياناً عندما نفشل في الحقيقة
نلجأ للخيال والأوهام نبنى فيها حياة أخرى خيالية حسب ما
نهوى لنريح بالنال لفترة أو لعلنا نُقبل عليها كالمُخَدَّر لنغيب عن
الوعي وعن صدمات الواقع الذي يصدمنا بفشل أمانينا وما
خططنا دوماً لتحقيقه.

وكذلك كانت سمر تتجرع تلك الجرعات من مخدرات الوهم
والخيال لتعيش في حياة مستقبلية فيها عصام يمسك يدها ويعلمها
خطيئة له ثم زوجة ترافقه في مسيرة حياته.

سمعت داليا من سمر رأيها وسرّها أن تسمع رأياً يوافق
قناعتها فشكرت لسمر تأييدها لها ووعدتها أن تجاهد حتى لا
يفرض أحد عليها رغبةً أو أمراً لا تريده.

كانت أميمة ومنير في قمة سعادتهما بعصام، يريانه ولداً لم
يُرزقا به، يعوضهما عن حرمان الابن ويكون جديراً بإحدى
بناتهما-وقد اختار داليا-فله مكانة اجتماعية كبيرة ومستقبل
واضح مضمون ومأمون.

أما داليا فكانت في حرب نفسية كبيرة مزقتها أشلاء، فكلما
تخيل نفسها مع ذلك العصام يملكها الغضب والنفور من مجرد

ذكر اسمه وصورته أمامها، فكيف يكون زوجها لها يوماً ما ويحل له جسمها فيلامسها وتلامسه، تكاد تتقيأ من مجرد التخيل تدعو الله أن يصرفه عنها ويصرفها عنه، تراه يظهر في أحلامها أو بالأصح كوابيسها، يضحك بضحكته التي تشبه كثيراً ضحكة الممثل عدلي كاسب في فيلم السفيرة عزيزة نعم إنه مثله في ضخامته وتجهمه وعبوسه، نعم بالضبط إنه يشبه كثيراً خاصة في فيلم هجرة الرسول في دور أبي جهل، إلا أن عدلي كاسب ممثل وما ظهر منه ليس شخصيته الحقيقية فهو في أدوار أخرى خفيف الظل ومرح، أما ذلك العصام فلا يمثل فتلك هي شخصيته الحقيقية وطباعه الأصلية التي لن تتغير بتغير الأدوار.

ولو كان القلب ساكناً والبال خالياً لكان يمكن الصبر والتعايش، إلا أن هناك من خطف قلبها وأغلقه بمفتاحه فلن يفتحه غيره ولم يملكه سواه، رءوف، أين أنت يا رءوف؟ ألا تراني وأنا أعاني وحدي؟ فليس هناك تواصل إلا عندما يأتيها لزيارتها في الكلية، فبعد أن كان يتواصل معها عبر الهاتف، خانه ذكاؤه مرة من المرات فاتصل بها ليلاً في ساعة متأخرة بعد أن علم منها أن والدها ووالدتها سيذهبان لحضور إحدى المناسبات الاجتماعية لأحد الأقارب لكنهما جاءا فجأة وبسرعة على غير توقع ورن الهاتف في الساعة الثانية عشرة ليلاً فرفع منير سماعة الهاتف فصدمه رءوف بل انصدم رءوف نفسه لسماع صوت منير والد داليا، وقد ظن أولاً أنها داليا فنادها باسمها قبل أن يعلم من

الموجود على الطرف الآخر ولما صك أذنه صوت منير وسأله:
من أنت؟ وماذا تريد؟ قال إنه رءوف زميل داليا ثم تلثم وارتبك
كعاداته فلم يجد الهروب أو صياغة الكذب فنهره منير على اتصاله
هذا في تلك الساعة المتأخرة، فلا يليق بشخص محترم يحترم
بنات الناس أن يحدثهم في مثل هذا الوقت، وحذره من تكرار
فعلته هذه مرة أخرى ومن ساعتها لم يجرؤ رءوف على تكرار
الأمر وأثر السلامة وابتعد واكتفى بلقاءات في الكلية من حين
لآخر.

فأين أنت يا رءوف كيف الوصول إليك الآن، وهل ستحارب
من أجلي؟ أم ستؤثر السلامة وتهرب؟ سأنتظر حتى أراك لتحمل
عني بعض ما أحمل من أجلك.

تسير شاردة في المنزل بداخلها بركان يكاد ينفجر، وروح تكاد
أن تختنق من هول ما تتوقع، تكتم في نفسها ولا يشعر بها أحد،
فتلك طبيعتها ألا تبدي أحزانها وآلامها فلن يتألم أحد لها أو
يشغل باله بها.

انظرت حتى الصباح لتلتقي بسوزان في الجامعة لتتوكل عليها
وتستند برأيها فهي رفيقتها ولن تخذلها أبداً.



السند

كانت ليلة السبت طويلة وما أطول الليالي على من ينتظر، وما إن أشرقت شمسهِ حتى أسرع داليا للقاء سوزان تنشد فيها العون والسند وسداد الرأي بعدما أَحَسَّت بوطأة الحصار الذي بدأ يحيط بها من بعيد لكنه مع الوقت يقترب ويشد حتى يمسكها فلا يفلتها أبداً.

بخطى سريعة ونفس شاردة وصلت للجامعة تشعر بأرق عيونها وعرق صَبَّ جبينها، انتظرت قليلاً في حديقة الكلية في المكان المعتاد لجلوسها مع سوزان تنتظر وصولها، بعد قليل أطلت سوزان بضحكتها الصباحية المنعشة وطرائفها المعتادة في المواصلات لكنها وجدت داليا على غير عادتها المبتسمة والتي تشاركها نفس المرح والفكاهة، وجدتْها صامتة فأحست بآلمها، سألتها عما بها، فقالت:

ما لكِ يا داليا؟ خير يا ستي؟

رفعت داليا رأسها فنظرت في عيني صديقتها وقالت:

مصيبة يا سوزان.

ارتبكت سوزان وقالت بسرعة:

خير؟ احكي ماذا حدث؟

داليا:

عصام تقدم يخطبني رسميا والبيت كله موافق تقريباً.

صمتت سوزان قليلاً تفكر، ثم قالت:

وأنت كيف كان ردك؟

داليا:

رفضتُ طبعاً لكن بحجة الدراسة وعندما قلت أنني لا أقبله قامت الدنيا ولم تقعد، وكان قرار والدي النهائي أن يتأجل الموضوع للصيف.

لكن والدي ووالدتي وحتى رانيا كلهم موافقون ويرونه فرصة لا تعوض، ولا أدر ماذا يدور في الخفاء تجاه هذا الأمر.

كانت سوزان تنصت لها بتركيز شديد بدا واضحاً على عينيها التي لم تنزل عن عيني رفيقتها وهي تتحدث، فقد كانت عيون داليا مملوءة بالدموع التي تأبى أن تنزل من فرط الكبرياء لكن سوزان أشفقت عليها لما رأتها هكذا، فقالت:

وهل يعلم رءوف بما حدث؟

قالت داليا:

لا، لم أخبره فلا وسيلة لإخباره بعد الصدام الأخير مع أبي
كما تعلمين.

قالت سوزان:

لا بد إذن أن يعلم وأن يتحرك بسرعة ويفعل شيئاً إيجابياً
يساندك.

نظرت لها داليا بيأس، وقالت:

وماذا عليه أن يفعل يا سوزان؟

قالت سوزان بعصبية:

عليه أن يفعل الكثير، عليه أن يتقدم لخطبتك رسمياً إن كان
صادقاً في مشاعره نحوك.

داليا:

نعم، لكنه قال إنه مستعد لذلك في الصيف وليس الآن، فماذا
أقول له؟

زفرت سوزان وهي مندهشة من براءة داليا الزائدة، وقالت:

الواقع تغير يا داليا، لا بد أن يسبق بخطوة على الأقل فليأت
لخطبتك ثم يتم الباقي في الصيف، لا بد أن يظهر في الصورة
الآن وإلا فلا مبرر لك من رفض عصام.

يبدو أن كلام سوزان قد أفنec داليا ففكرت قليلاً، ثم قالت:

في آخر لقاء بيننا يوم الخميس وعد بأن يأتي يوم الأحد غداً
لللقاء، فهل أنتظر للغد؟

ظهر الحنق على ملامح سوزان التي جذبت داليا من يدها
لخارج الكلية، قائلة:

قلت لك: لا شيء ينتظر الآن نذهب لأقرب كايينة تليفون
عمومي ونتصل به ليأتي إليك اليوم فالموضوع خطير ويحتاج
للمبادأة والمبادأة.

أطاعتها فخرجت معها واتصلت برءوف وأخبرته بما كان
فوعدها بمجيئه خلال بضع دقائق.

مر الوقت وكانت المحاضرة الأولى قد بدأت قالت داليا
لسوزان بأن يحضرا المحاضرة لكن سوزان أشارت لها أن تجلس
وتتظر رءوف فالمحاضرة ستحضرها سوزان وتعطيها إياها أما
مستقبل داليا الحقيقي فسيكون في مقابلة رءوف فلتتظر وصوله
وتخبره بالوضع وتشد على يده ليتخذ خطوة إيجابية.

وصل رءوف بسرعة يملكه القلق والانزعاج وما إن قابلها
حتى سألها فقال:

ما الموضوع يا داليا؟ ومن عصام هذا؟

قالت:

الموضوع كما أخبرتك في الهاتف، وعصام هذا دكتور في
الجامعة والدته صديقة والدتي منذ سنين وكذلك والده ووالدي

كانا صديقين، ويعتبره أبى وأمي ابناً لهما وأصبح فرداً من الأسرة
وحظي بمساحة واسعة وثقة كبيرة وأخيراً طلب من والدته أن
تخطبني فقامت بالواجب فماذا ستفعل؟

نظر للأرض ممتعضاً هز رأسه وقال بتلعثم وارتباك:

وماذا أفعل الآن؟ قلت لك لست جاهزاً الآن، الصيف أفضل
لي.

ماذا أقول لوالدك الذي انفعل واحتد معي في مكالمته الهاتفية
السابقة؟

صدمتها ردة فعله، فلم يكن جريئاً أو محارباً ولا يحب أن
يدخل في صراعات تُظهر ضعفه ووداعته لكنها تحبه كثيراً وقد
تغفر له زلاته إن تشجع وتقدم لأجلها.

نظرت في عينيه بحنان وهدوء وقالت مستفهمة:

ألست تحبني يا رءوف؟ أم تُراك تغيرت مشاعرك؟

نظر لها بقلق الخائف وقال:

بلى أحبك يا داليا، وبالعكس يزداد تعلقي بك مع الأيام أكثر
وأكثر.

قالت:

وأنا أيضاً أحبك ولا أريد سواك، فلتفعل شيئاً من أجلى يا
رءوف، ليس هناك سبيل إلا أن تتقدم وتخطبني، فقط خطوبة الآن.

نظر لها رءوف وقد زاد ارتبাকে وقال بعدم وعي:

فعلاً، لا بد أن أصنع شيئاً، أي شيء، أنت محقة.

واستأذن ليذهب فسمحت له ينصرف لكنه زاد من قلقها عليه
فقد كان في حالة بائسة، كان مهتزاً مرتبكاً فهل يستطيع التفكير أو
التخطيط لشيء ما؟ إنه لم يشركها معه فيما ينوي عمله بل تركها
وذهب. ترى ماذا ستفعل يا رءوف؟

لم يضع الوقت حتى يفكر، وليته أضاعه في التفكير أو في أي،
أفضل من أن يتخذ قرارات في لحظات متسعة يكون العقل فيها
مشوشاً والمشاعر مضطربة.

كانت داليا قد أخبرته يوماً أن لها عمّاً يدعى الأستاذ شوقي
سليم، يعمل في إدارة الجامعة فقرر رءوف أن يذهب إليه ويعرفه
بنفسه ويطلب منه أن يكون واسطةً بينه وبين والد داليا حتى يأتي
ويخطبها منه وذلك لتخوفه من والد داليا فقد يفعل عليه أو يلقيه
بطريقة محرجة تجرح كرامته، وليته تجرأ للحظة في حياته لكنه
دائماً يكون خلف الستار في الصف الثاني بعيداً عن الأنظار
والمواجهات، ولم يعلم أنه يفوز بالذات كل مجازف فآثر أن
يموت بالحسرات أو أن يميتها هي بالحسرات لتحيا كرامته هو
فقط ولا يُخدش حياؤه.

تركها في الكلية وذهب ناحية إدارة الجامعة، سأل أحد
العاملين عن مكتب الأستاذ/ شوقي، فأشار له ناحية اليسار في

نهاية الردهة، تقدم نحو مكتبه المفتوح وجده يجلس في المكتب برأسه العريض الأصلع ووجهه الغليظ ومعه زميل له في العمل يشاركه المكان بمكتب آخر، تقدم إليه وألقى التحية وعرفه بنفسه وطلب منه أن ينفرد به للحديث معه في أمرٍ خاص.

لم يره شوقي من قبل لكنه اهتم ورحب به، ولَمَّا رأى زميل شوقي الحال هكذا ترك المكتب له ولضيفه ليتحدثا بحرية.

أشار له شوقي بالجلوس وطلب له مشروباً وسأله في تلهف وفضول عن الأمر، فقال رءوف:

أنا دكتور رءوف، صيدلي وأعمل بصيدلية في وسط المدينة وقد جاءت الدكتوراة داليا منير للتدريب معي على العمل في الصيدلية وقد لاحظت أدبها وحسن تربيتها فأردت أن أرتبط بها وقد علمت من داليا بوظيفة حضرتك في الجامعة لذلك أردت أن تكون سفيراً لي عند والدها تهنيئاً له الأمر قبل أن آتى بنفسي لأتقدم للخطوبة الرسمية وهذا بالطبع من دواعي سروري إذا لم يكن هناك مانع لدى حضرتك.

أنصت له شوقي باهتمام فلم يكن يتوقع هذا الموضوع لكنه زاد فخراً واعتداداً بنفسه عندما جاءه رءوف ومنحه مزيداً من الإكبار ليجعله واسطة له عند منير، لذلك فقد أبدى اهتماماً بما سمع، فقال:

من الواضح أن حضرتك شخص محترم وابن ناس محترمين، ولك مهنة مرموقة وشخصية مهذبة محترمة، ومن المؤكد أنني

سأسعى في طلب حضرتك مع أخي منير، وربنا يقدم لك ولنا الخير إن شاء الله.

شكره رءوف على وقته وعلى الاستماع له ووعدته إياه بالمساعدة، وبعد أن أعطاه معلومات كافية عنه من حيث العنوان والحالة الاجتماعية للسؤال عنه إن أراد، خرج رءوف سعيداً وفرحاً فقد ظن أنه فعل اللازم أو أكثر من اللازم و ينتظر من شوقي أن يمهد له الطريق لوالد داليا ليتقدم لخطبتها منه في القريب العاجل، رجع لكلية الصيدلة ليخبرها فلم يجدها سأل عنها فتاة تعمل في الكافتيريا تعرف داليا جيداً أخبرته أن طلاب السنة الخامسة قد ذهبوا برفقة بعض الأساتذة في زيارة استكشافية لإحدى شركات الأدوية وأنهم سيعودون في المساء، فقرر أن يذهب الآن لعمله ثم ليأتي إليها في الغد يخبرها بما فعل.



خيانة

بعد نهاية ساعات العمل الرسمي في الجامعة عاد شوقي وزوجته لمنزلهما وما أن أعدت زوجته الغداء وتناوله شوقي بنهم كعادته ناداها ليحدثها في أمر هام، جاءت زوجته بعدما أحضرت كوبين من الشاي الساخن وجلست بجواره، وقالت:

خير يا سيدي، هات ما عندك.

أخذ رشفة من كوب الشاي وقال وهو يمتصه بتلذذ:

اليوم جاء عندي في المكتب شاب يريد أن يخطب داليا بنت أخي منير، ويريد مني أن أفاتح منيرا في الموضوع.

هو دكتور صيدلي يعمل في صيدلية في وسط البلد وداليا كانت تتدرب معه ومن هناك تعرّف عليها.

سمعتة زوجته وصمتت فلم تقل شيئاً فنظر لها مستغرباً عدم اكترائها، وقال:

ما لك؟ ألا يهملك الموضوع؟

ردت وقالت:

بالطبع يهمني لكن هناك أشياء أخرى حول الموضوع.

نظر لها وقد وضع كوبه على المنضدة، وقال:

ماذا هناك؟ هل يوجد ما لا أعلمه؟

ردت وقالت:

نعم لكن لم تأتِ فرصة لأخبرك فما زال الموضوع جديداً منذ
يومين فقط.

غاضه غموضها فقال في عصبية:

قولي، ماذا هناك؟

رأته هكذا فأفصحت وقالت:

سأحكي لك، أختك إنعام اتصلت بي تسألني: هل بنات منير
مرتبطات؟ تريد أن تخطبهن لأولادها، فقلت لها: سأسأل أميمة،
وبالطبع اتصلت بأميمة يوم الخميس الماضي في المساء أسألها،
فضحكت كثيراً ولمّا سألتها عن سبب ضحكها قالت: إن هناك
من طلب خطبة داليا في نفس اليوم، وعندما سألتها من
هو؟ قالت إنها ماجدة أم عصام جاءت لتخطب داليا لعصام
وأن منيرا أرجأ الموضوع لنهاية الدراسة في الصيف القادم
وطلبت مني ألا أذيع الخبر لأن داليا تتمنّع ولم تبدِ موافقة بعد
بحجة الدراسة، وطلبت أميمة مني أن أغلق الباب أمام إنعام
وأبنائها فليسوا يناسبون بناتها من حيث السن والتنشئة، هذا كل
ما في الأمر.

أنهت كلامها فنهرها شوقي وقال:

ولم لم تخبريني إذن؟ قد وعدت الشاب بأن أساعده، فلو كان عندي خبر من قبل لما وعدته وكنت أغلقت عليه الطرق.

ماذا أفعل الآن؟ عصام له علينا فضل كبير، فقد جاءني عندما أراد شراء قطعة أرض لتكون منزلاً لوالدته بل وكلفني بالإشراف على عملية البناء والتشطيب لنهايتها وقد ربحت من وراء ذلك الكثير، وأتحين الوقت الذي أرد له نظير ما فعل، والآن جاءت الفرصة، لكن ماذا أفعل تجاه ذلك الشاب الذي جاءني اليوم؟

أحسست بما يشعر به لكنها لم تفكر كثيراً مثله فقد وجدت الحل سريعاً، فقالت:

عصام من تقدم لخطبتها أولاً ولم يتم رفضه ما تم فقط هو تأجيل موعد الخطوبة، لذلك فهو أولى من هذا الشاب الذي جاءك، وليس له عليك أي وعد لأن هناك من سبقه بخطوة.

ونحمد الله أن جاءت هذه الفرصة إلينا لنرد لعصام جزءاً مما فعل معنا بدون حرج وبدون غرامة لنا أيضاً.

لم يفهم قصدها، فهز رأسه وقال:

ماذا تقصدين بكلامك؟

قالت:

تذهب لعصام وتحكي له ما حدث وساعتها سيتصرف هو
كما يشاء ويرفع عنك الحرج، وبالطبع سيقدّر لك ما فعلت
تجاهه حرصاً على مصلحته.

نظر لها ومط شفتيه وفكّر قليلاً، ثم قال:

قد يكون هذا حلاً مناسباً، سأحدثه غداً في الجامعة.

قالت:

لا، ليس غداً بل الآن تحدث إليه هاتفياً وإن تطلب الأمر
فاذهب إليه حيث يكون، إنك لا تدري ماذا سيحدث من هنا
حتى الغد؟

أوماً برأسه، وقال:

أنتِ مُحقّقة لن تنتظر المفاجآت، سأنتهي من هذا الأمر اليوم.

قام فتوجه ناحية الهاتف واتصل بعصام في منزله، رد عليه
عصام فطلب منه شوقي أن يلتقي به لأمر هام، أخبره عصام أنه
الآن متجه لمنزل والدته لطلبها إياه للضرورة ولن يستطيع مقابله
في منزله الآن، لكنه اقترح عليه أن يلتقي في منزل والدته فهو
قريب أيضاً من منزل شوقي وسترحب والدته به كثيراً فلم تلقاه
منذ مدة طويلة، راقّت الفكرة لشوقي ورأى فيها إصابة عصفورين
بحجرٍ واحد، فسيعرض الأمر لعصام في حضور والدته وبذلك
يثبت إخلاصه وحفظه لجميلهما.

بسرعة خاطفة دخل غرفته وارتدى ملابسه الواسعة التي تناسب وزنه الزائد وبطنه المتدلية، وخرج متوجهاً لمنزل والدة عصام صعد للدور الأول حيث شقتها دق الجرس ففتح له عصام وحيّاه، وأدخله لغرفة الجلوس وبعد قليل جاءت أم عصام تحمل في يدها صينية فيها ثلاثة كاسات من العصير الطازج المناسب لخريف أكتوبر، تناول شوقي كأسه باستمتاع وتلذذ كعادته في كل شيء يمر على لسانه، وجدهما ينظران إليه ينتظران ما جاء به على وجه السرعة فلم يُطل فضولهما بل تكلم بسرعة وقص عليهما ما كان من أمر رءوف وما سمعه من زوجته من أمر عصام وأكد أنه لم يكن على علم بتقدم عصام لداليا إلا اليوم ولو كان يعلم لسد الأبواب أمام رءوف هذا، والآن وقد حدث ما حدث فقد جاء إليهما يعرض عليهما الأمر يؤكد جدارة عصام بنسب منير وخطبة داليا ابنته.

أنصت عصام وكذلك أنصت ماجدة لكلام شوقي باهتمام ودهشة، تساءلت ماجدة عن سرعة تقدم رءوف هذا بهذه السرعة بعد يومين فقط من لقاءها بأميمة التي لم يظهر عليها أية أمارات لرفض عصام، بالعكس كانت الفرحة تملأ عينيها، لكن ماجدة قالت لعصام:

إن داليا نفسها قد تكون غير راضية على الارتباط بك وما إن علمت بما حدث بيني وبين أميمة حتى قالت لرءوف هذا أن يأتي

ويسبق هو الآخر، وإذا كان الوضع هكذا فالأفضل أن تبتعد عنها
وستجد من هي خير منها، فلا خير في زواج بدايته شد وجذب
هكذا.

كان كلامها وقعه صادماً على أذني شوقي الذي أحس أنه
بفعلته هذه قد ينتهي الموضوع أصلاً ويصير ارتباط عصام بداليا
هباءً منشوراً ولن يجني أي شيء ينفعه، بالعكس سيكون هو
الجانبي على هذا النسب فصمت لا يدري ماذا يقول.

أما عصام فكان منصتاً لكلام والدته ويعلم ما ترمي إليه فهي
لا تريد داليا له بل لا تريد أسرة منير كلها وتطمح لشيء آخر
يرضي غورها بالمظاهر والمجاملات التي يراها هو لا تساوي
شيئاً، إنه لا يريد داليا لذاتها بل يريد الأسرة بأكملها أباً وأماً،
ولو كان هناك غير داليا لدى منير لما تردد أيضاً لكن داليا هي
الكبرى وهي تناسبه من حيث السن أما أختها الصغرى رانيا فإنها
وإن كانت ظريفة معه تألفه ويألفها، إلا إنها صغيرة.

انتظرها حتى انتهت من شلال كلامها المتدفق وقد ظنت
صمته اقتناعاً برأيها لكنه كعادته يصددها فلا يحقق لها أمنية أو
رجاء.

قطع صمته بكلمات واثقة محددة، فقال:

لن أراجع عن خطوة خطوتها ولن أفرط في داليا، وسأذهب
لوالدها حتى أضع النقاط فوق الحروف، ولن أنتظر الدراسة حتى
تنتهي.

قال ما قال وهو ينوى أن يغلق باب الخاطبين ويعلن داليا خطيبة له أو (ملكاً له) فالخطوات القادمة هو من سيديرها ويحددها وعلى الجميع فقط أن ينتظروا.

أستأذن شوقي لينصرف بعدما أحس بحجم المشكلة التي حدثت بسببه فعاد وأطلع زوجته على ما كان، فنصحته بألا يفعل أي شيء ويتنظر ليرى ما سيحدث.

أما عصام فقد خرج هو الآخر وعاد لشقته يفكر طوال الليل فيما يفعل، هل يذهب لمنير الآن؟ لم يستطع أن يقرر فقد كان غاضباً ويتملكه الغيظ ولا يحب أن يراه أحد في هذه الحالة، حالة المتوتر المرتبك بل يحب أن تبقى صورته التي يظهر فيها بمظهر الواثق القوي المتصر هي العالقة في الأذهان، بل صورة المستغني عن الناس هي ما يفضلها فلا يُظهر سعيه وراء أي شيء بل الكل يسعى وراءه ينشد قربيه ووداده، فضّل أن يبيت ليلته ليهدأ وأن يذهب في الغد للقاء منير.

في صباح اليوم الثاني ذهبت للكلية كعادتها وما إن وصلت حتى وجدت رءوفا قد سبقها مبكراً ليلقاها قبل بداية المحاضرات وقبل أن يذهب لعمله.

أخبرها بعودته أمس للقائهما مرة ثانية لكنه لم يجدها في الكلية، سألته: لماذا عاد؟ هل هناك شيء قد حدث؟ أخبرها بلقائه مع عمها شوقي وما دار بينهما من حديث، صدمها بما فعل

وصدمته ردة فعلها، أثبتته، فلماذا لم يرجع إليها يشاورها في الأمر قبل حدوثه؟ لكنه لم يفهم، وظن أنه خطأ خطوة جريئة ستفرحها، وجدها حزينة محبطة قد تعرّقت عيونها وكأنها مصابة بالدوار، سألها: لم كل هذا؟ أجابته بحزن وخيبة وضياع، فقالت: إن عمها شوقي صديق مقرب جداً من عصام ولا يؤتمن على سر وبالطبع فقد أذاع ما حدث لعصام ولغير عصام.

أدرك حجم جريمته وما سببه لها من ألم، نظر في عينيها اللتين طالما منحتاه الأمل والحياة فوجدهما تحتاج لمن يمنحهما الحياة بعدما حاصرهما الذبول واليأس، سألها:

ماذا يمكن فعله الآن؟

نظرت له نظرة محتضر استسلم لخروج روحه، فقالت:

لا طائل من فعل أي شيء.

انزعج من يأسها فنهرها يحاول إفافتها من غيوبتها التي بدأت تملكها، حاول أن يعطيها صدمات كصدمات الكهرباء لتنعش قلبها ليحيا من جديد، ذكّر لها بكلامها عن الأمل والطموح والإصرار، نظرت للأرض تريد البكاء فلم تستطع، فالحزن عندما يكبر مداه لا تستوعبه دموع العينين، بل يكون أثره أكبر من بكاء بالعين أو صراخ باللسان، الحزن يعمي العين ويخرس اللسان وهذا ما حدث لها.

كانت تعلم تسلط أبيها وقسوة أمها، وتعلم إصرار عصام وتطفله رغم عدم قبولها له وعدم ابتعاده رغم هذا الصدود عنها، وكانت تعلمه هو، رءوف، فقد كان رقيقاً مرهف الحس والشعور، حياؤه يكسوه من رأسه لأخمص قدميه فهل ترتجى منه شجاعة وفداية من أجلها؟ هل يضحي ببعض حيائه، أو كرامته إصراراً منه عليها؟ إنه يفتقد الجرأة ويتوارى في الخلف إن لمح الأذى، يئس منه ومن حياتها.

جاءت سوزان بعد قليل تفاجأت بوجودهما معاً في هذا الوقت المبكر، تقدمت نحوهما أشارت لهما بيدها، فأشار لها رءوف ولم ينطق بشيء، أحست سوزان أن هناك خطباً ما فغابت عنها الابتسامة لَمَّا رأتهما عابسين مهمومين، سألت عن السبب، أمسكتها دالياً من يدها وأجلستها بجوارها دون كلام، وصمتت سوزان احتراماً لصمتها، بعد قليل أخبرتها داليا بما حدث بلسان متناقل يأبى الثرثرة، لم تنطق سوزان واكتفت بالنظر لرءوف الذي هرب من نظرتها لينظر إلى الأرض، سألتها داليا عن رأيها أجابتها سوزان:

لا بد أن يذهب رءوف ويطلبك من أبيك.

فكرت داليا قليلاً ولم تنزل رأسها مطأطأة وعيناها تنظر إلى الأرض، ورأت أن لا مناص من هذه الخطوة فأومأت برأسها، ثم نظرت لسوزان وقالت:

وكيف الطريقة؟

قالت سوزان:

تذهبين لأبيكِ ووالدتك، فتخبريهما بقدوم رءوف ليتقدم
لخطبتك منهما.

ابتسمت داليا ابتسامة اليأس، وقالت:

أتظنين الأمر بهذه السهولة يا سوزان؟

أجابتها سوزان:

ليس هناك حل آخر أو طريقة أخرى، الوقت ليس في صالحك
يا داليا.



وَمَدَّة

عادت لمنزلها وقررت أن تواجه أباهما بما اتفقت عليه مع رءوف وسوزان، انتظرت عودته في المساء، رتبت أفكارها قَدْرَ ما أُوتيت من تركيز وقدرة، جاء والدها في مواعده المعتاد، أعدت أميمة ورانيا العشاء، تناولوا جميعاً عشاءهم، وبعد احتساء قهوة ساخنة طلبت من أبيها أن تحدثه في موضوع هام.

انتبه لها فاعتدل وأشار إليها أن تقول ما تريد، وكانت أميمة ورانيا يجلسان على مقربة منهما يستمعان ما يقال.

أخذت نفساً عميقاً لتنظم أنفاسها فلا ترتبك في الكلام، ثم قالت:

هناك شاب، يريد أن يأتي للتعرف على حضرتك ويطلب خطبتي.

اتسعت عينا منير فوضع فنجان قهوته أمامه وعاد برأسه للخلف وقال:

يخطبك!! ألم ترفضين فكرة الخطوبة منذ يومين؟

شاركته أميمة في دهشته فهزّت رأسها وامتنعت ملامحها، لكنها تركت الحديث لمنير الذي استطرد فقال:

ألم تقولي إنك غير متفرغة، وأن عليك إنهاء دراستك أولاً قبل أي ارتباط؟

نظرت لوالدتها ولوالدها الذي ينتظر جوابها فقالت:

نعم، فلن يحدث شيء رسمي قبل انتهاء الدراسة، فقط سيكون اتفاق شفهي بينكما.

تدخلت أميمة فقالت:

وهكذا طلبت مني ماجدة أم عصام، فلم رفضت عصاماً وقبلت هذا؟ من يكون هذا الشاب؟

ردت داليا فقالت:

هو دكتور رءوف مدير الصيدلية التي كنت أتدرب فيها.

ابتسم منير ابتسامة المنتصر الغاضب الذي ظفر بفريسته فقال:

هكذا إذن! الآن تكشف الحقيقة، فبدلاً من أن تتدربي على العمل أغواكِ فتعلقكِ به.

أليس هذا من كان يتصل بك ليلاً على الهاتف؟ فلم يكفه النهار بل حاول أن يحاصرك طوال الوقت، ولم يراعِ حرمةً ولا أدباً.

إن كنت توافقين على مبدأ الخطوبة الشفهية فعصام أولى منه، هو من طلبك أولاً وقد أرجأنا طلبه للصيف ولا يصح أن يدخل أحد آخر مكانه.

تسارعت أنفاسها فاحمرّت خدودها البيضاء وبدأ صوتها يرتفع
حين قالت:

لست سلعة للبيع أو تحفة يقتنيها عصام أو غيره دون رغبتني،
أنا ناضجة بما يكفي ولي عقل وقلب ولي الحق في أن أختار من
أشاء للزواج، هذه حياتي أنا.

قطّب جبينه وانتفخت أوداجه فاشتعلت عيناه وقال في صوت
صارخ:

ليست حياتك وحدك كما تتوهمين، إنها حياة أسرة بأكملها،
من يرتبط بك سيصير فرداً من هذه الأسرة، وسوف يكون أباً
لأحفاد هذه الأسرة، فليس لك أن تفرضيه علينا.

وهذا المخادع الذي انفرد بك في عمله ليشغلك ويلعب
بمشاعرك لا أحب أن يكون صهري يوماً ما.

عصام هو أجدر الناس بك، على الأقل لم يستغل مشاعرك أو
عواطفك، ودخل البيت من بابه.

نظرت لهم جميعاً بعين غاضبةٍ حانقةٍ يتطاير منها الشرر،
وصرخت:

لا أحب أن أراه فكيف أقبله زوجاً أعيش معه تحت سقفٍ
واحد.

تدخلت أميمة بمزيد من العطف والحنان لتمتص غضب داليا
فقالت:

داليا، حبيبتي، لو أعطيت عصاما فرصة يتقرب منك فلربما
ترينه بعينٍ أخرى، وقد يكون لك رأي آخر.

والله، خسارة أن يضيع عصام من يدك، ستندمين يوماً ما.

نظرت لوالدتها باندهاش فقد هربت من شفيتها الكلمات لترد
عليها، وقبل أن تفكر في الرد سمعت صوت رانيا تدلو بدلوها
هي الأخرى، وتقول:

والله، عصام محترم جداً ومرح جداً، لو تعاملت معه عن
قرب ستجدينه ظريفاً ومقبولاً.

أحسّت وكأنها في دائرة تحوطها النيران من كل جانب تحرق
فيها الأخضر واليابس، تدور عيناها على أبيها وأمها وأختها
والدموع تحرقها، ترى اليأس يلقي شباكه عليها فلا تستطيع
الفكاك منه، وهنت قواها الضعيفة فلم تجد أباً يسندها أو أمّاً
تحنو عليها أو أختاً تفهمها فتنصرها، كانت صدمتها كبيرة
وأحسّت بالوحدة، حاولت أن تتمالك نفسها قليلاً لتدافع عن
روحها التي تُسلب منها، فقالت في صوتٍ متهدج:

لا أريده يا أبى، لا أريده يا أمي، اتقوا الله فيّ.

ألست أنت يا أبى الأجدد بفهم تلك المشاعر؟ ألست تكتب
بعض الأشعار والشرقيات؟ أم أن ما تكتبه مجرد كلمات ووهم
ليس لها وجود واقعي؟

نظر لها والدها نظرة بعيدة فقد ذكرته بأيام خلّت، أيام تمنّى أن يحب بقلبه بصدق لكنّ أميمة زوجته كانت جبلاً من الجليد وكتباناً من الرمال لا روح فيها، ولمّا أن لاحت له فرصة منذ سنين وأحس معها بما يفتقد كاد أن يقضي على من أحبته، وأحبها، بل قضى عليها فعلاً وقضى القدر عليه هو الآخر فساء مزاجه من حينها، فتصلبت مشاعره وتحجرت أحاسيسه واستبدل قلبه بحجر قاس وصلد لا يهتز لرهافة المشاعر أو جاذبية الحب، حتى ظنّ أن ما كان فيه يوماً كان وهماً ولم يكن حباً، لذا فقد كفر بدين الحب والمحبين بعدما صار ضحيةً من ضحاياها.

شرد للحظات ثم أفاق لينبها من غفلتها ووهمها فلا تتعذب كما تعذب هو، لكنه لمّا رأى سوء حالتها حاول إقناعها بطريقة مختلفة فقال:

طبعاً، الحب شيء راق وجميل لكنه ليس كل شيء يا داليا، المهم هو التوافق الاجتماعي بين الناس وبعد ذلك يأتي الود وتنمو المحبة، وماذا يُغنى الحب لشخصٍ ما إذا كان كل أسرتك ترفضه؟

فكرى جيداً يا ابتي.

لم تزد على قولها:

لا أريد عصاما هذا، سأفعل أي شيء في نفسي إن غصبتُموني عليه.

نظرت أميمة لمنير وهزت رأسها يأساً من عناد أبتتها، ونظر
منير لزوجته وكأنما اتفقا على شيء، ثم قال:

خبرتك قليلة في الحياة فما زلتِ صغيرة ولا تسمعين
النصيحة، وتريدين التجربة لتؤمنني بصدق نصيحتنا.

سأمنحك فرصة لتجربي وتعلمي فقط، وأنا واثق من أنك
ستغيرين رأيك.

نظرت له أميمة مستفهمة ونظرت له داليا وبدا عليها عدم
الفهم فلم تكن بتركيزها، لكنه أوضح فقال:

أنا موافق أن أقابله مساء غد لنرى ماذا يقول، لكن لا تعتبري
هذا وعداً بشيء.

جففت دمعتها التي سألت على خديها وكأنها غير مصدقة ما
قاله أبوها، فقالت:

سأتصل به ليأتي، لتراه وتسمع منه وتغيّر نظرتك السلبية عنه.

وبسرعة ذهبت فغسلت وجهها لتطفئ ناراً ساخنةً اشتعلت فيه
من حمم غضبها، وعدّلت من هيئتها ثم توجهت للهاتف فطلبت
رقم رءوف في المنزل وأخبرته بأن يأتي مساء غدٍ لمقابلة والدها.



قَدَر

في اليوم التالي ذهبت متفائلةً للجامعة على أمل أن تلتقي
برءوف قبل زيارته لوالدها، لم يأت في الصباح وبدأت
محاضراتها فانشغلت طوال اليوم هي وسوزان ورجعت بعد
العصر لمنزلها تترقب وصوله، اتصلت على هاتف الصيدلية
لكنها لم تجد رداً، حاولت مرة ثانية وثالثة لكن دون جدوى،
اتصلت على هاتف منزله ردت عليها مروة، سألتها داليا:

أين رءوف؟

أجابتها مروة:

رءوف عاودته الحمى منذ الليل وحتى الآن لم يتحسن وهو
طريح الفراش وأمي بجانبه حزينة باكية، ولا يستطيع القيام أو الرد
عليها.

خفق قلب داليا وكاد يتوقف واعتصرها الحزن عليه ولم يبق
في وسعها إلا أن تدعوله بالشفاء حتى يستعيد قواه مرة أخرى
وقالت:

سأخبر والدي بالخبر ليطمئن تأجيل موعد اللقاء.

أغلقت الهاتف ولا تدري ماذا تصنع، فلا يصح أن تذهب لتطمئن عليه، تعلم تلك الحمى اللعينة التي تعاوده من حين لآخر فتضج مضجعه وراحته، تُشفي عليه ويرق له قلبها البريء، لم يكن في وسعها شيء إلا أن تتمم بأدعية الشفاء وتتمنى أن تراه قريباً بابتسامته المعهودة وعيونه الناعسة التي تحتويها كلما نظرت إليها.

أما هناك، فقد بات عصام ليله مؤرقاً ولم يستطع النوم رغم صراعه معه، يتقلب في فراشه على جنبه وتارة يقعد وتارة يرقد وتارة يخرج لمشاهدة التلفاز ويعود يائساً لغرفة نومه عساه يهنأ بغفوة تقضي على ذلك الليل الطويل، وما أن جاء اليوم التالي حتى اتصل بمنير في عمله يخبره بقدومه عليه يريد له أمر هام.

حاول منير أن يتنبأ بسبب قدوم عصام للمركز فقد كانت معظم لقاءاتهما في المنزل ليلاً، تساءل منير: هل نما لعلم عصام شيء من أمر رءوف ولهذا طلب لقائي؟ لم يجهد نفسه في التخمين وانتظر وصول عصام لتبين النوايا والمقاصد.

لم يتأخر عصام فجاء بوجه مؤرق شاحب الخدين وغائر العينين عابس لم يتسم، توجس منير من هيئته لكنه دارى توجهه فرحب به وأجلسه على كرسي أمامه، ثم سأله عن حاله وأخبره فرد عليه عصام بالإجابات التقليدية وبسرعة وكأنما أراد أن ينتقل إلى الموضوع الذي جاء من أجله سريعاً، فقال لمنير:

أستاذ منير، حضرتك تعلم أنك بمثابة والد لي ومكانتك كبيرة
عندي ولك مني كل تقدير واحترام.

نظر له منير يريد أن يستشف ما وراءه فقال:

شكراً لك يا عصام وأنت أيضاً بمثابة ابن لي وأعتبرك فرداً
من أسرتي.

قال عصام:

لكنني عاتبُ عليك في شيء.

رد منير باستغراب ظهر في عينيه فقال:

خير يا عصام ما الذي تعتب فيه؟

قال عصام:

ألم تأتِ والدتي لزيارتكم وطلبت منكم خطبة داليا وأرجأتكم
أنتم الأمر كله بعد انتهاء الدراسة؟

قال منير:

بلى، حدث هذا فعلاً.

تابع عصام فقال مستنكراً:

إذن فكيف يأتي شخصٌ آخر ويتقدم لخطبتها وطلبي ما زال
معلقاً؟

تفاجأ منير بما سمع، فكيف علم عصام بالأمر؟ لكنه تابع فقال في ثبات:

لم يتقدم أحدٌ غيرك فمن أين أتيت بهذا الكلام؟
نظر عصام في عيني منير بتحدٍ وقال:

بل جاء شابٌ لأخيك الأستاذ/ شوقي ليكون رسولاً إليك
فيخطبها منك، وقد جاءني الأستاذ/ شوقي وأخبرني بهذا.

ابتلع منير ريقه بصعوبة وقال في نفسه (لعنة الله عليك يا
شوقي لطالما جئتنا بمصائب من وراء ثرثرة لسانك) ثم توجه
لعصام وقال:

يا عصام لم يأتني أحد ولم يخبرني شوقي، فالوضع قائمٌ كما
اتفقنا عليه.

لم تلق كلمات منير تصديقاً لدى عصام فنظر بعينه بثبات في
عيني منير كأنه سيقول قراراً حاسماً، فقال بأسى:

أستاذ/ منير، أعلمُ كم أنا مُقدَّرٌ لديك لكن أتمنى أن تخبرني
بصراحة وبدون حرج: هل طلبي لم يلق قبولاً عندكم وتتحرج من
إخباري بهذا؟ أرجوك أخبرني فلا أحب أن أصير معلقاً هكذا بين
القبول والرفض ولا أحب أن أكون مفروضاً على أحد بغير رغبته.

لمح منير عيوناً خالطها الحزن فأثقلها فنظرت للأرض بعدما
قال عصام ما قال، فأشفق عليه فقد كان يحبه كثيراً وكانت علاقتهما
أكبر من علاقة أب بابنه، فقال منير وهو مبتسم ابتسامة خفيفة:

دع عنك وساوسك وظنونك يا عصام قلت لك لم يحدث شيء وأنت في مكانة عندنا لا يصل إليها غيرك فكن مطمئناً واذهب الآن لعملك ولا تضع وقتك في أوهام تسيطر على ذهنك وسأصل بك قريباً.

رفع عصام رأسه المزدهم بالأفكار وكأنه صدّق كلمات منير الأخيرة التي خرجت بنبرة هادئة ودافئة تنبئ بالصدق والإخلاص فأوماً برأسه مطيعاً لمنير فيما قال واستأذنه وخرج بعدما هدأت روحه قليلاً.

أما منير، فبعد أن انتهى من ثورة عصام، فقد ذهب عنه قناع الهدوء والرزانة، فتملكه الغضب فذهب وجاء في مكتبه مرات ومرات مما صنعه ذلك الأرعن رءوف، وذاك الأهوج شوقي.

جلس على مكتبه واتصل بأخيه في منزله، رد عليه شوقي الذي لم يمهل منير حتى صك أذنيه بوابل من الكلمات النارية الثقيلة كطلقات الرصاص يعنفه، كيف لم يخبره بقدوم رءوف إليه؟ وكيف يذهب ويخبر عصام بالأمر أولاً؟ أليست هذه رعونة منه وقلة عقل؟ وأمره ألا يتدخل ثانية في أمور أسرته، فلم يجلب تدخله إلا المشاكل والمصائب، فارتبك شوقي ولم يستطع التبرير فأغمض عينيه واكتفى بالتضحية بأذنيه لتلقي صواعق منير وطلقاته.

وأغلق منير الهاتف في وجه شوقي الذي تلوّن بالوان الطيف السبعة تدريجياً فصار كقوس قزح، وبعدها أعطى لشوقي ما

يستحق من كلمات التأنيب والتوبيخ، قرر منير العودة لمنزله ليرى ماذا يفعل بالشخص الآخر، برءوف عندما يلقاه ليلاً، عاد عابساً متجهماً، بدّل ملابسه بسرعة ونادى لداليا أن تأتيه في غرفته، جاءته وهي فزعّة من صوته الغاضب، لم يمهّلها حتى تسأله: لماذا طلبها، بل صبّ عليها هي الأخرى وإبلاً من التوبيخ لها ولرءوف، فقال:

لماذا ذهب هذا المجنون لشوقي الذي لا تستقر في جوفه
كلمة؟ أيمكن أن تشرحي لي؟
أليس لك أباً يطلبك منه؟

بحماقته هذه ذهب شوقي بسذاجته ورعوثته المعتادة ونشر
الخبر لعصام ووالدة عصام ثم جاءني عصام يتهمني بالتلاعب به
وبمشاعره وعدم احترامه واحترام والدته. فهل عندك تفسير لما
صنع رءوف هذا؟

اتسعت حدقاتها من هول ما سمعت، فلم تُحر جواباً لكنها
استجمعت أفكارها لترد على أبيها الغاضب فقالت:

ما حدث بينكما حضرتك ورءوف في المكالمة الأخيرة جعلته
يخشى لقاءك وثورتك، ففضل أن يمهد للقائك عبر عمي شوقي
هذا كان رد رءوف لي عندما سألته نفس السؤال، وقد ذهب دون
مشورتي ولو أخذ رأيي لرفضت زيارته لعمي شوقي لنفس
الأسباب التي ذكرتها حضرتك فيه.

هدأ قليلاً بعدما سمعها لكنه عاد فقال:

لكن تصرفه هذا يدل على الجبن وعدم تحمل المسؤولية،
يريد أن يبقى في الخلف بعيداً عن المواجهة كيف أطمأن عليك
معه، إنه جبان.

ولا أدري كيف سيطلب خطبتك مني وهو بهذه الحال، موعده
اليوم، أليس كذلك؟ متى سيأتي؟

سمعته وكأنها ما سمعت، تنظر إليه صامتة ساكنة، تدور
حدقاتها تحت جفونها ولا تنطق، كرر كلماته فقال:

قلت لك: متى سيأتي؟ ألا تسمعينني؟

كان عليها أن تجيب، فقالت:

هو مريض، فلن يأتي.

فتح فاه وارتفع حاجباه فأتسعت عيناه وقال مندهشاً:

والله؟ ما هذا اليوم؟ إنه يوم الصدمات؟ وفعلاً، المصائب
لا تأتي فرادى.

أيخاف مقابلي فاخترع سبباً للهروب؟ أم أنه مريض حقاً؟ وما
هذا المرض الذي هبط عليه من السماء فجأة؟ أهو صداع أم مغص؟

استاءت من سخرية والدها فقالت بحزن ظهر في نبرة صوتها
وعيونها الممتلئة بالدموع:

بل هو مريض، أصابته الحمى، حمى البحر المتوسط.



المفاجأة

صدمته هذه المرة صدمة حقيقية ليست كصدمة عصام فيمتصه
أو صدمة شوقي فينهره، تبلدت ملامحه فتجهم وجهه، وعيونه
تنظر لداليا للحظات، ثم اقترب منها وقال بهدوء لم تتوقعه:

أحقاً ما تقولين؟

صمتت للحظة تحاول إدراك ما وراء سؤاله، ثم قالت:

نعم، هو مصاب بتلك الحمى وتعاوده بين الحين والآخر.

ظل شاخصاً إليها دون كلام، ولَّى وجهه ناحية الباب وخرج
من الغرفة وتركها دون أن تفهم، مضى في الصالة ناحية غرفة
الجلوس، رآته أميمة وهو في الصالة، سألته: هل تحضر طاولة
الطعام الآن؟ لم ينظر إليها ولم يرد ومضى لهدفه.

نظرت له أميمة مستغربةً شروده هذا، رأت داليا وهي خارجة
أيضاً من غرفة أبيها، سألتها عن حال أبيها:

ماذا حدث بينهما؟

حكّت لها داليا ما حدث، نظرت أميمة إليه وهو جالس كجبل
الجليد على الأريكة أمام التلفاز وكأنه تمثال، اندهشت أكثر من

حالته بعدما سمعت من داليا حوارهما السابق فكان من المنطقي أن يكون غاضباً واثراً مما حدث في هذا اليوم لكن أن ينتهي هذا الحوار الساخن بهذا البرود والصمت الرهيب فذاك ينبئ بشيء غير مطمئن، دخلت عليه وسألته:

مالك يا منير؟

أجابها بصوت هادئ:

لا شيء؟

تركته وخرجت للمطبخ فهي تعلمه في لحظاته تلك لا يحب كثرة الأسئلة بل يحب الخلوة بنفسه لبعض الوقت ثم يتحدث وقتما يشاء هو.

جلس الجميع لتناول العشاء في صمت، تنظر داليا لوالدها ولا تستطيع تفسير صمته وهدوئه المفاجئ بعد ثورته منذ ساعة، تتابعه أميمة بعينها تجده يأكل وعينه على الطعام لا يلتفت يمناً أو يسرة، ينتهي من طعامه ويذهب ليصلي ثم يجلس ليحتسي قهوته المعتادة.

بعد قليل تركهم ودخل غرفته، اختار كتاباً يهرب فيه من أرقه وتفكيره، لم تكن عادته أن ينام مبكراً هكذا، دخلت أميمة عليه الغرفة وجده قد ارتدى نظارته وبدأ يقرأ بتركيز، يقلّب صفحة إثر أخرى وفي يده قلمه الرصاص يدوّن به ملاحظاته في هامش الكتاب، فضولها يقتلها وتريد أن تعرف ماذا يكتّم عنها، تخاف

اقتحام خلوته تلك فينقلب عليها كالأسد وقد كان غضبه شرساً وقاسياً، تظاهرت بترتيب بعض الأدوات في الأدراج والملابس في خزانة الملابس، بالطبع نظر لها من فوق عدسات نظارته الكبيرة، يعلم فضولها القاتل وإلحاحها المُمِل، ناداها فجاءت إليه بسرعة وكأنها تنتظر إشارة منه فقال لها:

موضوع رءوف هذا، انتهى، مفهوم؟

لم تفهم، نظرت له وهي تجلس بجواره على السرير، وقالت:

هل هناك سبب مقنع؟ تعرف كم أن داليا عنيدة.

أغلق كتابه على صفحة معلومة، وضع عندها قلمه، ثم قال:

ألم تحكِ لك ما حدث؟

قالت:

بلى، حكّت لي.

قال منير وهو يؤكد على كلماته:

لأنه مريض، بمرض وراثي ينتقل للأبناء من بعده ويسبب الوفاة، فهل تريدونها أن تعاني ألم الفقد مثلما عانينا من قبل؟ أنسيت أميرا يا أميمة؟

غلبتها دموعها فانهمرت على خديها فقالت وهي تمسح وجهها بيدها:

أنسى أميرا! كيف أنساه؟ لم أنسه يوماً، قد كسر ظهري فراقه.

قال منير:

ولهذا السبب لا أريد لابتتي أن تذوق تلك المرارة وهي في غنى عنها.

أريد أن تنتهي هذه العلاقة بسرعة قبل أن تتعلق به أكثر ونملاً فراغها بعد ذلك بعصام الذي لا بد أن ينسيها هذا الألم.

سألته فقالت:

ماذا تريدني أن أفعل؟

قال لها:

تتصلين به أو بوالدته، تدعين له بالشفاء وتعتذرين منه فطلبه مرفوض.

فكرت قليلاً وقالت:

وداليا، ماذا نفعل معها بعد ذلك؟

قال:

إن كان يحبها كما يزعم فالأجدد به أن ينسحب من حياتها ولا يدخلها معه تلك الدوامة، أما إن حدث غير هذا فسأقوم بواجبي كوالد لها.

خرجت أميمة من عنده وهي مقتنعة برأيه تماماً، فهي كأم عانت من قبل معاناة الفقد لم ترد أن تذيق ابتتها طعم المأساة والحرمان الذي يطعن القلب طعنة لا تلتئم أبداً فيظل جرحه

هكذا حياً يذكرها من حين إلى حين بما فقدت من أحباء
لا تُنسيها الأيام ملامحهم.

وراحت في دوامات الذكريات المؤلمة الحزينة وانهمرت
دموعها فأغرقت خدودها وغلبها البكاء فبكت وتنهدت وغابت
في ركن بعيدٍ عن بناتها حتى لا تريانها في هذه الحالة، تذكرت
أميراً بوجهه البريء الضاحك وتمرده وشقاوته كلما مرت به
الأيام، فبعد أن رزقهما الله به بعد زواجهما بعام تقريباً وملاً
دنياهما سعادة وهناء، وكان منير أسعد الناس به يُهدِّه ويلاعبه
ويحمله ذهاباً وإياباً في الشقة.

وكانت أميمة أيضاً تملؤها السعادة والرضا ويزداد فرحها
عندما ترى زوجها فرحاً بولده ويزداد رضى من حولها عنها
بعدما أتت بولد وليس أنثى في ذلك المجتمع الذى نزعم خطأً
أن الحضارة غزته والتعليم أضاف لشخصيته تطويراً كبيراً،
وأصبحت الإناث يتعلمن مثل الذكور ويتقلدن نفس الوظائف
فلم يبق فارق كبير بين النوعين في حمل أعباء الحياة، لكن طباع
النفوس ظلت طاغية عليها وتغلبت على العقل ففرقت بين الذكر
والأنثى ففرحت بالولد ورضيت بالأنثى أملاً في أن يعقبها ولد
فيسعد الجميع الأب والأم والجد والجددة وتُمحى عبارات اللوم
والشفقة من ألسن الجيران والأقارب والسلائف فيأتون مباركين
للولد متمنين له العمر والعافية ليسعد به أبواه.

فرحا بولدهما حيناً وازدانت حياتهما بنوره، اجتمعا على حبه وتشاركاً في التفكير في بناء مستقبله وكلما مرت الأيام زاد إدراكه بهما فيتعلق بأبويه ويضحك لهما فيشاغبانه من حين لآخر، فقد حوّلهما طفلين يمرحان معه بسعادة لا تُدرك بمال ولا سلطان.

كانت سعادة أميمة بوليدها أمير لا توصف، ففي هذا المجتمع الذي مازال للولد حظوة على الأنثى، تكون أم الولد مُقَدِّمَةً ومُقَدَّرَةً وأهلاً للفرحة والاستقبال والحفاوة وتنهال البسمات والضحكات من أجلها وأجل ولدها.

أما الأنثى فلا يُرْحَبُ بها إلا ما رحم ربي من أهلها، تجد الأقربين فور علمهم بولادتها تنساب منهم عبارات الرضى بها (ربنا يبارك فيها ويرزقها بأخ ولد) فلم ينسوا الولد بل يظل الدعاء موصولاً كلما غدت أو راحت، كذلك أمها تَسْتَقْبِلُ الدعوات ونظرات الشفقة والرحمة من الأقربين حتى من أهلها هي، من أمها وأخواتها، يواسينها ويشددن أزرها، حتى تحمل مرة أخرى لتأتي بصبي يملأ دنياها بسعادتها، أو بمعنى أوضح يرضي أباه فيقنع بزوجته التي أنجبت صبيّاً، فلا يذهب لأخرى طمعاً في إنجابها ولداً يحمل اسمه أو رسمه.

غمرتها الفرحة وعاشت برضى بقدوم وليدها وتوقف عنها إلحاح سلاتفها وحمايتها لتنجب ولداً ولياً للعهد فقد كانت حمايتها محبة للذكور أكثر من الإناث وكأنها نسيت نوعها هي، فهي أنثى أيضاً، وكانت تبدي حبها هذا ولا تخفيه.

تذكّرت أميمة كيف فقدت ولدها أمير في عمر الثلاث سنوات بسبب سرطان الدم اللعين، تذكّرت أوقات مرضه وآلام فقدتها له، حتى أن حماتها أم منير قد مرضت بسبب فقدتها لحفيدها وأوصلتها حسرتها أن لحقت به فماتت هي الأخرى بعده بثلاثة أشهر، تذكّرت أميمة كل تلك الذكريات المؤلمة الحزينة وكأن ذلك حدث بالأمس وليس منذ أكثر من عشرين عاماً مضت، وعاهدت نفسها ألا تكون ابنتها هي الأخرى ضحية من ضحايا الألم والحزن والضياع.

كان الليل قد مضى أكثره، همّت أن تتصل برقم رءوف الذي اتصلت به داليا منذ قليل فما عليها إلا أن تُعيد الاتصال بآخر رقم تم التواصل معه، لكنها رأت الوقت غير مناسب وخشيت أن تنبّه داليا للمكالمة فتفسد عليها خطتها فقررت أن تنتظر للصباح حيث يكون البيت لها وحدها هي فتتكلم دون قلق أو خوف.

خرج منير في الصباح لعمله وذهبت داليا ورانيا للجامعة وبقيت أميمة بعض الوقت في المنزل لتفعل ما قررت فعله، اتصلت بهاتف منزل رءوف ردت عليها أم رءوف عزّفتها أميمة بنفسها على أنها أم داليا، رَحّبت والدّة رءوف بها كثيراً ثم اعتذرت لها عن موعد رءوف مع والد داليا بالأمس فقد كان مريضاً، دعت له أميمة بالشفاء، وقالت لوالدته أنها كانت تريد أن تحدثها في هذا الأمر، سألتها أم رءوف:

خير يا أم داليا، هل هناك شيء ما؟

أجابتها أميمة فقالت:

خيراً إن شاء الله لو تعاونت معي.

ردت أم رءوف، فقالت:

تفضلني، أنا تحت أمرك.

قالت أميمة:

في البداية أدعو لأبنك رءوف بتمام الشفاء والعافية إن شاء الله، ولم أكن أعلم طبيعة مرضه من قبل لكن فور علمي بأنه مريض بحمى البحر المتوسط وجب علي أن أقوم بدوري كأمرأة تهتم على مصلحة ابنتها.

ردت أم رءوف في الطرف الآخر فقالت:

ماذا تقصدين يا أم داليا؟

تابعت أميمة فقالت:

تعلمين أن مرض رءوف-ربنا يشفيه-له أسباب وراثية تنتقل من جيل إلى جيل وهناك احتمالية أن ينتقل لأولاده -لا قدر الله- ويؤدي لنتائج مؤسفة.

وحتى لا تظنين أنني أنانية وأريد أن أهرب بابتني بعيداً عن هذه الاحتمالات، أحب أن أوضح لك أمراً لو علمته قد تصرفين أنت نظرك عن هذه الخطوبة.

تابعت أم رءوف انصاتها لأميمة وأكدت على هذا فقالت:

أسمع حضرتك، أكملني من فضلك.

تابعت أميمة:

هل تعلمين أنه كان لداليا أخ أكبر منها ومات صغيراً؟

قالت أم رءوف:

نعم، قال رءوف لي هذه المعلومة من قبل فقد حكت له داليا تفاصيل الأسرة.

تفاجأت أميمة، فقالت:

جيد أن تعرفي هذا الأمر لكن لا بد لك أن تعرفي أيضاً سبب وفاته، فقد كان ابني أمير-الله يرحمه-مريضاً بسرطان الدم، وقد توفاه الله في عمر ثلاث سنوات، وبعدها رزقنا الله بداليا ورانيا.

ولمعلوماتك وقد تعلمين هذا أن سرطان الدم أيضاً قد يكون له أسباب وراثية على الرغم من عدم وجود أفراد مصابين بهذا المرض في عائلتنا أنا ومنير لكن كل الاحتمالات قائمة.

وبعد ما سردت عليك، ألا ترين أن ارتباط رءوف وداليا قد يسبب لهما التعاسة الدائمة؟ ألا ترين أنهما عرضة لإنجاب أطفال يحملون هذه الأمراض التي تؤدي في كثير من الأحيان للوفاة؟

أرى أن نُبعد أبناءنا عن هذه الأحزان يا أم رءوف، فما زلتُ بعد مرور سنواتٍ طويلة أذكر أميراً ابني وأبكي عليه، ولا أريد لا بنتي أن تكون مثلي ولا أتمنى لأي أحدٍ آخر أن يذوق ما ذقت.

ردت عليها أم رءوف، فقالت:

فهمت قصدك يا أم داليا، وربنا يرحم ابنك ويصبرك على فراقه وأشكرك على صراحتك، ومن المؤكد أن أي أم في مقامك ستفعل ما فعلت وأكثر.

أنا معك فيما تريدن وكل شيء قسمة ونصيب.

قالت أميمة:

أشكرك على تفهمك يا أم رءوف، أريدك أن تصرفي نظر رءوف عن الارتباط بداليا، فوالدها غير موافق وأنا أيضاً غير موافقة حرصاً عليه وعليها.

قالت أم رءوف:

سأفعل أنا أيضاً ما يتوجب علي فعله كام، فأنا مثلك لا أريد لابني أن يتأذى في مستقبله، وربنا يكتب الخير له ولداليا ابنتك.

شكرتها أميمة وأغلقت الهاتف وتنفست الصعداء فتنهدت تنهيدة عميقة كأنما أزاحت جبلاً جاثماً فوق قلبها فشكرت ربها أن انتهى الموضوع هكذا.



ضِياع

لم يأتَ لزيارتها في الجامعة فظنَّت أنه مازال مريضاً، التقت بسوزان كعادتها وأخبرتها بما حدث، اقترحت عليها سوزان أن تتصل به فور عودتها للمنزل، عادت بسرعة فلم تُكمل يومها ورفعت سماعة الهاتف وطلبتَه في المنزل، ردت عليها والدَة رءوف، سألتها داليا عن رءوف وعن صحته، أخبرتها والدته أنه بخير وأنه في الصيدلية الآن يباشر عمله فشكرتها وأنهت المكالمَة لكنها تَوَجَّست من المكالمَة، فلماذا لم يأت إليها لتطمئن عليه؟ ما دام قد استرد عافيته، التمسَتْ له الأعذار لكنها لم تغفر له الذنب، انشغلت في دراستها وكتبها حتى لا تأكلها الأوهام والوساوس.

لكنه لم يكن له عذر سوى ما قالتَه له والدته، فقد أخبرته بأن أهل داليا يرفضون طلبه بسبب مرضه ولا يريدون لابنتهم أن ترتبط بشاب مريض تهتد حياته من حين لآخر، تملكته ثورة الغضب واثقت عيناه فَتَقَطَّب جبينه، تولى لسانه لعن المرض والحياة برمَّتْها مرات ومرات، سقط من فرط تعبهِ فجلس على كرسي لا يدري ماذا يفعل؟ صدمته مفاجأة الرفض وإن كان يتوقعها من أبيها الذي أهانه في الهاتف قبل أن يراه، آلمه أن يكون مرضه

سبباً لعدم سعادته، فماذا جنت يده هو حتى يُعاقب بسببٍ لم يكن له اختيار فيه، وهل المرض إلا قدر؟

لم تكن والدته هي الأخرى عوناً له فقد خشيت هي الأخرى على ابنها الوحيد الذي تأمل أن يملأ بيتها بالأحفاد وخشيت من كلام أميمة فقررت أن تثنيه عن رغبته، ولم تكن مهمتها صعبة فقد كان ضعيفاً هش الإرادة، سألته: هل بالفعل كان هناك أخ لداليا ومات بسرطان الدم؟ أجابها بنعم فقد أخبرته داليا بهذا الموضوع منذ فترة، سألته: أليس من الممكن أن يكون هناك أسباب وراثية وراء هذا المرض؟ أجابها بأن هناك بالطبع احتمالات للأسباب الوراثية، اقترحت عليه بأن يتعد عن هذه المشاكل وأن يختار فتاة أخرى تُسعد به بعيداً عن تنغيص تلك الأمراض المحتمل حدوثها لأي إنسان، لكن احتمال وقوعها سيكون أكبر إذا ارتبط هو وداليا بالذات.

ولأنه فقد فتاة أحبها فترة الجامعة، كان قد اكتفى أن يحبها ويلاحقها بنظرات عينيه ولم يصرِّح لها بذلك، وكانت قد لمحت ذلك منه -وما أذكى الفتيات في هذه الحالات- فبادلت نظراته بنظرات منها وظل الحال هكذا لسنوات إلى أن كانت السنة الأخيرة وكادت أن تنتهي الدراسة وينتهي اللقاء، انتظرت منه خطوة للأمام لكنّه لم يقيم بها لعدم جاهزيته، ولعله لو قام لصبرت عليه وساعدته حتى يكتملان معاً، لكنه خذلها وخذل فؤاده فهرب منها في الأيام الأخيرة لتنصرف هي الأخرى لمستقبلها ولشبابٍ يعرف قدرها ويجاهد من أجلها.

ولمّا فقد حبه الأول عندما تفتحت زهور قلبه هان عليه أن يفقد حبه الثاني، فمن فقد حبيبه الأول بتلك السلبية لا يلومه أحد على تساهله في فقد كل شيء بعد ذلك، والخطأ كل الخطأ فيمن وثق فيه هو وفي حبه.

لم يهتم أو يكثرث فيتصل بها، تركها وانشغل بعمله، لم تعلم ما حدث، وما سبب إهماله، أصابها ما أصابها من هم ووجع في القلب، انتظرتَه فلم يأت ولم يسأل، اتصلت به في الصَّيدلية ذات يوم، رفع سماعته وحيّاها فقالت بلهفة:

رءوف! كيف أنت؟ غبت طويلاً عني؟ مالك؟ هل هناك شيء؟ صمت للحظات متفاجئاً من كلامها، ألا تدري بما حدث؟ ثم قال مندهشاً:

ألا تعرفين الأسباب يا داليا؟ ألا تعلمين برفض طلب ارتباطي بك؟ أسكتتها الدهشة فلم تستوعب المفاجأة، بعد قليل ردت عليه فقالت: ماذا تقول؟ لم أعلم إلا منك؟ متى حدث هذا؟ استغرب من عدم علمها بهذا الرفض وكيف حدث بدون علمها فقال لها:

منذ يومين والدتك اتصلت بوالدتي وأخبرتَها. لم تدرِ بماذا تجيبه، ابتلعت ريقها بصعوبة، أحست فيها بجفاف وتشقق حلقها، شردت فدارت في رأسها الأفكار، تساءلت في نفسها: لماذا؟، نبهها لوجوده فقال:

داليا، أنتِ معي؟

أفاقت قليلاً فعادت إليه، وقالت:

معك، لكن قل لي: ماذا عنك أنت يا رءوف؟

قال:

ماذا تريدین من شابٍ تم رفضه؟

قالت في جدية:

تحارب من أجلي، تصر على موقفك، تفعل كل شيء من أجلي يا رءوف.

ثم صمتت فجأة كأنما تذكرت شيئاً ثم قالت:

وهذا بالطبع إذا ما تزال تحبني وتريدني إلى جانبك.

أنهت كلماتها وانتظرت رده، لكنه تأخر، فصرخت فيه وقالت:

لماذا أنت صامت هكذا؟ تفكر في ماذا؟ هل الرد يحتاج لتفكير يا رءوف؟ إذا كنت تحتاج إلى تفكير فلسْتُ في بالك أو في قلبك إذن، يا لصدمتي فيك! أشعر بمرارة تجاهك أقسى من مرارة ما فعله أهلي.

أغلقت الهاتف فلم تنتظر رده ولم تكن بحاجة لسماع مبرراته العقيمة، إنه مهزوز ضعيف الشخصية، إنه جدار واه لا يُستند عليه، أو جرفٍ هارٍ تنزلق إن اعتمدت عليه.

أغلقت الهاتف بغضب، سمعتها أميمة ورأت ملامحها تنبئ
عن بركان يكاد أن ينفجر من وجهها وعينيها، توقعت أنها عرفت
بأمر الرفض، لم تحدثها لكن داليا جاءت إليها بخطى ثقيلة
وعينين ثابتتين لم تنحرف عن عيني أميمة، وصلت لها ووقفت
أمامها، حدّت النظر لها ثم قالت بصوت منخفض:

أنتِ من فعلتها يا أمي، أليس كذلك؟ أنت من اتصل وأبلغ أم
رءوف، بالرفض.

خافت أميمة من داليا وخشيت من ثورتها فألقت التهمة
لزوجها، فقالت:

أبوك من قرر هذا وأمرني أن أتصل وأبلغها.

أطالت لها النظر لتكشف نواياها وقالت:

وأنت يا أمي ألا تهملك سعادتي؟ ألهذا الحدُّ هُنْتُ عليكِ؟

صمتت أميمة فلم تسعفها الكلمات التي تأخرت حتى تدركها،
ثم قالت:

يا داليا، لم ترتبطين برجلٍ مريض وأمامك خيارات أخرى؟

أدركت داليا حقيقة نوايا أمها فقالت:

أعلم يا أمي أنك تريدين عصاما، فهو مفضّل لديك أكثر منا
لكن ما ذنبي أنا أن تحرميني من شابٍ أحبه، وأن أرتبط برجلٍ
لا أقبله ولا أريده؟

تفاجأت بالإجابة تأتيها من ناحية باب الشقة، فقد جاء منير
وسمع صوتهما الذي ملأ المكان فقال:

ولماذا تعيشين على الاحتمالات يا داليا؟ لماذا تتزوجين
بمريض، قد يُشفى وقد لا يُشفى؟

أنت دكتورة، وتعلمين أن هذا المرض ينتقل للأبناء، أتريدين
أن تفقدي أحد أبناءك بسبب هذا المرض مثلما فقدنا أخاك أميراً
من قبل؟

كانت تنظر في عينيه ودموعها تملأ جفניה ثم قالت له بشيء
من النفي:

هل هذا هو السبب الوحيد لرفض رءوف؟ أليس عصام هو
السبب؟

أثارت عصبته فقال في حق:

هذا السبب يكفي لرفضه، وعصام هو الأحق بك فهو عوضني
عن أمير.

قالت في عصبية أشد من عصبته:

كانت حادثة أمير في نهاية السبعينيات، ونحن الآن على
مشارف سنة 2000، وقد تطور الطب والدواء ووجدت أساليب
كثيرة ومتقدمة للعلاج، وليس ما حدث سابقاً سيتكرر حدوثه
بنفس النمطية إلا أن يشاء الله.

استفزته أكثر بصلافة رأيها فقال في غضب أراد به أن ينهي هذا الحوار:

لن أسمح لك بخوض تلك المغامرة وأن تتذوقي مرارة الفقد ولن أتجرع أنا وأمك مرارة الألم مرتين، يكفينا ما عانيناه فحتى الآن لم تلتم جراحنا.

قالت في إصرار:

هذه مشيئة الله يا أبي وليس المرض ببعيد عن أي إنسان، وهذه حياتي أنا أقبل من أشياء وأرفض من أشياء.

كانت ثائرة وغاضبة، فخرجت من فمها الكلمات كجمرات أذابتها النيران فأصابت منيرا في غروره وسطوته، فقرّر أن يرد لها جمراتها بحمم من نيران بركانه الذي استعار في داخله فقال لها بصوت يصك الأذان:

لن أسمح لك بالارتباط بهذا الشاب ما دمتُ حياً، وإن أردت الارتباط فلا بديل لك سوى عصام، وإلا فلا زواج لك طوال عمرك.

زفرت وصرخت فقالت:

إذن فلن أتزوج أبداً.

وتركته هو وأمها ورايها، التي جاءت متأخرة فسمعت سجالهما العنيف، دخلت داليا غرفتها وأغلقت عليها بابها تحتمي به من أهلها، وانتابها البكاء فغمرتها الدموع فبكت على حالها وضعفها

الذي لم يرحمه أحد، فهي هو أبوها وأمها لم يرحما ضعفها أو يفهما رغبتها، وأيضاً أختها الصغرى رانيا التي لم تعد صغيرة الآن، ولها من المشاعر والعواطف ما تعلمه داليا عنها فكانت أحق بأن تشعر بألم داليا وما تعانيه من انفطار قلبها، ومرارة شعورها باليأس وقلة الحيلة، لكنها لم تأبه بما تعانيه داليا، ظلت أنانية مثلما كانت في طفولتها، فلم تفكر في شيء سوى مصلحتها ونفعها هي، وضحت بأختها لتنال ما يملأها به عصام من علاقات وصلات في الجامعة فتنال أعلى التقديرات دون بذل مجهود يذكر.

خلت داليا بنفسها، ولم يكن لها أحد يقف في وجه أبيها أو أمها، أحست باختناق أنفاسها وخروج روحها، ابتلعت ريقها بصعوبة فأدركت أنها مازالت على قيد الحياة، وأنها ستحيا وتحيا لتذوق ما يميت قلبها ويبدل ربيع زهوره لأشباح ذابلة.

ضائق بها الدنيا، الصداق يشقق رأسها والحسرة تمزق قلبها، فإلى من تشكو؟ وإلى من تذهب؟ أحست بنفسها في سجن عميق، مظلّم سحيق، يملأه هواء فاسد، يخنقها إن استنشقت، لكنها لا بد لها من العيش فيه، مكرهة، حتى يأتي من يخرجها منه، يوماً ما، فدعت الله كثيراً أن يأتي به، وأن تستطيع التحرر والخروج من تسلط أبيها وجبروته عليها، ولو إلى جهنم.



الثر الأبيض

ولو كانت تعلم ما ينتظرها لفعلت ما يجب عليها فعله درءاً للشر عنها، لكنها كانت تنظر تحت قدميها ولم تعلم أن الزمان يدور دورته ويعطى كل إنسان من الحصاد قدر ما زرع وقدر ما يحمل من النوايا في قلبه للناس سواء كانت خيراً أم شراً.

كانت رانيا قد بلغت العشرين عاماً من عمرها وكانت تحمل في قلبها المفتوح مشاعر من الإعجاب والحب والتلاقي لأحمد ابن خالها، ورغم بُعد مقامه عنها إلا أن الود لم ينقضي والتواصل لم ينقطع فالمناسبات التي تجمعهما كثيرة، اجتماعية وعائلية وقد نمت في قلبيهما زهراؤُ فتفتحت بمرور السنوات وقد وجد كل منهما في الآخر أليفاً ووليفاً، تلاقت النظرات وتآلفت الأرواح فصارا روحاً واحدة في جسدين وقلباً يوزع غذاءه ورواءه بين روحين حتى وإن غابت نظرات العينين، فليس المحب بعيداً حتى وإن بعدت مضاربه بل ساكنٌ في فؤادِ حنون ينبض باسمه.

منذ أن كانا في الثانوية العامة وهذا الزهر يغزو أرض قلبيهما فاخضرت وأثمرت، ويوماً بعد يوم يزيد التعلق ويزداد الشوق ويصبرهما الحنين من حينٍ إلى حين.

لم يعلم أحد بما أخفيا فلم تبد رانيا شيئاً ولم يسألها أحد عن شيء، إلا أنها قد أسرت يوماً ما لأختها الكبرى داليا بما تشعر به، فصاحب هذا الحال لا يستطيع الكتمان في معظم الأحوال فتفضحه عيونه إن ذكر سبب حالته فتلمع وتسعد وقد يتلثم فيبوح بالأسرار ولكن لا يشعر بهذه الدقائق إلا من يمر بمثلها، لذلك فقد لاحظت داليا ما بدا على رانيا فسألتها فاعترفت وهي غارقة في خجلها الذي احمرت منه خدودها، وكانت سعيدة وهي تقول وتحكي، وإن مجرد الحكي عمن نحب وتذكر الذكريات لكاف بنشر السعادة حولنا لنا ولغيرنا.

كانت ترجو وتأمل أن يحفها السلام فيما تريد فلن تكون هناك عقبات تسد طريقهما، فليس هناك عصام مثلاً وليس أحمد بغريب عن أسرتهما، وليست أسرته على شقاق مع أسرتهما فخالها مصطفى صديق والدها وأقرب أخوالها لوالدتها، فانتظرا حتى تنتهي دراستهما ثم يعلننا رغبتهما وظنا أن السعادة والقبول ستغرقان أسرتهما وتبارك لهما السماء والأرض، لكن في مجتمعات يغيب عنها العدل وتسود فيها الأنانية والأنا حيث القوي يأكل الضعيف والكبير يقهر الصغير فلا تأمن من أين تأتيك الضربة التي تقسم ظهرك وينشق منها قلبك فلا يلتئم بعدها أبداً.

تخرج أحمد كما كان يريد من كلية الهندسة وبقي ينتظر عملاً في أحد المصانع، التي تغزو المنطقة الصناعية التي يعمل فيها والده أيضاً، وكعادة ثقافتنا جميعاً فبعد تخرج الأبناء والحمد على إتمام رسالة التعليم يبقى على الأهل إتمام الرسالة الأخيرة في

نظرهم ناحية أبنائهم، الزواج، ولأن أحمد هو أكبر إخوته فقد كانت والدته ووالده يأملان أن يتزوج ليتزين منزلهما بالفرحة والبهجة ويأتيهما بما يعطيها أماً أكبر في طول العمر للعيش في هذه الحياة المتعبة دوماً.

سألته أمه:

ألا تفكر في الارتباط يا أحمد؟ ألا يوجد من تشغل بالك وتتمناها؟

زادت خدوده البيضاء حمرة ولمعت عيناه فنظر للأرض وقال:

ليس هذا وقتاً مناسباً لما تقولين يا أمي لا بد أن أجد عملاً أولاً لأكون منه نفسي.

تبسمت له لَمَّا وجدته متحملاً للمسئولية وليس مستهتراً ككثير من شباب جيله، ربت على كتفيه ونظرت في عينيه، وقالت:

يا بني، أنت أول فرحتنا ومنتظر هذا اليوم منذ سنين يا أحمد، لا تقلق قل أنت ما تريد ودع الباقي علي وعلى والدك فلن نصبر أكثر من هذا.

صمت طويلاً فكيف يبوح بما يشغله لأمه، لم يحسب حساباً لهذا الموقف، نظر لها خلسة يراها هل ما زالت مصرة على إجابته أم أنها لا تلح في الإجابة؟ لكنه وجدها تنظر له تتلهف على الإجابة ولم تتزحزح من مكانها، فما كان منه إلا أن ابتلع ريقه وأخذ نفساً عميقاً وقال:

هناك يا أمي من أراها مناسبة وهذا بالطبع بعد موافقتك أنت وأبي.

اتسعت شفتاها عن ابتسامة صافية وكأنها تعلم ما سيقول،
فقالت:

ومن هذه المحظوظة يا أحمد؟

أربكته بابتسامتها وضحكتها، ظن أن سره قد ظهر للعلن قبل
أن يبوح به ولم يعد هناك داعي للمناورة فقال في اعتراف صريح:
رانيا، بنت عمتي أميمة.

لم تملك كتم ضحكتها، لمّا رآته بهذه الحالة وكأنما ينفي عن
نفسه تهمة أو يُبعد شراً، فقالت له في دلال:

وما لك تقولها هكذا؟ تظنني لا أعرف بهذا؟ أعرف ما تشعر
به يا أحمد، فأنا أمك، ورانيا وأهلها نعم الناس وإن شاء الله يتم
الموضوع على خير.

زالت ربكته فظهرت منه ابتسامة هادئة خجولة لكنه لم ينطق
بشيء، لم تثقل عليه والدته وتريق ماء حياته فتركته في غرفته
وخرجت لزوجها لتحكي له ما حدث.

كان مصطفى يجلس في بلكونة شقته المطلة على حديقة
خضراء واسعة يمسك في يده عدداً من جريدة الأهرام المسائي
يتصفح الأخبار التي لا تأتي بجديد غالباً، جاءت إليه زوجته ومعها
فنجانين من القهوة التركي وضعتهما بجواره وجلست. سألهما:

هل أخبرك أحمد شيئاً مما كنتِ تودين سماعه؟

أومات برأسها إيجاباً ووجهها مبتسم وهي ترفع فنجان قهوتها لتحتسي منه أول رشفة، وضعت الفنجان جانباً وقالت:

إن أحمد باح لنا بسرّه الذي كنا نتوقعه من قبل، لكنني فضلت أن أسمع رغبته بلسانه هو، وهي أن يرتبط برانيا ابنة أختك أميمة.

تهلّلت أساريه عن رضى وقبول بالأمر فقد كان يحب أسرة منير وأميمة، وأشار إلى زوجته أن يذهب ليطلب خطبة رانيا من أبيها وأمها بعد انتهاء العام الدراسي الحالي.

ومع نهاية العام الدراسي الذي كان بطيئاً ثقيلاً حزيناً على داليا بعد أن ضاعت آمالها وأمانها مع رءوف الذي يئست منه ومن جنبه فلم يتجرأ ويحدث والدها فيما يريد، بل أثر السلامة كعادته وكأنها لم تحرك فيه شيئاً ما يوماً من الأيام، فباعها بأرخص الأثمان عند أول مشتر لكنها مع خسارتها له لم ترض بالموافقة على عصام الذي خلت الساحة له فلم يعد هناك منافس له، لكنها أصرت على أبيها وأمها أنها ستنتهي من دراستها وتستكمل دراساتها العليا ولن تلتفت للزواج مرة أخرى.

أما رانيا فكانت سعيدة بما تحقّقه من إنجازات في الجامعة على غير تعبٍ منها، والفضل يرجع لعصام وعلاقاته، وكانت علاقتها بأحمد تنمو يوماً بعد يوم، وقد اتفقا أن يتقدم لها فور نهاية الدراسة وبالفعل جاء خالها مصطفى وزوجته للقاء منير وأميمة، طلبا خطبة رانيا لأحمد وظناً أن كل شيء سيسير بلا

عوائق، لكن المفاجأة كانت في عناد منير وإصراره أن تتزوج ابنته بجواره حيث يسكن بحجة أنه ليس له غيرهما ولا يمكن أن يتبعدا عنه لأي أمر طارئ، وأيضا فهو يرفض زواج الأقارب من الدرجة الأولى أبناء الأعمام والأخوال.

صدمت مصطفى الدهشة وحاول إقناع منير بأن يتمتع بمرونة أكثر من ذلك، فأحمد فور تخرجه التحق بإحدى الشركات في العاصمة ولا بد له أن يسكن قريبا من عمله ويصعب عليه أن يحقق شرط منير، لكن منيرا لم يردعه توسل مصطفى ولا أماني زوجته المتألمة، فصمم على رأيه وكان واضحا وصريحا ومتسلطا أيضا، فمن أراد أن يتزوج بإحدى بناتي فليسكن قريبا منا وإلا فكل شيء نصيب وسيجد من تناسبه.

لم تجد توسلات أميمة أمام قهره وخذلها أمام أخيها وزوجته فخرجا من عنده بخفي حنين بملاحع عابسة وقلوبٍ ساخطة.

كانت رانيا تتلهف للحديث وتسمعه من وراء باب غرفتها وما إن سمعت قرار أبيها حتى انهارت وبكت فارتمت على سريرها تختنق أنفاسها وتغرق في دموعها وتقول ما قالته داليا من قبل:

لم يفعل كل هذا؟ أليس لي رغبة تُحترم ورأي يُقدَّر؟

خرجت من غرفتها تبكي بعدما فرغ البيت من الضيوف ذهبت لداليا في غرفتها، وجدتها غير مهتمة بما حدث أصلا طلبت منها المساعدة رمقتها داليا بنظرة طويلة، تحكي كلاما كثيرا فهمته رانيا،

فهمت أن داليا تذكّرهما بما حدث معها، وكيف كانت رانيا نفسها
أنانية فلم تقف بجوارها ولو بكلمة تنصفها، تراجعت رانيا ويئست
من أختها الكبرى التي دار بخلدها مثل ينطبق على ما حدث:
(أكلت يوم أكل الثور الأبيض)

خرجت رانيا ولا تدري ماذا تفعل رجعت أمها سريعاً بعدما
ودعت أخاها وزوجته، رجعت عابسة جامدة ذاهلة مما فعل منير
على غير اتفاق وترتيب معها فقد كان حاداً عنيفاً ولم يراعِ
مكانتها وخاطرها، فأحست بضالة نفسها أمام أخيها وزوجته.
هرولت إليها رانيا ودموعها تنهمر على خديها، تسألها:
لماذا فعل أبي ما فعل؟

نظرت لها أميمة بئس وربت على كتفها وقالت:
النصيب يا ابنتي، النصيب، ربنا يعوضك خيراً.
وتركتها وذهبت لتتشغل فيما يلهيها عن كبريائها الذي تناثر
حطاماً بسبب منير.

عاد منير في المساء متحفزاً تدور حدقاته يمنة ويسرة لم يكن
ما قاله من أسباب هي الأسباب الحقيقية فقط لكنه كانت لديه
أسباب خفية أهمها أن والدته أحمد امرأة قاسية الطبع قد جعلت
أبناءها لا يستمعون لغيرها فيخشونها ويهابونها وكان يرى في
أحمد منذ صغره أنه (ابن أمه) فلا يخطو خطوة إلا بأمرها ولا
يفعل شيئاً إلا بمشورتها، ورأى أن رانيا لو تزوجته ستصير جارية

لوالدة أحمد وليست زوجة لها كيان وتقدير، فأثر أن يقطع تلك المشاكل والمخاوف قبل أن تبدأ.

تناول مع أسرته الطعام في صمتٍ مميت، وبعد قليل وجد من يقضي معه بعض الوقت، فقد جاء عصام، فذهبت البنتان لغرفتيهما، وجلس عصام مع منير وأميمة، وجدهما صامتتين لدرجة تثير الفضول، كان منير شاردًا مع التلفاز، تركه عصام واقترب من أميمة وسألها:

هل هناك مشكلة؟

أخبرته بما حدث بصوتٍ خفيض، صمت قليلاً يستوعب الحوار ثم أخبرها بفكرة كانت بخاطره وهي أن أحد زملائه أيام الدراسة في الجامعة يعمل الآن مدرساً في المدرسة الثانوية في المدينة لكنه أصلاً من قرية ريفية وبنوي الزواج والاستقرار في المحافظة، وقد فاتح عصام في الأمر ليساعده في إيجاد فتاة مناسبة يرتبط بها، والآن يقترحه عصام ليتقدم لرانيا ويحقق شرط والدها فتسكن بجواره في مدينته.

أنصت أميمة لحواره، ونظرت لمنير الذي لم يبد أنه سمع حوارهما، وأشارت لعصام أن يتمهّل قليلاً حتى تنتهي مرارة الموقف الذي حدث اليوم، وبعدها ترى ماذا تفعل.



استسلام

مرت السنة بسرعة كما يمر قطار العمر، أنهت داليا دراستها بكلية الصيدلية بتقدير ممتاز وبترتيب متقدم بين زملائها، جعلها جديرة بأن تختارها الكلية معيدة فيها، انتظرت شهوراً بعد الدراسة حتى تستلم عملها في العام القادم وتهيأت لمستقبلها الجديد، فوضعت خطة للدراسات العليا لتشغل نفسها بما يفيدها، ولتنسى أوجاعاً ألمّت بقلبها فقررت أن تُغلق فؤادها وتعطي القياد لعقلها يهديها باقي حياتها.

لكنها فقدت أكبر أعوانها، فقد غابت عنها صديقتها سوزان بعد انتهاء الدراسة، ففور انتهاء سوزان من دراستها قرر والدها دكتور ثروت الانتقال بأسرته للاستقرار في القاهرة، وبالطبع غادرت سوزان مع أسرتها بل وتم خطبتها من قريب لها في القاهرة وتستعد للزواج منه.

كانت ملفتة بجمالها وشخصيتها فجذبت الكثيرين من زملائها، مما دفع بعضهم لمحاولة التقدم لخطبتها، لكن عصاما كان قد نسج خيوطه عليها دون أن تدري، فقد ذهب أكثر من مرة لكلية الصيدلة يتعرف على بعض الأقسام متعللاً ببعض الأسباب التي

تخص الجامعة وكان يعرف نفسه دائماً على أنه خطيب دكتورة داليا منير وأنها على وشك الزواج، وقد انتشرت هذه الإشاعة في الكلية بين زملائها، مما أرغم الكثيرين على الإحجام عن التقدم لخطبتها، فبقيت وحيدة لا ينبض قلبها بمشاعر تجاه أحد بل وكرهت الكثيرين من الرجال بسبب ما عانت من تسلط أبيها وتطفل عصام فلم تحاول البحث عن الأفضل.

تكررت زيارته كالعادة لمنزل منير فقد خلا له الجو، يلقاها فيتسم ويحييها بتودد، تنظر له بجمود وتبذل وترد له التحية بجفاء، ومع هذا لم يستسلم أو يفهم أنها ليست له فكان يراهن على أن كل هذا سيتغير ويقتنع نفسه بأنه يحبها وأنها ستحبه، ولو كان قرأ قليلاً في علم النفس الذي يدرسه بعين البصيرة، لفهم أن لكل روح مستراحا ولكل وليف ألفيا، لكنه لم يكن يؤمن بالمشاعر لتلك الدرجة وكانت حاجته لمنير وأميمة أكبر من احتياجه لتلك المشاعر، لذلك صمم على البقاء في هذا البيت وزرع جذوره فيه حتى النهاية.

لم يمض وقت طويل حتى وفى عصام بوعده فجاء ومعه صديقه القديم، جمال عبد الناصر، يقدمه لمنير وأميمة ليخطب رانيا، كان جمال هذا مدرسا بسيطا لكن تنقصه لباقة اللسان وسخاوة اليد فكان لا يبالي بما يخرج من لسانه من كلمات قد تنبئ بمستوى غير لائق بمكانته الاجتماعية والعلمية ككثيرين لا تغيرهم الأحوال

ولا التعليم، يظلون كمن هم في طور الهمجية الذين سبقوا عصر الحضارة، فلا تشعر معهم برقي ولا رهافة شعور.

وكانت أميمة قد أخبرت زوجها بما قاله عصام سابقاً وقد مهدت الأمر لرانيا التي يئست بعدما ضاع حبها الأول-والأخير- وجاءهم عصام يسحب جمال من يده ويقدمه لهم، رآه منير وأميمة بأنه شاب لا بأس به إن كان سيسكن في المدينة بجوارهم ويستقل عن أهله في الريف وتغاضوا عن طريقته وهيئته التي بالتأكيد ستغيرها رانيا.

لكن رانيا، قد صدمها بطريقته العفوية التي تفتقد للرقّة أو التهذيب، فلا يفهم في المشاعر قدر ما يفهم في المال وجمعه من الدروس الخصوصية التي انتشرت في هذه الآونة وأكلت مدخرات الأسر بل وأثقلت بالديون أحياناً.

تمت الموافقة على الخطبة، تجرعت رانيا بعض صفات جمال كُرهاً وبعضها صبراً، على أمل أن تنجح في تغييره كما أفنعتها بذلك أميمة ولم يكن لها بديلاً بعد رفض أحمد ويبدو أنها لم تكن تحب أحمد كما ظنت هي، فكان الحب عندها لها مفهومه الخاص فمن ينفعها ويكون في مصلحتها ستحبه وليس الحب عندها يستحق التضحية لذلك فرغم عيوب جمال الظاهرة للأعمى إلا أنها رأت ضعفه هذا من مصلحتها هي لتسود وتهيمن وتفعل ما تشاء وتتحكم هي في الرجل أفضل من أن تتزوج رجلاً

قوى الشخصية يتحكم فيها فيقهرها وكان لتجربة أمها وأبيها بصمة قوية في قناعاتها الفكرية والعاطفية، وزاد من قناعاتها تلك ما سمعته من خالتها آسيا عند زيارتها لها بعد عودتها من السفر.

وكانت آسيا بعد قصة طلاق منير من أميمة القديمة قد سافرت للسعودية واصطحبت معها والدتها ومكثت هناك تعمل في إحدى المستشفيات الكبرى مدة زادت على عشرة سنوات تزور مصر خلالها زيارات قصيرة جداً ثم تعود وقد فقدت هناك والدتها بعدما أَلَمَتْ بها أمراض الشيخوخة فتوفيت هناك فدفنتها آسيا في البقيع بعدما استشارت إخوتها في هذا الأمر، وقد نزلت إجازة خاصة بعد دعوة من أميمة لتحضر زواج ابنتها رانيا، فقد كانت آسيا مرتبطة ببنات أختها كثيراً.

وكانت رانيا قد استشارتها في أمر زواجها هذا وما تخافه من جمال، فقالت لها:

خالتي آسيا، إن جمالا بخيل وحريص، ولا يريد أن يتحمل المسؤولية، يريد لكل شيء أن يتم دون غرامة مالية ودون إرهاق له في التنظيم والحضور.

قالت آسيا:

رانيا يا حبيبتى، إن الرجال طباعهم مختلفة ومتباينة، ويجب أن نتعامل معهم بذكاء من نوع.

وقد يكون حرصه هذا في صالح أسرتك، وقد يكون ضعفه في صالحك.

لم تفهم رانيا فسألت:

كيف يكون ضعفه في صالحه؟

قالت آسيا:

الزوج القوي في شخصيته يؤثر سلباً على زوجته فيقهرها ويمحى شخصيتها وعندما يراها ضعيفة هكذا يسعى للزواج عليها من امرأة قوية مثله، فالرجال تعجبهم المرأة القوية الذكية، والذكاء مُقدَّم على القوة.

وجمال كما تقولين ضعيف الشخصية وذاك يجعلك أنتِ تتحكمين في إدارة الأسرة بقوة شخصيتك وفرض إرادتك وساعتها لن يعكر سعادتك أو صفو حياته بل سيتركك تتصرفين كما تشائين.

فما هو الأفضل إذاً؟ الشخصية القوية للرجل أم الشخصية الضعيفة؟

نظرت لها رانيا وقالت:

الضعيفة طبعاً.

قالت آسيا:

فلا تخافي من شيء، وربنا يسعدك في المستقبل إن شاء الله، وأنتِ ذكية وقوية مثل خالتك ولن أخاف عليك أبداً.

ضحكت رانيا وقالت:

لا تقلقي سأكون تلميذة متفوقة في مدرستك إن شاء الله.

فرحت قليلاً كفرحة أي فتاة مقبلة على الزواج لتتحرر من بيت أبيها، لكن قلبها لم يخفق لخطيبها ولم تهتم لذلك وأقدمت على باقي خطوات المغامرة المجهولة استناداً على رأي خالتها.

وافق جمال على كل طلبات أميمة ومنير وطلبات العروس، وجاء بأهله فتمت مراسيم الزواج وتم زواجها قبل داليا التي لم تبد رأيها في جمال أو لم يؤخذ رأيها أصلاً، فلم تكن لديها طاقة ولا روح لمثل هذه الأحداث.

تزوجت رانيا واختفت من المنزل، وبقيت داليا بين أبيها، لا تسلم من إصرار أميمة من ساعة لأخرى تحضها على الزواج من عصام، وكان عصام قد أشاع في كل مكان في الجامعة وبين الجيران والأقارب أنه خطبها وبذلك أغلق الباب على كل من فكر في الارتباط بها فلم يتقدم لها أحد من قريب أو من بعيد.

أحست بروحها تختنق وتموت في بيت أبيها، لا تنتهي المشاكل بين أبيها وأمها على أتفه الأسباب، سئمت وضعها معها وسئمت من وسوسة أمها لها، تارة بالترغيب في الزواج وتارة بالترهيب من شبح العنوسة وفقدان لقب أم فلو تزوجت البنت وأنجبت ولداً أو بنتاً فسيملأ حياتها ويكون سندها حتى وإن لم تحب زوجها.

وكانت آسيا قد ظهرت من جديد في أفكار أميمة فملأتها
بمثل هذه الأفكار، وقد التقت بعصام وأعجبتها شخصيته وإكباره
لها وتقديره لقدرها وكانت تسعد بهذا التملق أيما سعادة، ورأت
أن تساعد في إتمام زواجه من داليا فسعت في إقناعها بعدما
طلبت منها أميمة ذلك.

طلبتها آسيا أن تزورها في بيتها لتحدث معها فجاءتها داليا في
أحد الأيام وجلست معها، فاستقبلتها آسيا بترحيب ومحبة ثم
قالت لها:

قد أخبرتني والدتك بكل شيء حدث معك يا داليا فلم
ترفضين عصاما أن يكون زوجاً لك؟
نظرت لها داليا وقالت:

خالتي آسيا، عصام تم فرضه على بيتنا منذ زمن ولم أقبله
يوماً ما صديقاً أتحدث معه فكيف يكون زوجاً لي؟
قالت آسيا:

لقد تعرّفتُ عليه وأراه شخصية وقورة محترمة، فماذا يزعجك
فيه؟

ردت داليا فقالت:

هو كما تقولين، محترم ووقور، لكنني لا أحمل له مشاعر
إيجابية تجاهه، فهل يصلح الزواج بغير هذه المشاعر؟

ردت آسيا فقالت:

يا داليا، ليس الحب أساس كل شيء فهناك اعتبارات لأشياء أخرى مهمة في الحياة.

قالت داليا:

لم أفهم ماذا تقصدين بالضبط.

قالت آسيا:

هناك مقولة منسوبة للفاروق عمر بن الخطاب ثلاثم وضعك هذا ويقول فيها (أقل البيوت عماراً ما أسس على الحب وإنما يتعاشر الناس بالإسلام والأحساب) فالعشرة بالدين والاحترام قد تجلب الحب والسعادة.

قالت داليا:

سمعت بهذه المقولة يوماً ما رغم أنني لا أصدق نسبتها للفاروق عمر، وعلى فرض صحتها فهي ليست قرآناً ألزم به.

انفعلت آسيا وقالت:

كيف تقولين هذا الكلام يا ابنتي؟ استغفري الله يا داليا.

ردت داليا وقالت:

كيف ألزم بهذه المقولة التي تسجن المرأة وأمامي تجربة أخرى للرسول صلى الله عليه وسلم أعطى لمشاعر المرأة وقلبها

كل الحق في الاختيار عندما جاءت إليه امرأة وطلبت خُلْعاً من زوجها خوفاً من الفتنة؟

وكيف يكون التعاشر بالإسلام والأحساب؟ هل أفهم أن غير المسلمين لا يشعرون بالسعادة في حياتهم مثلاً؟ أو أن الذين ليس لديهم حسب عظيم لا يشعرون بنفس السعادة؟

ومن هنا فعلاً أنا لا أصدق أن الفاروق عمراً قال هذه المقولة، وهي في النهاية ليست مُلزمة لأحد.

أدارت آسيا دفة الحوار لناحية أخرى فقالت:

دعنا من هذا، قل لي ماذا وجدت فيمن أحببت؟ هل تمسّك بك أو حارب من أجل هذا الحب؟

ردت داليا بحزن وقالت:

للأسف لا، لم يفعل شيئاً.

تذكّرت آسيا ما كان في الماضي من ضعف سرحان وقالت:

للأسف يا داليا أننا نحب الأشخاص الخطأ أو يقع في طريقنا أشخاص غير جديرين بهذا الحب فهم ضعفاء يُرثى لحالهم ولا يُظهرون قوة ولا قتالاً للفوز بهذا الحب فيهربون من أول جولة، وأحياناً يهربون من الحياة كلها.

لذلك يا داليا تمسكي بمن يحبك ويريدك وقد تُثبت الأيام جدارته بك.

اكتفت داليا بالنظر لخالتها وراحت في التفكير تحاول أن تهتدى بعقلها بعدما طعن فؤادها من أحبته فلم يرأف لحالها ولا حبها له.

وفى بيت أبيها كانت محاصرةً بأنصار عصام من كل اتجاه، فأبوها يريده أن يستمر في هذا البيت ولدأ له ومعيناً بالرأي والجهد في كل شيء، وأمها أيضاً دفعتها عاطفتها القديمة له ولصداقته لولدها أمير فتعلقت به لتنسى معه آلام الفقد السابقة وترى فيه عوضاً عما مضى، فحاولت أيضاً بكل الطرق أن تستميل داليا لعصام فتُحبيه لها وتؤكد: كم أنه يحبها ويخاف عليها، تخبرها بذكرياتٍ قديمة عن عصام، فعند ولادته لم يكن والده حاضراً، كان في مهمة في عمله في مكان بعيد ولمّا شعرت ماجدة بآلام الوضع لم يكن أمامها سوى أميمة ومنير صديق زوجها فطلبتهم على الفور للمساعدة، وفور خروج عصام من رحم أمه للحياة كان منير أول من يحمله على يده وفرح به كولده.

هيات عقلها وحاولت مع قلبها لكنها لم تنجح، وقد رأت داليا في نهاية الأمر ألا خروج لها من هذا السجن إلا بالزواج، وقد أغلقت قلبها منذ خذلها رءوف فقررت أن تفكر بعقلها فقط، فرأت أن عصاماً رغم عدم قبولها له يتمتع بمكانة مرموقة في المجتمع كونه أستاذ جامعة ولديه حضور وتقدير لدى والدها

ووالدتها لكنها لا تستطيع أن تستسيغه كزوج، فقررت أن تمنحه بعض الفرص وتُنحّي انطباعها عنه جانباً فلعله يحبها كما يقول، وإن كان كذلك فقد تحبه هي الأخرى يوماً ما، وإن كانت قد كفرت بالحب أصلاً بعد أن غدر بها وخانها من أعطته زهرات قلبها، فلم يقاتل لأجلها بل فر هارباً ولم ينظر خلفه، فلتجرّب إذاً من يقول إنه يحبها فلعلها تفوز بالنجاة من بيت الأشباح هذا، وتهنأ بحياة مستقرة ليس فيها صراخ ولا عبوس، هكذا تأملت وليتها تمهّلت.



سباط

بعد شهور قليلة من تسلمها عملها كمعيدة في الكلية تم الزواج في إجازة منتصف العام، لم تشعر بسعادة أو فرحة تخطفها، راهنت على عقلها في اختيارها وها هو عقلها يعطيها كل ما هو جاف وجامد بلا طعمٍ أو لونٍ أو رائحة.

دخلت لعالمها المجهول تستكشفه بحواسها، عالم عصام الذي لم يستسلم يوماً للهزيمة وتسليمها لغيره ورأت أن هذا دليلاً على الحب كما ظنت لكنه في الحقيقة كان حب امتلاك وغيره على المقتنيات.

في أول يوم للزواج وبعد نهاية حفلة الزفاف الباهتة المزيفة التي لم تبسم فيها داليا ولو لمرة واحدة وظلت هكذا كتمثالٍ من الشمع في قفص من الزجاج ينظر إليه المارة والزائرون، دخل عصام شقته ومعه زوجته وجلس في غرفة الصالون بملابس الزفاف ودخلت هي لغرفة النوم ووقفت أمام المرأة لتبدل ملابسها، نزعَتْ عنها فستانها الأبيض وارتدت بيجامة من الحرير ثم خرجت إليه، وجدته جالسا أمام التلفاز بملابسه، سألته: هل ستغير ملابسك؟ أجابها: بأنه سيفعل بعد قليل، لم تُلح عليه

وتركته بحريته وجلست قريباً منه تشاهد ما يشاهد، توقعت أن تشاهد فيلماً رومانسياً بمناسبة الزواج لكنها تعجبت فاتسعت عينها لما رآته، فقد كان يشاهد فيلماً وثائقياً عن هزيمة ألمانيا وانتحار هتلر في الحرب العالمية الثانية وهَمَّت بأن تضحك فنظرت لعصام وجدته يشاهد بتركيز واهتمام وكأن هتلر والده، كتمت ضحكاتها خوفاً من أن يشعر بأنها تسخر منه فما زالاً في أول يوم زواج ولم يتعرفا على بعضهما كزوجين.

قامت فهيأت الطعام الذي وجدته جاهزاً في الشقة، فقد أحضرته والدتها قبل الحفلة، دعت عصاماً لتناول العشاء فقام فدخل وبدل ملابسه وارتدى بيجامة قطنية فقد كان الجو بارداً، جلس مع داليا وتناولوا العشاء في برودٍ أشد، استغربت منه كثيراً فقد ظنت أنه سيكون في غاية السعادة بعدما فاز بالزواج منها بعد تلك السنوات من الصدود لكنها رآته عادياً كأن الزواج كان أمراً طبيعياً، حسبه سيتكلم معها كثيراً فيضحك ويمرح كعادة السعداء لكنه بدا متجهماً وكأنه مصدوم منها أو متفاجئ بها، صامتٌ لدرجة الخرس يأكل ولا يتكلم أو ينظر إليها، تحدّثه هي فيكتفي بالإجابة بنعم أو لا أو ربما، أيقنت في قراراتها أن تلك طبيعته فلتتركه يتصرف كيف يشاء بدون ضغط.

ولم تكن تلك طبيعته إلا أن هناك حقائق ظهرت، وقد ظن أنها غير ذات أهمية من قبل، لكنه الآن يشعر بها ويفتقدها، فلم يحس

بتلك الفرحة التي تخطف القلوب عند رؤيته دالياً أو عند الاقتراب منها، ينظر لها خلسة يختبر تلك المشاعر في نفسه، يراها تدخل المطبخ وتخرج للصالون ترتدى بيجامة جميلة ملففة لكنه لا يلتفت، وقد تركت شعرها الأسود الناعم يرتخي فوق كتفها، يرى ابتسامتها ترسم دائماً فوق شفيتها فتزيدها جمالاً، لكنه لا يشعر بكل ذلك أيضاً.

دخلت غرفة النوم وتبعها هو بعد قليل فوجدها في السرير بجسدها الهش تحت الغطاء الذي جذبه فوقها ليحميها من برودة فبراير وبرودة عصام، لم يرها تشغل حيزاً في السرير وكأنها طفلة في العاشرة من عمرها، ذهب من الناحية الأخرى للسرير وتمدد هو الآخر من تعب حفلة الزفاف وأغمض عينيه قليلاً فنام.

توالت الأيام الأولى من الزواج وكانت أياماً طويلة ومملة، فكان عصام يسهر طويلاً أمام التلفاز يشاهده حتى الصباح تقريباً، ثم ينام طيلة النهار في الوقت الذي تنام فيه دالياً ليلاً وتستيقظ نهائياً، لتجد نفسها وحيدة كأنها لم تتزوج وكأن الرجل الذي ينام بالداخل ليس زوجها، أصابها الملل وفكرت في قطع الإجازة التي أخذتها للزواج وتعود لعملها في الجامعة لكنها خافت من نظرات المتطفلين لها ومن كثرة الأسئلة التي ستدور على الألسنة إن فعلت هذا، فصبرت على أيامها معه وليته ينام في سريره حيث تنام هي بل أحياناً ينام في غرفة أخرى وكأنه مازال أعزباً.

تنزل لحمايتها ماجدة لتكسر هذا الملل الذي أصابها، تسألها عن عصام فتخبرها أنه نائم، فتظن الأم أن الأوضاع طبيعية وعلى ما يرام فتصمت ولا تكثر الأسئلة، يأتيها عصام بعد استيقاظه ويجلس معها بعض الوقت ليلاً ويترك زوجته في شقته، يقتل الوقت بعيداً عنها فكان يخشى مواجهتها طويلاً حتى لا تبدو عليه علامات الخيبة التي يخبئها داخله والتي أَلقت عليه الكثير من الأسئلة:

أهذه من كنت ترجوها؟

أهذا الجمال ما كنت تنشده؟

أهذه الأنثى هي التي ستملاً عليك كيانك؟

يطرد هذه الأسئلة من باله فليس لها الآن إجابة قطعية، يحس بشيء ينقصه، يحب الجمال الصارخ الجريء المعلن عن نفسه في ثقة، يعشق الأنوثة التي تظهر في انقياد الزوجة لزوجها، لا يريد ذلك العقل المثقف المحاور الذي يشعر معه دائماً أنه في مناقشة علمية أو امتحان شفهي.

يخشى أن تلاحظ عليه ما يدور بداخله من معارك بين عقله وقلبه فيحاول أن يهرب منها، فيقتصر جلوسه معها وقت الطعام وأثناء الزيارات عندما يأتي أهلها أو أهله مباركين لهما فيكون هناك الكثير من الكلمات والحوارات التي تصلح لملء هذه الزيارات، فلا يدخل معها في نقاش ثنائي عن المشاعر والأحاسيس.

لم تكن مثله، فلم تكن تأمل في وجود رومانسية أو مشاعر ينبض بها فؤادها، وقد رضيت بأن يسود عقلها فيكفيها التفاهم والاحترام والتقارب الاجتماعي والثقافي، لم يتحرك قلبها يوماً تجاهه وكانت تظن أن التفاهم وطول العشرة قد يجلبا الحب كما صوّرت آسيا ذلك لها لكنها كانت مخطئة، فمع مرور الأيام تزداد الفجوة بينهما وكأنهما على طرفي جبل يكادان يهويان في وادٍ سحيق فيبحثان عن رابط يجمعهما ليعتدلا واقفين ويكملان هذه الحياة التي جمعت بينهما على غير وفاق.

وجاء الرابط فلم يتأخر قليلاً فبعد فترة وجيزة أحست داليا بشيء يتكون في أحشائها وتأكدت أنه حملاً ففرحت فرحة الأمومة المنتظرة التي هوّنت عليها الكثير مما تمر به مع هذا الفراغ.

مضى أكثر من شهرين على الزواج وباشرت داليا عملها وعصام أيضاً وجد مكاناً للهرب، وفي أحد الأيام ذهبت وهي راجعة لشقتها لزيارة الدكتورة سيادة عمة سوزان صديقتها، ذهبت لها في صيدليتها لترأها فلم تزورها منذ مدة طويلة لكنها لم تجدها في الصيدلية، أخبرتها فتاة تعمل في الصيدلية أن الدكتورة اتصلت بها وقالت: أنها ستتأخر اليوم وستأتي في المساء، شكرتها داليا وهَمَّت بالخروج لكنها رأتها يتقدم إليها بخطوات واثقة نحو الصيدلية، لم تصدق عينيها فارتبكت لكنها حاولت

مدارة ارتباكها، وصل للصيدلية وألقى التحية ونظر للفتاة ولم يُعرها هي أي اهتمام، سأل عن دكتورة سيادة، أخبرته الفتاة بغياها رجاها أن تعطيها هذه الدعوة فور وصولها، أكدت أنها ستفعل فشكرها وانصرف ولم ينظر خلفه أو يطمئن عليها، نظرت للدعوة في يد الفتاة التي قرأتها بصوتٍ مسموع فقالت:

(يدعوكم دكتور/ رءوف عبد الرحمن لحضور حفل زفافه على الأنسة/ منال عمر، في قاعة ليلتي على كورنيش النيل يوم الخميس القادم، حضوركم يشرفنا).

صدمتها الكلمات فأحست بوقعها في أذنها، تشوّش عقلها وتحرك قلبها الذي تجمد منذ فترة طويلة وليته ما تحرك فقد أحست بغصة تعصر قلبها فتوجعه، لماذا يا رءوف؟ لماذا ظهرت الآن أمامي؟ ألا يكفيك ما فعلته في قلبي وروحي؟ حتى تأتي الآن لتذبحني بسكين بارد؟ وكأنك تعلم بوجودي وجئت لتخبرني بزواجك من أخرى لا تدري هل أحبتك كما أحببتك أنا أم لا؟ ولم تحاول من أجلي محاولة واحدة تحترم بها نفسك إن جلدتك ذاتك يوماً، فتركتني ووليت ظهرك وكأنك لم تلقاني أبداً.

دارت أفكارها في بالها وهي تنظر، تراه يبتعد حتى اختفى في الزحام، حاولت دموعها أن تخفف من حرارة خديها فتسقط عليها قطرات الندى لكنها تجللت ولم تبك عليه فلا يستحق البكاء بل يستحق البكاء عليه لما هو مقدم عليه من علاقة جوفاء، زواج

مثل أي زوج، ذكر وأنثى يرتبطان، جسدان يلتقيان، أما الأرواح
فشتان وشتان، وتمر السنون والأيام ويأتي الأطفال لينشغل
الزوجان بهم حتى الممات وإن كانا هما في ممات في هذه
الحياة التي لم يشعرا بحياة القلب فيها.

عادت لشقتها تجر رجليها، أحست بثقلهما وعدم طاعتها
لها، وصلت مجاهدة متعبة تشعر بتعب الروح وشقاء القلب،
استلقت وتمددت لعلها تغفو فتصحو، ابتلعت الحادثة ومحت
رؤيته من ذاكرة عينها، تظهر الجلد والقوة لتعيش بالمتاح.



أد

مرت الأيام عليهما، وعصام كما هو منذ الزواج لا يتكلم كثيراً ولا يضحك إلا نادراً إلا في المناسبات الاجتماعية التي تضم آخرين، لا يوجد لغة للحوار بينهما فالميلول الثقافية مختلفة، فداليا تحب القراءة كثيراً في مجالات مختلفة منها الطب ومنها الأدب، لكنه هو لم يكن قارئاً مثلها فكان يكتفى فقط بمجال تخصصه وبقدر من القراءة تكفيه لأداء عمله فلم يكن يعتبر مجال تخصصه ذا قيمة ويراه علماً لا ينفع، يريد أن يجني المال سريعاً ليصبح ثرياً ويمتلك مشروعاً خاصاً بعيداً عن مجاله، فكّر كثيراً لكن كل الأفكار تحتاج للمال، وراتبه هو وزوجته لا يبقى منه الكثير ليصنع منه مشروعاً الخاص وكان لا بد له من حل لهذه المشكلة.

فكّر في السفر للخارج، لكن داليا كانت في الشهور الأخيرة من الحمل وأوشكت على الولادة فأرجأ السفر، وكانت الطيبة قد أخبرتهما أنهما سيرزقان بنتاً ففرحاً أشد الفرح بها وانتظرا وصولها على عجل لتشغلها عن واقعها القاتم.

وكانت داليا تتردد بين الحين والآخر على بيت والدها تطمئن على والدها ووالدتها، فقد خلا البيت عليهما بعد زواجهما هي

ومن قبلها رانيا وأصبحت وجهاً لوجه لم يكسر الزمان الندية بينهما، تحدث المشاكل كثيراً بين منير وأميمة فتشكو أميمة لابنتها من سوء طباع أبيها وقهره لها، فلا تملك داليا شيئاً لتفعله سوى أن تنصح أمها، أن تفهم طباع أبيها أكثر وتتعامل معه بلين وحنان بدلاً من جفائها وجمودها العاطفي تجاهه، تخبرها والدتها أنها تحب أباهما جداً فتندش داليا أكثر، أهذا هو الحب؟ وهذه هي نتيجته؟ فما الحال إذن لو لم يكن هناك حب؟

تلتقي برانيا في بيت أبيهما تطمئن على حال أختها الذي لم يكن أفضل من حالها هي، فقد كان زوج رانيا بخيلاً حريصاً لا ينفق بسعة على زوجته بحجة تأمين المستقبل، وها هي رانيا قد أنجبت طفلها الأول وانشغلت بينه وبين عملها كمدرسة في إحدى المدارس، تشكو رانيا من زوجها الذي لا يعطيها شيئاً تملكه لتتصرف في بعض أمورها وقد ذهبت توقعاتها أدراج الرياح، فقد ظنت أن ضعفه سيجعلها تسيطر وتسود كما أخبرتها خالتها آسيا وكما ظنت هي لكنها أيضاً كانت مخطئة فقد قطع بخله عنها إمدادات السيطرة والهيمنة فلم تشعر معه بالراحة والاستقرار، وبالطبع فالسعادة مفقودة معه من قبل الزواج، فلم تحب رانيا زوجها بل تزوجته زواجاً تقليدياً خلا من مشاعر القرب والمحبة.

تراقب داليا كل هذه الأحداث والحكايات فتصبر على حالها مع عصام فهو ليس بخيلاً مثل زوج أختها، بالعكس فهو مسرف

في كثيرٍ من الأحيان وليس متسلطاً كوالدها فيشعرها بالقهر كما يحدث مع والدتها فهو أحسن من الرجلين حالاً فرضيت به وصبرت، لكن مع صبرها الطويل تشعر أن شيئاً ما ينقصها فتخلو بنفسها كثيراً لتسمع دقات قلبها في سكون الليل فتذكرها كيف دقت بسرعة ولهفة لأول مرة عندما رأت رءوفا وكم كان هذا الإحساس جميلاً، لقد روى صحراء قلبها الظامئة فأحالتها جنة خضراء فتفتحت فيها الزهور وتنسجت فيها الحياة فتحن لتلك المشاعر، وعندما تنظر بجوارها الآن تجد زوجاً مُلقى بجانبها يغط في نومه فتمنّت أن تحيا من جديد أو أن يموت قلبها للأبد فلا ينقصها من حين لآخر.

فهربت لتنام وأسلمت نفسها للنعاس لتمضي تلك الليلة كباقي لياليها الجوفاء، لكنها لم تنهأ بالنوم فقد قامت تصرخ وتلوى من الألم وتستغيث بعصام الغارق في سباتٍ سحيق، جذبه ليستيقظ فقام مفزوعاً يسألها: ما الخبر؟ أخبرته بشعورها بآلام المخاض فليذهب بها سريعاً للمستشفى، فقام وارتدى ملابسه وساعدها لترتدي ملابسه، ونزل بها على الدرج ولحقته والدته وهو يركب السيارة لتسأله: ماذا هناك؟ أخبرها بوضع داليا فنزلت هي الأخرى لتذهب معه.

لم تستغرق وقتاً لتضعها، وأحست بفرحة تملأها عندما سمعتها تصرخ فور خروجها من رحمها، أخذتها في حضنها

تحميها من غدر الدنيا، وبعد قليل هدأت أنفاسها وجففت عرقها ونظرت لملاح ابنتها فانزعجت لما رأتها سمراء البشرة مثل أييها فلا تريدها أن تكون ابنة عصام تريدها ابنتها هي تأخذ منها كل ملامحها، فأخبرتها أميمة أن الأطفال تتغير ملامحهم كثيراً مع تطور الأيام والشهور الأولى من العمر فليست هذه الملامح هي ملامحها النهائية أو ذلك اللون هو اللون الطبيعي لها فاطمأنت قليلاً ترجو أن يكون كلام أمها صحيحاً.

مرت الشهور على داليا وهي تفرح وتمرح بلعبتها الجديدة، ابنتها التي أسمتها أملا عسى أن تكون أملاً لها وعوناً في سنوات عمرها المقبلة لكن مع مرور الوقت شعرت داليا ببعض الضيق تجاه ابنتها فقد وجدت ملاح عصام ترسم شيئاً فشيئاً فيها حتى لونه الأسمر قد صبغ بشرتها وقسمات وجهه ظهرت في وجهها فانتابها الفزع، فكلما نظرت إليها تذكرته، فقالت: ما هذا يا ربى؟ تأملت أن تأتيني فتاة أنسى بها زوجي قليلاً وأجد فيها سعادة بعيدة عنه، لكن أملا نسخة منه كلما رأتها رآته، فوجدت داليا نفسها محاصرة بعصام طيلة الليل والنهار فلم تأخذ أمل شيئاً من داليا سوى أنها أنثى مثلها أما الباقي فكله لعصام، وقد أشادت أمها أميمة بهذا ذات يوم فأخبرتها أن المرأة التي تحب زوجها تُنجب أطفالاً يشبهونه وبالطبع انتشى عصام عندما سمع تلك الكلمات من حماته التي تحبه كولدها.

كبرت أمل وتجاوز عمرها العام ونصف عندما قاربت داليا أن تناقش رسالة الماجستير الخاصة بها وأيضاً قد أوشك عصام على الانتهاء من رسالة الدكتوراه فتمت مناقشة الرسالتين في عام واحد، وبعد أن أصبح عصام مدرساً ومحاضراً بالكلية بحث بجدية عن فرصة للسفر كمحاضر في إحدى الدول العربية وقد وجد بالفعل إعلاناً وفرصة للسفر في إحدى الجامعات في دول الخليج فعرض الأمر على داليا لتشجعه في هذه الخطوة لكنها خافت من الوحدة خصوصاً أنها ستبقى تحت مجهر حمايتها كلما خرجت أو دخلت، مع أنها بالفعل تشعر بالوحدة في وجوده هو، لكن على الأقل وجوده يضمن لها استقلاليتها بعض الشيء، فاستثمر عصام فكرتها هذه ليقوي بها دوافع السفر فأخبرها أن السفر سيساعدهما في بناء منزل مستقل بعيداً عن بيت أمه ووصايتها فلتتحمل قليلاً وستلحق به بعد قليل بعدما يستقر ويهيئ الأمر لاستقبالها لتستقر معه هناك.

وافقت على الفكرة على أمل ألا يتأخر عليها في استقدامها معه فتكون بعيدة عن حمايتها وعن كل ما يذكرها بما آلم قلبها يوماً ما.

استعد عصام للسفر فأنهى الإجراءات بسرعة وسافر في غضون شهرين وترك داليا مع أمل الصغيرة التي بلغت العامين الآن وبدأت تلقي على مسامع داليا أحلى كلمة يمكن لأم أن تتخيلها، ماما.

يتصل بها يومياً يسأل عنها وعن أمل، تسأله: متى ترسل لنا لنأتيك؟ يخبرها أن هناك إجراءات كثيرة وطويلة ولا بد أن يستقر أولاً، ارتابت منه وأحست أنه يماطل معها فلا تستغرق المكالمات بينهما سوى دقائق معدودة تتخللها تلك العبارات والجميل التقليدية وكأنهما صديقان أو زميلان وليسا زوجين، أحياناً يغيب ولا يتصل فتتصل هي فيتعلل بعمله وكأنه أراد السفر هدنة ليرتاح منها على الرغم من عدم ازعاجها له، لكنه كان يريد أن يعود لحياته قبلها وتخيالاته للمستقبل والأحلام لكل شاب في مقتبل عمره، أحس أنه أخطأ عندما تزوجها لكن أسرتها كانت ومازالت أباً وأماً له وقد شعر بالحنان بين منير وأميمة، ليته تزوج رانيا الصغيرة إنها أقرب له من داليا فهي تفهمه ويفهمها وطباعهما متقاربة ويشعر معها بكيانه وشخصيته، لكن داليا كانت هي الكبرى ولم يكن من المنطقي أن تتزوج الصغرى أولاً لكن للأسف ولسوء حظه المتعثر فقد تزوجت فعلاً الصغرى أولاً، تزوجت رانيا قبل أن يتزوج هو من داليا فلو صبر قليلاً لفاز بما تمنى، لكن العجلة والعداء أعميا بصره وبصيرته فاختار زوجة لم تحبه يوماً وظن أنه أحبها لكنه الآن يشعر بالحقيقة الماثلة أمام عينيه أنه لم يحبها كأثنى بل حاول أن تكون رابطاً له مع هذه الأسرة التي يريدها، فليجني اليوم ثمار ما زرعه في الأمس ولا يلوم من إلا نفسه.



نقـر

أَحَسَّتْ بفراغ يقتلها رغم تصنعها الانشغال، فكانت تذهب للجامعة وترجع للشقة وأحياناً تجلس مع حماتها التي دائماً تُشعرها بأنها أقل من فتيات كثيرات في مثل عمرها، تحكي لها ماجدة عن سفرها ومعارفها وكيف كانت تبدو النساء والفتيات، تشعر داليا بالنقص والدونية وكان ذلك ما تبغيه ماجدة وما تقتنع به فلم ترها يوماً جديرة بعصام وكانت ترى عصاماً أحق لأنه لم يستمع لنصائحها ويتركها هي تختار له فتاة تناسبه من حيث الجمال والمال.

لم تجد الراحة مع حماتها ففضلت أن تجعل زياراتها قليلة وقصيرة وقررت أن تغيب وقتاً طويلاً في بيت أبيها يلهيها عن ماجدة وصلفها معها لكنها للأسف لم تجد بيت أبيها أكثر راحة من بيت ماجدة فالعلاقات متوترة دائماً والجو مشحون بالعصبية والغضب فقررت أن تبقى في شقتها وتغلق عليها بابها، تنشغل بابتها التي تكبر يوماً بعد يوم وتستعجلها داليا أن تكبر لتصبح صديقتها التي تبوح لها بأسرارها، لكن ليس كل شيء يأتي بالعجلة.

أقبلت على القراءة في رواياتها المفضلة وانطلقت في متابعة عملها لتقرأ فيما نُشر حديثاً من أبحاث، تبحث فيها عن فكرة جديدة تكون نواة لرسالة الدكتوراه التي يجب أن تبدأ في الإعداد لها واستغلال ذلك الملل في فعل شيء نافع.

كانت مواقع التواصل الاجتماعي قد بدأت في الانتشار فأنشأت لها حساباً على أحد المواقع تتابع به ما يدور حولها، تطلع على أخبار ومناسبات وعلى معلومات جديدة، تنضم لمجموعات نسائية وثقافية وتشارك ببعض الآراء هنا وهناك.

جذب انتباهها أحد الأعضاء على أحد المنتديات الثقافية بمشاركاته الأدبية المتميزة فتابعته بشغف لعدوبة كلماته التي تفيض برومانسية مفقودة منذ سنين، تابعت منشوراته وأبدت إعجابها بما يكتب في التعليقات فتابعها هو الآخر وبدأ يتفاعل معها وكثرت المتابعة وتلتها بعض المحادثات الخاصة، يتكلم معها عن الشعر والأدب وكان يروق لها هذا الجمال البديع في أشعاره وخواطره فصارت بينهما صداقة تستلزم الحوار اليومي تقريباً لكنه لم يخرج عن نطاق الصداقة فقد علم اسمها وتفصيلها من حسابها الشخصي أما هي فلم تعلم عنه إلا أن اسمه: رامي، وهو لبناني كما أخبرها وكما لاحظت في لهجته في طريقة الكتابة والمحادثات.

وبعد أن تعلقته به فكانت تقتل معه بعض الوقت الطويل الذي تعيشه، اختفى فجأة فلم تجد له منشورات أو فعاليات مرة

أخرى فأرسلت له رسائل لكنها لم تجد رداً ولا جواباً، أصابها
يأسٌ واعتبرت أن الأمر لم يبدأ أصلاً فانشغلت بما معها.

كانت وحيدة وضائعة وتائهة في صحراء دنياها فلا تجد ماء
يرويها ولا طريقاً يهديها، تنظر في جهاتها الأربعة فلا تجد سوى
الرمال الجافة تملأ الآفاق، لم تجد من يأخذ بيدها ويخرجها
من تيهها، لم يكن عصام يملأ ذلك الفراغ في نفسها وروحها
فلم تكن مكالماته تستمر سوى بضع دقائق معدودة لأسئلة
وإجابات معلبة معروفة من باب الواجب والعادة فقط وليس
بدافع الشوق والجوى.

وذات يوم فتحت حسابها الإلكتروني فوجدت رسائل من
شخص غريب يسلم عليها باسمها وكأنه يعرفها، تتبععت حسابه
بحثاً عن معلوماته الشخصية فوجدته مصرياً يسمى سمير سلامة
من المنصورة يعمل في الجامعة، استغربت فلم تعرفه من قبل
فكيف هو يعرفها ويسألها عن أخبارها وحالها.

أرسلت له رسالة تسأله: من أنت؟ وماذا تريد مني؟ أخبرها
أنهما تحدثا من قبل منذ شهور فحاولت أن تتذكر لكنها لم تذكر
أنها تعرف أحداً بهذا الاسم لكنه فاجأها بأنه رامي، من كانت
تتحدث معه من قبل، اندهشت فقالت: أن رامي، لبناني، وأنت
مصري؟ أخبرها أنه هو، وطلب منها محادثة صوتية فسمحت له

واستمعت له فكان بالفعل صوته نفس الصوت الذي تعرفه لولا
تغير اللهجة من اللبنانية للمصرية، سألته: لم فعلت هذا؟ لم
خدعتني طيلة هذا الوقت؟ طلب منها السماح فقد كان مضطراً
لفعل هذا لظروفٍ خاصة ستعرفها فيما بعد، عفت عما سلف
وبدأت معه من جديد علاقة تعدت حدود الصداقة فبدأ يحدثها
عن أموره العامة والخاصة، عن عمله ومشاكله مع الجامعة حتى
اضطر أن يستقيل منها ويرتب للعمل الخاص، عن زوجته التي
بينه وبينها مشاكل كثيرة وصراعاتٍ طويلة وهما على حافة
الانفصال لولا أن هناك ولدين له منها وهو الآن منفصل نفسياً
وروحياً عن زوجته ويقيم في سكن منفصل عنها.

كان معسول اللسان جميل التعبيرات، كلماته معها سحرتها
وأشعرتها أنها مازالت حية فأحست بقلبها ينبض من جديد بعدما
تملكها شعور بالوحدة واليأس.

ظنت أنها لو تركت قلبها وراء ظهرها يتأوه ويتألم ولم تعباً له
ستنعم بالراحة والسكينة، لكن قلبها عاقب إهمالها له بزيادة نقره
وسرعة دقاته فظل يطرق بابها دون ملل فيعلو صياحه بين
ضلوعها كطائر حبيس في قفص، وما إن وجدت سميراً حتى
خارت قواها واستسلمت فأسلمت قلبها وكفرت بعقلها وتأكدت
أنها طيلة وقتها السابق كانت تبحث عن الحب أو عمن تحب،

شعرت أنها تحبه، في الوقت الذي غاب فيه عصام كل الغياب، فلم يهتم عصام بما تعاني وإن كانت تعاني في حضوره أيضاً، لكن وجوده سيمنعها ويشغلها عما ترتكبه الآن، انسأقت وراء كلمات سمير تنتظره بشوق ليبدأ معها الكلام، حكّت له بعض مشاكلها وليس كل شيء، أحست أنهما متشابهين إلى حدٍ ما فهناك الكثير يجمعهما معاً، التفكير متقارب والاهتمامات متشابهة والأذواق متماثلة، أحست أنها وجدت حبها الحقيقي الذي غاب عنها كثيراً، عاشت أياماً وليالي في أوهاام خادعة لا تريد أن تفيق منها وظنت أنها تحيا من جديد.

فاعترفت له واعترف لها، طلب لقاءها فارتبكت ورفضت، لم تصل بعد لتلك المرحلة فلم تأمن كل الأمن تجاهه، قَبِلَ منها صدها وأكبرها فاقتربت منه أكثر ومنحته ثقةً أغلى، أحست بالأمان وتاهت في بحر العسل.

وبعدما اطمأن أنها وقعت في شباكه واستسلمت لسهامه بدأ يحبك لها ما يوصله لغرضه منها فحكى لها عن مشروع بدأه ويحتاج لبعض المال لاستكمال مراحلها ولم يطلب منها مائلاً في البداية فهو متأكد من أنها ستعطي دون طلب وصدق توقعه فقد كانت حنونة أو ساذجة بعض الشيء، عرضت أن تعطيهِ المال فتظاهر بالرفض، ألحت فقبل حتى لا تغضب منه، ذهبت لأقرب مكتب بريد وأرسلت له حوالة مالية تحوي راتبها كله وقرضاً من إحدى زميلاتهن فشكرها لوقوفها بجواره.

مضت الأيام والليالي وعصام على حاله يماطل في استقدامها حتى أخبرها في النهاية أنه سينزل إجازة لمصر وينهي الإجراءات ليأخذها معه، لم تعد تصدقه كثيراً فأهملته لَمَّا أهملها وأخبرته حين آخرها وكانت مشغولة بمن افترس فراغها ونهش ضعفها وصدّقت أنه يحبها، أخبرته بميعاد عودة زوجها قريباً فليحذر التواصل معها.



المرض

عاد عصام بعد عام تقريباً منذ سفره، قابل زوجته بمحبة وود
يفتقدان للصدق فقابلته بوجه تائه بين الفرحه والفتور، تبتسم
وتنقبض في آن واحد، أعطته أملاً يُقبلها ويحملها بعدما كبرت
فقد بلغت ثلاث سنوات فحملها بحب وسرور حين وجد
ملامحها ملامحه وكأنها صورة منه وهو صغير، شغلته عن أمها
وإن كان مشغولاً عنها منذ غادر.

كانت إجازته شهراً قضاهها في زيارات الأقارب والمحبين
يوزع الهدايا على من يحب، وقد خص رانيا أخت زوجته
بنصيب خاص من الهدايا لترى كرماء لم تره من زوجها الشحيح.

تصحبه داليا وترسم على وجهها علامات السعادة والفرحة
بعودته ويراهها الناس فيصدقون ما يرون، تراها أمها فتحكي لأبيها:
كم أن داليا سعيدة مع عصام وأنهما كانا على حق في تزويجها به
فيطمئن منير ويحمد الله أن وفقه للصواب ويدعو لها بالمزيد،
وتؤمن أميمة على دعائه.

كان قد جمع بعض المال في غربته فقرّر أن يدفعه مقدماً لشقة
يسكنها في القاهرة في مكان ليس له خبرة ولا أحد ينصحه هناك،

أخذ ما جمعه من مال وباعت داليا ذهبها أيضاً وأعطته قيمته فأخذ هذه الأموال جميعاً وذهب ليتعاقد مع إحدى الشركات العقارية ووقع عقداً وفرح به وعاد لتفرح زوجته بشقة المستقبل.

انتهت إجازته سريعاً فكانت كالحلم لم تشعر بها داليا ولم يشعرها به فقد قضاها في تنقلات وعلاقات كلها خارج بيته ثم سافر وكأنه لم يأت أصلاً.

صدق معها هذه المرة فأرسل لها أوراق استقدامها وأخبرها أن تذهب لسفارة عَمَّان في القاهرة لتصديق بعض الأوراق، تواصلت مع سمير وأخبرته، علم أنها فرصته ليطلب منها المزيد فاتفق معها أن يقابلها في القاهرة فوافقت وكانت سعيدة لأنها ستراه لأول مرة، سافرت للقاهرة وتقابلا هناك ورأته فزادت سعادتها به، فقد كان يشبهه كثيراً وكانت فيه ملامح رءوف، ملامحه الدقيقة السهلة وصوته الحاني الدافئ، وكان ذلك كافياً أن يغزو قلبها بكل قوته فغابت عن واقعها معه، ساعدها في إنهاء الإجراءات وذهبها ليجلسا بعض الوقت في مكان هادئ على النيل، باحاً بأسرار القلوب ووجدها لانت وذابت فطلب منها مالا مرة أخرى فزوجها كان معها منذ وقت قصير، خافت أن تعطي ما ليس تملكه فاعتذرت وأخبرته أن ليس لديها مال يخصصها، ألح عليها فأقسمت أنها اقترضت من زميلتها مالا ولم ترده إليها بعد، انقبض جبينه وتجهمت ملامحه وصمت، اندهشت من ردة فعله وصمتت

فتوقف الحوار وانتهى اللقاء وذهبت لتستقل سيارة ترجعها لمدينتها مرة أخرى.

فور عودتها اتصلت به تخشى أن تكون أغضبه فلم يرد عليها، ألحت عليه مرات في أيام متتالية رد عليها أخيراً بعصبية وغضب وطلب منها ألا تتصل به مرة أخرى.

كادت أن تسقط من فرط ذهولها، ماذا صنعت لتلقى هذا؟ من هذا الذي كانت تحدثه؟ هل المال كل ما يطلبه؟ ألا يشكر لها ما أرسلته في السابق؟ إنه لم يُشر إليه أبداً في حوارهِ معها وكأنه حق مكتسب مع أنها أخبرته باقتراضه فليس كله مالها لكنه لم يتعهد بإرجاعه، هل كل ما سبق كان خدعة؟ هل وقعت في فخ الرجال مرة أخرى؟ تباً لكل الرجال بل لعنة الله عليهم جميعاً فأحدهم استغل براءتي والثاني استغل ضعفني واستكانتي والثالث يستغل حاجتي ووحدتي وقبلهم وبعدهم جميعاً أبي الذي استغل سطوته فقهرني، ألا لعنة الله على كل رجل.

كفرت بكل شيء وساء مزاجها وتلفت روحها فأصابها الهم وأدركها الوهن، ليس لها نصير في هذه الحياة ولا تستطيع الشكوى فكلامها اعتراف بذنبها واستحقاق لعقوبتها.

ابتلعت مصيبتها وأودعتها في طي الكتمان لكن ألمها أرقها فأحرقها فتبدو هائمة حائرة، ألهذا الحدهي ساذجة ويمكن خداعها؟

انشغلت بإنهاء إجراءات السفر وجاء الموعد فانطلقت هي وأمل لتركب الطائرة وتهرب من ماضيها لعلها تجد حياة هائلة أو أقل سوءاً مما لاقته على أرض مصر.

استقرت مع عصام في عُمان، لكنَّ الملل أصاب حياتها فتظل طيلة النهار مع أمل حتى يأتي هو مساءً فيجتمع شمل الأسرة ويتناولان العشاء ويبقى معها حيناً ثم يخلد لنومه فلا يسهر وذلك لطبيعة عمله في الصباح الباكر وهكذا كل الليالي.

مضت بضعة أشهر واكتشفت بعدها أنها حامل، فرحت كثيراً أن سيأتيها طفل آخر تلاعبه أمل وفرح عصام أيضاً لكن الفرحة لم تكتمل فعند وصول الحمل للشهر الثالث جاءها نزيف فهرولت للمستشفى وأخبرتها الطبيبة أنها حالة إجهاض ولا بد من إجرائها بسرعة، حزنّت كثيراً على فقد جنينها وعبس عصام واسودت الدنيا أمام عينيه ودخل في حالة اكتئاب كعادته التي تكررت كثيراً في هذه الفترة، لكنه قضاء الله وقدره وبعد اطمئنان الطبيبة عليها نصحتها بعمل بعض الفحوصات والتحاليل للتأكد من أسباب النزيف والإجهاض فذهبت للمختبر وأجرت التحاليل وانتظرت النتيجة خلال أسبوع.

استلمت النتيجة في موعدها وعادت لشقتها، لم تفتح النتيجة لتقرأها ظنت أنها نتيجة عادية وعادت ففتحت حسابها الإلكتروني لتجد فيه رسائل كثيرة منذ الصباح من سمير يعتذر لها عن أسلوبه معها في الحوار الأخير ويرجوها أن تمنحه السماح هذه

المرة فقد كانت لديه ظروف كثيرة معقدة وكان مريضاً لفترة طويلة ولم يكن في حالة جيدة لذلك كان سيئاً معها.

اتسعت عيناها وتسارعت أنفاسها وهجمت على لوحة المفاتيح وكأنها تضربه بحروفها، وَبَحَّتْهُ وَعَنَّفَتْهُ وَأَمَرَتْهُ أَلَا يَتَوَاصَلَ معها، رجاها ألا تفعل فليس له سواها تسانده لكنها لم تنخدع وقررت أن تغلق حسابها نهائياً حتى لا يلاحقها وفجأة سمعت صراخ أمل فهرولت إليها ومرت بنتيجة التحاليل التي وضعتها على المنضدة فور دخولها الشقة ونسيت أن تقرأها فأخذتها وجلست لتقرأها.

غابت طويلاً وأخرس الذهول لسانها وأنساها ما كانت تفعل، فقط الدموع تنهمر على خديها في صمت ولا تصدق ما تراه في نتيجة التحاليل فأعادت القراءة أكثر من مرة، عاد عصام فوجدها هكذا أمام الكمبيوتر وحسابها مفتوح والرسائل تنهمر من سمير، وداليا تمسك بيدها النتيجة ولا تفعل شيئاً.

توجه نحوها عصام وسألها: هل هناك شيء؟ أعطته النتيجة، وقالت: التحاليل تؤكد أنى مصابة بفيروس C، صدمته فتقدم نحوها يأخذ منها النتيجة لكن عينه وقعت على المحادثة المفتوحة والرسائل المتعاقبة من شخص اسمه سمير.

حار فيما يفعل فدليل إصابتها في يده ودليل جريمتها أمام عينيه، صرخ في وجهها:

من سمير هذا يا هانم؟

أفاقها بصراخه فالتفت فوجدت مصيبتها الثانية وأحست
بنهايتها، صرخ فيها مرة أخرى وهزها من كتفيها وألحَّ عليها في
الإجابة فقالت وهي باكية:

هو من أصدقاء حسابي الإلكتروني.

حدَّق في عينيها وقد نسي إصابتها بالفيروس، وقال:

لكن من الواضح من الرسائل أنه ليس صديقاً عادياً ويبدو أن
هناك علاقة خاصة تجمعكما، أليس كذلك؟

صدماتها أوهنت قواها فدافعت عن نفسها بما وجدت من قوة
أخيرة لها، فقالت:

لا توجد علاقة خاصة فكل شيء عاد وعندما تجاوز حده
ألغيت صداقته، وقرأ الرسائل لتفهم.

لم يصدقها وتملكه الغضب فقرر أن يخبر أهلها بما وجد،
تركها فريسة للمرض واليأس، كان حظها متعثراً فاجأها المرض
وفاجأتها الفضيحة، اتهمها بالخيانة نسي ما هي فيه من مصيبة.



الأس

لم يتمهل ويستوعب ما قد يحدث ومضى بدون تفكير فتحدث هاتفياً مع منير وأخبره بما وجده واتهمها بالخيانة وهدد بالطلاق، تفاجأ منير بما يسمع وصدمة العبارات المتتالية بقسوة وبتوبيخ غير معلن عن تقصيره في تربية ابنته لكنه استمع للنهاية وطلب من عصام أن يعطى الهاتف لداليا لسمع دفاعها عن تلك الاتهامات أولاً ثم ليفعل عصام ما يريد لكن لا بد من التثبت مما يدعيه على داليا، كان عصام كجمرة من الغضب يتحرك بعصبية أثناء المكالمة فعاد إليها حيث تجلس فلم تكن قد تحركت من مكانها منذ قرأت النتيجة، أعطاهم الهاتف وأخبرها أن أباهما يريدانها فأمسكته بيديين مرتعشتين ودموعها تفيض منهما على خديها، عقلها ذهب كل مذهب في مصيرها أو نهايتها من المرض أو من عصام، لا تدر ماذا تقول، وضعت على آذانها وقالت بصوتٍ يرتجف:

نعم يا أبي.

ما إن سمع صوتها حتى قال بسرعة:

داليا ما هذا الذي يقوله عصام؟ هل كلامه حقيقي؟

كانت مصيبة المرض أكبر من كلام عصام، فقالت:

أبي، أنا مصابة بفيروس C

لم يستوعب ما تقوله ولم يتوقع كلماتها قط فقال لها مستنكراً:

ماذا؟ أي إصابة، وأي فيروس، يا داليا؟

أكدت له ما تُنكره أذناه فقالت:

أنا أجهضت منذ أسبوع وأجريت تحاليل والنتيجة أظهرت أنني مصابة بالفيروس.

تأكد ما كان يخشاه فشعر بالضعف والشفقة تجاهها لكنه تساءل في نفسه عما قاله عصام ولم يفهم علاقة الأحداث أو ترتيبها لكن صدمة مرض داليا غطت على كل الصدمات فقال لداليا مُهَوِّناً أَلَمَها وإن كان يعلم خطورة الأمر:

ربنا كبير يا ابنتي وكل داء له دواء، فلا تيأسي يا داليا.

جففت دموعها قليلاً، وقالت:

ونعم بالله يا أبي لكن أنا خائفة جداً وأمل صغيرة فمن سيتولى أمرها.

يعلم ما تشعر به فأثر أن يشجعها فقال لها في حزم:

لا تقولي هذه الكلمات يا داليا ولا تيأسي من روح الله وليكن اسم أمل هو شعارك ولن أتخلي عنك أبداً.

وطلب منها أن تعطي الهاتف لعصام حتى يكلمه فأخذه عصام
منها، وقال:

نعم يا أستاذ منير.

ما إن سمعه حتى قال له منير:

من أنت يا عصام؟ ألا توجد في قلبك رحمة؟ داليا مريضة
بالفيروس وأنت تتهمها بأشياء قد لا تكون صحيحة، أين حبك
لها وخوفك عليها؟ إنها أمانة لديك، إنها أم ابنتك، ألا تستحق
منك الرعاية؟ والوقوف بجانبها في ظروفها هذه؟ أم تكيل لها
الاتهامات فتؤثر سلباً عليها؟

رد عصام فقال:

يا عمى، لو كنت مكاني لفعلت ما فعلت، قد رأيت محادثات
بينها وبين رجل غريب، رأيتها بعيني.

قال منير في غضب:

حتى وإن كان ما تقوله صحيحاً فالأولى الآن شفاؤها مما هي
فيه ثم ننظر فيما تقول أنت، أين عقلك يا دكتور عصام.

قال عصام:

سأذهب بها إلى المستشفى لعمل اللازم.

قال منير:

بل ستذهب بها للمطار وتحجز لها أول تذكرة طيران لها
ولأمل لمصر سنرعاها أنا وأمها هنا، فهي تحتاج لرعاية نفسية
قبل العلاج العضوي.

قال عصام:

سأفعل ما تريد وأرسلها إليكما في أسرع وقت.

عادت داليا لمصر بسرعة، عادت كَسِيرَةً محطمة تَمَلِّكها شعور
باقترب النهاية ودنو الموت، مرت عليها أيام وليالي تبكي على
حالتها وتبكي على ابنتها التي لم تكتمل فرحتها بها، لكن منيرا
وأميمة لم يرضيا بتلك الحال فقد أجرى منير اتصالات كثيرة
بخيرة الأطباء وبدأ برنامج علاج لها بالإنترفيرون استمر لنحو عام
كامل حتى تنتهي من جرعاتها كاملة، وكانت أميمة تتولى مسؤولية
أمل ومسئولية داليا بعدما تعود لها بعد تلك الجلسات منهكة
القوى من تأثير ما تناوله من أدوية فتهتم أميمة بحالتها وغذائها
وبث روح الأمل فيها ويأتي منير ليذكر لها نماذج كثيرة تم
شفائها من هذا المرض ويجب أن تحارب المرض بعزيمة قوية
من أجلها ومن أجل ابنتها.

كان عصام يتصل على فترات للاطمئنان على داليا وليسمع
صوت ابنته من آن لآخر ولم يتسنَّ له النزول إجازة إلا في نهاية
العام الدراسي فاكتفى بالمكالمات بينه وبين منير، وقد أزال مرض
داليا بعضاً من الوحشة التي حدثت بينهما وقد تغاضى منير عما

أخبره به عصام واعتبره كأن لم يكن فداليا في احتياج للدعم النفسي والمعنوي وما حدث قد يكون وارداً في وسائل التواصل الإلكتروني ولا داعي لتفخيم المشاكل فلم يسألها منير عما حدث وكذلك عصام قد تناسى ما رأى.

ومر العام صعباً عليها وعلى والديها لكنَّ نهايته جاءت بردا وسلاما على داليا فقد أوضحت النتائج أنها وصلت لمرحلة الشفاء وألا خطورة الآن عليها فبكت من الفرحه وضمت ابنتها وأغرقتها بدموعها وبكت أمها وفاضت دموع منير من فرحة الشفاء، فقرر منير أن يختم هذا العام الحزين بشيء يدخل السرور على داليا فأخبرها أنه سيرتب لعمل عمرة لها ولوالدتها في أقرب فرصة لتنسى بعض ما عانتها من آلام، وبالفعل لم يتأخر منير فقد ذهب هو وأميمة وداليا وابنتها لقضاء العمرة في مكة والاستشفاء بماء زمزم وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة والدعاء لداليا بتمام الشفاء.



العودة

عادت للحياة بعدما كانت على حافة الموت ولم يكن يخطر
ببالها أن تُشفى لكن إرادة الله غالبية فشعرت بولادتها من جديد
وكأن المرض جاء ليغسلها مما علق بها من أدران فكفّرت عن
سيئاتها وجعلت ابتتها دنياها فأقبلت على حياتها الثانية مشرقة
ناضرة وألقت ماضيها وراء ظهرها في سراديب الذكريات وعزمت
على ألا تفعل شيئاً تخجل منه نفسها أو يخجل منه أهلها.

عادت لعملها في الجامعة مرة أخرى واستعدت لاستكمال
رسالة الدكتوراه التي أهملتها الفترة الماضية فأقبلت بجدٍ ونشاط
على القراءة والبحث.

استعدت لعودة زوجها الغائب فقد اقترب وصوله فهيأت
نفسها وبيتها وزينته لقدمه، كذلك هيأت أملاً التي تكبر يوماً بعد
يوم وتزيد معها شقاوتها وخفة ظلها.

قررت أن تنسى كل السواد الذي علق بحياتها السابقة ففكرت
في عصام زوجها وقررت أن تعطيه كل شيء رغم جفائه معها
لتصنع هي السعادة بيدها أو تنزعها من تلك الحياة ولا تنتظر من
أحدٍ إسعادها أو تسمح لأحدٍ يكدر صفو حياتها.

عاد عصام من سفره بعد غيابٍ فوجد داليا امرأة أخرى غير التي عرفها، فأقبلت عليه تحتضنه بشوقٍ وشغفٍ وأظهرت فرحتها بقدومه وهيأت نفسها له وأشعرته بكيانه وقيمته، وذلك ما كان يفتقده معها، ففرح بها وأحس بالسعادة فنسي ما كان منها وأقبل هو الآخر ليبدأ صفحة جديدة معها.

مرت أيامهما السعيدة سريعاً وجاءهما ما يعكر صفوها، فبعد استراحته من تعب السفر ذهب لاستلام الشقة التي استكمل باقي أقساطها وكان فرحاً بهذا الأمر لكن للأسف تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

ف عندما ذهب للمبنى الذى حجز فيه شقته ومعه عقد مَوْقع من الشركة المالكة موضح فيه رقم الدور ورقم الشقة وجد عليها لوحة مدون عليها اسم ساكن الشقة، طرق عليه الباب بسرعة خرج عليه رجل في الخمسين من عمره فأخبره عصام بأن هذه الشقة ملكه ومعه عقد بالتمليك من الشركة، ضحك الرجل ساخراً وأخبره أنه يملك عقداً هو الآخر لنفس الشقة، غضب عصام وعلا صوته لكنَّ الرجل أخبره أنه ليس وحده الذى وقع ضحية للنصب من هذه الشركة، فهناك كثيرون مثله نصبت عليهم الشركة، وفور علم المتعاقدين بعملية النصب هرول الجميع للشقق وكان الحق لمن سبق، وأخبره أن الشركة لا وجود لها الآن فقد اختفى كل ممثليها وانقطعت أخبارهم، والآن كل من وقع في

هذا الفخ رفع قضية على هذه الشركة وفى انتظار الوصول لصاحبها والفصل في هذه القضايا.

ذهب ولا يدري أين يذهب، أظلمت الدنيا أمام عينيه، ينزل الدرج والسلالم مستنداً على الجدار خشية السقوط، شقاء سنتين من الغربة والجهد ضاع هباءً في لمح البصر، فتماسك نفسه قليلاً وتوجه حيث كان عنوان الشركة العقارية، لم يجد شيئاً يدل على وجودها السابق ووجد المكان مغلقاً فلم يجد يافطة الشركة ولا أي دليل على ما كان منذ سنتين، عاد يجر قدميه يود لو يتركهما من فرط ثقلهما عليه، وصل لمنزله بوجه غير الذي غادر به في الصباح، رآته داليا فأنكرته، أشار صمته فضولها فسألته فلم يُجب، فكيف يخبرها بمصيبته؟ أتت له بعصير الليمون البارد الذي أعدته منذ قليل، شرب منه قليلاً ثم نظر لها بحزنٍ ويأسٍ، وقال:

أنا انتهيت يا داليا، كل شيء ضاع.

نظرت له بدهشة وإنكار فلم تستطع تخمين سبب ما يقول، فقالت:

لا تقل هذا يا عصام، ربنا يحميك ويعطيك إن شاء الله، لم تقول هذا؟

دار بوجهه للناحية الأخرى، خجل من أن تراه ضعيفاً واستكمل فقال:

وقعت ضحية للنصب فضاعت الشقة وضاعت أموالى .
صدمتها كلماته، تنظر إليه ولم تصدقه بعد فحاولت التأكد
فقالت وهي خائفة:

عصام، أنت تمزح معي؟ هذه دعاية، أليس كذلك؟ لا يمكن
أن يكون هذا حقيقيا.

نظر إليها بخيبة أمل وحسرة، وقال:
ليتها مزحة أو دعاية، للأسف هذه هي الحقيقة المرة التي
تجربتها منذ قليل.

لم تستطع الوقوف فجلست بجواره، أمسكت رأسها بكفيها
ونظرت للأرض وهي تردد:

يا للمصيبة، لا حول ولا قوة إلا بالله، ضاع تعب السنين
الماضية ليت السفر لم يأتك يا عصام، الكل يحسدونا على ما
نحن فيه وها هي عيونهم قد فلقت الحجر وضاع كل شيء،
حسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم نظرت له وهي تفرك ركبتيها بكفيها، وقالت:

وماذا ستفعل الآن؟

رد عليها وهو شارد فقال:

وماذا عساي أن أفعل؟ سأرفع قضية على الشركة، لكن لا
تأملني كثيراً، فلم يتم العثور على أي من ممثلي هذه الشركة فقد
اختفوا وكأنهم ماتوا.

لم تجد من الكلمات ما تكمل به الحوار فصمتت وصمت عصام لكن صمته كان بداية لأعراض غير صحية فبعد مرور عدة أيام دخل في حالة غريبة ظهر تأثيرها على أسرته فينفعل ويغضب بسبب وبدون سبب وينعزل كثيراً عن داليا وأمل فيجلس صامتاً لفترات طويلة وحده، أحياناً تسمعه داليا يُحدث نفسه، أصبح غريباً في بيته. عرضت عليه أن يعرض نفسه على طبيب نفسي فرفض في البداية لكن مع استمرار حالته وإحساسه بالإرهاق والتعب المستمر، وافق وذهب معها، أخبر الطبيب داليا أن عصاما يمر بمرحلة اكتئاب حاد ولا بد أن يعامل بطريقة خاصة فيها مزيد من الدفء والاحتواء ووصف له بعض الأدوية وحذرهما من الإهمال الذي قد تتطور الحالة معه فتصبح مرضاً عضوياً يصيب قواه العقلية، فأدركت ما هي مقدمة عليه من مسئولية تجاهه وقامت بواجبها نحوه على أتم وجه حتى خرج متعافياً بعض الشيء مما أصابه.

وما إن قرأت إعلاناً في وزارة الإسكان عن وجود شقق في المحافظة بالتقسيم حتى أعطت عصاما مالها الخاص الذي منحها إياه والدها منير كما منح أختها مثله، أعطت زوجها المال ليذهب ويدفعه مقدم حجز لإحدى الشقق التي بالطبع لن يكون فيها نصب لأن الوزارة هي من تتولى المشروع ففعل ما أشارت به وكان سعيداً بذلك سعادة أنسته بعض الشيء ما لاقى في محنته السابقة.



غيرة

كانت علاقة داليا بحماتها مستقرة وإن كان يتخللها بعض الهمز واللمز من ماجدة وزوجات أبنائها فقد زوّجت ماجدة ولدين لها من زوجها الثاني خلال الفترة السابقة وسكنوا في نفس المنزل في الأدوار العلوية لشقة عصام، وبالطبع فقد اختارت زوجات أبنائها هذه المرة كما تريد هي ولم تسمح بأن يتكرر ما فعله عصام معها فيفرض عليها فتاة لا تريدها.

اختارت فتيات من عائلات تشبهها، فتيات تشغلن المظاهر مثلها فتتعالى بهن ويسرن معها فيما تريد من إظهار الكبر والعلو.

فكانت داليا تعامل سلائفها بودٍ واحترام لكن حماتها أوعزت لهنّ أن داليا هذه منطوية بعض الشيء فلا تمرح أو تضحك كثيراً بل ولا تهتم كثيراً بما يريده الرجل، وجادة في عملها وحياتها أيضاً.

وعندما تذهب داليا لحماتها تزورها تجد زوجات أبنائها دائماً عندها يجلسن ويمرحن ويعلو صوتهن بالضحك فإذا اقتربت داليا خفت الصوت وزالت البسمة.

لم تخلو العلاقة من الغيرة والمنافسة والمراقبة المستمرة لكل حركاتها وسكناتها وخاصة من حماتها التي تأتيها لشقتها بدون

ترتيب لترى ما تحويه شقة داليا، فإذا وجدت شيئاً جديداً طلبته منها أو طلبت من عصام أن يشتريه لها، وكانت لا ترضى منه إلا بأئمن الأشياء وأرقاها وكانت تهادي بعض صاحباتها ببعضها.

كان على داليا أن تغض الطرف عن بعض ما ترى لأجل خاطر عصام، لكن ماجدة كانت تطلب ما تريده بقوة وثقة فلها في مال ابنها أكثر مما لزوجته فيه فتأخذ ما تشاء وتوزعه على أبنائها الآخرين كيف تشاء.

ورغم اقترابها من سن الستين فإن ماجدة ما زالت تحافظ على زينتها وتهتم كثيراً بمظهرها وكأنها في العشرين من عمرها وأيضاً زوجات أبنائها الأخريات كانت كل واحدة منهن تنافس الأخرى في اقتناء تلك الأشياء وتظهر زينتها بمناسبة وبدون مناسبة بصورة واضحة يرفضها البعض مثل داليا ويتمناها البعض مثل عصام.

فكانت داليا تهتم فقط بما يليق بشخصيتها ومكانتها فلا تحب الإسراف في الزينة والعطور، لكن يبدو أن عصاماً كان يحب النوع الآخر المعبر عن أنوثته بصراحة ووضوح.

وقد يكون للرجل صورة ذهنية عن الأنثى كَوْنَهَا عقله الباطن منذ الصغر من أول نماذج نسائية مرت في حياته، وبالطبع فإن الأم هي أول امرأة وأنثى يراها الأبْن أمام عينيه منذ صغره إلى أن يبلغ، فتتطبع تلك الصورة في عقله بملامحها وتفصيلها، وقد يسلك أحد مسارين، إما أن يكون طلبه في زوجته أن تكون نسخة

مكتملة متطابقة مع صورة أمه التي تنمو معه يوماً بعد يوم، أو أن تكون زوجته على النقيض من أمه بتفاصيلها الشكلية والجوهرية، وبالطبع فإن ذلك مرجعه هو علاقة كل ولد بأمه واحتياجه لها وعلاقتها هي بابنها من حيث القرب والبعد.

وقد كانت الأم في حياة عصام ضرورية جداً رغم ما حدث من شقاق بين أبيه وأمّه وانفصالها عنه فشعر بالحرمان والاحتياج لها والشوق للاجتماع بها ثانية لتحنو عليه وتدعمه فهي أمه ولأن القدر حرّمه منها فقد كان عقله الباطن يريد أنثى مثلها تشعره بالحنان والعطف والمحبة، وقد تكون بنفس تفاصيلها الخارجية من حيث الزينة والانطلاق وطابعها الجوهرية مثل الغرور والكبر أحياناً، وكان عصام يحب أن يراه الناس في المقدمة دائماً ويحب أن يرفعه الناس حتى وإن أبدى هو عكس هذا، وكان يرجو أن تكون زوجته من ذلك الصنف أيضاً لكن داليا لم تكن منه وهو يعلم هذا لكنه لم يكن ليختار واحدة كما يريد، ويترك خيار الأسرة.

فكان احتياجه للأسرة الأب والأم، أشد وأقوى من احتياجه لزوجة تشبهه أو لعل احتياجه لتلك الزوجة لم يعبر عنه بالقدر الكافي في تلك الفترة التي طغت فيها صورة أسرة منير فملأت عقله وقلبه فاختر داليا ليضمن الأسرة.

لذلك بعدما تزوج داليا وضمن بقاءه في أسرة منير بدأت الرغبة المكبوتة تلح عليه من آن لآخر فيتمنى تلك المرأة

المبتهجة المتلاثلة ملكة الزينة المعبرة عن أنوثتها بما تملك من قدراتٍ ومواهب.

فكلما رأى والدته أو نساء يشبهنها حوله من قريباته أو معارفه في مناسباتٍ أو أعياد يتذكر حاجته ورغبته وتذكر أمه ما به وتذكره بالتلميح والتصريح بما كانت ترجوه له من زوجة تُسعدُه وتشعره بكيانه، لكنه اختار زوجته رغماً عنها هي فليتحمل جزاء مخالفتها.

وتمر الشهور والسنين وهو على حاله لا يشعر بفرحة من قلبه تملأ ملامحه بالتبسم والرضا فهل ظلم نفسه باختياره دالياً؟ أم هل ظلمها هي؟ لكن يرجع أدراجها لِيُصبر نفسه فكل شيء قسمة ونصيب.

لاحظت داليا عليه هذا في بعض المناسبات التي يجتمع فيها كثير من النساء، تراه مختلفاً منطلقاً وليس ذلك العابس الذي تعرفه، تجده يضحك ويمزح ويحب تسليط الأضواء عليه هو لتنصرف إليه الأبصار كما انصرف بصره خلسة هنا وهناك ليرى ويتمنى، لكنها لم تصرح له بهواجسها حتى لا تختلق المشاكل من أسبابٍ واهية.

وما إن يعود لشقته حتى ينزوي وحيداً صامتاً يخشى ضريبة الكلام ساكناً يتابع التلفاز أو يستمع لبعض اقتراحات داليا في أمور حياتهما ثم ينقض رأياها ليقيم رأيه هو فقط فأصابتها هي الأخرى عدوى الصمت وغادرها قاموس الكلمات.



نـ

أوشكت داليا على الانتهاء من رسالة الدكتوراه واستعدت لمناقشتها وقد ساعدها عصام في ذلك فحمل عنها عبء أمل حتى تتفرغ هي وقتاً أطول، حددت مع الأساتذة يوماً للمناقشة وحضر والدها ووالدتها وحضرت رانيا وزوجها، وأعد عصام لها ما تطلبه في هذه المناقشة، وبعد عرضها للبحث ومناقشته في خلال ساعتين تم منحها درجة الدكتوراه وأصبحت مدرساً ومحاضراً في تخصصها.

كانت سعادتها كبيرة أنستها ما وجدت من عناء في سنواتها الخالية للنجاح فرحة تذيب جليد التعب والسهرة، هناها منير فكان فخوراً بها وهي تنتقل من تفوق إلى آخر، حضنتها أميمة والدموع في عينيها وتذكرت أن من بين ذراعيها الآن كادت أن تضع منها يوماً ما بسبب المرض فضمتها بقوة لصدرها وكأنها تخشى أن يأخذها أحد منها كما اختطف منها ولدها الأول.

وجاء المهنتون وأولهم رانيا التي يتعلق يديها الآن ولد و بنت وهنأها جمال زوج رانيا، ثم باقي زملائها وأساتذتها، ووقف عصام لالتقاط الصور التذكارية لهذه المناسبة المميزة لأسرته.

وبالطبع كانت هناك حفلة كبيرة بهذه المناسبة أعدها عصام في شقته مع داليا، وكانت ليلةً مميزة لعصام يستعرض فيها كرمه واحتفائه بالحاضرين ويوزع ضحكاته ونظراته هنا وهناك وتزينت داليا في هذه المناسبة فبدت كالقمر وكذلك أمل التي قاربت سن الخامسة قد هيأتها داليا فبدت بفستانها الأبيض وشعرها الأسود الناعم مثل أمها كسندريلا في حكايات الأطفال.

مرت الأيام سريعةً في حياة داليا وأسرتها وكانت قد رضيت بما قسمه لها القدر فشكرت ربها على بلوغها هذا التفوق وهذه الدرجة في عملها ورضيت بأمل ابنتها ذريةً لها تحسن تربيتها وتهذيبها وتبني فيها إرادةً حرةً لتنجو مما وقعت فيه هي.

لكن الله أراد أن يفرح قلبها بما لم تتوقعه وكأنه أراد أن يعطيها جزاء صبرها في محنة مرضها فيمنحها أملاً آخر تحيا من أجله في هذه الحياة.

فبعد شهورٍ من فرحتها الأخيرة جاءتها فرحةٌ أسعدتها حتى دمعت منها عيناها فقد علمت أنها تحمل في رحمها طفلاً فبكت بكاءً غريباً فلم تكن تتوقع أن تحمل ثانيةً، وظنت من قبل أن ذلك المرض قضى على كثيرٍ من آمالها لذلك كانت مفاجأة كبيرة لها وغير متوقعة بالمرة، فرحت وشكرت ربها على جميل لطفه وجبره لكسرهما ودعت الله أن يرزقها ولداً هذه المرة فاستجاب لها فكان ولداً.

لم تدر ماذا تصنع وكيف تفرح بهذه الأحداث الجميلة
ولا تدر كيف تشكر صاحب العطاء الجزيل، الله، الذي أعطاها
فوق ما كانت تتمنى.

انتشر الخبر ففرح زوجها بولده القادم وعونه وسنده، فرح لها
أبوها وفرحت أمها، أظهرت حماتها وسلائفها فرحتهن بها فلم
تنشغل بهنّ وتمنت لو ابتعدت عن هذا المحيط لتخلو بنفسها
وتفرح برجلها القادم.

ومع مرور الوقت واقتراب موعد الولادة كانت داليا تتحدث
كثيراً مع جنينها فتضع يدها على بطنها وتحاوره في حواراتٍ
مختلفة ولم تشك بأنه يسمعها، انتظرت فيه ذلك الرجل الذي
ينصفها من ظلم الرجال الذين صادفتهم في حياتها قدراً وجبراً.

وتلعب مع أمل وتبشرها بأخ لها سيأتي بعد شهور قليلة فتفرح
أمل وتخبرها بأنها هي التي ستربيه فتحمله إذا بكى وتطعمه إذا
جاع، فتضحك داليا وتحمد ربها في سرها أن منحها تلك
الفرحة، وتدعوه أن يكمل لها فرحتها ولا يصيبها في ولدها.

ومرت الشهور الأخيرة بسلام وجاء النور لحياة داليا ووضعت
ولداً كالقمر يشبهها، لونه لونها وعيونه عيونها ليس له من ملامح
عصام نصيب، فحمدت الله في سرها خشية أن يلاحظ ذلك
عصام أو والدته عصام.

أسمته «نور» فكان نورها الذي جعلها تتشبث بالحياة من
أجله، وفرح به عصام فقد جاء له الابن وصديق المستقبل وأبوه

في الشيخوخة فأحبه وقربّه، وفرحت أمل بمن جاء يلاعبها أو يكون لعبتها فيقطع وحدتها ويشاركها في ألعابها وحياتها.

عادت البهجة المفقدة والسعادة الحقيقية لداليا بعد فراق طويل، جاءها نور لينير طريقها مجدداً لتستند عليه إذا مال الزمان بها يكون رجلها وحبيبها وكل شيء في حياتها، تمت ألا يكون متسلطاً كأبيه أو متصيداً كأبيه هو، قررت أن تزرع فيه وفي أمل كل ما تأقت أن تراه في نفسها وظلمتها الحياة لعدم تملكها إياه كالإرادة والحرية، تريد أبناءها أحراراً أقوياء قادرين على مواجهة المتسلطين والوصاة لا تريدهما جنباء ضعفاء مثلها ينتظرون العون والإنصاف.

نور وأمل كانا لها كإسمائهما، أغناها عما طلبت من زوجها فلم تهتم كثيراً بطباعه القاسية أحياناً والتي تفتقد للرقّة والذوق في أحيانٍ أخرى.

كان كل شيء مستقر، الأسرة والعمل والعلاقات والمستوى المادي، لكن عصاماً رغم كل هذا كانت تعتريه نوبات اكتئاب كثيرة ومتكررة بسبب وبدون سبب تظهر أعراضها للأسف على أسرته، زوجته وأبنائه فيتعصب ويعلو صوته ويغضب سواء أكان ذلك في داخل البيت أو خارجه.

ثم حدث ما زاد من حالته هذه فقد تلقى اتصالاً من والده يطلبه للمجيء إليه فسافر إليه ووجده على سرير المرض قد ساءت حالته وبدأ في أيامه الأخيرة.

كان والد عصام قد قارب السبعين من عمره وتزوجت ابنتاه الكبرىتان وبقي حازم الصغير الذي يدرس الآن في الجامعة في السنة الثانية في كلية العلوم.

وبعد خروج والده على المعاش تداعت عليه الأمراض وكأنها كانت تنتظر خروجه على المعاش لتخرجه من الدنيا كلها.

أحس الرجل بدنو أجله بعدما طاف على كثير من الأطباء فدعا عصاما يوصيه بإخوته الصغار ووالدتهم وأن يسمح أباه فيما ارتكب في حقه في الماضي.

وخلال أيام قليلة رحل أحمد إبراهيم عن الحياة وترك عصاما يتيماً كما تركه وحيداً في صغره، بكاه عصام فواسته داليا فيه وواسته ماجدة أيضاً، انتابته نوبات اكتئاب كثيرة بعد الوفاة وألف الوحدة والانفراد فحاولت داليا الوقوف بجواره والتخفيف عنه فلم تفلح واستعانت بحمايتها فأخبرتها بحالته فهوّنت ماجدة من قلق داليا، فأخبرتها أنه مثل أبيه يحب النكد ويبحث عن الحزن، فلا تهتم كثيراً.

لم تعجبها بلادة أمه وبرودة أعصابها وقررت ألا تترك زوجها فريسة للأمراض النفسية والوحدة التي قد تؤدي به للجنون يوماً ما فافتحمت عليه غرفته، وجدته يجلس على سريره في ضوء خافت شعره نائر ولحيته غير مهذبة، أضاءت الغرفة بكل لمباتها فأثار الضوء عينيه وانزعج، رجاها تطفئه فرفضت بل أخذته من

يده وأخرجته من غرفته وأدخلته الحمام يغتسل وأوقفته أمام الحوض ومرآته وحلقت له ذقنه بنفسها وعطرته بالعطر وهذبت شعره وأخذته يجلس معها ومع أبنائه أمل ونور في غرفة المعيشة ليحيا معهم حياته ويترك الماضي.

لم يعارضها فيما فعلت أو قالت، وأخيراً قطع صمته الرهيب فقال وهو شارد:

يوصيني بها قبل أن يموت ولم يوصها بي في حياته عندما كنت صغيراً.

انتبهت لكلماته وشجعتة على الحديث وإخراج ما يكتُم حتى يستريح فأكمل وقال:

لم تكن زوجة أبي حنونة معي فلم تعطف يوماً علي، لم تهتم لطعامي ولا ملبسي ولا دراستي وكان أبي يسمع منها ويصدقها أكثر من سماعه مني.

كانت لي حجرة في شقة أبي فأخرجتني منها بحجة ترتيب الشقة واحتياجها لها لجعلها غرفة للمعيشة بعيداً عن غرفة الجلوس الخاصة بالضيوف، وللأسف استجاب لها فأخرجني منها ثم عمد إلى الشرفة فأكملها ببعض الخشب ليجعل منها غرفة صغيرة لي أعيش فيها وأدرس فيها وأنام فيها رغم أنها بالكاد كانت تحوي سريراً صغيراً لي.

فكانت كالقبر بالنسبة لي سُجنت فيها كثيراً، فطيلة النهار بعد المدرسة أجلس فيها لا أخرج إلا لتناول الطعام معهما بسرعة ثم أعود لسجني مرة أخرى حتى أنام آخر الليل.

ولما أن حكيت ذلك لجدي لأمي ذات يوم زرتها فيه واتصلت بأبي تنهره وتنهاه عما يفعله رجع إلي غاضباً وضربني لأنني حدثت جدتي، فذهبت باكياً عندها فأبقتني معها ولازمتها حتى كبرت وأنهيت دراستي.

فهل له الآن أن يوصيني بزوجه هذه؟ هل له علي حق الطاعة وتنفيذ وصيته بعد موته؟

أصغت له داليا باهتمام، ودموعها تملأ عينيها، وبعد نهاية حديثه المؤلم، أجابته فقالت:

يا عصام، قد مات أبوك وانتهى ذلك الماضي التعيس ولا شيء يربطك بزوجه سوى إخوتك، راع إخوتك فقط فليس لهم ذنب فيما حدث.

ولتسعد وتبتهج بما حباك الله من نعم، استمتع بحياتك معنا واخرج من تلك الأحران وألقها وراء ظهرك.

سمع ما قالته ولم يرد عليها واستكمل صمته فكان معهم بجسمه أما روحه ونفسه فكانت في مكانٍ آخر.



جيران

وزعت وزارة الإسكان الشقق على المتقدمين لها وحصل عصام على شقته وآخرون استلموا في هذه المرحلة ومن بينهم أمانى أخت جمال زوج رانيا حصلت هي وأسرتها على شقة في نفس العمارة التي فيها شقة عصام وداليا.

اتفقت داليا مع عصام أن ينقلا معيشتهم إلى الشقة الجديدة ويتركا شقتهم هذه لفترة، وبالفعل تم نقل معظم العفش والأثاث للشقة الجديدة بعد تشطبيها بأحدث التشطيبات، واستقرت داليا في سكنها الجديد تنسم هواءً حراً بعيداً عن المراقبة المستمرة في الخروج والدخول.

كانت رانيا قد أخبرتها بأمر أمانى وبأنها طيبة وستكون نعم الجارة تؤنسها في مكانها الجديد، وكانت داليا قد تعرفت على أمانى من قبل، فقد رأتها في مناسبات عديدة من زواج رانيا وإنجابها أطفالها فكل مناسبة لرانيا وجمال تجمعها معها ورأتها تتعامل بلطف ومودة ولم تر منها شراً من قبل.

كانت شقة داليا في الدور الرابع في بناية تتكون من خمسة طوابق وكانت شقة أمانى في الدور الثاني وقد جاءت واستلمتها وسكنت فيها مباشرة فأصبحت هي وداليا جارتين تتزاوران في

أوقات الفراغ وتحدثان في كثير من شؤون الحياة كسائر النساء التي تحب الحديث والفضفضة، وأظهرت أمانى ودها ومحبتها لداليا واستطاعت بخبرتها أن تكسب ثقة داليا ومودتها في وقتٍ قصير.

كان زوج أمانى، إسماعيل، مسافراً في السعودية يعمل هناك وترك معها أبناءه: جهاد وعادل وهناء، وكانت جهاد هي الكبرى وكانت في الجامعة وقت انتقالهم للسكن الجديد. كانت جميلة ومنطلقة ومرحة وكانت معينة والدتها في قضاء حوائج المنزل وذلك لغياب والدها عنهم.

توطدت العلاقة بين الجارتين فتكررت الزيارات وتبادلت المنافع فقد كانت شقة داليا ومطبخها تحتوي على كل ما يلزم البيت من أجهزة وأثاث وألعاب أطفال جلبتها لأمل ولنور الصغير وكأن الشقة عبارة عن متحف كبير يحوي الكثير من التحف وذلك ما لفت نظرات أمانى التي تتميز بحب الاستطلاع دائماً فتقع عينها بسرعة البرق على كل شيء موجود دون إدراك داليا لذلك.

فتتفاجأ داليا بطلبات أمانى عندما تطلب منها شيئاً بعينه من أجهزة المطبخ أو لعبة من ألعاب أمل الموجودة في مكانٍ بعيد في الشقة ولا تملك ساعتها أن تمنع عنها ما تطلبه أو تنكر وجوده فتعطيها كل ما تطلبه.

لم تنتبه داليا لتلك الأفعال في بادئ الأمر وظنت أن ذلك قد يكون عادياً أو طبعياً بين الجيران لكنها لم تدرك أن أمانى ليست

بالمرأة الهينة ولم تدرك مدى غيرتها التي تأكلها لكنها تحسن كتمانها فلم يظهر عليها شيء ينبئ بذلك.

وكما وطدت علاقتها مع داليا وطدتها أيضاً مع عصام فتحدث إليه إن تصادف وجوده وقت زيارتها فتأخذ مشورته في أمورها وتعطيه حجماً ودوراً يليق به، تستعين به لقضاء حوائجها، وذلك لغياب زوجها رغم وجود أخيها جمال لكنها كانت تصف عصاماً دائماً بأن له خبرة واسعة ورأياً صائباً في معظم الأحيان فجعلته مشيراً ومرجعاً تستند إليه، وكان ذلك كله تحت نظر داليا وفي حضورها فلم ترتب من شيء تجاهها واعتمدت مبدأ حسن الظن وسلامة النية.

وكانت جهاد أيضاً تتعامل مع عصام كصديق ونسيت أنه في عمر والدها تقريباً، فكانت إن تصادف نزوله للجامعة مع خروجها من شقتها تذهب معه بسيارته للجامعة ويدور الحديث بينهما في أشياء الهزل فيها أكثر من الجد وكانت تحب الدعابة وتجيدها فتضحك من أتفه الأسباب ولا يملك الناظر إليها إلا أن يضحك لضحكها بدون سبب وكان عصام من هؤلاء، واستطاعت أن تُخرجه من عبوسه وهمومه، وقابل ذلك بإهدائها بعض الهدايا دون معرفة داليا، فكانت علاقتهما مميزة وخاصة ولم تر داليا هذا أيضاً.

جاءها من يطلب خطبتها، وأخبرت أمانى زوجها بأمر الخاطب فطلب منها أن تسأل عنه أولاً قبل أي ارتباط، فذهبت لعصام وداليا لتخبرهما بالأمر فقالت:

قد جاء شاب يعمل في الغردقة ويريد أن يخطب جهادا فما رأيكما؟

فاستاء عصام وبدا عليه الحزن، ولاحظت داليا وأماني ذلك، لكنه استدرك وقال:

أرى أنه لا داعي للتسرع فما زالت جهاد تدرس في الجامعة وهذا الشاب عمله بعيد في الغردقة وهذه تعتبر غربة في حد ذاتها.

فكرت أماني في كلامه، وقالت:

معك حق يا دكتور عصام، هي فعلاً غربة ويكفيها غربة والدها.

ثم نظرت لداليا وسألتها هي الأخرى عن رأيها، فقالت داليا:

أرى أن تكمل دراستها أولاً ولا داعي للعجلة كما قال عصام.

قالت أماني:

ونعم الرأي، بارك الله فيكما، فلا داعي للعجلة في هذا الأمر.

وشكرتهما ثم انصرفت وأعلنت ابنتها برأيهما رغم أن جهادا كانت تميل للارتباط بهذا الشاب لتعيش معه في الغردقة حيث البحر والطبيعة الساحرة هناك، لكن أماني أخبرتها برأي عصام ورده فعله، فسمعتها جهاد بتركيز ولفت نظرها بعض الإشارات لكنها خشيت أن تفسرها حسب هواها فكتمت ما شعرت به، وأذعنت لرأي والدتها، لكنها قررت أن تعيد نظرتها مرة أخرى تجاه عصام لتتأكد من صدق هواجسها أو كذبها.



إشارة

ومع بداية العام الجامعي بدأ الطلاب الانتظام للدراسة وبدأت هيئات التدريس في تنظيم مواعيد المحاضرات النظرية والعملية، وبعد أن أصبحت داليا مدرساً تحاضر في كلية الصيدلة أصبح لها دور في اجتماعات الكلية واجتماعات القسم أيضاً للاتفاق على نظام الدراسة وجداول المحاضرات والامتحانات.

و ذات يوم اجتمع مجلس القسم في موعده الشهري وحضرت داليا لتجد أن هناك رجلاً غريباً تراه لأول مرة يحضر اجتماع القسم.

بدأ رئيس القسم الجلسة فحيّاهم جميعاً وقدم لهم الزائر الغريب، فقال:

أحب أن أقدم لكم دكتور/ شهاب مروان أستاذ مساعد في ألمانيا وكان في بعثة لأوروبا منذ تخرجه تقريباً.

ثم التفت ناحية شهاب وقال:

أرجو أن تستكمل التعريف بنفسك يا دكتور شهاب.

أوماً شهاب بالإيجاب وأخذ يستكمل فقال:

أولاً، أشكر السيد/ رئيس القسم على حفاوة الاستقبال والترحيب وهو أستاذنا في كل شيء وليس ببعيد عنه أن يكون بمثل هذا الرقي والاحترام.

ثانياً، باختصار اسمي شهاب مروان، تخرجت من هذه الكلية وبعدها بقليل جاءني فرصة للسفر لألمانيا وسافرت بالفعل فحصلت على الماجستير والدكتوراه من جامعة برلين والآن أنا أستاذ مساعد ومحاضر في الجامعة.

حيّاه جميع الحاضرين مرة أخرى ومن بينهم داليا التي كانت تصغي له باهتمام، فقد كان شهاب ملفتاً للأنظار وسمته يوحى بعمق الشخصية والثقة في النفس، إلى جانب أن ملامحه ما زالت في طور الشباب والحيوية فعونه يقظة لامعة تنبئ عن عقل كبير ناضج.

وكان رئيس القسم يستعرض خطة التدريس والجميع صامتين أو موافقين ضمناً على ما يقال دون إبداء أي رأي أو اعتراض ربما تملقاً له للوصول للمبتغى أو درءاً لشره وخصومته، فلو سأل عن آراء الحاضرين بيدي له الجميع سعادةً ورضىً فيصير ديمقراطياً دون ممارسة لها وتتجلى الديمقراطية في أرخص صورها، صورة القهر والاستبداد من جانبه وصورة الخنوع والمذلة من قبلهم.

لكن شهاباً لم يكن مثلهم فقد غيرته الحياة الأوروبية ومنحته حريةً مفقودة في مجتمعاتٍ ترفض التقدم للصدارة بعدما كانت قديماً فجراً للحضارة.

رفع يده يريد الإذن له بالكلام فسمح له رئيس القسم، فقال شهاب:

أود أن أقول بعد إذن حضراتكم: أن طرق التدريس تحتاج لتطوير كبير فالى متى سنعتمد على طريقة الإملاء والتلقين؟ الطلبة لدينا لم يعودوا صغاراً ليمسكوا أقلامهم ويكتبوا كل كبيرة وصغيرة في المحاضرات يكفيهم شرحاً مجملاً ومساعدة في شرح طرق البحث عن المصادر وانتقاء أنسبها.

إن طلبة الجامعات هنا وقتهم يضيع وقواهم تُنهك في أشياء غير مجدية، إنهم يحضرون للمحاضرات التي تستمر ساعتين أو ثلاث ساعات يقضونها منكبين على الورق يدونون ما يقال من المحاضر وكأننا في العصر الأول للكتابة في عصر النسخ والإملاء لإعداد الكتب، وبعد عودتهم أيضاً يضيع ما بقي لهم من قوة في تنسيق ما كتبوه بالنهار وحفظه عن ظهر قلب دون فهم أو مقارنة مع مصادر أخرى مختلفة.

كان رأيه صامداً فلم يكن أحد يتوقع أن هناك من يعارض رئيس القسم بهذه الطريقة وكانت داليا أول المندeshين من جرأة شهاب وقوة رأيه وثقته بنفسه التي ظهرت في قوة نبراته وثبات نظراته فأكبرته وزاد من احترامه لديها.

أما رئيس القسم فقد حاول أن يدير الحوار بصورة سياسية تفرغه من مضمونه كعادة معظم أصحاب المناصب والسلطات

الذين يتكلمون بقصد البلبلة وعدم الفهم وحاول أن يحافظ على هيبته التي زرعها منذ سنين فقال وهو يتسم:

هذه أراء جميلة لكنها غير واقعية فلا تنس أننا في مصر ولسنا في ألمانيا.

ابتسم شهاب وقال مؤكداً:

أكيد طبعاً لا أنس أن مصر أضاءت الدنيا كلها بالحضارة قبل أن تكون هناك ألمانيا أصلاً، وبالتدريب والصبر كل شيء ممكن.

اختفت الابتسامة الصفراء لرئيس القسم، فقال:

لكن ما تقول يصعب تطبيقه على هؤلاء الطلاب إنهم تربوا على التلقين والحفظ منذ الصغر وأصبحت عقولهم مبرمجة على نمط واحد من التفكير فهل تظن أن التغيير الذي تنشده يجدي معهم؟

رد شهاب بثقة:

نعم بالطبع ستكون صدمة مؤقتة في البداية لكن سنسير بعدها في الاتجاه الصحيح دون تأخير.

رأى رئيس القسم أن يمتص حماس شهاب أفضل من أن يستمر معه في الجدل، فقال لينهي هذا الحوار:

هَمَّتْكَ معنا يا دكتور نحتاج هذا الفكر وهذا العزم ولذلك أصررتُ منذ البداية أن تنضم إلينا في هيئة التدريس لشاركتنا بخبرتك الأوروبية.

أدرك شهاب أنه حاصر رئيسه في الزاوية ولا يصح أن يطول هذا فتقلب الطاولة عليه فوافق أن ينهي حديثه فقال:

العفو، حضرتك أستاذنا وأنا تحت أمركم وشكرا لسعة صدر حضرتك.

مضى وقت الاجتماع وانصرف الجميع بعد إعطاء إشارة نهاية الاجتماع من رئيس القسم وعاد الأساتذة لمكاتبهم وعاد شهاب لمكتبه يمشي في خطى واثقة هادئة لاحظته داليا ولاحظتها زميلتها دكتورة زهراء التي قالت لداليا:

أرى أن شهابا لفت انتباهك يا داليا إنه هكذا طوال عمره متفرد ومشاكس.

قالت داليا:

ومن أين لك تلك المعلومات؟ يبدو أنك مخبرات يا دكتورة.

ضحكت زهراء وقالت:

لا ليس كذلك لكن أنا وشهاب دفعة واحدة في الكلية وأعرفه منذ سنين.

ثم صمتت لحظاتٍ وقالت لداليا:

ما رأيك أن نذهب إليه وتعرفين عليه؟ ولن تندمي على معرفته أبداً.

قالت داليا:

تمام، هيا لنذهب إليه.

ذهبت مع زهراء حيث مكتبه، طرقت زهراء الباب وقالت:

هل أستطيع الدخول يا دكتور شهاب؟

فاجأته فابتسم وقال:

طبعاً يا دكتورة أهلاً وسهلاً، كيف حالك.

قالت زهراء:

أنا بخير والحمد لله ومعني صديقة عزيزة على قلبي وأريد أن
تتعرف عليها.

نظر شهاب لداليا وقال:

هذا شرف لي تفضلني يا دكتورة.

دخلت زهراء وداليا وجلستا ثم قالت زهراء:

دكتورة داليا منير صديقتي ومن أكفأ الناس هنا وتشبهك في
التفكير.

ضحكت داليا وضحك شهاب الذي قال:

ماذا تقصدين بكلامك؟ تريدين القول إن تفكيري به بعض
الجنون قليلاً؟

قالت زهراء:

قليلاً فقط؟

استغربت داليا من لغة الحوار بينهما فنظرت لها زهراء
وقالت:

لا تندهشي يا داليا فشهاب يحب الدعابة وهو بسيط رغم
مكانته العالية.

تدخل شهاب فقال:

أخجلتم تواضعنا هذا من فضل ربي.

ضحكوا واستأذنت زهراء وتركت داليا معه يستكملان
التعارف، فقالت داليا:

سعدت بمعرفتك يا دكتور شهاب وجودك بيننا أثرى المكان
وأنا سعيدة فعلاً بأرائك المختلفة وصوتك الجريء.

ابتسم ابتسامة كبيرة وجميلة، ثم قال:

شكراً لحضرتك أتمنى ألا يتغير رأيك يوماً ما.

قالت داليا:

طبعاً لن يتغير، حضرتك شخصية مختلفة وشجاعة.

قاطعهما صوت هاتفه الذي صاح بلا توقف فتركه شهاب ولم
يرد، نظرت داليا للهاتف ولشهاب الذي لم ينظر ليرى اسم

المتصل ولم يهتم بأن يرد، رن الهاتف مرة أخرى فلم تستطع أن تمنع فضولها وتقول:

يمكن أن يكون البيت يا دكتور شهاب، ألا ترد؟
نظر لها وقد غابت ابتسامته فعادت ملامحه لمواضعها الأولى
وقال:

ليس البيت، فلم يعد هناك بيت.
تفحصته بنظراتها ورأت أمارات الحزن تتكون على ملامحه،
فسارعت وقالت:

أنا أسفه يا دكتور يبدو أنني تجاوزت حدودي.
انته ل كلامها وقال نافياً:
لا شيء يستحق الأسف، لا عليك.
قالت:

اسمح لي بالانصراف، أراك في وقت آخر إن شاء الله.
رد فقال:

هل أعتبر هذا وعداً باللقاء مرة أخرى؟
ابتسمت، وقالت:
وعد، موافقة.

ثم خرجت من عنده واتجهت لعملها وتركته ينشغل فيما
أمامه من أوراق.



شهاب

كان شهاب مميزاً فهو مثال لأستاذ الجامعة النشيط العملي الحر، قوة آرائه وجراتها اكتسبها من قوة عمله ومثابرة جهده لتبقى رسالتي الماجستير والدكتوراه خاصته علامة في الجامعة من حيث القوة والتفرد والبحث فقد أتاح له بعثة ألمانيا فرصة رائعة لانطلاق مواهبه وإبداعه فكان يأمل أن يأتي بشيء جديد يضيف للعلم ولو سطرًا جديدًا في مرجع أو بحث وقد تحقق ذلك فكانت رسالته للماجستير متفردة فأبهرت أساتذته في ألمانيا فهيأوا له السبل لاستكمال مستقبله بما يفيد الجامعة وما هي إلا ثلاث سنواتٍ أخرى حتى انتهت من رسالة الدكتوراه التي فاقت رسالته السابقة فتردد اسمه في المجلات العلمية والأبحاث الدولية التي حوت كثيراً من أبحاثه في مجالاتٍ شتى.

وبعدما ذاع صيته في الغرب بدأ زملاؤه في مصر التواصل معه ليشاركهم خبرته العلمية ويساعدهم في أبحاثهم ومنشوراتهم، وهكذا دأب الأقربين لا يشعرون بمن تفوق منهم ولا يعيرونه اهتماماً ولا تقديرًا إلا بعد أن يشهد له الغرباء.

ولم يلتفت شهاب لما مر به في بداياته من فتور وجفاء من جانب هؤلاء فألقى كل هذا وراء ظهره وجاء والأمال تملأه

ليحدث التغيير في النمط والسلوك قبل أن يحدثه في التفكير
يرى أصحاب الدعوة والمُدَّعين لينظر صدق دعواهم.

أما حياته الخاصة فبعد تخرجه وسعيه لبعثة ألمانيا التي جاءت
ولم تخذله قرر السفر واستعد له لكن أباه رفض أن يسافر ابنه
دون زواج خوفاً عليه من الفتنة كما يظن فصمم أن يزوجه إحدى
بنات العائلة تصونه وتعفه.

لم يكن الزواج هو ما يشغل شهابا فمستقبله وطموحه كانا
يسحبان سحباً للسفر ولم يحب أن يعوق ذلك شيء فوافق على
تنفيذ رغبة أبيه وتزوج ابنة خاله ولم يكن قد فكر من قبل
أو أجهد عقله في اختيار الزوجة وشريكة الحياة وكان هذا خطأ
منه كلفه بعد ذلك الكثير.

تزوجها وسافر معها حيث مستقبله وانهمك في عمله كالآلة
لا يكل ولا يفتقر، مرت السنوات الأولى من نجاح إلى نجاح
يحتفي به المجتمع هناك بما أنجزه ويتصل به أصدقاؤه يهنئونه
إلا زوجته فلم تكن تهتم أصلاً بما يصنع وكان كل شغلها وهمّها
هو الحفاظ على بيتها وأسرتها فكانت تنزعج من نجاحه وتظن
ذلك قد يقرب النساء منه فيغرينه ليهرب منها، يراها مكتئبة كلما
لاح له تفوق وظهر عليه الفرح، تحدثه كثيراً وتلح عليه في
العودة لمصر، لتعيش وسط أهلها فيمتعض من تفكيرها الذي
يخلو من وجوده هو في عقلها وكأنها لا تراه أو ترى ما يفعله.

رزقهما الله بطفلة جميلة أحبها وملأت عليه دنياه لكن زوجته
أبت إلا أن تكون ملهمة للنكد والكآبة فلا تضحك ولا تفرح
وكانها تخاف على ملامحها من التشقق.

فرضت عليه رقابة ثلاثية الأبعاد في المنزل والمجتمع
والعمل، تتصل لتعلم أين هو؟ وماذا يفعل؟ تراقب لغة جسده
ونبرة حديثه أثناء الكلام لتتصيد منه ما يُريد في حفلات التكريم
في الجامعة أو في المناسبات الاجتماعية فيظهر هو سعيداً مغتبطاً
بسعادة الناس به أما هي فتبدو وكأنها قد أتت رغماً عنها لتلك
المناسبات فتجلس صامتة باهتة تدور عيناها في كل مكان لترى
مع من يتحدث ومع من يضحك أضافت لها كآبتها وجمودها
عمرًا فوق عمرها فبدت وكأنها أكبر منه سنًا وروحًا.

لم يشعر براحة أو سعادة أو عفة كما ظن والده بل دبّت بينهما
المشاكل من حينٍ لآخر، يريد هو التقدم في حياته وتريد هي جرّه
للوراء والعودة لمصر لتضمن عدم تطلعه لغيرها، زادت رعونتها
فزادت عصبيته، أقدم في حالاتٍ كثيرة لحافة الطلاق لكن وجود
ابنتهما يمنع ذلك ولما ظهرت دعوات من الجامعة في مصر
تدعوه ليحاضر فيها استغلت زوجته هذه الفرصة لتزيد من
إلحاحها عليه للعودة وزادت من الضغط عليه بعدما أخبرته أهله
ورجتهم أن يقنعوه بالعودة فقد سئمت من الغربة وتريد أن تقضي
حياتها وسط أهلها وانصاع شهاب للأمر على غير قناعة منه على
أمل أن يفيد وطنه بشيء فعاد لينظر إلى أين تسوقه الأقدار؟

رضي بالتجربة فالتحق بالجامعة وأعلن عن شخصيته بآرائه وقوة حجته فكان ذلك مُنْفَرّاً لكثيرين ومقلقاً لآخرين ومحفزاً لقليلين ومن بينهم، داليا التي أعجبتها شخصيته وجراته وعبرت له عن ذلك وكان ذلك كفيلاً بأن تنال ثقته وصداقته.

وجد داليا قريبة من طريقة تفكيره لا تحب النفاق والخداع أو الخنوع والانصياع فاقترب منها وتكررت بينهما اللقاءات بحكم العمل، عملاً بحثاً مشتركاً فوجدها مثابرة مثله لا ترضى بنسخ الأبحاث من أبحاث أخرى قديمة أو نقل النتائج من أبحاث غريبة حديثة، وصلاً لنتائج مبهرة لكل من قيّم البحث من لجان التحكيم.

ورأت فيه هي الأخرى الرجل الذي نقى نفسه من نقائص الرجال الذين مروا في حياتها، فلم يكن متسلطاً مستبدّاً كأبيها، أو خانعاً ضعيفاً مثل رءوف أو متصيداً مستغلاً مثل سمير أو جاثماً قابضاً مثل عصام.

إنهم كثيرون لكنهم غثاء، أما شهاب فكان متوازناً، فهو العاقل المجتهد، الطموح الذكي، المغامر القوي، المرح الساخر، فكان يُضفي عليها دائماً بهجته كلما رآته، ولا يفقد دعابته حتى في أصعب الأوقات فيخترق همومه كالسهم المنطلق لغايته.

يجد لكل مشكلة حلاً، فلا يغرق في الهموم والتفاصيل فيكتب، يعزم على استكمال ما يبدأ، ورغم كل هذا فهو مثقف

مطلع منفتح على كل شيء بالقراءة والبحث في تخصصه وفي غير تخصصه.

توطدت الصداقة بينهما فصارحها وصارحته ببعض ما تجد،
رأته ناصحاً لم يستغلها، نصحته فحاول مع زوجته كثيراً لعلها
تعقل أو تفهم، لكن الطباع لا تتغير ولن تتغير فزادت حدة
الخلاف بينه وبين زوجته على كل شيء، كان يهرب منها للعمل
والقراءة لتمر أيامه ويتبعها عمره سنة وراء سنة حتى ينتهي.



جهد

لم تكن فتاةً سهلة فكانت متطلعة وطموحة ومتعجلة تريد أن تنعم بسعادتها وهي في أوج شبابها فتريد رجلاً جاهزاً يُشبع رغبتها في الحياة وفي السعادة.

وكانت بيضاء البشرة، مربعة الوجه، شعرها الأسود يتمرد كالليل في الليالي الجامحة فوق جواد بري، وتتدلى منه خصلة لامعة على جبينها الأبيض المشرق، والذي يركز على حاجبين رسماً كسيوف حادة خرجت للتو من غمادها، تحمي تحتها عينيْن واسعتين ساحرتين، سوادهما قاتل، وسهامهما نافذة، ورموشهما كأنها مراوح من ريش نعام تلطف حرارة الهواء لتلك العينين الفاتنتين. وكانت بقوامها الرشيق الملفوف قد اكتملت فتنتها، فظهرت يافعةً مكتملة الأركان، بل إنها تهز الأركان لمن وقع في طريقها دون أن يتحسس وقع الأقدام.

أقبلت السنة النهائية لها في الجامعة، وبدأت تبحث عن زميل لها يبدو عليه أثر الغنى أو أحد من هيئة التدريس يكون وضعه مستقراً للتزوجه وتنعم معه بالاستقرار ويبدو أنها وجدت ذلك.

لم يكن دكتور هشام كامل شخصاً عادياً تمر عليه جهاد مرور الكرام ولا تلتفت له فقد كان ملفتاً للكثير باجتهاده وصفاته فقد

أصبح محاضرا ولم يتجاوز الثامنة والعشرين بعد وكان بطوله الفارع وملامحه الجادة ملفتاً للأنظار ومثيراً للفضول فبحث الكثيرون وراءه يسعون لأصل الحكاية وبالطبع فهناك من قام بهذا.

فجاءت الأخبار وتناقلتها الألسنة فسمعتها الأذان المتلهفة لكل ما هو مثير ومختلف، فهو من قرية ريفية جد واجتهد حتى وصل لما وصل لا يُعرف عنه التكلف أو التكبر فما زال يعيش في بيت والده البسيط في قريته رغم ما سُمع عنه أنه يمتلك شقة في مكان مرموق في المدينة لكنه يؤجرها ويستفيد بما يأتي منها، لا يمتلك سيارة بل يركب المواصلات ككل الناس وأيضاً لا يركب مواصلات داخلية في المدينة بل يمشي حتى يصل للجامعة سيراً على قدميه وهي مسافة طويلة نسبياً قد تستغرق نصف ساعة ذهاباً ومثلها إياباً.

حصلت جهاد على هذه المعلومات من بعض زميلاتهما ممن يتمتعن بالثرثرة الفارغة فخططت أن تُوقعه بشباكها لتفوز بما يملك وظهرت أمام عينيه ببريقها الذي تلمع له العيون ولم يكن يتوقع ذلك فكان بسيطاً وتوقعاته أشد بساطة، لكنه وجد فتاة جذابة أنيقة تخصه بنظراتٍ يتمناها الكثيرون، لفتت نظره فظنَّ أنها صدفة، تكررت سهامها فأحس بوجعها بين ضلوعه، أجهزت عليه فأقبلت، وتجرات فتبسَّمت، بل وتكلمت، خر صريعاً لهواها، وما عاد ينساها، عودته على الإدمان، فأقبلت بحنان وأدبرت بهوان.

وما هي إلا أيام حتى فاتحها وأبدى رغبة للوصال، فأبدت
تمنّع الراغبين، زاد عليها الإلحاح فضاعفت عليه الجفاء إلى أن
سقط، ونطق بالشهادة، وشهد ألا شريك لها في قلبه، ولم يعد
يرى سواها، رحمته من وجده، فأحيت به بقبول قربانه، أخبرته
بميعاد وصول أبيها من غربته، فليأت له ويطلبها منه، لتنتهي
وحشته ووحده.

جاء والدها بعد انتهاء دراستها، أخبرت هشام لو ينوي
خطبتها، لم يخذلها فتقدّم، سأل عنه الوالد ولم يكن يعرفه، فسأل
من يعرفه، سأل عصاما عنه، تفاجأ عصام بما سمع فكيف ومتى
حدث هذا؟ لم يبد على جهاد ما يوحي بشيء، هو بالطبع يعرف
هشاما، كان زميلاً له في نفس الكلية، كلية الآداب، لكنه في قسم
التاريخ، يعرف سمته والقليل عنه، لم يستطع أن يرفضه، فليس له
حق الرفض، فقال: إن هشاما شاب محترم ومجتهد ويليق بمن
يتقدم لها- هكذا قال من سألهم عنه- أما هو، عصام، فلا يعرفه
معرفة شخصية حتى يكون له رأي مكتمل فيه.

اكتفى الأب إسماعيل بما سمع، سأل عن أهله فوجدهم
بسطاء طيبين كعادة أهل الريف فوافق على الخطبة واتفق معه
على الزواج الذي سيتم بعد شهرين.

مر الوقت سريعاً فلم تكن مدة الشهرين كافية ليتعرف كلا
الطرفين على الآخر، حدث شدٌ وجذب كعادة الأفراح، كانت

جهاد تطلب الكثير من كل شيء فأرهقت جيب هشام كثيراً، أبدى التبرم بعض الأحيان فأغرت به بجمالها وفتنتها التي لا يستطيع المقاومة معها فنزف جيبه حتى أصابته أنيميا حادة.

تم الزواج سريعاً، بين متلهف لنيل الجمال وبين طامع للاستمتاع بالمال، ضاعت لهفته لَمَّا علم أن للجمال ثمناً حتى تراه وكأنها قالت له:

ادفع تنل، فلا يجتمع جمالي ووفرة مالك، هب لي ما تملك، أمنحك جمالي، وإلا فلتعش على أسواري تتمنى وتعود بلوعة العذاب وحرقة الاشتياق.

أقر لها فدفعت في البداية ما يطيق، لكنها لما أصرت على خواء جيبه خاف أن يفقد ما يدفئه من برد الفقر وفاقة الزمان فأمسك يده فأغلقت بابها، تَوَسَّل لها وقال:

أريد.

فسمع الصدى يقول له:

نفذ ما أعطيت، فهل من مزيد؟

كان بخيلاً ممسكاً، ظنَّت أنها ظفرت بالغنى لكنها وقعت في قيود الأسر، طلبت منه أن يشتري سيارة وكان يمتلك المال ورفض، فكانت تقضى كل شيء بسيارات الأجرة، لا يشتري لها الجديد إلا إذا جاء العيد، لم يخرج من جلاببه فأخرجها عن

عقلها، يمتلك رصيذاً بنكياً يزيده كل فترة، يشترك في مشروع مع أحد أصدقائه، يُدِرُّ عليه الربح الوفير لكن لا أثر لذلك عليه ولا عليها، سئمت حياتها معه فشكته لوالدتها، كلَّمته أمانى فيما قالت ابنتها، غضب واتهم جهادا بالإسراف وعدم المسؤولية فلن يُضيع ما جمعه من مال في سنوات عمره السابقة في أمورٍ لا يراها ضرورية، حاولت إقناعه ففشلت فلجأت لعصام ليتدخل فقد يسمع منه هشام، حاول عصام فلم يُفلح، عاد لأمانى وجهاد معتذراً ومؤكداً على أن هشام اشتهر عنه الحرص على المال فهو يتبعد عن معظم المناسبات في القسم والكلية خشية أن يدفع بعض المال، هكذا علم من بعض أصدقائه.

غضبت في بيت أبيها مدة إلى أن عاد أبوها إسماعيل من السفر، بالطبع يعلم ما حدث، جاء هشام يصافحه ويحمد الله على عودته، فقال:

حمداً لله على سلامتك يا عمى.

صافحه إسماعيل ببرود، وقال:

وهل أبقيت عمّاً أو خالاً، يا د. هشام؟

ماذا فعلت بجهاد؟

تلعثم هشام، ثم قال:

اسألها فهي مُسرفة تحب شراء كل ما هو جديد حتى وإن لم يكن ضرورياً وأنا لا أقبل هذه التصرفات.

رد إسماعيل:

لكنها زوجتك وأنت مُلزم بها وما تراه أنت غير ضروري قد يكون ضرورياً لها هي، فماذا ستفعل؟

قال هشام:

أنا منتظر عودتك بالسلامة لتقنعها بالعودة لبيت زوجها.

قال إسماعيل:

وعلى ماذا ستعود؟ هل ستبقى شحيح اليد كما قالت؟

نفى هشام:

أعدك أن أفعل لها ما تريد لكن حسب العقل والمنطق.

تأفف إسماعيل فقد رأى ألا أمل في إصلاح حاله وتغيير طباعه، لكن قرر أن يفعل ما بوسعه هو حتى تسير مركبة هذه الأسرة مرة أخرى.

تركه ودخل لغرفة جهاد وكانت معها أمني، فجلس بجوارها وقال:

هشام يريد أن تعود لي لمنزلك، فما رأيك؟

ردت فقالت:

لا أريد العودة إليه إنه يمنع عني كل شيء وأخشى أن يمنع عني أنفاسي ذات يوم فيميتني خنقاً.

قال إسماعيل:

ليس لهذا الحد يا جهاد التمسى لزوجك العذر فقد تعب حتى
جمع ماله هذا ولا يُريد ضياعه.

استنكرت ما سمعت فقالت:

وهل ما أطلبه حرام؟ أليست تلك حقوقي كزوجة؟

وافقها فقال:

نعم حقوقك لكن بالتدريج والسياسة تحصيلين على ما تريدين
منه وليس بالعناد والإصرار.

عموماً، أنا أحضرت لك كل ما تتمنين من ملابس شتوية
وصيفية فلا تسأليه عن شيء وأيضاً سأعطيك ما يكفيك من
مصروف، فقط عودي وابدئي معه من جديد وحاولي أن تفهمي
طباعه، وأنا بدوري شددت عليه في الكلام فسيكون مختلفاً معك
بعد الآن.

فوافقت أن تعود لزوجها على أمل أن يتغير ويُصيبه الكرم يوماً ما.



اقترب

كان القرب ظاهراً، يفهمها بإشارة وتفهمه بتلميح، تتوارد الأفكار والكلمات في نفس الوقت فيضحك ويُغرقها في الضحك، قال لها ذات يوم:

ما رأيك في حال القسم يا د. داليا؟

صمتت قليلاً تفكر، ثم قالت:

كما ترى، رئيس يعمل بنظرية المستبد المستنير وحاشية تتجنب إزعاجه حتى لا يُصيبهم الحرمان من عطايه، والأساتذة صغار السن أمثال حضرتك وأمثالي يدورون في الساقية يفعلون ما يؤمرون.

تبسّم لها وقال:

أشكرك على رأيك يا دكتورة وإن شاء الله سيتم نشر الموضوع في الاجتماع القادم فقد تم تسجيل كل شيء.

ضحكت ضحكة بريئة، وقالت:

ولا يهملك، ماذا سيحدث ساعتها! هل سيكون القهر والتسلط أكثر من هذا؟

ضحك هو الآخر ثم قال:

أبدأ، فقط ستنتقل كلابه عليك لتنهشك وتشتت تركيزك وتهمش عملك حتى تترسخ فكرة قوامها أنك لا تصلحين للأعمال الكبرى في القسم فيكفيك إعطاء بعض المحاضرات العملية القصيرة وتفرغين للتعلم من أستاذك الكبير فتحضرين كل المحاضرات مع الطلبة لتتلمي معهم من جديد.

ثم صمت فجأة، فقالت له:

لماذا سكتَ يا شهاب؟ أكمل ما تقول.

قال:

لأنني لم أستطع أن أفعل أو أتحمّل ما ذكرته، تركت هذه الكلية يوماً ما، فلم أحب أن أكون خادماً مطيعاً منافقاً في كل شيء.

فأمامك أحد خيارين: إما النفاق والتهليل لتصلي لما تريدين وتبقين في دائرة المتفعين أو تنفدين بعيداً وتنجين بنفسك ومبادئك وساعتها لن يكون لك معهم مكان أو خطوة.

ولحسن الحظ جاءني هذه البعثة لألمانيا وسط تلك الهموم فتشبثت بها وهجرت كل ما يهدم مبادئ أو إنسانيتي ووجدت ما أنشده في مجتمعات أخرى تؤمن بالحرية والاختلاف وتداول المناصب، ولكن ما جاءني من فرصة قد لا يأتي لكل الناس وساعتها سيكون واقعهم ظلاماً إلا أن يشاء الله.

نظرت له وابتسمت قائلة:

وماذا بعد؟ هل سيستمر مسلسل الكآبة هذا طويلاً.

قال:

بالطبع لا، فهم أصلاً لا يستحقون أن يكونوا في ذكرياتنا ولا بد من تفريغ الذاكرة من أمثالهم حتى لا يصيبها العطب أو العته.

ذهبا سوياً للمعمل فقد كانا أعدا خطة بحثٍ جديد، وكان عليهما مراجعة الأجهزة المتاحة لفحص العينات اللازمة لهذا البحث.

لم يكن راضياً عما يرى في القسم والكلية، القهر والتسلط على شباب الباحثين كان يؤرقه، ويزعجه ألا يرى الحرية في الفكر أو الأفكار اللازمة لعمل بحث أو رسالة.

بدءاً في تحضير العينات وجلس شهاب بجوارها ثم قال:

ألم تعلمي بما حدث يوم الأربعاء يا داليا؟

قالت:

ماذا حدث؟ فلم أكن موجودة.

قال شهاب:

جاء شاب من خارج الكلية ليُسجل رسالة الماجستير فاستأذن رئيس القسم ودخل، وكنت موجوداً حينها، أخبره أنه يعمل في شركة أدوية ويُريد أن يعمل على فكرة ما بعينها ويريد أحد الأساتذة يشاركه فكرته ليشرف على الرسالة.

داليا:

جميل، وماذا حدث؟

شهاب:

أجهض العلامة رئيس القسم الفكرة في مهدها وقال له: من اختار لك تلك الفكرة؟ إنك لن تجد شيئاً، فلم يعمل عليها أحد من قبل وستضيع وقتك ووقتنا بلا فائدة فدعنا نختار لك نحن موضوعاً للبحث، وأما المشرف فنحن من نختاره لك ولست أنت من تختاره.

لكنّ الشاب قال: لا أريد غير هذه الفكرة، سأعمل عليها مهما تكن النتائج التي ستخرج منها ولأن أحداً لم يعمل عليها فهذا يُضيف لها.

قال رئيس القسم: فلتذهب لشركتك وتقنعهم بما قلتُ لك.

داليا:

وماذا قال الشاب؟

قال شهاب:

خرج مصدوماً مما سمع، وتبعته بعد قليل، وجدته جالسا قرب الكافتيريا فسأله: ماذا ستفعل؟ قال: سأذهب لجامعة أخرى تقنع بفكرتي.

قالت داليا:

وتركته يذهب؟

رد شهاب:

كان لا بد له أن يذهب حيث يجد ما يُريد، أمّا أن تُفرضُ عليه فكرة بحث ويُفرضُ عليه مشرفها فهذا مُخيب لآماله فكيف يستكمل بحثه حينها.

قالت داليا:

وماذا عنك أنت؟ أراك مستاءً أكثر من ذلك الشاب.

نظر لها وقال:

لا أخفيك يا داليا فقد سئمت هذا الجمود عند الكثيرين وكأن الموضوع وما فيه: أكل عيش، فإذا كنت ممن حازوا رضى الرئيس فستنال حظاً سعيداً وإشرافاً على إحدى الرسائل لتخرج منها بأبحاث تفيد في الترقّيات وبالطبع فالرئيس شريك في هذه الأبحاث حتى لو لم يكن على علم بعنوان البحث أصلاً، أما لو كنت من المعارضين فلا نصيب لك ولا حظ وعليك أن تصنع أبحاثك بنفسك حتى تصل لترقياتك، وهذا ما نفعله أنا وأنت الآن.

قالت داليا:

الحمد لله إذن، فنحن نأكل من عمل أيدينا.

ضحك وقال:

كلي حتى تشبعي يا ستي، بالهناء والشفاء.

وهكذا كانت لقاءاتهما، تدور أحاديثهما في همومهما المشتركة، في الجامعة والحياة فقد وجد فيها صدقاً وإخلاصاً فكان يحكي ويشكو فتسمع له لعله يرتاح إن باح بما يكتُم، يسألها عن حياتها فتُخبره بما يُشبه آلامه فعلم أنها تعاني مثلما يعاني فقرر ألا يزيد همومها فتوقف عن الحديث حرصاً على ابتسامتها وبهجتها المشرقة.

كانا متشابهين، وتقريباً نفس الشخصية مع اختلاف نوعها فيه وفيها وكان هذا التقارب يجذبه فبدأ يتعلق بها أكثر لكن بينه وبينها جدراناً وأسواراً فلم يشأ لها العذاب والشتات فقرر أن يختفي فجأة كما ظهر لها فجأة لعله يرتاح ويريحها.

تواصل مع جامعته في ألمانيا يريد العودة فرحبت الجامعة به فأنهى الإجراءات وأتى لداليا ذات يوم وقال لها:
مرحباً ست الكل، كيف حالك يا داليا.

داليا:

الحمد لله، خير يا بروف؟ أراك منطلقاً اليوم.

قال:

ذكاؤك دائماً يحبطني، ألا أستطيع مفاجأتك يوماً؟

ضحكت وقالت:

لا عليك، سأسحب ذكائي الآن، فاجئي بسرعة.

تبسم وقال في أسي واضح:

وأخيراً سترتاحين مني، فسأعود لألمانيا قريباً.

صدمها فلم تستوعب ما قاله، فنظرت في عينيه بعيونها التي
ملأتها الأسئلة فلم يستطع النظر لها فهرب، فقالت:

أحقاً تقصد ما تقول؟ أم تمزح معي؟

قال:

ليتها مزحة، لكن للأسف لم يعد لي مكان هنا كل شيء ضد
طموحاتي.

قالت:

كل شيء يا شهاب؟ ألا يوجد شيء إيجابي تبقى من أجله.

قال:

الشيء الوحيد الذي من الممكن أن يقيني بيني وبينه أسوار
وقيود وسأظل دائماً معذباً وسيتعذب هو أيضاً والأفضل أن
أنسحب.

قالت داليا:

وما هذا الشيء؟

قال:

أنت يا داليا، لكن لا وصال فالأبواب موصده سأرحل حتى
لا أمزق كيائك.

فاجأها حقاً فصمتت لا تدري بماذا تُجيب، لكنه عاجلها فقال:
سأسافر الأسبوع القادم فقد أنهيتُ كل شيء، أراكِ على خير يا
داليا.

نظرت له ودمعة حارة تُغرق عينها فقالت:

اهتم بنفسك يا شهاب،

قال متصنعاً الابتسام ودموعه تفضحه:

لا تقلقي، فأنا مثل الجبل لا أنحني ولا ألين، وسأراكِ يوماً ما
وأخطفك.

فتبسمت من دعابته ونظر لها نظرة الوداع نظرة تملأ الكتب
بآلاف السطور مما يدور في الفكر والفؤاد ثم انصرف عن عينيها
اللتين ظلتا تودعه حتى خرج من باب الكلية ولا تدري هل فعلاً
سيراه وتراه يوماً ما كما يقول؟

بعد

زادت نوبات الاكتئاب التي تعتريه وزادت حداثتها بعد زواج
جهاد فساءت حالته كثيراً، وذهبت معه داليا أكثر من مرة لطيبه
النفسي الذي ضاعف له جرعات العلاج وأوصاه بالبعد عن

الضغوط والمنغصات، اقترحت عليه داليا أن يأخذ إجازة من الجامعة وهي أيضاً ويذهباً في رحلة صيفية في مكانٍ ناءٍ بعيداً عن الزحام.

وقع اختيارها على مرسى مطروح لتكون مصيفاً لهم، بحثت عن المعلومات المطلوبة وأنهت إجراءات الرحلة ذهبت بأسرتها لتخلو بنفسها في مكانٍ نظيف لا يذكرها بشيء مما مضى في حياتها واستمتعت مع أمل ونور وعادت معهما لأيام طفولتها فلعبت معهما في الماء وبيوت الرمل، خلعت عنها عباءة عمرها الذي ذهب منه الكثير دون أن تشعر بمتعة أو تحس بسعادة لكنه في النهاية محسوب عليها.

لم يخرج عصام من حالته سريعاً وكان إحساسه بالفقد عالياً هذه المرة شعر بأنه فقد من أحب، لكن داليا لم تتركه كعادتها فدمجته معها ومع أمل ونور.

وكانت هي بحاجة لهذه الرحلة بعدما فقدت صديقها وأنيسها، فبعد سفر شهاب أظلمت حياتها، تذكر دعاباته وابتساماته التي لا تنقطع رغم ما يعاينه من آلام ففتبسم وكأنه أمامها الآن، تذكر قوته في مواجهة الحياة بشموخ وجلد دون أن يكتئب أو يشكو، فكان صديقها المقرب وأحق بأن تفتقده بعد رحيله.

انقضت أيام المصيف وعادت الأسرة مرة ثانية وعاد عصام وقد عزم على أمر ما فقد جد في البحث عن فرصة للسفر للخارج فلم يعد يطيق المكان الذي يذكره بجهد فقرّر الهرب

لأبعد الأماكن، وجد فرصة جيدة في إحدى الجامعات السعودية وتقدم لها فتم قبوله للعمل فيها، أخبر داليا بما نوى فعارضت السفر فكانت لا ترى ضرورة إليه الآن فليبق معها ومع أبنائه الصغار يهنأ معهما ويраهما وهما يكبران يوماً وراء الآخر لكنه لم يستمع لها فقد قرر وعزم قبل أن يُخبرها متعللاً بأن العمل في الجامعة ذو رتبة مملة ويرجو أن يجمع بعض المال ليصنع لنفسه مشروعاً خاصاً يشغله في المرحلة القادمة فوافقت على الفكرة لكن بشرط ألا تطول مدة السفر فيكفي سنة أو سنتين على الأكثر.

سافر عصام للسعودية والتحق بعمله الذي كان في نفس المدينة التي يعمل فيها إسماعيل زوج أمانى.

عادت داليا لوحدها لكن مع أمل ونور لم تشعر بوحدتها فانشغلت بهما وراقبتهما وهما يكبران أمام عينيها، تفرح كلما رأت املاً تكبر وتشبهها في طريقة تفكيرها ولم تشبه أباهما في شيء إلا ملامحه، قد تعودت على غياب زوجها فلم تعد تفتقده أو تطلب منه أن يملأ فراغها وما كان ليفعل، ولم يعد لديها فراغ الآن فأبناؤها وعملها أخذوا كل وقتها وبالكاد تذهب لزيارة والديها مرة في الأسبوع على عجل.

بحثت عن صديقاتها القدامى فحاولت أن تتواصل مع سوزان بعدما فرقت بينهما السنوات والمسافات لكنّها وجدتها قد هاجرت مع زوجها للولايات المتحدة وأخذت والدتها معها بعدما توفي والدها الدكتور ثروت في السنوات الماضية، فأصبح

التواصل معها على فترات متباعدة ولا يمكن فيه أن تتطرق لتفاصيل الحياة مثلما كانت معها في السابق، فقد انشغلت سوزان بحياتها الجديدة البعيدة فالتهمت لها داليا كل الأعذار واقتصرت اتصالاتهما على أوقات المناسبات فقط.

اتصلت بسمر والتي استقرت في مصر بعدما اختلفت مع زوجها في الغربية، وكانت سمر بعد أن انتظرت عصاما طويلاً تتأمل أن يتقدم لخطبتها يوماً ما لكنه خذلها بعدما خدعها بابتساماته لها وإشباع نظراته منها ومن جمال زيتها، فبعد أن انتظرتة ورفضت من أجله عروضاً مناسبة للزواج من آخرين فاجأها بخطبته لداليا والزواج منها، فبُست سمر وانتابتها حالة نفسية سيئة رفضت على إثرها الزواج لمدة طويلة إلى أن أصرت عليها والدتها في القبول بالزواج حتى لا يصيبها شبح العنوسة خصوصاً بعد توقف عروض الزواج التي كانت رائجة يوماً ما.

وكان لها أخ أصغر منها يعمل في الكويت في مجال المقاولات وكان معه أحد المهندسين وقد صارت بينهما صداقة، وبعد أن عرف منه معلومات عن سمر طلب أن يتزوجها فعرض عليها أخوها هذا العرض لكنها رفضت في البداية كون ذلك المهندس قد سبق له الزواج وهو مطلق حالياً لكن والدتها ألحت عليها حتى قبلت وتزوجت وسافرت معه مدة ثم لم تطق الغربية فطلبت منه العودة لمصر فعادت لتعيش مع والدتها ويأتيها هو خلال زيارات سنوية أو نصف سنوية.

تواصلت داليا معها وحددت موعداً تقابلها فيه وبالفعل التقت بها ذات يوم فرحبت بها سمر وجلستا سوياً تتذكران أيام الصبا فقالت لها داليا:

اشتقت لك كثيراً يا سمر، لم تتغيري كثيراً وكالعادة مهتمة بنفسك. تبسمت سمر وقالت:

أنا أيضاً اشتقتُ لك يا داليا فأصدقاء الطفولة لا تمحيهم الذاكرة مهما باعدت بينهم السنين أو المسافات، وأنتِ أيضاً لم تغيري الأيام فما زلتِ تحتفظين بملامح الطفولة في وجهك وقوامك. ضحكت داليا وقالت:

نعم، يبدو أنه لا أمل لي أن أكبر وسأظلُّ هكذا طفلة، وقد تكبرني ابنتي يوماً.

ويبدو أنها تذكرت شيئاً قد نسيته فقالت:

ألم يرزقك الله بحملٍ أثناء تواجدك مع زوجك يا سمر؟ ردت سمر فقالت:

للأسف لم يشأ الله لنا ذلك رغم أننا طرقتنا كل أبواب الأطباء لكن للأسف حتى الآن لم نُرزق بطفل، وقد حاولنا عمل حقن مجهري مرتين لكن للأسف انتهى ذلك بالفشل.

نظرت لها داليا نظرة عطف بعدما رأت أمارات الأسى رُسمت على وجهها فقالت:

إن شاء الله ستأتي الأطفال وتفرحين يا سمر فلا تيأسي أبداً.

لكن أخبريني لماذا لم تبقين مع زوجك في الكويت؟

قالت سمر:

لم أحب الغربة يوماً، أحب الانطلاق والخروج كثيراً وهذا لا يتناسب مع الغربة، وبعد فشل الحقن المجهري دخلت في حالة نفسية سيئة زادت من عصبيتي مع زوجي فزادت الخلافات معه وطلبت منه العودة لمصر فوافق.

قالت داليا:

لكن البعد بينكما يقلل من فرص الحمل، والعمر لا يتوقف يا سمر، فهل فقدت الأمل لهذه الدرجة؟

ردت سمر فقالت:

يبدو أن هذا هو حظي ونصبي من الدنيا وزوجي لا يهتم بموضوع الإنجاب أصلاً، أشعر بحالة كبيرة من اليأس مما صرْتُ إليه، فلم أجد حباً ولا أمومة.

شعرت داليا بكم كبير من الإحباط والكآبة من لغة سمر وطريقة تفكيرها ذكّرتها بعصام لحظات نوبات اكتئابه فلا يتذكر حينها سوى السليبات والمصائب ولا يذكر نعمة الله. ورأت أن تنهي هذه المقابلة سريعاً قبل أن تدركها تلك العدوى، فهوّنت على سمر بعض ما هي فيه واستأذنتها للذهاب على وعد بتكرار الزيارة.

عادت لشقتها وأيقنت بوحدتها بعدما وجدت من سمر، فلم تسعى لشيء سوى أن تعيش راضية وسعيدة قدر المستطاع.

مرت الشهور، وعصام يتصل كعادته بزوجته وأبنائه لكن قلبه مازال خالياً ويريد أن يجتمع بمن يحبها ويظن أنها تحبه، يتنسم أخبارها من أبيها بحجة الاطمئنان عليها فيحكي له أبوها بعضاً من تفاصيل حياتها، وكان إسماعيل يخفي عنه ما يحدث من خلافات بينها وبين زوجها. فقد زادت الفجوة بينهما بعدما دار بينهما حوار، قال فيه هشام:

سننقل معيشتنا من هنا ونذهب للعيش في قريتي.

فرعت جهاد مما سمعته فأنكرته، وقالت:

ماذا قلت؟ نعيش في قريتك؟ كيف؟

رد فقال:

ككل الناس هناك.

قالت:

لكن ليس لي شيء هناك، نشأتُ هنا وأهلي وكل صديقاتي هنا فلماذا أذهب؟

نظر لها وقال بجدية:

لم تذكريني في كل ما قلتِ ألسْتُ في حساباتك لهذه الدرجة؟

تذهبين حيث يذهب زوجك يا هانم.

قالت وقد علا صوتها:

ولم تذهب أنت من الأساس؟ عملك ومستقبلك هنا.

قال:

عملي ليس كل يوم فيستدعي إقامتي بجواره، وباقي الأيام أقضيها بين مصالحي في القرية، فلم هذا الشتات بين هنا وهناك؟

قالت جهاد:

انقل أعمالك هنا في المدينة إذن.

قال متبرماً:

إنها أرض زراعية ومشروعي مرتبط أيضاً بتلك الأرض فكيف أنقل هذا للمدينة؟

ثم أردف فقال:

وماذا يربطك أنت هنا؟ زيارة والدتك يومين كل أسبوع؟ صديقاتك اللاتي تحدثنهن عبر الهاتف؟ سنرتب لتلك الأشياء ولن أحرملك منها.

ردت فقالت:

هل هذه هي رؤيتك للقرية والمدينة؟ ألا تفهم أو تدرك الفرق؟ هل الفرق فقط في المادة والتكاليف؟

قال:

وما الفرق إذن؟ فكل شيء هنا موجود هناك فلن نذهب
لكوكب آخر وما هي إلا بضعة كيلو مترات.

حاولت أن تمتصه فغيرت نبرتها لنبرة أهدى وقالت:

لا أعيب قريرتك ولكن هنا لنا خصوصية نستطيع أن نفعل
ما نشاء دون رقابة، أما الريف فلا توجد فيه هذه الخصوصية،
أريد أن أنجب أطفالاً ونربهم سوياً بالطريقة التي نريدها، ألا تريد
أن ننجب أطفالاً يا هشام؟

رد بعنف:

لا فرق يا ست هانم بين هنا وهناك، قل لي إنك تخشين معاملة
أناس تربيهم أقل منك اجتماعياً، أليس هذا ما يزعجك؟ سأفعل
ما أراه وعليك طاعتي.

قالت بعصبية:

لن أقبل بأوامرك يا هشام، ولن أترك بيتي وأذهب.

قال:

بل ستفعلين، وإلا فلا بيت لك هنا، هذه الشقة ستغلق إلى أن
تُؤجر كما كانت، وأعود لبيتي في قريرتي لأرعى شئونني.

لم ترد عليه هذه المرة فدخلت مسرعةً تجمع ملابسها في
حقيبتها وخرجت لبيت أبيها لتحكي لوالدتها ما حدث.

وما إن انتهت جهاد من حكايتها حتى قالت أماني:

هو قال لك لا بيت لك؟ وطردك من شقتك؟ إذن فلتبقي هنا حتى أخبر أباك بالأمر، وننظر ماذا سيفعل.

أخبرت زوجها بالأمر فأشار أن تبقى جهاد إلا أن يرى رأياً في هشام.

كلمه إسماعيل هاتفياً يُثنيه عن قراره فلم يُفلح، كان هشام يقيس كل شيء بالمادة وصمم على العودة للقرية، وعلى زوجته أن تنصاع له وتعيش حيث يقيم.

رفضت جهاد عندما أبلغها أبوها بإصرار هشام على رأيه، وقالت:

لم أستطيع تحمل شحه وحرصه وأنا هنا بينكم، ولم يته عن ذلك، فكيف به وهو بين قريته وأهله؟ ستزداد حياتي صعوبة وتعاسة معه.

لن أعود إليه إن ظل على رأيه.

لم يتراجع هشام بل زادت رعونته فعاد لقريته واستقر فيها بدون زوجته، أُنذرها وحذرهما من أنه سيتزوج فزاد هذا من عنادها وكبريائها فطلبت منه الطلاق.



بريق

تحرّرت فعادت طليقة، فكّت أسرها من يده المغلوله، لم
تأسف لما حدث فلم تكن سعيدة ولم يعطها أمل في السعادة
يوماً، تزوجته طمعاً فلم تنل إلا فقراً، أما هو فلم ينظر وراءه
ومضى في قريته وتزوج بمن تليق به ويليق بها فتحمدّه على
القليل وترضى منه بالنزر اليسير، وانتهت بذلك علاقة هشام
وجهاد بسرعة وبغير رجعة فلم تتجاوز العام الواحد، ولم يكن
هناك أبناء فكان ذلك خيراً لهما.

جاءتها داليا لمواساتها بعد الطلاق، فقالت لها:

لا تحزني يا جهاد فكل شيء نصيب، ربنا يعوضك خيراً.

ضحكت جهاد ضحكة كبيرة استنكرتها والدتها، ثم قالت:

على ماذا أحزن يا دكتورة؟ لم أر منه راحةً أو هناءً، وبالعكس،
أحس الآن بعودة روحي من جديد.

كان خُدعةً كبيرة وفخاً سقطت فيه فأنجاني الله منه، فهل أحزن؟

ابتسمت داليا لها لما رأيته في جهاد من عقل وصبر، وقالت:

أنتِ شابة جميلة وسيأتي من يخطبك ويعوضك عما مضى.

تدخلت أمانى فقالت:

كل شيء نصيب يا دكتورة كما قلت، والحمد لله على كل حال.
شربت داليا قهوتها، ثم استأذنت من أمانى وجهاد، وصعدت
لشقتها.

كانت إجازة عصام السنوية قد اقتربت، فلم يبق سوى شهران
حتى يأتي، فسارعت داليا في إنهاء ما بدأته من أبحاث حتى
تتفرغ الفترة القادمة لزوجها، لكنها كلما خلت بنفسها وهي تقرأ
وتعمل تتذكر شهابا الذي غاب فجأة، كما ظهر فجأة، فقد كان
كالحلم، أتى سريعاً على غير موعد وانتبهت فلم تجده على غير
موعد أيضاً، قد غادر منذ أكثر من عام ولا تعلم عنه شيئاً فلا
تواصل بينهما، وكعادة الأوقات الجميلة تكون قصيرة، لكن يبقى
أثرها عمراً كاملاً.

عاد عصام في إجازة سنوية ليست طويلة، ضم أطفاله لقلبه،
واحتضن زوجته، ومضت الأيام الأولى جميلة يملأها رواء
الاشتياق ليطفئ ظمأ البعاد.

نزل من شقته ليذهب في بعض حاجته، وجدها تخرج من
باب شقتها، اهتز قلبه وصاحت دقاته، وضع يده عليه ليخفي
وجده وهيامه، اقترب منها وسلم عليها مبتسماً فابتسمت له
ونظرت له نظرة اخترقت جميع أسواره، تحدّث فقال:

كيف حالك يا جهاد؟

عيونها ما زالت شاخصةً له تحاصره فلا يتحرك، ثم قالت:
الحمد لله بخير، كيف حالك أنت يا دكتور عصام؟
ود لو يرد بكلام كثير أخفاه عنها منذ مدة لكن الوضع لا يسمح،
فقال:

الآن، أنا بخير جداً جداً.
فهمت إشارته، فضحكت وقالت:
تمام، يا رب دائماً تكون بخير.
خشي أن يلاحظ أحد حالته التي فضحتها عيونه بنظراتها فقال
لجهاذ:

أنا ذاهب لوسط البلد، هل تريدین شيئاً؟
قالت:

لا، شكراً لك يا دكتور، مع السلامة.
تركها وأكمل طريقه بعدما طعنته بسهامها، رأى كم تغيرت عن
ذي قبل فلم تعد تلك الفتاة الصغيرة، بل أصبحت امرأة ناضجة
تعني كل شيء وتُدرك مواطن قوتها فتستغلها، هي أكثر اتزاناً
ورزانة وثقة عما كانت عليه، وعليه أن يعاملها على ما رأى الآن،
وليست كما كانت من قبل كفتاة جامعية يعاملها أستاذ جامعي.

مضى والأفكار تزاحمه والفؤاد منشغل بوجده، وتفصيلها
تملاً عينيه بحسنها. فذهب لوالدته ببعض الهدايا التي أحضرها

لها، كانت تُحب هذا وتنتظره منه، بل وطلبتَه منه بلسانها حين سأَلها قبل إجازته: هل تحتاجين شيئاً يا أمي من هنا؟ فأجابته بقائمة للمشتريات لها ولأبنائها وصديقاتها، ماركات بعينها من أماكن معروفة لها في السعودية، فقد كانت خبيرة بها عندما كانت هناك.

أحضر لها كل ما طلبته ووضع حقيبة كاملة بين يديها، لمعت في عينيها الفرحه وفتحتها تتأكد مما طلبته، فشكرته ودعت له بالمزيد ليأتي لها بالمزيد أيضاً.

وزَّع باقي الهدايا على إخوته وزوجاتهم، ثم عاد لمنزله ليؤدي أمانة إسماعيل، فقد أرسل إسماعيل معه بعض الملابس والحاجات لزوجته وأبنائه، وصل لشقته ونادى لداليا تُحضر له الحقيبة الصغيرة في ركن غرفة النوم، دخلت وأحضرتها، قال لها:

هذه أرسلها إسماعيل لأسرته، سأعطيها لهم.

ردت وقالت:

تعالى لو كنت مُتعباً، وأذهب أنا إليهم.

رد وقال:

لا، لست متعباً سأعطيها لهم من على الباب، فلا داعي لتعبك أنت.

أخذ الحقيية ونزل لشقة إسماعيل، رن الجرس ففتحت جهاد
التي تفاجأت به، فارتبكت وابتسمت وقالت:
أهلاً وسهلاً، تفضّل يا دكتور عصام.

ابتسم لها، وقال:

هذه الحقيية أرسلها والدك.

نظرت لها وقالت:

شكراً يا دكتور، أتعبنك معنا.

اقترب منها وقال بصوتٍ خفيض:

في جيبيها الخارجي هدية صغيرة منى أنا، لك أنت، خذيها
قبل أن تطير.

احمرّ وجهها خجلاً، واتسعت ابتسامتها فزاد حسنّها، وقالت:

حاضر، سأخذها.

قالتها ونظرات عيونها فيها ألف حرفٍ وحرفٍ يريد أن ينساب
من بين شفاهها الحارقة تريد أن تفهم أو تتأكد مما تتوقعه.

تركها وهي ذاهلةً، بعدما غرّف من خمر عيونها حتى سكر
وعاد لشقته نشواناً.

تناول غذاءه مع أسرته وبدّل ملابسه ليغفو قليلاً ويغرق في
أحلامه، لكنّ النوم خاصمه فراح يتقلّب في سريره، تملأ السعادة
عينيه ليهيم في أحلام اليقظة.



تخطيط

كان قد جمع بعض المال من غربته، فاقترحت عليه زوجته أن يضع ماله في شيء آمن، أرض أو عقار، أما المشروعات التي يحلم بتحقيقها فليرجئها حتى يستقر ويديرها بنفسه بالأمانة أصبحت عملة نادرة عند الناس هذه الأيام، اقتنع برأيها وذهب وطلب من شوقي بأن يبحث له عن هدفه وبالفعل وجد قطعة أرض اتحاد ملاك فأعجبه بعدما رآها وكتب عقداً باسمه مع شركائه.

لكن قلبه كان في مكان آخر لا يهدأ بل يُلح عليه من أن لاآخر كلما مرّت أمامه أو أصابته بعينيها، أحس بشبابه يعود من جديد، يدق قلبه ويطير، يتسمم من مجرد مرور طيفها في خياله، أحس أنها فرصة لن تتكرر وقد جاء القدر بها مرة ثانية بعدما أيقن بضياها فقرر ألا يضيعها هذه المرة.

قرر أن يفتاحها بما يشعر بعدما رأى منها استجابة لنظراته وتفاعلاً مع إشاراته، لكن كيف وأين سيتكلم معها؟

انتظر فرصة ذهاب داليا لزيارة أهلها حتى يخلو له الجو ويتحدث إلى جهاد، استعدت داليا وهيأت أبنائها للخروج، ودعته فقالت:

عصام، أنا والأولاد جاهزين، ألن تأت معنا؟

قال:

سأتي بالطبع، لكن بعد قليل، اذهبوا أنتم الآن وسألحق بكم.

لم تضغط عليه أكثر فتركته كما يريد وأخبرته بالطعام الموجود في الثلاجة يأكله لو شاء، ونزل معها بأمل ونور للشارع فلمح جهادا في مدخل شقتها بالأسفل، ألقت داليا التحية عليها وغمز لها عصام بعينه فتسمرت ولم تفهم قصده، أوقف سيارة أجرة لزوجته وأبنائه وعاد سريعا ليلحق بها قبل أن تغلق بابها.

رجع بسرعة، وجدها واقفة مكانها تنتظره فأشار لها أن تتبعه للأعلى وسبقها لشقته وانتظر، تلفتت يميناً ويساراً لتطمئن من غياب الأنظار عنها وأغلقت باب شقتها وصعدت إليه ترتجف ويرتج كيانها، جذبها من يدها للداخل وأغلق الباب واقترب منها فاستشق من أنفاسها المرتجفة ما ينعشه، فتراجعت، فتقدم وقال:

مالك يا جهاد؟ لماذا تبتعدين عني؟

قالت بصوتٍ متهدج:

ماذا تريد مني؟ أخاف أن يشعر بنا أحد فتصبح مشكلة.

قال والشوق يلتهم عينيه:

أنا أحبك يا جهاد، أريدك معي دائماً، ألا تفهمين هذا؟

أذهلتها كلماته فصمتت، نظرت له تحاول تأكيد ما يقول، لم يصبر على صمتها القتال فأمسك يدها وقال:

ألا تريدني يا جهاد، ألا يوجد لي في قلبك مكان؟
لا أستطيع العيش بدونك، قد شغلتِ الفكر والفؤاد، لو وافقتِ
سأجلب لك السعادة حيث كانت، سأكون ملكاً لك طيلة العمر.
دارت الأرض بها فلم تكن تتوقع منه هذه الجرأة، ظنته يتلذذ
بمفاتنها فقط كلما نظر إليها رغم أنها كانت تتمناه أن يقترب،
لكنها تعلم حاله، فسألته:

على أي وضع تريدني؟ عشيقة أم زوجة؟
رد بحزم:

زوجة طبعاً، لتبقي معي طوال العمر.
قالت:

وكيف سيحدث هذا ولديك زوجة وأبناء؟
قال وكأن لديه خطة ما:

ستتزوج بعيداً عن هنا، لو وافقتِ سنرتب للأمر جيداً.
نظرت له ولم تفهم مقصده لكنها لم تضيع الفرصة، فقالت:
رتب أمورك وأخبرني.

ابتسم فرحاً، وقال وعيونه تلمع:

إذن فأنت موافقة، أليس كذلك؟

تبَسَّمت وقالت:

يعنيهم من فرحته أن يحضنها، اقترب وحاول فهربت وصدته،
حاول بقوته فقاومته بإغرائها، فلتت من يديه وقالت في دلال:

في الحلال فقط، أنتظر وعودك، وأخشى أن تكون كلاماً فقط.

يئس من النيل منها، لكنّها زرعت فتنتها فيه أكثر فصمم على
ما يريد فقال لها:

قريباً جداً ستعرفين كل شيء وسأنال ما أريد يا جهاد.

قالت وهي تبسم:

إن شاء الله.

كانت قرية من الباب فتحته ببطء ونظرت فوجدت السلالم
خالية والسكون متمكن فنزلت بسرعة تهوّل خوفاً من أن يصيبه
الجنون فيلحق بها ويُفتضح أمرهما فدخلت شقتها وأغلقت
الباب.

تركته وحيداً بعدما أشعلت كل خطبه اليابس منذ سنين،
أعادت له ابتسامته وإحساسه بالحياة واستمتاعه بها، قرّر أن يظفر
بها لينال مفقوداً منذ سنين، جلس يفكر فيما يصنع، وجد الأفكار
تتزاخم على رأسه فنظّمها ورتبها وقال لنفسه:

سأعود للسعودية بعد أيام قليلة، وقبل العودة لا بد من التقدم
لأهل لجهاد لطلبها للزواج في سرية تامة.

سأعقد قراني عليها هنا وأسافر، وهناك أستكمل لها إجراءات
الاستقدام هناك لتأتي ونعيش سوياً بعيداً عن هنا حتى لا تشعر
داليا بشيء.

كان وقته ضيقاً فأخبر جهادا بالهاتف أنه سيفتح أباها في أمر
زواجهما وأطلعها على خطته وعليها أن تخبر والدتها بالأمر حتى
يأتي ويخبرها هي الأخرى لكن دون أن يدري أحد، فوافقته على
ما أراد.



الجريمة

عادت أمني بعد الظهر، وما أن رأتها جهاد تفتح الباب حتى هرولت إليها وقالت:

لماذا تأخرت يا أمي؟

نظرت أمني باستغراب وقالت:

وماذا كان ينتظرنني تأخرت أو لم أتأخر؟

نظرت جهاد لها وابتسمت ثم قالت:

بل هناك الجديد والمهم أيضاً.

أثارت فضول والدتها التي قالت:

خيراً يا جهاد؟ قولي بلا تشويق.

قالت جهاد:

عصام، طلب يدي للزواج.

صدمتها المفاجأة غير المتوقعة فنظرت لجهاد وقالت:

ماذا تقولين؟ كيف ومتى حدث هذا؟

ردت جهاد:

اليوم، منذ ساعة تقريباً، حدثني في الأمر بعد ذهاب زوجته
لبيت أهلها.

صمتت أمانى لثوان، ثم قالت:

أين حدثك؟ على السلم؟

تلعثمت جهاد فقالت:

تقريباً، وليس هذا هو المهم، المهم ما قاله وطلبه مني، فما
رأيك أنت؟

ردت أمانى وهي حالة شرود:

ليس الأمر سهلاً أو هيناً يا جهاد، فداليا زوجته جارتنا
وصديقتنا بل وأخت رانيا زوجة خالك جمال، فماذا نفعل؟

قالت جهاد:

وما ذنبنا نحن إن أتى عصام وطلب الزواج، هذا شأنه،
وخطأها هي لأنها لم تحتويه فذهب يطلب السعادة مع زوجة
أخرى.

وهل لو رفضنا نحن، سيعدل هو عن الزواج؟

صمتت أمانى تفكر فيما سمعت وكانت ترى أن داليا لديها
الكثير من كل شيء، وطمعت يوماً ما بينها وبين نفسها في عصام

ومال عصام، لكن جهادا لم تتركها كثيراً في صمتها فقطعته
وقالت لها:

سيأتي لك اليوم ليحدثك في الأمر وسيتصل بالدي ليخبره
أيضاً.

لم يتأخر عصام فقد رن جرس الشقة قبل أن ينتهي حوار جهاد
مع أمانى فتحت جهاد الباب، ابتسم لها فابتسمت له، وقال:

هل عادت والدتك؟

قالت:

نعم عادت تفضل سادعوها لك.

لحظات وجاءت أمانى فدخلت غرفة الجلوس حيث يجلس
عصام، وقالت:

أهلاً وسهلاً يا دكتور عصام، شرفت شقتنا المتواضعة.

رد عصام فقال:

أهلاً بحضرتك مدام أمانى، الشرف لي أنا.

ثم استطرد فقال:

أعتقد أن جهادا أعطت حضرتك فكرة عن سبب زيارتي لكم.

ردت أمانى:

نعم، وفاجأتني بما قالت.

ابتسم وقال:

أريد أن توافقي على زواجي من جهاد ولكم مني ما تطلبون،
وقد تحدثت هاتفياً مع الأستاذ/ إسماعيل، وأطلعتة على طلبي
لكنّه لم يقرر بعد وأرجأ رأيه إلى أن أخبرك أنت ويعرف رأيك.

قالت أماني:

دكتور/ عصام، حضرتك شخص محترم ولك مكانتك،
وشرف لأي بيت تقصده وأكد نحن نتشرف بنسبك، لكن
الموضوع يحتاج بعض الوقت للتشاور وتعلم حضرتك أن
الموضوع حسّاس جداً.

قال عصام:

طبعاً لكم كل الحق في هذا، لكن لم يبق سوى أيام قليلة على
انتهاء إجازتي وأتمنى إنجاز الأمر قبل عودتي، على أن أرسل لها
لتلحق بي ونعيش بعيداً عن الحرج والمشاكل إلى أن تستقر الأمور.

قالت أماني:

لن تتأخر في الرد على حضرتك وربنا يقدم الخير لنا ولك.

تركها وذهب لزوجته وأبنائه في بيت والدها، سهر مع منير
وأميمة وكان متشياً على غير العادة، لاحظت داليا ذلك لكنها لم
تعلق، وبعد نهاية السهرة أخذ أسرته وعاد لشقته.

كانت الأيام الباقية قليلة فحاول أن ينهي كل ما يخصه في
مصر قبل السفر، وبدأ العد التنازلي للعودة، ينتظر على أحر من

الجمر رد أمانى التي لم تتأخر فانتهزت فرصة غياب داليا
واتصلت به ليأتيها فجاء إليها على عجل، فاستقبلته وقالت له:

دكتور عصام، يشرفنا أن تكون زوجاً لابنتنا جهاد لكن بشرط
أن نطمئن على مستقبلها معك.

قال عصام:

شكراً لكم وأنا تحت أمركم فيما تريدون مني.

قالت أمانى:

اعذرنا يا دكتور ولا تظن أننا لا نثق فيك لكن التجربة السابقة
مريرة ولا نريد تكرارها، وآسفة على كلامي هذا معك، ونعلم أن
حضرتك مختلف كل الاختلاف عن زوجها السابق، لكن
الاحتياط واجب.

رد عصام:

أنا أكيد أتفهم ما تقولينه وأقدر خوفك على ابنتك، لكن أعدك
بألا تندمي على الموافقة على الزواج، ولتطلي الآن ما تشائين.

قالت أمانى:

نطلب مهراً يليق بها وشبكة حسبما تتفق أنت وجهاد، ومؤخراً
لا يقل عن مائة ألف جنيه.

قال عصام:

كل طلباتكم مجابة وسأزيد عليها أيضاً، لكن لي طلب وأرجو
أن يتحقق.

قالت أماني:

تفضل يا دكتور.

قال عصام:

أرجو أن نعقد القران أولاً قبل عودتي وهناك أشتري لها شبكتها كما تشاء هي وأبوها ومهرها سيكون نقداً وسأودعه في حساب بنكي أفتحه لها هنا قبل السفر، أما أن أجيب طلباتكم قبل عودتي فقد يجلب هذا علينا مشاكل تنهي الموضوع قبل أن يبدأ.

صمتت أماني تُفكر ومعها جهاد تجلس بجوارها، فقالت جهاد لأُمها وهي تنظر في عيني عصام بابتسامة ساحرة:

وافقي يا أمي، أنا أثق في عصام.

نظرت لها أماني وقالت:

ما دمتِ موافقة على هذا فأنا أيضاً موافقة وربنا يتمم لكما الخير.

فرح عصام كثيراً وقال:

إذن اتفقنا ولن تندمي يوماً على ثقتك يا جهاد.

علينا الإعداد لعقد القران في سرية تامة.

قالت أماني:

انظر ما يناسبك ونحن معك وربنا يسهل الأمر.



غدر

لم تكن داليا تشعر بما يجري حولها فقد كانت مشغولة بما حدث عند أبيها، فأثناء زيارتها لبيت أبيها هي وأبناؤها وأيضاً جاءت رانيا بأبنائها كالعادة، تسبب هاني ابن رانيا في ضوضاء كبيرة في المنزل بعد أن تعثر في إحدى المقتنيات الفخارية في الصالة وكسرها أثناء جريه وراء الأطفال الآخرين مما أثار فزع منير وغضبه فانهال على الولد ضرباً وشتماً فجاءت رانيا مهرولة إليه فنزعت ابنها من قبضة أبيها وقالت:

لماذا تضربه يا أبي؟ ماذا فعل؟

قال:

ألا تسمعين أو تنظرين يا هانم؟ قد كسر إحدى الفخاريات الغالية التي كانت في الصالة، ألا يستحق العقاب؟

قالت رانيا:

يستحق العقاب لو كان قاصداً ما فعل أما لو كان غير عامد فلماذا الضرب، يكفي التوبيخ؟

استهزأ بما سمعه وقال:

جميلة جداً طريقتك في التربية، احتفظي بها في بيتك أما هنا في بيتي فعلى الجميع أن يسمع كلمتي ويأتمر بأمرى وإلا فليذهب حيث شاء.

بكت رانيا من قسوته وأخذت أبناءها وقالت:

إذن فلنذهب ما دمت ستقهرني وتقهر أبنائي، فلنا بيت يحفظ كرامتنا.

لملت أشياءها وأخذت أبناءها وذهبت، ولم تسمع لكلمات أمها أئمة التي كانت مشغولة عن الحوار مع داليا بالداخل في ترتيب ما يلزم عصام في سفره.

عادت أئمة وقالت:

ماذا حدث يا منير؟ لم أغضب رانيا؟

قال في غضب:

ما دامت لا تربي أبناءها وتغضب لربي لربي لهم فلنذهب حيث شاءت.

غضبت داليا مما سمعت ولم تملك نفسها فقالت في عصبية:

ولماذا حضرتك بهذه القسوة معها؟ ومن قال إن تربيتك لنا صحيحة؟

ربي على القهر منذ كنا صغيرتين، لم تسمع لأرائنا أو تحترم إرادتنا بل أجبرتنا على خيارات لم نرضها وكنت تعلم هذا، والآن تريد أن تربي أبناءنا كما ربيتنا؟ لن تقبل رانيا ولن أقبل أنا أيضاً،

يكفيننا ما عشناه من قهر هنا ولولا البر بالوالدين ما أتينا إليكما
وسأذهب أنا الأخرى كما ذهبت رانيا.

وهمّت والدتها تُثنيها عن رغبتها في الذهاب لكنها لم تفلح
فخرجت داليا من بيت أبيها نائرة على الظلم والقهر ولم تدر
كيف أتتها الشجاعة والجرأة لتواجه أباهما وتقول ما قالت، لكنها
على كل حال كانت راضيةً عمّا فعلت ولم تندم عليه.

عادت وحكت لزوجها، وكان في شغل عنها، تجذبه لحياتها
فيمتنع ويذهب في الاتجاه المضاد عساه يلقي من الحب والوداد
ما يؤنس الفؤاد، لكنّه اطمأن فهي مشغولة بما لديها ولن تتفرغ
لتفكر فيه وتفتش وراءه فمضى في خطته.

اتفق مع جهاد وأماني أن يلتقيهما عند مأذون شرعي قد رتب
الأمر معه من قبل فجاءتا إليه في تكتم وكان قد أحضر اثنين من
الشهود بمعرفة المأذون.

عقد قرانه على جهاد، فرح فرحة لم يذق مثلها من قبل وكأنه
يتزوج لأول مرة، خرجوا من عند المأذون واتجه بهما ناحية شارع
الصاغة واشترى لها خاتماً ثميناً يليق بجمالها الفتان ثم استوقف
لهما سيارة أقلتتهما إلى منزلهما، أما هو فقد تعمد التأخير بعض
الوقت منعاً للريبة والشك ثم عاد إلى بيته.

لم يظهر عليه ما ينبئ بفعلته، ودائماً توتر الأيام التي تسبق
السفر يحجب أي توتر آخر، فللمسافر العذر في حالته وربكته،
لذلك فداليا لم تشعر أو تتنبأ بشيء.

حاول أن يُبعد الظنون أكثر فقبل سفره بيوم ذهب لحماه ليصلح بينه وبين بنتيه فذهب لرانيا يسترضيها أن تأتي لأبيها كذلك فعل مع زوجته واستطاع أن يلمّ شمل أسرته الكبيرة قبل سفره حتى يتفرغ لما هو مُقدم عليه.

سافر عصام وترك وراءه زوجته داليا وأمل ابنته التي قاربت العاشرة من عمرها ونورا الذي بلغ الخامسة، وترك زوجته الجديدة التي لم يهنأ بها بعد، جهاد، تركها ونظراتها الحارقة له وهو ينزل على السلالم ليغادر كادت أن تُذيب فؤاده ولم يستطع حينها أن يملأ عينيه من حُسنها وفتنتها فكانت داليا تتبع خطواته على السلم، فاكتمت ساعته بوداعها وسلّم عليها بيده وعلى والدتها أيضاً.

أحلام اليقظة والمنام بجهاد لا تفارقه واتصالاته بها تزيد الحنين إليها إلى أن استطاع في خلال شهرين أن ينهي لها أوراقها لتسافر إليه.

كان عليها أن تسافر سريعاً لكن كيف تجيب لو سألتها داليا عن سفرها؟ فكان عليها أن تخلق قصة مقنعة حتى تخرج من هذا المأزق.

تحدثت مع والدتها في هذا الأمر فطمأنتها أمانى ووعدتها أن تفعل هي اللازم.

صعدت أمانى لشقة داليا تطلب لقاءها فاستقبلتها داليا بحفاوتها المقبولة وأجلستها وقالت:

أهلاً وسهلاً أم جهاد، شرفتنا، كيف حالك وحال الأولاد؟

قالت أماني:

الحمد لله يا دكتورة، كلنا بخير، لكن فيه شيء مهم جاء بي إليك.

قالت داليا:

خير إن شاء الله؟

ردت أماني وقالت:

سأخبرك، فأنت مثل أختي.

جهاد جاءها عريس يطلب يدها، هو مع أبيها إسماعيل في السعودية يعمل هناك منذ سنين من محافظة بعيدة عن هنا، لكن إسماعيل يقول: إنه شاب طيب ومن أصل طيب، فما رأيك أنت؟

قالت داليا بفرحة:

ألف مبروك لجهاد، ربنا يتمم لها ويفرحها إن شاء الله، المهم رأي العروس ورأي أبيها لأنه هو من يعرفه.

قالت أماني:

قال إسماعيل: إن العريس شخص محترم، وجهاد وافقت بعدما حدثته وتعرّفت عليه، لكنّه يريد أن يتزوجها وهي هنا بوكيل عنه ثم تسافر إليه هناك فلن يستطيع النزول إجازة هذه الفترة.

قالت داليا:

ما دام هناك اتفاق وتفاهم وقبول فلا مانع من هذه الطريقة،
المهم أن يجتمع شملهما في أقرب وقت.

قالت أماني:

أشكرك يا بنت الأصول لذوقك، أحبيت أن آخذ رأيك
وأخبرك حتى لا تتفاجئين برحيل جهاد.

قالت داليا:

ربنا يديم المعروف، أكيد لا يوجد فرق بيننا فنحن جيران
وأهل.

تم الموضوع بسرعة فأنهت جهاد إجراءات السفر، وفعلت
أماني كل ما تستطيع لتؤكد من عدم شك داليا في الأمر فأطلعتها
على الخطوات حتى أنها استغلت براءتها وطيبتها فأخذتها معها
لتشتري لجهاد بعض ملابس العرس بأموال عصام زوج داليا،
فذهبت معها داليا في أماكن متعددة خدمة لها فهي جارتها وقرينة
أختها ولم تظن بعد أنها حماة زوجها وأم ضربتها.

وكانت تُطلع عصاما على ما فعلت مع أماني لزواج جهاد
وأوصته أن يساعدهم في الغربة إن احتاج الأمر لذلك فوعدها
وأقسم أنه سيفعل.



الضَّرَّة

سافرت جهاد أخيراً، والتقى عصام بمن يهواها منذ سنوات
ويعشق طلعتها الفاتنة وسحرها البديع بين حدقاتها وفي كل
تفاصيل قوامها وروحها الشابة.

هياً لها شقة جميلة وفرشها بكل جديد لتليق بعروس جديدة
لكنه استبقى غرفة وحيدة وضع فيها سريراً مفرداً وأشياء تكفي
لرجل أعزب، وذلك لحاجة في نفسه.

عاشاً أياماً سعيدة في البداية، استمتع فيها عصام بكل ما فقدته
مع داليا التي يراها جافة رغم أنه هو سبب جفافها ويُسببها، فرح
ومرح كطفل صغير وجد لعبة يحبها، أعطته جهاد الكثير مما
يطلب ومنعت عنه الكثير ليبقى متعلقاً ومُعلقاً بين رغباتها
وإرادتها فكانت قد تعلّمت من تجربتها فبدأت بجمع المال من
عصام وطالبته بالمزيد لينال ما يريد، رضخ لها فلم يكن يستطيع
البعد عنها أو الحرمان منها، أدمن حبها وعشقها فلم يبرأ منها،
سكر من خمرتها حتى سقط في حانتها صريعاً فقد كانت خمرتها
مُعْتَقَة، تاه عن الأبواب ولم يعلم كيف يزيل الأسباب.

صار في يديها دُميةً تحركه بإشارتها فيفعل قبل أن تتحرك
شفاهها، طلبت منه تأميناً لمستقبلها كدليل وبرهان على حبه لها

ففتح خزائنه لتختار فاختارت أنفس الجواهر وطلبت أن يكتب لها أرض اتحاد الملاك ففعل وهو نشوانٌ سكران.

مرت شهور سعيدة وهو في غياب عن العقل ولما أفاق من غيبوبته ووجد ما فعل من مصيبته انزوى كعادته واكتأب وأحس بالوحدة رغم نواله لسعادته. لم تُطق حالته فهي تريد الانطلاق والحياة والسرف في كل شيء، لا تريد قيوداً أو حساباً، تزوجته لتسعد وتحيا لا أن تُدبر وتدّخر، مرت أيام نوبته حتى تعافى بعدما سمع منها خبراً أسعده، أخبرته بحملها فكان سعيداً لا لحملها ذاته، بل، لأن حملها وجنينها سيربطها به فلا تتركه وتذهب مثلما فعلت أمه من قبل حينما ذهبت.

مرت أيام حملها حتى بلغت شهرها السابع، أخبرها أن موعد إجازته قد حان وعليه العودة لمصر، اتفقا أن ينزلا سوياً وكأنها اتفقت مع زوجها على أن تضع مولودها عند أمها كي ترعاها ثم لتسافر إليه مرة ثانية، ولأن عصاما قد وافقت إجازته تلك الظروف فسيرافقها في طريق عودتها ويرعاها حتى تصل، كان قد أخبر داليا بتلك التفاصيل فأوصته خيراً بضرتها التي لم تعلم مكانتها منها حتى الآن فأذعن لطيبة قلب داليا ورافق جهادا حتى عاد لشقته وأدخل جهادا لشقة أمها أمانى التي شكرته على اعتناؤه بجهاد طوال الرحلة وكان ذلك على مرأى ومسمع من داليا.

مرت أيام إجازته وهو في حالة شرود، لم يقترب من داليا كثيراً، لاحظت بروده وتبلده وكأنها كانت في سريريه بالأمس ولم تغب عنه

عاما كاملا، لكنها لم تُرد أن تثير غضبه فقد يكون هناك ما لا تعلمه في عمله ويكون هو السبب في حالته، فتركته حيناً لعلّه يرجع أو يؤوب فيحكى لكنه استمر في حالته، فلم تطق صبراً فقالت:

مَالِكَ يَا عصام؟ هل هناك ما يزعجك؟

تفاجأ من سؤالها فبادر نافياً:

لا يوجد شيء، فأنا بخير، لماذا تقولين هذا؟

قالت:

ألا ترى حالتك؟ إنك شارد طوال الوقت، موجود بجسدك فقط، فهل هناك مشاكل في العمل ولا تريد أن تزعجني بها؟

لمعت عيناه، فقد أهدت له مبرراً ومخرجاً مما هو فيه، فقال:

فعلاً هناك مشاكل واضطرابات في العمل، وللأسف يلزمني السفر ثانية، ولم أرد أن أزعجك الآن.

قالت مندهشة:

لماذا؟ قد اتفقنا أن تكون هذه السنة هي الأخيرة وأن تستقر بيننا بعدها.

قال في أسى مصطنع:

وأنا أيضاً كنت أريد هذا لكن ليس الأمر بيدي، سيضيع علي الكثير من حقوقي إن تركت العمل الآن، ولا خيار سوى أن أرجع هذه السنة.

صمتت داليا تفكر فيما تسمعه منه، صدمها بكلماته، لكن ليس لديها ما تقوله لتحل المشكلة فلا مناص من أن يعود حتى ينتهي من التزاماته المادية التي بدأها.

كان يقتله الحنين ويذيبه الشوق لجهاد، تعود على ضحكتها وسحرها وشبابها المفعم بالحيوية والأنوثة فيشعر معها برجولته وحياته، لم يملأ وجود طفليه حوله، أمل ونور ذلك الفراغ، وبالطبع لم تملأه داليا فلو كانت تستطيع لفعلت هذا منذ سنين طويلة شعر فيها بالوحدة والحرمان معها.

يتلصص النظر ليرى هل باب شقتها مفتوح؟ هل تشرق الشمس منه فيراها لتنير حياته وتشعره بدفئها بعدما رأى قسوة البرد والشتاء في سرير داليا؟

ينتظر حتى تخرج داليا فينزل مهرولاً يتلفت يميناً ويساراً ويدق بابها ليرى طلعتها التي طالما فتته فيدخل ويقضي وقتاً قصيراً لا يرتوي منها ولا ترتوي منه ولا يسكن به الحنين ولا الشوق، بل، تزيده لهيباً واستعاراً لناره المتقدة في فؤاده وأحشائه، كانت تريده لها، فلم تعجبها حالته التي يملأها الخوف والذعر من داليا، فقالت:

إلى متى يا عصام؟

قال:

إلى متى ماذا؟

قالت:

إلى متى تخاف منها، وتحسب لها ألف حساب؟

قال:

إنها زوجتي وأم أطفالي، والأمر خطير.

قالت له:

وأنا أيضاً زوجتك، وأم طفلك القادم، أم نسيتَ أني حامل منك؟

قال بقلق:

لم أنس، لكن ماذا تريدني أن أفعل؟

قالت جهاد:

تخبرها بزواجنا، وتختار هي ماذا تفعل.

اتسعت عيناه فقال:

لا، لا يمكن، أنت هناك ملكة وأنا كلي لك دون شريك، أما هنا
فليس الأمر بيدي، فلتنتظري حتى نعود، ولكل شيء ترتيب وميعاد.

قالت:

إذا كنت تريدني أن أنتظر، فلتنتظر أنت أيضاً ولا تأت إلى هنا.

قال عصام:

لا أستطيع البعد عنك يا جهاد، ألا تعلمين قدر حبي لك
وولعي بك.

قالت له:

قم واذهب الآن وعد لشقتك فقد تعود الهانم في أي وقت أو ربما تجدها قد عادت بالفعل فينتهي أمرك.

قالتها بسخرية، لكنه سمع نصيحتها فقام مسرعاً خائفاً، خرج من الباب بحذر وصعد بهدوء حتى دخل الشقة فوجد داليا لم تأت بعد وأن أطفاله أمل ونور ما زالوا نائمين فحمد الله واستعاد أنفاسه من جديد.

مرت أياماً ولا يرى فيها طرف جهاد ولا طيفها فاحتجبت عنه حتى يُدعن لرغبتها وتريد أن تعلم داليا بما حدث ولتذهب من هنا، فهي تطمع في شقتها بكل ما فيها، قد أصبحت شريكة لها في زوجها ولها مثل ما لداليا.

تعلم تعلقه بها فابتعدت لتزيد من شوقه واشتياقه، مرت عشرة أيام كاملة لم يرها فيها ولم ترد على اتصالاته حتى سلبت عقله فصار مجنوناً وفعل أفعال المجانين.

انتابته حالة اكتئاب كعادته، لم تتفاجأ داليا، فقد كانت معتادة على هذا، فالأدوية التي تخصص الاكتئاب تملأ الأدراج، فلم تسأل عن سبب حالته وتركته بعض الوقت مع أدويته حتى يعود لطبيعته، كعادة كل مرة.

لكنها لم تكن كذلك فهذه المرة سببها البعد عن المرأة التي تعلق بها بحق، كانت تُشبه والدته بطُلَّتْها وهيئتها، وخاف أن تتركه

كما تركته والدته فدخل في نوبة اكتئاب حادة لم يُجدِ معها دواء الطبيب لكن دواءه كان عندها هي، عند جهاد، لذلك قرر أن يبحث عن دوائه وشفائه فذهب يلقاها.

كانت داليا وأمل ونور كلهم بالشقة، أراد عصام أن يرى وجه جهاد، قام من على سريريه وعدّل هيئته وارتدى ثياباً جميلةً للخروج وقال لداليا:

سأخرج للقاء أعضاء اتحاد الملاك لنرى ماذا سنفعل قبل أن أسافر.

كانت في المطبخ فقالت له:

تمام، لكن لا تتأخر على الغذاء.

خرج وأغلق باب شقته خلفه ونزل ينظر إلى باب شقتها، وصل إليه ونظر للأعلى يراقب باب شقته، ثم رن الجرس.

سمع صوتها من خلفه تُناديه فأسقط في يده، قالت:

لماذا تقف عندك يا عصام؟ هل نسيت شيئاً؟

اتسعت عيناه وهو يُحدق في الباب أمامه يتمنى أن تبتلعه الأرض هذه الساعة فلم يستطيع الرد، لكن جاءه مَن رد عنه ورطته ففتحت أمانى الباب ورأته هكذا، ونظرت للأعلى فوجدت داليا، ففهمت ربكته، فقالت:

صباح الخير يا دكتورة داليا.

دكتور عصام، ربنا يبارك فيه، كان يطمئن على جهاد قبل سفره، فإسماعيل أوصاه بها حين سافرت معه ثم نظرت في عيني عصام، وقالت:

شكراً لك يا دكتور عصام، فلولاك لنالت جهاد تعباً ومشقة.

قال عصام بعد أن ابتلع ريقه الجاف:

لا شكر على واجب، فنحن جيران، وفي خدمتكم دائماً.

ثم انصرف خارجاً من باب العمارة، يخشى أن ينظر خلفه فترى دالياً في ملامحه ما يُبدي مصيبتها، أسرع السير حتى وصل لحديقة خالية من الناس فجلس على أحد المقاعد هناك يستجمع شتات نفسه ويُعيد تنظيم أنفاسه.

لم يمر هذا المشهد مرور الكرام على داليا، جعلها تفكر وتذهب بها الظنون كل مذهب، لم تكن تحب التفتيش وراءه بسوء نية لكنّها لا تحب أن يخدعها ولم تُرد أن تستبق الحكم عليه دون أن تسمع منه فانتظرت عودته على الغذاء.

عاد بعد قرابة ساعتين قضاها صامتاً في الهواء الطلق، تناول الغذاء مع أسرته، تنظر له داليا نظراتٍ فاحصة لعلها تصل إلى صندوقه الأسود، انتهى من طعامه فانتحى على كنبه في الصالون، بعد قليل تبعته بكوبين من الشاي الساخن وجلست بجواره ثم قالت:

لماذا وقفت هناك يا عصام؟

نظر لها مرتاباً وقال:

أين؟ ماذا تقصدين؟

قالت:

لماذا وقفت عند باب شقتهم؟

قال:

فقط لأطمئن على جهاد، كما ذكرت أمني ذلك.

داليا:

فقط؟ متأكد؟

عصام:

نعم فقط، إنها أمانة إسماعيل وزوجها أيضاً.

قالت داليا:

زوجها! وأين زوجها هذا؟ ألا يشتاق لزوجته ويخاف على
جنينه القادم؟

قال بتوتر:

ذاك شيء لا يعني، ذكروا أنه لا يستطيع النزول معها وطلبوا
أن أرافقها.

قالت:

ومن أين هو يا عصام؟ ألم تتعرف عليه؟

قال:

هو من محافظة كفر الشيخ.

قالت داليا:

تمام، ربنا يجمعهم ببعض قريباً، وينتهي بعادهم هذا.

قالتها بمكر وهي تنظر في عينيه، حاول أن ينهي هذا الاستجواب فقال:

دعينا من هذا، أريد الترتيب للعودة فلم يبق سوى أيام.

قالت:

كما تشاء، سنرتب كل شيء في وضعه الصحيح فلا تقلق.

انتهت إجازته فاستعد للعودة بعدما ترك بذور الشك تنمو في داخل داليا، عاد للسعودية من جديد وترك زوجته، زوجة تعاني آلام الحمل وتنتظر المخاض، وزوجة تُعاني من وساوس الشك وتنتظر البرهان، هرب منهما وذهب حيث وحدته على نفسه يفكر في كل شيء، ويترقب ويحذر مما يغيب عن علمه.



البرهان

هرولت أماني بجهد للمستشفى وأدخلوها للتخدير والولادة
وبعد ما يقرب من ساعة أو يزيد قليلاً خرجت جهاد من غرفة
العمليات وكانت قد سبقتها طفلتها فذهبت بها إحدى الممرضات
لغرفة الحضانات.

استقرت جهاد في غرفتها ومعها والدتها، بعد قليل جاءت
داليا وكانت أماني قد أخبرتها سابقاً، دخلت الغرفة فوجدت
جهادا ممددة على السرير فقالت لها داليا:

حمداً لله على سلامتك يا جهاد ومبروك عليك المولود
الجديد.

قالت جهاد بتعب:

الله يسلمك يا دكتورة.

قالت أماني:

لماذا أتعبت نفسك يا دكتورة داليا؟

ردت داليا:

لا يوجد تعب فنحن جيران وأهل.

قاطعهما صوت هاتف جهاد فصمتت داليا والتقطته أمانى
ونظرت فوجدت أن عصاما هو المتصل فارتبكت ونظرت لجهاد
وقالت وهي تضغط على حروف كلماتها:

زوجك يتصل يا جهاد، تحدثي إليه وانتبهي لنفسك، أقصد
انتبهي للمحاليل المعلقة في يدك.

نظرت جهاد لها ولداليا وهي تلتقط الهاتف ثم فتحت
المكالمة وقالت:

وعليكم السلام، الحمد لله أنا بخير، بعد يومين إن شاء الله.

ثم صمتت لحظات وقالت:

أمي موجودة معي وأيضاً جارتنا الدكتورة داليا التي أخبرتك
عنها، ست كلها ذوق وواجب.

فهم عصام الوضع فأنهى المكالمة سريعاً وأغلقت جهاد
هاتفها وقالت:

زوجي يرسل لك التحية يا أمي وكذلك للدكتورة داليا.

قالت داليا:

ربنا يكرمه، لكن ما اسمه يا جهاد؟

صدمها السؤال وارتبكت فكادت أن تنطقه فأدركتها أمانى
وقالت:

عاصم، اسمه عاصم يا دكتورة.

سألت داليا وقالت:

ومن أين هو؟

نظرت جهاد لأمني ترحوها أن تُجيب فقالت:

من الغربية.

داليا:

لكن عصاما قال: إنه من كفر الشيخ.

قالت أمني:

من الغربية، أليس كذلك يا جهاد؟

قالت جهاد:

بالضبط يا أمي، من الغربية.

أمني:

الغربية وكفر الشيخ جيران، وكل محافظات الدلتا في دائرة واحدة ليس بينها مسافات بعيدة ويمكن دكتور عصام فهم خطأ.

قالت داليا:

المهم أن جهادا بخير والحمد لله، أستأذن الآن فقد أتيت من الجامعة مباشرة إلى هنا، هل هناك أية طلبات أقضيها لكما؟

ردت أمني وجهاد في صوتٍ واحد:

شكراً يا دكتورة داليا، مع السلامة.

خرجت داليا وقد زرعت في قلوبهما بذور الشك الذي نما وترعرع في صدرها وعقلها وفهمت أن هناك شيئاً ما يخصها ويُدبر من ورائها وأن جهادا وأماني شريكتان في هذا الأمر، لكنها لا تعلم وتحاول أن تعلم.

عادت لشقتها بعد أيام قليلة تحمل وليدها التي أسمتها حنين، وانتظرت حتى تعود لزوجها في السعودية وبالفعل في غضون شهرين عادت لعصام ومعها حنين التي لا تُشبهه بل تُشبه جهادا في كل شيء، أحبها وكأنها أول مولود له، أحبها ظناً منه أنها الرباط الأبدي بينه وبين جهاد فلن تتركه وكأنه نسي ما حدث له في الماضي حين تخلت والدته عن أبيه رغم وجوده هو بينهما وكان أكبر من حنين لكنّه كان يمني نفسه بما تهواه فأحس بالسعادة وارتبط أكثر بجهاد التي استغلت تلك الفرصة لتطلب المزيد منه.

كان يتصل بداليا كعادته كل يوم قبل الظهر وهو في عمله حتى يكون في مأمن عن كل مغامرة، لم يبدُ عليه تغيير لكنّ داليا لم ترض بأن تنهشها الوسواس بعد رحيل جهاد، هل ما يدور برأسها قد يكون حدث فعلاً؟ حاولت أن تعرف لكن لا طريقة لها فلا قريب لها هناك يعرف أخبار زوجها ولا سبيل ولا مبرر لها لزيارته هناك.

اتصلت به ليلاً عبر النت مكالمة فيديو فارتبك حين رأى تلك المكالمة وغضبت جهاد وأكلتها الغيرة عندما رأت صورة ضرتها

تظهر على هاتفه، نظر لها فخاف وانتظر فلم يفتح المكالمه
وذهب لغرفة التمويه وجلس على سريره ثم اتصل بها وقال:

خير يا داليا؟ هل هناك شيء ما؟

قالت:

عاد، أردت أن أراك، كيف حالك يا عصام؟ لماذا لم تفتح
المكالمة؟

قال:

كنت نائماً منذ فترة وقد أيقظتني مكالمتك.

قالت:

لم أتوقع أن تنام مبكراً، معذرة يا عصام، أحببت فقط أن أراك.

قال:

لا عليك، أين أمل ونور؟

قالت:

ناما منذ ساعة تقريباً.

قال عصام:

هل هناك شيء ضروري؟

قالت:

لا

قال:

إذن سأُكلمك في الغد فلا أريد أن يهرب مني الناس،
تُصبحين على خير.

وتركها مندهشة متشككة فلم تهدأ أو تنم، بعد قليل اتصلت به
مرة ثانية فانزعجت جهاد أكثر وقالت له:

ماذا تريد منك؟ ألم تتحدث إليها منذ قليل؟

قال بتلعثم:

لا أعلم فقد يكون هناك أمر طارئ.

فعل كما فعل في المرة الأولى فأغلق المكالمة وذهب للغرفة
ثم اتصل وقال منفعلًا:

نعم يا داليا، ماذا هناك هذه الليلة؟

قالت بانفعال:

وأين أنت؟ لماذا تتأخر في الرد كل مرة وتغلق الهاتف ثم
تتصل؟ هل هناك ما تخفيه عني وتخشى كشف ستره؟

غضب فقال:

ما الذي دعاك لهذا الكلام؟ هل وسوس لك أحد بشيء؟

سمعت جهاد حوارهما واستفزها تصرف داليا وأرادت أن تضع
نهاية لهذا الوضع فاقترحت عليه غرفته وصدمته فصمت فجأة،

أحست داليا بالريبة فنادته فلم يُجب وأشار لجهاد أن تذهب فلم تفعل بل تقدمت بخطواتٍ واثقة مما تريد فحاول إخفاء الهاتف لكن جهادا فعلت ما لم يتوقعه فصرخت في وجهه وقالت:
لماذا تخاف منها؟ لم تفعل ما يستجلب الخجل؟ تزوجت كما أحل الله لك.

سمعت داليا صوتها فقالت بسرعة وغضب:

من هذه يا عصام؟ مع من تخونني؟

وضع وجهه بين يديه وأخذت جهاد الهاتف ونظرت لها وقالت:

أنا يا داليا، أنا جهاد زوجته كما أنتِ زوجته ولي فيه مثل ما لك فيه.

صدمتها المفاجأة وصدمتها جرأة تلك الفتاة فصرخت وقالت:

يا خونة، يا فجرة، أهذه من أغوتك يا عصام؟ أهذه من بعث أسرتك لأجلها؟ لعبتما بعقلي وبيتي وخدعتني أنت وهي طوال تلك الفترة؟ لعنة الله عليكما، حسبي الله ونعم الوكيل، اللهم انتقم لي منهما.

أغلقت جهاد الهاتف بعدما فعلت ما أرادت، كان عصام في ذهول مما يحدث فأصابه الخرس فلم ينطق حتى انتهت المكالمة ثم رفع رأسه ونظر لجهاد وقال:

هل بردت ناركَ الآن يا جهاد؟ هل هُداً بالك بعدما حطمتِ
كل شيء؟

قالت له:

فعلتُ ما جَبَّنت أنت أن تفعله فلماذا كل هذا التكتّم والتستر؟

قال في حزن:

هي عشرة عمري وأم أطفالي وأهلها هم أهلي.

أغاظها بما قال فصرخت في وجهه وقالت:

وأنا ماذا أكون لك؟ أليس بيننا عشرة؟ ألسنت أما لطفلتك؟

أليس أهلي هم أهلك؟ تساوينا في كل شيء فلنقتسم أنا وهي كل
شيء.

لم يرد عليها فقط عبس وجهه ونظر للأرض وتمتم فقال:

ربنا يستر وتنقضي هذه الغمّة على خير.



بـ

لم تنم تلك الليلة المُرعبة فقد أذهلتها الصدمة عن النوم
والنعاس ولم تصبر حتى الصباح لتقرر فقد اتخذت قرارها
وعقدت عزمها ولا رجعة فيما هي ماضية إليه.
فوراً اتصلت بأبيها تُخبره بمصيبتها وتعلمه بقرارها النهائي،
هاتفته قائلةً:

أبى، هل كنت نائماً فأزعجتك؟ أم ما زلت مستيقظاً؟
رد عليها منير فقال:

لم أنم بعد، ماذا هناك يا داليا؟ أطفالك بخير؟
قالت:

أريد الطلاق يا أبى.

صدمته فاعتدل بعدما كان متكئاً فقال مستفسراً:

ماذا تقولين؟ أي طلاق؟ ولماذا؟

قالت بتأكيد:

أريد الطلاق من زوجي، ألسنت من زوجني له؟ فطلقني منه
ألسنت ولياً لأمرى؟

قال منير:

ماذا حدث لكل هذا؟ زوجك الآن في غربة فماذا صدر منه لهذا الحد.

ضحكت ساخرة وقالت:

غربة! إنك طيب القلب يا أبي مثلي تماماً، الأستاذ مع زوجته وابنته.

قال منير:

أفصحني أكثر يا داليا، هل أفهم أن عصاما تزوج امرأة أخرى؟

قالت:

بالضبط، والمفاجأة ستصدمك لو عرفت من هي تلك الزوجة.

أثارت فضوله فسألها:

من هي؟

قالت:

جهاد بنت أماني أخت جمال زوج رانيا ابنتك.

صعقته بما سمع فلم يُصدق المفاجأة فسألها:

هل تأكدت من هذا يا داليا؟ قد تكون رواية كاذبة.

قالت:

رأيتها ورأيته في مكان واحد وصارحتني بما أخفاه هو علي.

أبي أرجوك أريد الانفصال بهدوء بعيداً عن المهاترات فلم
أعد أتحمل.

قال منير:

يا داليا لا يجب التسرع في هذه القرارات سأتصل أولاً بعصام
وأسمع منه.

استنكرت فغضبت وقالت:

هل ستنتظر حتى تسمع منه أسبابه ومبرراته؟ لن أراجع عن قراري.

قال منير:

سأتيك يا داليا فلا تتصرفي وأنت غاضبة.

بعد نصف ساعة تقريباً وجدت جرس بابها يدق فتحت
فوجدت أباه وأمه، دخلوا جميعاً وكان الليل قد انتصف،
جلسوا ثم قالت أميمة:

ماذا حدث يا داليا؟ حكى لي أبوك عن أشياء لا تصدق.

نظرت لها داليا وقالت:

ولم لا تصدقينيها يا أمي؟ هل لازال بمنزلة ابنك ولا تصدقين
فيه سوءاً؟

ردت أميمة:

يا داليا أنتِ ابنتي ولن أقبل أن يتجاوز عصام في حقك، فقط
أريد أن أفهم.

قالت داليا:

منذ أن سكنت أمانى في هذه العمارة وأنا أرى اهتماماً وتقرباً غير عاديين وكنْتُ أرى ذلك عادياً في أسرة يغيب عنها عائلها لكن للأسف كانت مصيدة للفريسة الضعيفة وخدعة كبيرة وصفعة لي لم أشعر بألمها سوى الآن.

أغرته ابنتها فاهتم بها وشغلت تفكيره وما إن سنحت لهما الفرصة حتى تزوجا، وأنا الساذجة الغبية التي كانت تساعد وتُبارك تلك الزيجة.

ثم استدارت لأبيها وقالت:

هل لازلت تريد سماعه يا أباي؟ هل خاف من فتنة الغربة فقرر أن يتحصن بالحلال؟ إنها جريمة مع سبق الإصرار وليست نزوة أغفرها أو أسامحه عليها.

همَّ أن ينطق فأشارت له أميمة أن يصمت فتورة داليا عارمة ولن تقبل النقاش ومرت تلك الليلة الكثيرة وغادر منير وأميمة شقة داليا قبيل الفجر بعدها سقطت داليا من فرط تعبها وإجهادها فنامت تنتظر أن يأتي النهار بحال جديد.

في نهار اليوم الثاني اتصل منير بعصام فسأله عما سمع من داليا، لم يُنكر عصام شيئاً مما قالته لكنّه حاول أن يُقدم بعض الأسباب التي دعت له هذا فلم يستمع له منير وألقى على سمعه قرار داليا بالانفصال والطلاق، دارت الأرض بعصام مما سمع ورجاه أن يُثنيها عن رأيها حتى يعود لمصر خلال أيام.



بركان

عاد عصام خلال أسبوعين ومعه أسرته الجديدة، دخلت جهاد شقة أهلها وصعد لشقته وفتحها فوجدها خالية فجلس وحيداً يفكر فيما يصنع ثم نزل لشقة أمني ليشكو لها ما فعلته جهاد، لكنه لم يجد تأنيباً أو معارضةً من جانبها بالعكس، كانت موافقة على تصرف جهاد وكأن الأمر كان بمشورتها، بل قالت له:

جهاد، زوجتك يا دكتور، مثلما الأخرى زوجتك، وكما أنت حريص على غضب زوجتك الأولى لا بد أن تشعر بتدمير جهاد، إنك تزوجتها سرّاً فلم تفرح وسط أهلها ولا صديقاتها ولم يكن لها شقة تستقر فيها هنا فلا تكن ظالماً.

اندهش مما سمعه فقال في غضب:

لكنّ ظروفك كانت معلومة لديكم وكان هناك اتفاق بيننا بكل تلك التفاصيل فهل تفاجأت الآن بهذه الأمور؟

ردت فقالت:

الآن الوضع تغير وصار لك منها بنت ولا بد لها من شقة خاصة تستقر فيها.

عصام:

قد كتبت لها ما أملك في مشروع اتحاد الملاك لكن لم ينتهِ المشروع بعد فأين أجد لها شقة الآن؟ ومن أين أدفع لها ثمنها؟

وهنا تدخلت جهاد فقالت:

الشقة موجودة وخالية ولن تدفع شيئاً.

قال في استغراب:

وأين هي؟

قالت جهاد:

شقتك في الدور الرابع فقد تركتها زوجتك ولن تأتِ إليها وسأسكن أنا فيها.

قال في غضب:

لكنّها شقة داليا وأطفالي فأين تسكن إن عادت؟

قالت جهاد:

لتعود لشقتها القديمة في منزل والدتك فتصبح لكل منا شقتها الخاصة.

صمت عصام لينظر لتلك الملامح على وجه جهاد وأمني وتأكد ظنه أن كل شيء تم الترتيب له سابقاً وأن الخطوات كانت مدروسة لنهاية السيناريو، فقال:

الآن تكشّف كل شيء، اتفقتما على خراب بيتي أنتِ ووالدتك
حتى تحصيلين على الشقة، أليس كذلك؟ فلم يكن الأمر صدفة
إذن.

قالت جهاد:

هذا من أبسط حقوقي كزوجة ولن أكون أقل من زوجتك
الأولى أبداً.

قال وهو يهز رأسه في أسي:

أنت شيطانة خبيثة وقد دمرت كل شيء، حسبي الله ونعم
الوكيل فيك.

وتركها واتجه لبيت منير عساه يُصلح بعضاً مما كسره في
قلب داليا. وصل فوجد الجميع هناك، منير وأميمة وداليا
والأطفال، استأذن فدخل وقال:

السلام عليكم.

رد منير:

وعليكم السلام، تفضل اجلس.

وما إن سمعت أمل ونور صوته حتى هرولا إليه واحتضناه
وقالا:

لقد عاد أبي يا أمي.

قَبْلَ أملا ونورا، وجاءت داليا فأشارت لأمل أن تأخذ نورا
للدخول، ثم قالت:

حمداً لله على سلامتك يا دكتور.

رد فقال:

الله يسلمك يا داليا.

قالت:

أرجو أن تُنفذ ما طلبته وما أخبرك به والدي، قرار الطلاق.

قال عصام:

يا داليا لا تتسرع فيبيننا عِشْرَةَ وأطفال.

قالت وهي تنظر إليه بغضب:

وهل صُنِت العِشْرَةَ أو تذكرت أطفالك؟ قد ذهبت بأنانية وراء
نزواتك.

قال:

قد أخطأت في حقك يا داليا ووقعت في خُدعة كبيرة،
فسامحيني.

قالت في دهشة:

والله! أتعني ما تقول حقاً؟ وهل اكتشفت ذلك بعد أن كشف
الله سترك؟

قال:

نعم، كنت مُغيباً عن الحقيقة فسامحيني ولنبدأ معاً من جديد.

زادت دهشتها فقالت:

هل أصابك الجنون؟ إن علاقتك بها منذ سنواتٍ طويلة، منذ أن تجاوزنا في تلك العمارة ثم تزوجتها وأنجبت بتاً منها، فهل تريد إقناعي أن ذلك كله خدعة؟ وأنت بريء وتلقي كل اللوم عليها هي، وتبرأ من جريمتك؟

صمت هو فأردفت وقالت:

أتظن ذلك في صالحك؟ إنك بتخليك عن زوجتك وابنتك الرضيعة ستكون في مكانة وضيعة عندي، أظنني ظالمة وغادرة مثلك فأقبل بعرضك هذا؟

عد لزوجتك وابنتك، أما أنا فقد اتخذت قراري ولا رجعة فيه، الطلاق.

رد عليها فقال:

لست أول المخطئين يا داليا فقد أخطأت من قبل وسامحتك، أم نسيت؟

ضحكت ساخرة وقالت:

توقعت أن يذكرني أحد بهذا يوماً، لكن، هل يتساوى خطوك بخطئي؟ قد قطعْتُ ما حدث معي قبل أن يبدأ، أما أنت فقد

عشتَ قصة غرام وعشق لسنوات ثم تزوجتها، كل هذا وأنت بعيد عن أسرتك التي أتحمل عبئها وحدي فلدي أطفال ولديّ عملي وأنا منهكة بين هذا وذاك، وأنت تقضي شهراً من العسل مع حبيبك وعشيقتك. فهل يتساوى خطئي مع جريمتك؟

أريد الطلاق ولا أريد أن يتضخم الوضع وتشوه صورتك أمام طفليك.

سكتت وصمت الجميع إلى أن جاءت من قطعت هذا الصمت، فقالت:

خير يا جماعة؟ أهلاً يا دكتور عصام، حمداً لله على سلامتك.
عصام:

الله يسلمك يا رانيا.

استقبلتها أميمة فقالت:

وأنت يا رانيا هل كان لديك علم بما حدث؟ ألا يعلم زوجك بهذا؟

قالت رانيا:

لم أعلم بالطبع، وهل لو علمتُ به سأقبل على أختي هذه الجريمة؟

سألها منير فقال:

وزوجك جمال؟

قالت:

سألته فور علمي فأنكر معرفته بالأمر.

قالت أميمة:

هل يُعقل أن تتزوج ابنة أخته من رجلٍ لا يعرفه؟ لا بد أنه متواطئ معهم.

تدخلت داليا فقالت:

لا يهمني معرفته أو إنكاره فقراري واضح ولن أحيّد عنه، الطلاق فقط.

لم تُجد محاولات الجميع لإثائها عن رأيها فصممت على الطلاق ورتبت حياتها بعيداً عن كل من أجرموا في حقها، توسل لها أبوها أن تبقى معه فرفضت أن تعود لسلطانة مرة أخرى وأخذت أملا ونورا معها لشقة جديدة، ورضخ عصام لرغبتها وإصرارها فحررها فتنفست هواءً نقياً نسيت مذاقه في أنفها منذ سنين.

أما عصام فقد عاد كما كان قبل أن يعرفها، فَقَدَ كل شيء، فَقَدَ الأسرة التي حَلَمَ بها وخسر الزوجة والأبناء ودخل في حالة اكتئاب لم تطقها جهاد ولم تُطق التشاؤم الذي يملأ المكان فأظهرت تبرمها من حالته وانزعجت من عبوسه فنهرته وقالت:

لا أريدك على هذه الحال فأنا أكره النكد والكآبة، أحب أن أعيش شبابي بفرحة وانطلاقة فلا تُفسد سعادتي وهنائي.

نظر لها حزينا ثم قال:

وكيف أكون سعيداً وقد حُرمتُ من أطفالي وتهدمت أسرتي
التي بنيتها طوال السنوات الماضية.

نهرته فقالت:

وما ذنبي أنا؟ هل غصبتك على الزواج مني؟ ألم تأتِ
وتتقرب وتترجى حتى أقبل أن أتزوجك؟ هل أتحمل أنا نتيجة ما
حدث.

قال:

وهل هذا جزاء حبي لك يا جهاد؟

قالت:

إذا كنت تحبني فلتحرص على سعادتي، لا أن تنشر كآبتك
وهومك في وجهي وإن كانت حالتك مستعصية فلتذهب لمكان
آخر حتى تعود لطبيعتك.

صدمته بردة فعلها وعدم قدرتها على تحمله فتذكر داليا وما
عانته من أجله في مثل هذه الحالات فلم تتخل عنه أو تُدير
ظهرها له رغم جفائه معها لكنّه هو الآن أصبح لا يطيق تدمير
جهاد كلما رآته فقرّر أن يترك الشقة ويذهب لشقته القديمة في
بيت أمه لعل ذكريات الليالي والسنوات الأولى التي قضاها مع
داليا في هذه الشقة تُخفف عنه بعض ما يجد الآن.



هواء

جلست في شرفتها على كرسي هزاز مسندة ظهرها تنظر إلى الشمس الهاربة محتمية بالمغيب ومصطبغة بجمرة الشفق، طالت نظرتها وسبح فكرها في سنين عمرها التي ولت، وهربت دمعة سريعة من عينيها لم يرها أحد ولم يحسها إلا خدها، حارة لزجة تحاول الهرب من جفون طالما حبست دموعا ولم تطلق لها سراحا.

وراحت تفكر فيما حدث مع زوجها الذي اختارته أو اختارها وأحبها كما يدعي لكنها الآن لا تدري حقيقة هذه الحقيقة، فالواقع يصرخ بملء فيه ويقدم براهينه واحدا تلو الآخر أن ما حدث لم يكن حباً أو شغفاً بل كان شيئاً آخر لم تدركه حينها لحدثة تجربتها أو لتشوش تفكيرها أو بسبب هؤلاء الذين تطوعوا لإسعادها لكنهم تركوها وحيدة تواجه مصيراً غامضاً حيناً وقاسياً أحياناً أخرى.

مدت يدها لفنجان قهوة أمامها قد برد من هواء المغيب ونسيت أنه أمامها منذ جلست فأخذت منه رشفة ونظرها مستغرق في الأفق كأنما تنتظر شيئاً من السماء أو قادما من الفضاء يأخذ بيديها ويذهب بعيداً حيث لا كآبة ولا هموم ولا ذكريات.

والذكريات وآه من الذكريات فكلما ألحّت على خاطرها
سالت مدامعها واختنقت أنفاسها ورأت الأبواب التي كانت
محكمة الإغلاق كثيرة ولن يكسرهما سوى هازم اللذات لتحرر
الروح من سجنها ويطير العصفور بعيداً عن قفصه لينعم بالراحة.

فكانت الحواجز تزيد بزيادة الأيام والسنين، تشعر بروحها
تُسحب إلى بئر عميقة لا ترى نهايتها، تؤلمها مشقة السفر وتتمنى
نهاية الرحلة، ليس لها أنيس يشعر بما تشعر وإن صرّحت بما فيها
قابلت استهجان الحكيمات من صديقاتها ممن بلغوا سنّها ولهم
من الأبناء مثل ما لها، بنت وولد.

شربت قهوتها بتلذذ وهناء فقد كان لها بالقهوة شغف وصحبة
فلا تبدأ يومها بدونها وكأنّها خمرتها التي تذهب عقلها عن
عالمها رغم أنّها من المنبهات.

تركت الشرفة متجهة لغرفة أبنائها لإيقاظهما من نومهما بعد
يوم دراسي مرهق كي يستعيدا نشاطهما ويستذكرا دروسهما بعدما
أصبحت لهما أما وأبا.

كانت والدتها أميمة قد فاجأها المرض قبيل طلاقها من عصام
ثم زادت حدته بعد هذا الانفصال المؤلم الذي أدى لانفصال
والديها عمن كان يوما ما في مكانة ابنهما المفقود فاستعدت
وهيأت أطفالها لزيارة جدتهما ثم خرجت من شقتها لتستقل أول
سيارة توصلها لبيت أبيها.

بعد قليل وصلت لشقة أبيها ودقت الجرس ففتح لها والدها
ورحب بها وأشار لها أن تدخل لغرفة النوم حيث الأم مريضة
على سريرها مثقلة الرأس تبدى عيونها إرهاقا وتعباً وتنبئ عن
أرق وسهر وطول تفكير.

استقبلت ابنتها وحفيديها دامعة العينين قائلة:

أهلا حبيتي داليا، كيف حالك يا ابنتي؟

ردت داليا بقلق:

بخير يا أمي والحمد لله لا تشغلي علينا اهتمي أنت بصحتك.

سلمت على حفيديها أمل ونور وحضنتهما وقالت: اذهبا مع
جدكما منير فقد أعد لكما مفاجآت جميلة، وأشارت لزوجها أن
يأخذهما للخارج ففعل.

جلست داليا على طرف السرير تنظر لأمها بقلق ثم قالت:

خير يا أمي؟ تفاجأت بما أرى من حالتك الآن؟

ردت أميمة بتعبٍ وأنفاس مرتجفة ودموع منهمة فقالت:

أنا بخير يا ابنتي لكن المرض جاءني فجأة وأخاف أن أموت
وأنت لم تسامحيني.

قالت داليا:

لم تقولين هذه الكلمات يا أمي؟

قالت أميمة:

داليا، أنا وأبوك فرضنا عليك اختيارنا وكنا نرى أنه الأفضل لك ولم نهتم بمشاعرك أبداً ولا برغباتك.

ظلمناك ولم ننظر خلفنا وأثرنا رغبتنا وغلبتنا الأنانية بل وسَلَّمناك قلوبنا راضية وشفاهنا باسمه وقلنا كسبنا بزواجك ابناً لنا عوضاً عما مضى.

سامحينا يا ابنتي فأنا معذبة من أجلك وأبوك أيضاً سامحيه هو لم يقصد لك إلا الخير حتى وإن لم يصبه.

سمعت داليا كلمات أمها بذهن شارد وعيون متسعة مطرقة إلى الأرض صامتة مندهشة، لا تدري كيف تجيب أمها.

فهل تسامحها فعلاً؟ هل قلبها الممزق بقيت له قدرة على السماح؟ لقد فقدت الكثير من براءتها من فرط ما رأت من قسوة أهلها.

فهل تسامح ظالميها وإن كانوا أبويها؟

أليست هذه أنانية منهما؟ يريدان السماح حتى ينجيا في الآخرة من سؤال ربهما: لم ظلمتما هذه؟ وماذا جنت لتجنبا عليها؟

إنهما فقط يريدان النجاة، يدمروننا في حياتنا الدنيا لرغبة لهما ثم يسعيان لحياة أخروية في جنات النعيم.

فهل نسامح ظالميها؟ أم ننتظر العدل الإلهي لإنصاف المغلوبين على أمرهم؟؟

ألم يسمعا قديما: (اتقوا الله في الضعيفين المرأة واليتيم)
وقد كنت طفلة بريئة وأصبحت صبية جميلة تأمرا عليها وغلباها
على أمرها والآن أنا امرأة تموت وتحيا كل يوم لم تذق طعم
الحياة بل وتستعجل طعم الموت.

ومنذ ذلك اليوم حين قرر أبواي التخلص مني رأيتني يتيمة بل
أقل حظاً من الأيتام الذين يحنو عليهم الرحماء عوضاً عن
والديهم، أما أنا فوالداي على قيد الحياة يتسمان لي ويتزاوران
معي كأن شيئاً لم يكن.

قد جمعت إذن كلا الضعفين ضعف المرأة وضعف اليتيم فلم
يرحما ذلك الضعف بل يطلبان مني السماح والعفو لئلا في
الآخرة ما وعد الله به عباده المتقين.

هل أضعف لضعف أمي وهي تصارع آلامها على فراش
المرض ويدق قلبي براً وحناناً وعطفا عليها؟

لم أنس يا أمي وكأن ما فعلتماه بي كان بالأمس القريب، أنا
ممزقة بين بر أبوي وبين روح أزھقها أقرب الناس لها.

لا أعلم هل بقي لدي قدرة على السماح أم لا؟ أريد القصاص
من الظالمين ليرتدع الباقون ولا أريدهم أن يحطموا الضعفاء
ويغلبوهم على أمرهم.



سكن

أحست براحة لم تعهدها من قبل وشعرت بزوال ضغوطها
الجاثمة فوق صدرها منذ اثنتي عشرة عاماً قضتها أسيرة وحيسة
لدى عصام.

وأقبلت على الحياة بروح منطلقة مُفعمة بالأمل والتفاؤل
وذهبت لعملها فجاءتها زميلتها دكتورة زهراء مُرحبةً بها بعد
إجازة لمدة طويلة قضتها داليا في ترتيب أوضاعها، فجلست
معها في الصباح تشرب قهوتها المقدسة ثم قالت زهراء لها:

ماذا عندك الأسبوع القادم يا داليا؟

ردت داليا:

لماذا تسألين؟ هل هناك شيء؟

قالت زهراء:

نعم هناك مؤتمر في القاهرة وأريد منك أن ترافقيني في هذه
الرحلة.

قالت داليا:

أي مؤتمر؟

ردت زهراء فقالت:

هيئة الدواء في القاهرة ستعقد مؤتمراً يُناقش مستقبل صناعة
الدواء في مصر، ألا يهتمك هذا الأمر؟

قالت داليا:

تعلمين وضعي الآن يا زهراء بعد الانفصال فأمل ونور معي
طوال الوقت ولا أستطيع تركهما وحدهما، اذهبي أنت.

زهراء:

هذه فرصة لك يا داليا تشعرين فيها بالتغيير فسنرى وجوهاً
جديدة ونتابع أخبارا حصرية وأمل ونور يمكن أن تتركيهما في
بيت جددهما ذلك اليوم.

قالت داليا:

دعيني أفكر وأرتب أموري.

قالت زهراء:

ستذهبين معي يا داليا فلن أذهب بدونك، رتبي أوضاعك
على هذا، اتفقنا؟

ابتسمت داليا لها وقالت:

اتفقنا.

كانت زهراء قد علمت بكل ما حدث مع داليا فقد كانت
صديقة مقربة منها بعدما عادت من الخارج لتستأنف وظيفتها

كأستاذة في الكلية وساعدتها في أزمتهادعمها نفسياً ومعنوياً في ترتيب حياتها حتى تجاوزت محتتها، وجاءتها دعوة حضور المؤتمر من زميلها وصديقها الغائب دكتور شهاب الذي ترك مصر منذ ما يقارب ثلاثة سنوات والذي فاجأها باتصاله تلك الأيام فقال:

مرحباً يا دكتورة زهراء، كيف حالك؟

سمعتة فصمتت قليلاً ثم قالت بفرحة:

شهاب! أهلاً يا دكتور، كيف حالك، من زمان لم أسمع صوتك.

قال شهاب مشاكساً كعادته:

ها أنا قد عدتُ مجدداً وأكاد أسمع صدى صوتك الآن يهمس ويقول: عودة الابن الضال.

ضحكت وقالت:

بالعكس يا شهاب أنا سعيدة جداً فأنت تعرف قدرك عندي، المهم قل لي: أي ربح أت بك؟

قال في دعابة:

رياح شمالية غربية من ألمانيا مروراً بسواحل البحر الأبيض المتوسط.

قالت وقد استفزها:

ألن تتغير يا شهاب؟ هذا الطفل الذي بداخلك ألا يكبر يوماً؟

قال وهو يضحك:

أبدًا، سأظل هكذا فالحياة تستحق أن نحياها ولا للحنن وأهلاً
بالسعادة.

قالت:

أدام الله سعادتك يا سيدي، أخبرني الآن، كيف عدت؟ ولأي
سبب؟

قال:

سأرسل لك دعوة لحضور مؤتمر هيئة الدواء في القاهرة
وهناك ستعرفين كل شيء.

قالت زهراء:

بل دعوتين يا شهاب.

قال:

ولماذا الطمع؟

قالت بجدية:

واحدة لي والأخرى لداليا، أتتذكرها؟

صَمَتَ يعود بالذكريات مع داليا فكيف ينساها وما هرب إلا
بسببها فلم تُفارقه أبداً أينما رحل وحيثما حلَّ، فَرَحَ بسماع اسمها
وتمنى لو يراها لكنَّه ما زال يخشى عليها وعلى نفسه من هذا
اللقاء لكنَّه قال لزهاء:

قد لا تكون داليا متفرغة لهذا المؤتمر يا زهاء.

ردت لتفاجئته فقالت:

بالعكس، لديها الوقت وهي بحاجة لهذا التغيير لتخرج من
حالتها الأخيرة.

قال مستفسراً:

ماذا تقصدين بحالتها الأخيرة؟ أخبريني ماذا حدث لها؟

قالت:

داليا انفصلت عن زوجها منذ فترة وأريد لها أن تتنفس هواءً
جديداً.

لم يكن يتوقع أن يحدث هذا أبداً فقد كانت داليا مثلاً
للزوجة الصابرة التي تتحمل كل شيء في سبيل الحفاظ على
كيان أسرتها، تساءل في نفسه: كيف حدث هذا؟ لكنَّه لم يشأ أن
يبدو فضولياً أمام زهاء فقال لها:

كما تشائين يا زهاء، سأرسلُ لك دعوتين لكن بشرط.

قالت:

ما هو شرطك؟

قال:

ألا تخبري داليا بأمرى، أريد أن أفاجئها.

ضحكت وقالت:

ألم أقل لك: الطفل الذي بداخلك لن يكبر أبداً وكما تشاء فلن أخبرها فعساها أن تكون مفاجأة سارة لها.

أنهى المكالمة وهو في حالة لا يدر لها تفسيراً، فهو سعيد لدرجة لم يكن يتوقعها، دمعت عيناه من الفرح ونظر للسماء ليشكر الله على أقداره التي لم تكن في حساباته، فحينما ظن أن كل شيء مغلق ومحال جاءه الفتح لتكسير الأغلال، فها هي داليا أصبحت حرة وها هي الظروف تجمعهما ثانية وقد يسعدا هذه المرة بعدما ذاقا مرارة الفراق والبعاد منذ سنوات لم ينس وجهها ولا ابتسامتها فيها أبداً.

أخبرت داليا والدتها بذهابها لهذا المؤتمر وكانت أميمة قد تعافت قليلاً من المرض الذي داهمها منذ شهور فاستردت عافيتها وما إن ذهب داليا إليها وطلبت منها أن تعتني بأمل ونور حتى طمأنتها والدتها بالأقل تقلق ولتذهب وترى الحياة من جديد.

ومع إشراقة يوم الأحد تقابلت مع زهراء وذهبتا سوياً للقاهرة لحضور المؤتمر، وصلتا مبكراً فلم يكن هناك فعاليات بدأت

وبعد قليل بدأ الحضور يزداد شيئاً فشيئاً حتى اكتمل الحشد وجاء منسق المؤتمر ليلقي كلمة افتتاحية قال فيها:

صباح الخير، أهلاً وسهلاً بالحضور الكريم في مؤتمر هيئة الدواء لمناقشة مستقبل صناعة الدواء في بلدنا الحبيبة مصر وسنفتح المؤتمر بكلمة للرئيس الجديد لهيئة الدواء المصرية.

صمت الجميع ينتظرون ومن بينهم زهراء وداليا وفجأة ظهر أمامها على منصة المؤتمر يتقدم بخطواته الواثقة وقامته المستقيمة فرأته واندحشت وقالت لزهراء:

من هذا؟ أليس هذا شهاب؟ أم أنه يشبهه؟

نظرت زهراء ناحيته وقالت:

إنه شهاب فعلاً، فأين يتجه الآن.

لم تطل تساؤلاتهما طويلاً، فقد وصل للمنصة ووقف ووجهه للجمهور وقال:

صباح الخير، اسمي دكتور شهاب مروان، ويسرني أن أرحب بكم في هيئة الدواء في أول مؤتمر أحضره وأنا رئيساً لها، فأهلاً بالجميع ونتطلع لمشاركات حضراتكم لنخرج بنتائج إيجابية للمؤتمر إن شاء الله.

صفق الجميع تحيةً له، لكن داليا وزهراء قد تفاجأتا بكلماته، قالت داليا لزهراء:

هل كنتِ على علم بهذا يا زهراء؟
ردت زهراء وهي تنظر إليه فقالت:
لم أكن على علم بمنصبه الجديد، والله شيء رائع فشهاب
يستحق الكثير.
قالت داليا:

إنه يستحق بالفعل، لكن كيف ومتى حدث هذا؟
استمر شهاب في كلمته للحضور، ثم بدأت الفعاليات
بمحاضرات لبعض الضيوف من خارج مصر وداخلها ومن
رؤساء شركات الدواء العالمية والمحلية.
سَرتَ فيها فرحة ملأت قلبها وروحها عندما رأته ولم تُنكر
ذلك فابتسمت حين رأته بهيئته وثقته وانطلاقه المعهود فلم يتغير
ولم تعبث به السنوات، إنه كما هو، فهل قلبه كما هو؟ أم تغيَّر
وتبدَّل؟ أم هناك من شغله واحتواه؟ دارت في رأسها أسئلة كثيرة
لم يعلم بها غيرها ممن حولها لكنها كانت سعيدة وهذا يكفيها.
انتهى اليوم الأول وقامت داليا وزهراء لتخرجا من القاعة لكنَّ
زهراء قالت لها:

ألا يجدر بنا أن نذهب لشهاب ونهنئته على منصبه الجديد؟
صمتت داليا ولم تدرِ بماذا تُجيب فقالت لها زهراء:
تعالى لنذهب لمكتبه ونقدم له التهاني، إنه زميلنا القديم ولن
يتغير علينا.



شفاء

رغم منصبه الجديد والكبير ورغم ترتيبات المؤتمر الكثيرة والمزدحمة فلم يفته أن يراها ليفاجئها وهو يتسم كعادته معها قبل سنين كلما رأى دهشتها من مفاجأته تلك فقبل صعوده المنصة كان قد جال ببصره في الحضور فوجدها تجلس بجوار زهراء في الصف الثالث مشغلة بالمكان منهمكة بالحديث مع زهراء فصعد للمنصة وعينه تجاه الحضور لكنّها تقصد داليا وحدها وكأنّها الوحيدة التي تجلس أمامه، رآها ورأته فابتسم بمكره المعهود حين رأى صدمتها ظاهرة على ملامحها التي ارتبكت بين الدهشة والفرحة فوقفت بينهما حائرةً إلى أيّهما تميل.

أنهى كلمته ونظراته تغتال خجلها بين حينٍ وآخر وخرج من القاعة يقابل بعض ضيوفه فلم تره ثانيةً وتمنت أن تراه لتسأله عشرات الأسئلة ولمّا أن أشارت عليها زهراء بالذهاب إليه لتهنئته لم تُمانع بل تلهفت على أي سبب لتراه ويرأها فذهبت مع زهراء حتى وصلتا لمكتبه، طرقت زهراء الباب فسمعت صوته يسمح لها بالدخول ففتحت الباب وقالت:

مساء الخير سعادة الرئيس.

ابتسم وقام من على كرسیه وقال:
أهلاً وسهلاً ومرحباً يا دكتورة زهراء وكيف حالك يا دكتورة
داليا؟

قالت زهراء:

أهلاً بك يا دكتور شهاب، تهانينا على المنصب الجديد.
شكرها ونظر لداليا يتشوق لسماع صوتها الذي غاب عنه
سنوات فلم تحرمه من هذا فقالت:

حمداً لله على سلامتك أولاً يا دكتور شهاب ومبروك على
منصبك الجديد فأنت تستحق كل الخير، بالتوفيق دائماً.

زادت ابتسامته فلمعت عيناه وقال:

كم أنا سعيد برؤيتكما الآن، فرحتي بتلك الزيارة والمفاجأة
أكبر من سعادتي بمنصبي.

قالت زهراء:

يا سلام على الكلام يبدو أن هذا المنصب يتبع لوزارة
الخارجية فالدبلوماسية واضحة جداً في الكلمات.

ضحك شهاب كثيراً ثم نظرت لها داليا وقالت:

انتظري يا زهراء، إنه يقول سعيد بالمفاجأة وكأننا نحن
من فاجأناه والواضح أنه أستاذ في المفاجآت، أليس كذلك
سيادة الرئيس؟

ضحك وقال في دعابة:

هذا قليل من كثير والحمد لله قد أنعم الله عليّ بمواهب شتى.

قالت زهراء:

يا سلام على التواضع فلن تتغير أبداً يا دكتور ومرحك جزء من شخصيتك.

قال:

قصديك، غرورك جزء من شخصيتك.

قالت داليا:

لست مغروراً ولكنك مجتهد وواثق من نفسك وقد قالوا قديماً: من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر.

قال شهاب:

الحمد لله، وشهد شاهد من أهلها.

قالت زهراء:

أخبرنا يا دكتور كيف وصلت إلى هنا؟ نتشوق لسماع القصة.

قال شهاب:

ليست قصة طويلة وسأحكى لكم باختصار ففي خلال الثلاث سنوات الماضية منذ أن عدت لألمانيا لعملي هناك في

الجامعة فقد وفقني الله في أبحاث هامة ومتفردة مع كوكبة من كبار العلماء في هذه المجالات فحصلت على شهرة هناك بسبب النتائج التي توصلتُ إليها ونلت درجة الأستاذية بسرعة وقد تم ترشيحي لبعض الجوائز هناك ونلت بعضها بالفعل.

قالت زهراء:

هذا صحيح بالفعل، فقد اطلعت على كثير من أبحاثك وكانت فعلاً جديدة ومُلفتة، تفضل أكمل يا دكتور.

قال:

تصادف في مؤتمر برلين العام الماضي وجود بعض المسؤولين المصريين هناك ورأوا كم الحفاوة بأعمالي وأبحاثي وقد تم تكريمي في المؤتمر.

بعد شهرين على هذا المؤتمر وجدت بعض الرسائل تأتيني من بعض هؤلاء المسؤولين يطلبون مقابلي في مصر، وبالفعل جئت لتلبية طلبهم في إجازة قصيرة ثم خلالها ترشيحي لهذا المنصب.

ترددت وطلبت مهلة للتفكير ثم وافقت على أمل أن أضيف شيئاً جديداً يخدم المجتمع.

قالت داليا:

لم يُضع الله جهدك يا دكتور شهاب وقد أعطاك ما تستحق.

رد وقال:

شكراً لك يا دكتورة داليا والحمد لله على كل حال.

قالت زهراء:

مرة أخرى ألف مبروك وربنا يوفقك واسمح لنا بالاستئذان.

قال شهاب:

إين سندهبان؟ المؤتمر سيستمر ثلاثة أيام.

قالت داليا:

ليتنا نستطيع البقاء لكن هناك واجبات أخرى.

أراد أن يتحدث إليها على انفراد وفهمت زهراء هذا- فكان قد
ألمح لها قبل ذلك- فقالت لداليا:

داليا، سأذهب للمكتبة المجاورة ثم آتيك بعد قليل، انتظريني
حتى أعود.

قالت داليا:

لكن لا تتأخري فوراءنا سفر.

خرجت زهراء، فقال شهاب لداليا:

داليا، أفتقدك كثيراً فلم أنساك يوماً رغم بعدي عنك فلنكمل
ما بدأناه.

نظرت له مندهشة وقالت:

نُكمل ماذا؟

قال:

قد علمت بكل ما حدث فقد أخبرتني زهراء بكل شيء
وأرجوك لا تفرقي بيننا بعدما جمع الله شتاتنا.

قالت:

تقصّد ماذا؟

قال:

الزواج يا داليا، أريدك رفيقة لي طوال عمري.

قالت:

أنت متزوج يا شهاب وأنا لا أفكر بالزواج مرة أخرى فقد
أخذتُ حظي منه.

قال:

قد انفصلت عن زوجتي منذ سنتين والآن أحيا وحيداً فلم
تملاً واحدة أخرى الفراغ الذي تركته.

قالت:

قد خضتُ تجربة مريرة لم أذق فيها سعادة بل تجرعت فيها مرارة
ال فشل وليس لدي طاقة لتكرارها مرة أخرى، فدعني يا شهاب.

قال شهاب:

الحياة جديرة بأن نحياها يا داليا فالأرواح المنطلقة المبدعة
تكره سجون الحزن والهَمَّ فلتنطلقِي من جديد وتعيشي وتسعدي
فالقادم سعيد والماضي بعيد.

ابتسمي يا داليا من جديد للمستقبل ولن تندمي أبداً سأكون
عِوضاً لك عن كل ما مضى.

ابتسمت وقالت وهي تنظر لعينيهِ اللامعتين:

أنت كما أنت يا شهاب لا تكلّ ولن تملّ ولن تتراجع عن
إصرارك، أعلمك جيداً، دعني بعض الوقت أفكر لأتخذ قراراً.

قال مبتسماً:

لن يكون العقل سيد المرحلة القادمة فيكفيه فترات حكمه
السابقة والآن جاء دور القلب ليحكم فلنعطه فرصة فقد ينجح
فيما فشل فيه العقل.

قالت:

سأمنحه تلك الفرصة يا شهاب عسانا لا نندم على اختيارنا
لحكمه.

ابتسم ابتسامة كبيرة ثم قال بصوتٍ عالٍ:

تعالِي يا زهراء فقد نجحت الخطة.

دخلت زهراء تضحك وتقول:
هل تمت الخطة يا معلمي؟ ألف مبروك يا سيدي.
تفاجأت داليا بزهرء وقالت:
هل اتفقتما علي أنت وشهاب؟
رد شهاب وزهراء في صوت واحد:
نعم بالضبط.
ضحكت وضحكا معها، وانتظرت أملاً وغداً أفضل مما لاقت
في ماضيها الحزين.

الفهرس

3	إهداء
5	بناء
23	بشينة
37	آسيا
71	سجال
91	المواجهة
99	المؤامرة
111	الصدمة
135	صدع
143	التثام
151	مرحلة جديدة
155	لقاء من الماضي
171	فرحة
179	الحفلة
185	قههر

201	نضوج
207	الجامعة
219	شوقي
223	تَمَلُّكُ
231	تَفْتُّح
239	لقاء
245	رءوف
251	صفا
259	العنكبوت
265	الوالد
271	غادة
279	حسم
287	قرار
293	أحلام
299	سباق
307	صراع
315	السند
323	خيانة

333	وَحْدَة
339	قَدَر
347	المفاجأة
357	ضياح
365	الثور الأبيض
373	استسلام
385	رباط
393	أمل
399	نقر
405	المرض
411	اليأس
417	العودة
423	غيرة
427	نور
435	جيران
439	إشارة
447	شهاب
453	جهاد

461	اقترب
479	بريق
485	تخطيط
491	الجريمة
497	غدر
503	الضربة
513	البرهان
521	بتر
525	بركان
533	هواء
539	سكن
547	شفاء